



غابرييل غارسيا ماركيز



بلا قيود

مقالات صحفية ١٩٧٤-١٩٩٥

ترجمة

هبة العطار و جيهان حامد



«المكتبة الرقمية العربية»

*Gabriel García
Márquez*



Por la libre
Obra periodística 4
1974-1995

MONDADORI
BIBLIOTECA GARCÍA MÁRQUEZ

غابرييل غارسيا ماركيث

بلا قيود

مقالات صحفية 1974-1995

نقله عن الإسبانية

جيهان حامد أبو زيد

هبة أحمد نبيل العطار

دار الفارابي

الكتاب: بلا قيود

المؤلف: غابرييل غارسيل ماركيز

نقله عن الإسبانية: هبة العطار و جيهان حامد

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 - الرمز البريدي: 1107 2130

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الأول 2017

©جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونيا عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.

تقديم

قد يكون غابرييل غارسيا ماركيز الشهير بـ «غابو» غنياً عن التعريف بالنسبة إلى كثيرين من القراء العرب الذين يتلقفون بشغف روائعه، ومنها على سبيل المثال «مئة عام من العزلة» و«الحب في زمن الكوليرا» و«خريف البطريق». وقد يكون معظم هؤلاء القراء مطلعين على أعمال غارسيا ماركيز الروائية، باعتباره أحد أهم أدباء أميركا اللاتينية الحائزين جائزة نوبل، لكنهم غالباً أقل متابعة لأعماله الصحفية بما أن معظمها أو كلها (فيما نعلم) غير مترجم إلى العربية. هذا مع العلم أن غارسيا ماركيز في الأساس صحافي من الطراز الأول قبل أن يكون روائياً عظيماً. لذا نقدم هذه الترجمة لمجموعة من المقالات الصحفية التي كتبها غارسيا ماركيز بين عامي 1974 و1995.

والحقيقة أن بعض الأسباب التي دفعتنا إلى ترجمة تلك المجموعة هي، كما قلنا، أهمية الإنتاج الصحفي لغابرييل غارسيا ماركيز وعدم توافر ترجمة لمقالاته بالعربية، إلا أن السبب الأهم هو أن القارئ العربي سوف يتمكن من خلال هذه المجموعة من الوقوف على تداخل لغة السرد الأدبي المميزة لغارسيا ماركيز مع لغته الصحفية، ويطلع على رؤية ماركيز إلى أحداث فاصلة في تاريخ أميركا اللاتينية، وهي رؤية قد يجدها القارئ صالحة تماماً لقراءة الكثير مما دار ويدور في وطننا العربي، ولا سيما منذ اندلاع حركات الاستقلال العربية في القرن العشرين، ثم اندلاع ثورات الربيع العربي في القرن الواحد والعشرين.

1. أميركا اللاتينية: قارة الثورات الخمس

عندما نتحدث عن الديمقراطية المأمولة في الوطن العربي تكثر الإشارات إلى التجارب الرائدة لشعوب أخرى استطاعت أن تتخلص من أنظمتها الشمولية وترسي قواعد الديمقراطية الحقة مثل شعوب شرق أوروبا وأميركا اللاتينية. وسوف نركز هنا على أميركا اللاتينية ليس لكونها محور معظم مقالات غارسيا ماركيز التي يشتمل عليها المجلد الذي نترجمه فحسب، بل للشبه الكبير بينها وبين العالم العربي من حيث الأحوال السياسية والاجتماعية، بل والدينية على

امتداد التاريخ. ففي العقود الأخيرة، تمكن كثير من بلدان أميركا اللاتينية من التوصل إلى إرساء نظم ديمقراطية، غير أن هذا إنما تيسر بعد مرورها أولاً، بمراحل عدة من النضال الناجح أحياناً والفاشل أحياناً أخرى. ولعلنا نلاحظ في تجارب أميركا اللاتينية أنه كلما كانت حركات التغيير سلمية ومدعمة بمنظومة فكرية وعلمية كانت أكثر فاعلية ونجاحاً. بينما نجد أن معظم حركات التغيير التي لجأت عمداً أو كرهاً إلى القوة العسكرية طالما انتهت بها الحال إلى الانزلاق في فخ العنف بموجاته المدمرة التي لا تنتهي. فضلاً عن ذلك بمقدورنا أن نلاحظ، إلى جانب الحركات السياسية العديدة والانقلابات العسكرية المتكررة، تفجر خمس ثورات كبرى خلال القرن العشرين وحده في قارة أميركا اللاتينية، وهي: ثورة المكسيك وثورة كوبا وثورة التعليم والثورة الدينية وثورة أهالي القارة الأصليين.

نود فيما يلي أن نعرض باختصار كلاً من تلك الثورات الهامة حتى يتسنى للقارئ غير المتابع تفصيلاً لأحوال أميركا اللاتينية أن يلم بأهم المؤثرات السياسية والاجتماعية التي شكلت مجتمعاتها كي يتمكن من الوقوف على الأبعاد العميقة في مقالات غارسيا ماركيز الصحفية المترجمة هنا، وسوف تتجلى من خلال استعراضنا الموجز لتلك الثورات عدة نقاط رئيسية.

أولاً، إنها على الرغم مما شاب بعضها من قصور حققت إنجازاتٍ استطاعت مجتمعات القارة الاحتفاظ بها على الرغم من كل ما واجهته من عراقيل.

ثانياً، إن انحراف أي من تلك الثورات عن مسارها جاء نتيجة لتشتت الجبهات السياسية الداخلية، أو لمحاولة إحدى فصائل تلك الجبهات الانفراد بالسلطة وإقصاء الآخرين.

ثالثاً، إن التغييرات الإيجابية طويلة الأجل قام عليها مفكرون ومتفقون أثرت أعمالهم في إدراك شعوب القارة ووعيها فهيأتها للعمل على إحداث تلك التغييرات وليس مجرد انتظار حدوثها.

رغم أن القارئ سوف يجد أن غابرييل غارسيا ماركيز يشير مراراً وتكراراً إلى ثورة كوبا في مقالاته المترجمة هنا إلا أنه من الصعب فهم الثورة الكوبية دون وضعها أولاً في سياق ثورة حاسمة أخرى كانت قد سبقتها في مطلع القرن العشرين، ألا وهي ثورة المكسيك التي تعد بحق نقطة بداية جميع الثورات والحركات الإصلاحية التالية في القارة. والحقيقة أن الثورة المكسيكية سبقت ثورة روسيا البلشفية ذاتها إلى محاولة تطبيق القيم الاشتراكية، فكان من أهم ما سعت إليه هو تأمين البترول المكسيكي الذي طالما سيطر عليه الأميركيون، وإرساء قوانين الإصلاح الزراعي، كما كانت من أولى ثورات القرن العشرين إرساءً وضماناً لحقوق العمال،

ومن أكثرها عملاً على تقليص نسبة الأمية. غير أن ما علينا أن نعيه هو أن أيّاً من إنجازات تلك الثورة لم يتحقق من دون عراقيل. وتجدر الإشارة إلى كيفية اشتعال تلك الثورة ولا سيما لتشابه مقدماتها مع مسببات ثوراتنا العربية الأخيرة. فلقد أشعل فتيلها المناضل فرانثيسكو ماديرو من أجل التخلص من الحكم الديكتاتوري لـ بورفيريو دياث الذي ظلّ قابلاً في السلطة لما يربو على ثلاثين عاماً، وهي فترة قد تكون البلاد حققت خلالها إنجازات اقتصادية هامة، إلا أن عائد تلك الإنجازات طالما أفادت منه النخبة الحاكمة والدوائر اللصيقة بها دون غيرها. وكنظرائه من الشموليين، ظلّ بورفيريو دياث يراوغ طويلاً بشأن عزمه الترشح لفترة رئاسية أخرى. وكغيره من الدكتاتوريين عمد أيضاً إلى التخلص من كل من يهدد مشروع استمراره في السلطة، فألقى بفرانثيسكو ماديرو في السجن، لكن الأخير تمكن من الفرار ودعا لإطاحة بورفيريو دياث بالقوة، فانبعثت بهذه الطريقة شرارة الثورة من شمال المكسيك، وسرعان ما لاقت صدى عبر أرجاء البلاد، فتكونت قوات مختلفة تحت قيادات متفرقة. فما كان من بورفيريو دياث أمام هذا الحراك المجتمعي إلا التخلي مضطراً عن الحكم مفسحاً المجال لماديرو. لكن لم ينتهِ الأمر بهذه البساطة. فالقوات المختلفة النائرة في ربوع المكسيك كان لكل منها حساباته الخاصة، ومن ثم خرجت ثورة مضادة قامت بانقلاب عسكري أطاح ماديرو ونصب ويرتا في الحكم بدلاً منه، ثم سرعان ما انشقت على هذا الأخير فصائل ثورية أخرى. وهكذا توارت الأهداف الأولى السامية للثورة واضطرم الصراع طويلاً بين الفصائل المختلفة. فالريف المكسيكي انقسم منذ بداية الثورة تحت قيادتي فرانثيسكو فييا في الشمال وإمليانو ثباتا في الجنوب. كما انقسمت القوى السياسية في الحضر بين الحكومات المتتالية بجيشها الفيدرالي من جهة، والمعارضة بقواتها المقاتلة، من جهة أخرى. فأُسفر ذلك كله، بطبيعة الحال، عن انحسار الاستقرار واستشراء العنف ما كان يزيد مهمة الحكومات المتتابعة صعوبة في توفير المناخ اللازم للاستثمارات. وبينما الحال الداخلي على هذه الصورة كانت الولايات المتحدة متربصة على الحدود الشمالية تترقب عمليات التأميم والتوجه الاشتراكي الذي كان يكسب أرضاً في المكسيك التي تعد أولى جاراتها من الجنوب. ولم تألُ الولايات المتحدة جهداً في محاولة إحباط الثورة وتطويق التغيير، سواء عن طريق الضغط السياسي المباشر أو بواسطة القوى الناعمة. ومن الأمور الكاشفة في هذا الصدد تحديداً هو ما مارسته قوى السياسة في واشنطن من ضغط بواسطة مدينة السينما هوليوود، إذ وجدت إحدى شركات الإنتاج السينمائي ضالة واشنطن المنشودة في شخص الزعيم المكسيكي فرانثيسكو فييا، زعيم منطقة الريف الشمالي. وكان الأخير قد انتبه مثل زعماء المكسيك السياسيين الآخرين لأهمية السينما التي كان العالم لما يزل حديث العهد بها في تلك الفترة التاريخية. وأدرك مثل غيره أهمية تصوير المعارك

والخطب السياسية في تكوين صورة ذهنية لدى الجماهير يسهل من خلالها استقطابهم. بل إن فرانثيسكو فييا لم يقف إدراكه واستخدامه للكاميرا عند مجرد تصوير أفلام توثيقية، بل تعدى ذلك إلى محاولة الظهور بشخصه في أفلام سينمائية روائية (صامتة). وكان هذا بالضبط ما استغلته شركة سينمائية أميركية تدعى Film Mutual فعقدت معه في عام 1914 صفقات تضمن ظهوره في أفلام روائية عن معاركه. وبينما كان الزعيم فييا يهدف من جانبه إلى إيصال صورة الواقع المكسيكي إلى المواطن الأميركي، كانت شركة الأفلام الأميركية، إلى جانب ما حقته من أرباح خيالية من وراء تلك الأفلام، توصل للمواطن الأميركي انطباعاً يدعم الصورة الذهنية السلبية عن الثورة المكسيكية بوصفها ثورة ارتجالية، الأمر الذي صب في مصلحة واشنطن التي أرادت أن يدعم شعبها سياساتها المناهضة لتلك الثورة. لكن، وبعيداً عن هذا كله، لم يكن مصدر الخطر الحقيقي على الثورة المكسيكية هو الخارج فقط، بل الداخل أيضاً. فعلى الرغم من أن العاصمة والمدن الكبرى كان فيها الكثير من المتعلمين، كانت الأحوال المتردية في الريف تسهل انقياد الكثيرين وراء زعماء من أمثال فرانثيسكو فييا في معارك لم يكن الكثير منها محسوباً أو حتى منطقياً مثلما كان حال غارته التي شنها على إحدى المناطق الواقعة في جنوب الولايات المتحدة، فشنت تابعيه على حساب الثورة الإصلاحية واستجلب تدخلاً من الولايات المتحدة لا طائل للبلاد به. لكن على الرغم من كل تلك السلبيات، علينا أن نعترف أن ما بدأ كاعتراض على استمرار دياث في السلطة سرعان ما أفرز حركة ثورية سياسية ومجتمعية وزراعية وفنية متكاملة. وتعالى الأصوات منذ اندلاع الثورة في 1910 منادية بوضع دستور جديد، وإن كان ذلك لم يتحقق سوى في عام 1916 بعدما جاء برلمان يمثل كل أطراف المجتمع السياسية ومن كل فئاته المهنية والعمالية، فصاغ دستوراً صالحاً. ولعل إحدى أهم الحقائق الأساسية الواجب عدم إغفالها هي النخبة المثقفة التي لعبت دوراً حاسماً في تشكيل مجتمع ما بعد الثورة في المكسيك، وكان من أبرز مفكريها الكاتب والفيلسوف خوسيه لويس فاسكونثيلوس الذي كتب مطولاً عن إصلاح التعليم في المكسيك، وكان من أبرز أعماله على الإطلاق مؤلف عنوانه «السلالة الفلكية» الذي تناول فيه مسألة الأجnas والأعراق محاولاً تحليل أسباب خضوع شعوب أميركا اللاتينية طويلاً للمستعمر الأسباني. والواقع أن المراجعة التي قام بها فاسكونثيلوس وغيره من مفكري القارة لمسألة الهوية اللاتينية أميركية كانت مجهوداً أتى ثماره دون شك، فلقد توالى السنوات وجاء كارلوس فوينتس، أحد أعظم روائي المكسيك وأبرز ممثلي حركة الـ boom الأدبية، وأقر في كتابه «المرأة المقبورة» الصادر عام 1992 بأن الهوية اللاتينية أميركية بلغت مرحلة عالية من النضج سمحت لها باستيعاب كل مقوماتها، سواء تلك المستقاة من أهالي البلاد الأصليين أو من الأسبان أو من

الساميين، عرباً كانوا أو يهوداً، أو الأفارقة والمهاجرين، استيعاباً انعكس على مناخ التعددية الذي اتسمت به مجتمعات القارة. واليوم وبعد ما يربو على المئة عام من الثورة المكسيكية نجد أن مرحلة البناء والعمل لم تنته، فلم تزل المكسيك تعاني مشكلات خطيرة معوقة للتنمية.

إن القيم الاشتراكية التي بدأت بشائرها في الثورة المكسيكية ترسخت تماماً باندلاع ثورة روسيا البلشفية بأيدولوجيتها الماركسية التي كانت أحد أهم الروافد الفكرية الخارجية لثورة كوبا 1959. أما الروافد الداخلية الملهمة للثورة الكوبية فكان منها أعمال المفكر الكوبي خوسيه مارتى الذي كان قد سبق نظيره خوسيه فاسكونثيلوس في المكسيك في تناول مسألة الأجناس والأعراق؛ فكوبا كانت على مدى تاريخ الحكم الأسباني أهم قاعدة لتجارة الرقيق ما أثرى الجزيرة بالعرق الإفريقي إلى جانب أهالي البلاد الأصليين والبيض المتحدرين من المستوطنين الأسبان أنفسهم. والطريف أن كوبا كانت من أولى أراضي القارة التي وطئها كريستوفر كولومبس وصارت فيما بعد أيضاً، آخر أرض لاتينوأمركية انحسر عنها الاستعمار الأسباني عام 1898. وظلّت تتعاقب على كوبا منذ ذلك التاريخ حكومات محلية غير مستقرة حتى تولى فلورنثيو باتيستا السلطة فرضت البلاد في عهده تماماً للولايات المتحدة وتعمقت الفجوة بين الأغنياء والفقراء، الأمر الذي استدعى القيام بثورة 1959 التي أجبرت باتيستا على الفرار، وهو الحدث التاريخي الذي سنجده مذكوراً مراراً بصورة مباشرة أو غير مباشرة في مقالات غارسيا ماركيز المترجمة في هذا الكتاب. أما أهم ما قامت به تلك الثورة فهو حركة التأمينات الواسعة، والعناية بالتعليم، والنهوض بالرعاية الصحية، ما انعكس على خفض معدلات الأمية وتوفير رعاية صحية عالية الجودة. لكن من اللافت للنظر أن القائمين على الثورة استأثروا بالسلطة في جميع المجالات بحجة الحيلولة دون فشل مسار الإصلاح إن هم أشركوا آخرين. ولقد عللوا موقفهم الإقصائي هذا، كما هي عادة كل الساسة الإقصائيين في أميركا اللاتينية أو غيرها، بأنه إنما يهدف إلى منع تدخل الأيدي الخارجية للعبث بالشأن الداخلي. ومن ثم اتخذوا هذا التعليل ذريعة لعدم إجراء انتخابات نزيهة. ثم توالى كل أشكال مصادرة الحريات ما أدى إلى انقسام الجبهة المجتمعية والسياسية الداخلية، فهذا فريق يداهن سلطة الثورة، وذاك فريق يتغنى بالعودة إلى أيام ما قبل الثورة، وذلك فريق ثالث يؤثر الفرار إلى خارج البلاد. لكن ظلّ الحال على ما هو عليه طالما نعمت كوبا بحماية الاتحاد السوفياتي، فلما انهار هذا الأخير في التسعينيات صارت في وضع لا تحسد عليه. لكن على الرغم من هذه الجوانب السلبية، فالحال في كوبا شابه نظيره في المكسيك بعد الثورة من حيث حدوث زخم ثقافي وإبداعي وفكري منقطع النظير، فكان روبرتو فرناندث ريتامار من أهم المفكرين الذين شكلوا الوعي والوجدان في كوبا ما بعد الثورة ولا سيما في كتابه «كالبيان» الذي

أعاد فيه قراءة رواية «العاصفة» لشكسبير محلاً دور كاليبان، أي الوحش الذي استعبده واستغله بروسبيرو دون رحمة في الجزيرة النائية التي ضل فيها، رغم أن كاليبان كان صاحب الفضل في تعليم بروسبيرو كيف يعيش في تلك الجزيرة. فربط الكاتب الكوبي في كتابه بين بروسبيرو وبين المستعمر الأوروبي وبين كاليبان وشعوب أميركا اللاتينية في محاولة منه لإعادة قراءة التاريخ والهوية اللاتينوأميركية بصورة تسمح بإعادة رسم ملامح تلك الهوية وتحريرها. وبالطبع فإن مثل هذه الكتابات ساهمت بشكل فعال في تشكيل وعي الشعب الكوبي في مرحلة ما بعد الثورة محاولة تحريره من كل أثر سلطوي سواء كان محلياً أو خارجياً، فمثلما ذكرنا آنفاً، كانت كوبا أولى أراضي القارة وقوعاً في يد المستعمر الأوروبي وآخرها تحرراً منه.

على أي حال لا يجوز الحديث عن التغيير الديمقراطي في أميركا اللاتينية من دون الإتيان على ذكر دور الفكر والتعليم في التمهيد لذلك التغيير. فلعلنا نلاحظ كيف أقبل المثقفون العرب في العقود الأخيرة بشغف على النهل من كتابات الواقعية الخيالية اللاتينوأميركية التي كانت من أسباب تحقيق أدب أميركا اللاتينية الصيت العالمي منقطع النظير الذي حققه منذ النصف الثاني من القرن العشرين. لكن ربما لا يعلم جميعنا في الوطن العربي أن هذا الدوي الإبداعي مهدت له حركة الـ Modernismo الأدبية منذ أواخر القرن التاسع عشر. وهي تعد البداية الرسمية للإبداع الأدبي والفكري اللاتينوأميركي المستقل عن التبعية الأوروبية. وقد يهمننا نحن في الوطن العربي الآن أن نعلم أن ذلك النجاح الأدبي وتلك الاستقلالية الإبداعية إنما يعود مصدرهما إلى حركة إصلاح التعليم التي ترجع نشأتها في أميركا اللاتينية إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، والتي انطلقت شرارتها على يد طلبة الجامعات الذين طالبوا باستقلالية الجامعة عن السلطة السياسية، الأمر الذي ظلّت حكومات كثير من دول القارة تراوغ بشأنه حتى أقرّته دساتيرها. وأدّى حراك الطلبة في الجامعات إلى إقرار حكومات تلك الدول مبدأ تداول السلطة داخل الجامعات وجعل الوظائف الجامعية خاضعةً لمبدأ الإعلان والكفاءة، وربط مناهج التعليم والبحث العلمي بحاجات المجتمع، ودعم التعاون المشترك بين دول القارة.

أما تلك الدعوة للتعاون بين دول أميركا اللاتينية فتنتطق، مثلما هو الحال في وطننا العربي، من خلفية التاريخ المشترك واللغة الرسمية المشتركة (الأسبانية) إضافة إلى الديانة الرسمية المشتركة (الكاثوليكية). وهنا يلزم التذكير بأن نشر الديانة المسيحية كان الحجة التي اعتمدتها الإمبراطورية الأسبانية لتبرر شرعية غزوها للعالم الجديد واندفاع جنودها لإبادة أهالي البلاد الأصليين، وقد تمكنت من فرض المسيحية الكاثوليكية بالقوة في القارة، فأصبحت الديانة

الرسمية لمعظم رعاياها هناك، وإن ظلّ كثير من قبائل أهالي البلاد الأصليين محتفظين بديانات ما قبل الكشف الكولومبي. ثم تأثرت كل تلك المعتقدات بما أتى به فيما بعد الأفارقة من أفكار دينية حين استجلبتهم أسبانيا كعبيد إلى العالم الجديد. ولكن ظلّت الكنيسة الكاثوليكية صاحبة سلطة وسطوة في جميع دول القارة إلى أن انقلب الحال رأساً على عقب ساعة الاستقلال عن المملكتين الأسبانية والبرتغالية. عندئذٍ وجدت الكنيسة في أميركا اللاتينية نفسها في مواجهة التيارات الليبرالية الداعية إلى فصل الدين عن الدولة. ومثلما هو الحال في وطننا العربي، فإن كثيراً من رجال الدين حاولوا إقصاء الليبراليين بحجة أن الليبرالية ما هي إلا مفهوم غريب على مجتمع القارة. كما وجدت الكنيسة فيما بعد نفسها في مواجهة التعددية الدينية التي بدأت تزداد مع اشتداد عود أهالي البلاد الأصليين الذين لم يندمجوا تماماً في النسيج المجتمعي الذي فرضه الأسبان على القارة وآثروا الاحتفاظ بمعتقداتهم ولغاتهم حتى سنحت لهم الفرصة لإعلاء صوتهم مطالبين بحقوقهم بعد سقوط الحكم الأسباني. وقد شهدت القارة منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً وحتى الثلث الأول من القرن العشرين، محاولات متعاقبة من قبل دولها للعمل على الفصل بين الدين والدولة، ولم تعد الكنيسة كمؤسسة تلعب دوراً محورياً في الحياة السياسية كما كان الحال إبان الحكم الأسباني، وإن كان هذا لم يحل دون ظهور أحزاب سياسية تركز على مبادئ المسيحية في جميع دول القارة. ولم تعن عملية فصل الدين عن الدولة إقصاء الدين، إنما عدم استغلاله كمظلة في اللعبة السياسية لإقصاء الآخرين أو السيطرة عليهم بحجة امتلاك الشرعية. وقد شهدت القارة عملية مراجعة للخطاب الديني ساهمت في إرساء مبادئ الديمقراطية ودعمت ممارستها في مختلف دولها.

إن عودة أهالي البلاد الأصليين للظهور بقوة ومطالبتهم بحقوقهم كان من أهم ما واجهته الكنيسة والمجتمع اللاتينوأميركي خلال عملية التحول إلى الديمقراطية. فقد تضافرت أصوات أهالي البلاد الأصليين وجهودهم عبر كل دول القارة في حركة إصلاحية ثورية هدفت إلى إعادة تأصيل الهوية الذاتية للقارة والتطهر من سلبات الحكم الأسباني والمركزية الأوروبية. وبالطبع اكتسبت تلك الحركة قوتها، خصوصاً في دول كالمكسيك وغواتيمالا والأكوادور وبيرو بما أن تلك الدول تضم العدد الأكبر من أهالي البلاد الأصليين. ولقد لعبت هذه الحركات دوراً محورياً في ترسيخ مبدأ التعددية وثقافتها داخل المجتمع اللاتينوأميركي ما انعكس إيجاباً على عملية الديمقراطية. ولقد ساهم الروائيون خصوصاً، في دعم هذه الحركة وانتصارها، ومن أبرزهم ميغيل أنخل أستورياس في غواتيمالا وهو الحائز على جائزة نوبل، ومن أشهر أعماله رواية «رجال من ذرة» التي يتناول فيها أهالي البلاد الأصليين ومعتقدهم الراسخ بأنهم مخلوقون من الذرة.

إذن، نخلص من استعراضنا لتلك الثورات الخمس إلى حقيقة هامة وهي أنّ الديمقراطية في أميركا اللاتينية جاءت كثمرة لمشوارٍ طويلٍ وجهدٍ حثيثٍ نضج خلاله المجتمع اللاتينوأميركي على جميع الصعد وعلى مستوى جميع فئاته.

2. الصحافة الأدبية

تحمل مجموعة مقالات غابرييل غارسيا ماركيز التي تقدمها هذه الترجمة بعض ملامح أسلوب الصحافة الأدبية (Literary Journalism) التي طالما استخدمها كاتب أسبانيا وأميركا اللاتينية وروائيوها المعاصرون في كتابة أعمالهم. وهو أسلوب شبيه بما يُعرف بأسلوب الـ (Journalism New) الذي انتهجه بعض مبدعي الأدب الأنكلوساكسوني، ولاسيما عندما اشتهر منذ ستينيات القرن العشرين على يد توماس وولف أو ترومان كابوتي في الولايات المتحدة. وقد تميز هذا النوع الأخير من السرد بالاعتماد على أسلوب الريبورتاج الذي يتيح للكاتب فرصة جمع عدد كبير من المعلومات الموثقة ثم سردها بأسلوب أدبي يسمح له بترتيب الأحداث بصورة تلفت نظر القارئ لكنها لا تتعارض مع حقيقة الوقائع. وقد أقبل مبدعو الثقافة الأسبانية واللاتينوأميركية على الصحافة الأدبية التي يذوب فيها التوثيق التاريخي في ثنايا الخيال والوصف الأدبي. وعلى العكس من نظرائهم في الثقافة الأنكلوساكسونية الذين غالباً ما يعتمدون على أسلوب الـ reportaje فإن كتاب اللغة الأسبانية تميزوا في كتابة الـ crónica. ويرى الباحثون في علم الآداب الأسبانية أن هذا النوع من السرد، أي الـ crónica، خاص بعالم الأدب الناطق بالأسبانية. فعلى العكس من الكاتب الأنكلوساكسوني الذي يسرد الوقائع انطلاقاً، أولاً وأخيراً، مما هو موثق، فإن الكاتب الأسباني أو اللاتينوأميركي يميل إلى وصف المتخيل حيال ذلك الواقع، ولعلّ أول مقالات هذه المجموعة المترجمة خير مثلٍ على هذا الأسلوب.

صدر خلال عام 2012 كتابان أولهما عنوانه «مقتطفات مختارة للمقالات السردية في الصحافة المعاصرة بأميركا اللاتينية» للكولومبي داريو خاراميو آغوديلو وثانيهما عنوانه «أفضل من الخيال القصصي» للأسباني جوردي كاريون. ويتناول المؤلفان أفضل المقالات الصحفية التي تميزت بطابعٍ توثيقيٍّ أدبيٍّ والتي نشرت في أسبانيا وأميركا اللاتينية في السنوات الأخيرة. ولعلّ صدور هذين العملين في الوقت نفسه حول الموضوع نفسه لهو مؤشرٌ على الأهمية المتصاعدة التي يحظى بها هذا النوع من الكتابة في عالم الآداب باللغة الأسبانية، ولا سيما في أميركا الجنوبية، لدرجة وصف هذه الموجة الإبداعية بالـ boom بما أنها تدوي

هذه المرة لا عبر الرواية، كما كان الحال في أواسط القرن المنصرم، إنما عبر الصحافة. ويُعزى تطور هذا النوع من الكتابة في أميركا الجنوبية إلى عاملين رئيسيين هما الحداثة والنظم القمعية. فكما يوضح أنيبال غونثالث،¹ لجأ كتاب القرن التاسع عشر من أمثال إنريكة رودو في أورغواي أو سارميينتو في الأرجنتين إلى هذا النوع من الكتابة أملاً منهم في إرساء قيم الحداثة عبر القارة التي كانت في طور تحررها من الحكم الاستعماري الأسباني. كما دفعت نظم الحكم السياسي القمعية التي توالى على القارة في القرن العشرين الكتاب إلى مزج التعبير الأدبي بالتوثيق الصحفي في محاولة منهم لمقاومة القمع والظلم المستشريين في مجتمعاتهم. وقد بلغ هذا النوع من الكتابة أوجه على يد أدباء حركة الـ boom الأدبية من أمثال غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتيس وماريو فرغاس يوسا وغيرهم، وهم الذين برع أغلبهم في الكتابة الصحافية بقدر نبوغهم في كتابة الرواية. واللافت للنظر أنه في العام نفسه المشار إليه آنفاً، أي 2012، صدرت ثلاثة مجلدات جامعة للكتابات الصحفية التي نشرت على مدى نصف قرن لماريو فارغاس يوسا وهو أحد أبرز روائي البيرو وأميركا اللاتينية الذين ساهموا في حركة الـ boom الروائية. ويقول فارغاس يوسا إن للصحافة الفضل في انهماك فيض إبداعه الأدبي، ويذكر تحديداً أن أحد أهم أعماله وهو «حوار في الكاتدرائية» (1969)، ما كان ليرى النور لولا تجاربه الصحفية التي هيأته لتأليفه.²

3. غارسيا ماركيز: ابن الكاريبي بين الصحافة والأدب

إن غابرييل غارسيا ماركيز هو أولاً وأخيراً، ابن منطقة الكاريبي. فعلى العكس من مناطق أخرى في أميركا اللاتينية كالأرجنتين مثلاً أو الأوروغواي، تتميز منطقة الكاريبي بوجود أربعة عناصر عرقية كبرى. فهناك: أولاً، أهل البلاد الأصليون الذين ينتمون إلى حضارات ومجتمعات ما قبل مجيء كريستوفر كولومبس في العام 1492. ثانياً، هناك الأفارقة المنحدرون من العبيد الذين أتى بهم المستعمر الأسباني من إفريقيا إلى أميركا اللاتينية لاستخدامهم في فلاحه الأرض بعد أن تسبب الأسبان بانقراض أهالي البلاد الأصليين سواءً عن طريق الإبادة الممنهجة أو انتشار الأمراض نتيجة سوء الأحوال المعيشية التي أتاحوها لهم. ثالثاً، هناك المنحدرون من أصول إسبانية، ولعلّ بعضهم حافظ على نقاء دمه الأسباني، غير أنّ أغلبهم اختلط بالأعراق الأخرى. رابعاً، هناك المهاجرون الذين يرجع تاريخ وجودهم في القارة إلى القرن التاسع عشر، وهم يختلفون من منطقة إلى أخرى، فقد نجد في كوبا مثلاً غالبية

عظمى من المهاجرين الصينيين، وقد نجد في هوندوراس جالية كبيرة من المهاجرين العرب، وقد نجد في توباغو غالبية من الهند، إلخ. ومن المهم أخذ هذا النسيج المجتمعي الكاريبي في الاعتبار فما به من تعددية ثقافية (عرقية ودينية) عميقة يختلف عن التعددية التي نجدها في بلد كالأرجنتين مثلاً، حيث تمت إبادة معظم أهالي البلاد الأصليين كجزء من سياسات التطهير العرقي خلال فترة ما بعد الاستقلال التي أعطت أولويةً آنذاك لاستجلاب المهاجرين الأوروبيين البيض دون غيرهم. وبالتالي فإننا قد نجد أنّ المركزية الفكرية الأوروبية والفكر الاستعلائي الأبيض أقلّ وطأةً في منطقة الكاريبي نتيجةً لانصهار الكثير من الأعراق الملونة بصورة أو أخرى في بوتقة المجتمع. ولعلّ انصهار تلك الثقافات شديدة التباين في منطقة الكاريبي تفسر أيضاً، التراث الفولكلوري الصاخب في تلك المناطق، وتفسر روح السخرية اللاذعة التي يَتميّز بها أهل تلك البلاد بصورةٍ قد تختلف جذرياً عما هو حال أهل بلدان أخرى في القارة كتشيلي مثلاً، حيث يغلب على أهلها طابع شبيه بطابع التحفظ الإنكليزي.

إن غابرييل غارسيا ماركيز، كما ذكرنا آنفاً، صحفي بامتياز. ولعلّ أكثر ما يؤكد علاقته الوثيقة بالصحافة هو إنشاؤه مؤسسة غابرييل غارسيا ماركيز للصحافة الإيبيروأمركية الجديدة³ ومقرها كولومبيا. وهي مؤسسة تعمل على دعم الصحافة والمعايير المهنية والإبداعية المتعلقة بها وتطويرها ورعايتها في كل بلدان أميركا اللاتينية. ولقد عكفت هذه المؤسسة أخيراً، على تأليف كتاب جديد عنوانه «الصحافي غابو» وقد صدر في 2014. ويحوي الكتاب الذي يقع في حوالى 512 صفحة دراسةً أعدتها كوكبةٌ من أبرز الكتاب والصحافيين في أميركا اللاتينية عن الخصائص المميزة لكتابات غابرييل غارسيا ماركيز الصحفية ومنها مثلاً استعاراته البلاغية الخصبة وسخريته اللاذعة.

وقد ظلّ غارسيا ماركيز في بدء مشواره الصحفي يكتب طويلاً تحت اسم مستعار. فعلى سبيل المثال، في الفترة الممتدة من كانون الثاني/يناير 1950 إلى كانون الأول/ديسمبر 1952 نشر قرابة أربعمئة مقال تحت الاسم المستعار «Septimus». وإضافةً إلى البلاغة والسخرية، فقد تميز أسلوب غارسيا ماركيز الصحفي بالمفاجأة في سرد الأحداث. كما تميز بميله إلى استخدام عنصر الـ Information-Counter أو المعلومة المضادة التي كان غارسيا ماركيز يتحدّى بها التغطيات الصحفية الرسمية التي طالما تملّوها السلطة السياسية أو القوى صاحبة المصالح المسيطرة محلياً أو دولياً.⁴ وقد انعكست ملامح أسلوبه الصحفي تلك على كتابته الروائية لذا نرى أن نعرض في السطور التالية ثلاثة أمثلة من أعماله الروائية التي تجسد امتزاج أسلوبه الصحفي بأسلوبه

القصصي الروائي، وهي: «بحار السفينة المحطمة»، و«حكاية موت معلن»، و«مغامرة رجل مستتر في تشيلي».

أما رواية «بحار السفينة المحطمة»، فقد نشرت للمرة الأولى عام 1955 في صورة رواية مسلسل من أربعة عشر جزءاً في جريدة *El espectador*. وكما تقول آنثيون ريفاس فيلادكس⁵ فإنّ تلك الرواية مستلهمة من قصة حقيقية تحكي نجاة أحد البحارة ويدعى «لويس غارسيا فيلاسكو» من غرق إحدى السفن الحربية. كان غارسيا ماركيز صحفياً مغموراً بالجريدة المذكورة عندما قام بإجراء الحوار مع ذلك البحار وهو نفسه الحوار الذي صار مادة تلك الرواية المسلسلة التي نشرت في المرة الأولى لا باسم غارسيا ماركيز، إنما باسم لويس غارسيا فيلاسكو نفسه باعتباره الراوي البطل للقصة. ووفقاً للرواية الرسمية التي أذاعتها السلطات الكولومبية عن الحادث، فإنّ إحدى السفن التابعة لقوات البحرية الكولومبية وعُرفت باسم المدمرة Caldas كانت قد تعرضت لأحوالٍ جوية سيئة للغاية تسببت في جنوح السفينة وغرق أفراد طاقمها جميعاً عدا لويس غارسيا فيلاسكو الذي صارع الموت مدة عشرة أيام متواصلة حتى تمكن من الوصول إلى شاطئ مدينة كارتاخينا الكولومبية. وعندما ذاع خبر نجاته، احتفت به وسائل الإعلام في بادئ الأمر، لكن ظلت السلطة حريصة ألا يصل إليه أيّ من ممثلي الصحافة المستقلة، إلّا أن غارسيا ماركيز كعادته تمكن من التوصل إليه وأجرى معه ذلك الحوار الذي استغرق عشرين جلسة استمرت كل منها ست ساعات كاملة. وأثناء ذلك الحوار كان غارسيا ماركيز يتعمد أن يطرح على فيلاسكو أسئلةً مركبةً ومتناقضةً كي يقف على حقيقة الأحداث ولا سيما مسألة العاصفة التي ضربت السفينة الحربية، فتحصل من فيلاسكو على إجابة مفادها أن السفينة لم تغرقها عاصفة، بل هبت عليها ريح عاتية تسببت في تحرك شحنة كبيرة من الأدوات الكهربائية الاستهلاكية من مكانها على ظهر السفينة الأمر الذي تسبب باختلال توازنها وغرقها. وهنا أيقن غارسيا ماركيز أن قصة نجاة هذا البحار وغرق زملائه إنما تخفي وراءها قصة فساد كبرى بما إن القانون يحرم أن تنقل السفن الحربية أية بضائع استهلاكية، وأن الشحنة كانت مهربة بعلم السلطات الرسمية. وكانت هذه الحقيقة هي ما حرص غارسيا ماركيز بحسه الصحفي والأدبي أن يضمنها في نسخة الرواية التي نشرت عام 1955. وتلقت السلطات ما نشر وتبين لها مخالفته للرواية الرسمية التي طالما حرصت هي على ترويجها، فسارعت إلى إغلاق الجريدة وسعت إلى إسكات البحار وعملت على إبعاد غارسيا ماركيز بإرساله للعمل في أوروبا. وعلى الرغم من كل تلك المحاولات البائسة من جانب السلطات، إلّا أن الصياغة الصحفية الأدبية التي أحكمها غارسيا ماركيز عن ذلك الحادث نجحت في إثارة الرأي العام حول الفساد الذي تميز به حكم الديكتاتور الكولومبي غوستافو

روخاس بنينيا آنذاك، ما كان له دور حاسم في إطاحة حكمه،⁶ وهذا ما ثبت عندما نشرت تلك الرواية عام 1970 حاملة للمرة الأولى اسم كاتبها الحقيقي، أي غابرييل غارسيا ماركيز.

أما الرواية الثانية التي يتجلى فيها تأثير الحس والأسلوب الصحفيين في سرد غارسيا ماركيز فهي «حكاية موت معلن» التي طالما احتفى بها النقاد والقراء لأسلوبها الروائي الشائق ومضمونها البليغ متوقفين طويلاً أمام البناء الدائري لنصها الروائي ومنبهرين بعبقريّة الكاتب الذي تمكن من إشغال اهتمام قارئيه بمحتوى الرواية رغم علمهم منذ بداية قراءتهم لأولى سطورها بكيفية نهايتها. إلّا أننا في عرضنا التالي هنا سوف نهتم بإظهار جانب طالما غفل عنه الكثيرون ألا وهو دقة الاستقصاء الصحفي وتوثيق الوقائع اللذين مكنا غارسيا ماركيز من تصوير الواقع الكولومبي ببلاغة فائقة أجملت النقد اللاذع الذي أراد أن يكيله الأديب للمجتمع من خلال ذلك العمل. ووفقاً لأحداث الرواية، يفد الراوي ذات يوم على بلدة كولومبية في محاولة لاستجلاء جريمة ارتكبت قبل ذلك بعشرين سنة، وكان قد راح ضحيتها شخص يدعى سانتياغو نصار. ينتهج الراوي عمل الصحفي الأصل فيستوثق الأحداث ويجري حوارات أشبه بأحاديث صحفية مع معظم أهالي تلك البلدة ليقف على ملابسات الجريمة. وفي الواقع، إن «حكاية موت معلن» مثلها كمثّل «بحار السفينة المحطمة» استلهمت هي الأخرى من قصة حقيقية. إذ يذكر ستيفن هارت⁷ أن غابو استلهم قصة الرواية من جريمة كانت قد وقعت بالفعل عام 1951 وقتل على إثرها شخص يدعى كايتانو خنتيل وكانت خطيبته تدعى ليديا نصار، فاستوحى غابو الذي كان يعمل صحافياً آنذاك في جريدة *El heraldo* اسم عائلتها عند رسمه لشخص روايته. إلّا أن تلك الجريمة لم تكن هي الحقيقة الوحيدة التي أراد أن يستلهم منها الكاتب أحداث روايته. ولكي نقف على الحقيقة الأخرى، وهي الأهم، علينا التوقف أولاً أمام نقطة أغفلها الكثيرون أثناء قراءتهم لتلك الرواية ألا وهي وجود مسدس طالما حرص القتل، سانتياغو نصار، على وضعه تحت وسادته عند النوم على غرار ما كان يفعل أبوه. وقد فسر بعض الباحثين هذا الحرص على امتلاك السلاح والتمسك به على أنه مجرد ملمح من ملامح الثقافة العربية فالقتيل، سانتياغو نصار، كان ينحدر من أصول عربية، وكان والده من المهاجرين العرب الذين توافدوا بأعداد ضخمة على أميركا اللاتينية منذ أواخر القرن التاسع عشر. ومن ثم برر هؤلاء تحليلهم هذا بأن الثقافة العربية تشجع على تعليم الأبناء مهارات قتالية مثل ركوب الخيل والرماية. لكن الغريب أنهم لم يحاولوا قط ربط تعلق سانتياغو نصار ووالده بالسلاح بإمكانية شعورهما بخوف دفين حدا بهما إلى إبقاء السلاح في متناول اليد أثناء نومهما. إنّ هذا التوجس الذي يُصرّ الكاتب على الإيحاء بأنّ سانتياغو ووالده كانا يعانيانه لا بد وأن يسترعي انتباهنا ويدفعنا لنتساءل عن السبب وراء شعورهم بكل هذا الخوف في بلدة صغيرة كذلك بسكانها

المحدودي الطموح والهمة. ولعلنا نجد الإجابة عن هذا السؤال مفصلاً عنها بطريقة مباشرة وأخرى غير مباشرة في النص الروائي. فأمّا ما نجده في الرواية مباشرة فهو كون القتل وأسرّة والده، وهم المنحدرون من أصول عربية، من تجار الماشية العظام في تلك البلدة. وأمّا الواقع التاريخي الذي يستدعيه غابو بصورة غير مباشرة فهو المكانة الاقتصادية القوية التي بلغها العرب المهاجرون وأبنائهم في كولومبيا وخصوصاً في مجال تجارة الماشية والنسيج، والأهم من ذلك المكانة السياسية التي أتيحت لهم أن يبلغوها بعد علو شأنهم اقتصادياً، مما دعاهم للإقبال على المشاركة في الأحزاب السياسية ولا سيما الحزب الليبرالي الكولومبي حتى صار أحدهم ويدعى غابرييل طرباييه (1903-1947) زعيماً شهيراً به. ومن المعلوم أن الصراع بين هذا الحزب ونظيره المحافظ قد احتدم حتى أسفر عن اندلاع حرب أهلية ضروس في الفترة التاريخية نفسها التي تقع خلالها أحداث رواية «حكاية موت معلن» مما يدعونا إلى ربط الواقع المتخيل في الرواية بالواقع الكولومبي ويحثنا بالتالي على اعتبار منشأ توجس بطلي الرواية، سانتياغو ووالده، ليس مجرد رغبتهما في حماية تجارتها من لصوص أو معتدين بل حرصهما الشديد على سلامتهما، إذا فرضنا موالاتهما كما هو حال معظم المهاجرين العرب في كولومبيا لأي من الحزبين السياسيين المنخرطين في القتال آنذاك. فإذا رجحنا هذا التأويل للنصّ الروائي لخلصنا أيضاً، إلى أن أحد أهم الملامح التي ينتقدها غابو في روايته «حكاية يوم معلن» هو التمييز العنصري في المجتمع الكولومبي الذي اتخذ في تلك الرواية تحديداً شكل تحزب أهل القرية بطريقة لا شعورية منعته من الحيولة دون قتل أحد المواطنين، نظراً إلى اعتبارهم إياه أجنبياً ولا سيما لإدراكهم العنصري لهويته العربية. ولولا استقصاء الكاتب الصحفي للواقع الكولومبي وإلمامه بدقائقه لما استطاع أن ينسج روايته بكل هذه الدقة على أساس توثيقي للواقع. وبالطبع فإن أسلوب الرواية الذي يتشبه بالصحافة أضفى على الرواية هذا البعد التوثيقي وجعل محتواها شديداً الشبه بالواقع وهو الأمر الذي كان من شأنه السماح بإيصال النقد الذي ابتغاه الكاتب من وراء روايته.

أما الرواية الثالثة والأخيرة التي سوف نستعرضها في هذا السياق فهي «رجل مستنتر في تشيلي»، وقد تكون من الأعمال التي لا يعرف القراء العرب عنها الكثير لكننا على ثقة بأنها قد تصير من أهم ما سوف يستوقفهم في الدراسة التي نقدمها عن أعمال غارسيا ماركيز. وتحمل هذه الرواية ملامح الـ reportaje meta بما أنها تحقيق صحفي مكتوب عن تحقيق صحفي آخر. وهي تدور حول المخرج السينمائي الشهير، ميغيل ليتين، وهو مخرج تشيلي من أصل عربي فلسطيني رشحت أعماله مرتين لجائزة الأوسكار ومرتين أخريين لمهرجان كان السينمائي. وتحكي قصة تنكره ودخوله إلى تشيلي عام 1985 إبان حكم الديكتاتور بينوشيت الذي كان قد أصدر من قبل

قراراً بنفي أكثر من خمسة آلاف مواطن تشيلي من بينهم ميغيل ليتين مدى الحياة. وكان المخرج في منفاه - المكسيك عندما تيقن بأن الحلّ الوحيد هو الاجتهاد لإطاحة حكم هذا الديكتاتور، فقام بالتنسيق سراً مع عدة أشخاص في أوروبا وكون فرق عملٍ للتصوير السينمائي من أربع جنسيات مختلفة وقام بتغيير مظهره واختلق لنفسه اسماً مستعاراً ودبر جواز سفرٍ مزيفاً ثم استخرج تصريحاً من الجهات الرسمية في تشيلي للسماح له باصطحاب فرق العمل تلك للقيام بتصوير فيلم تسجيلي عن الحياة في تشيلي. وبينما كانت فرق العمل تتظاهر بالقيام بالمهمة المعلنه كان ميغيل ليتين يدير الكاميرا لالتقاط صورٍ محددةٍ تُظهرُ القمعَ السياسي وتدهور الأحوال الاجتماعية والمعيشية في البلاد. فخرج ذلك الفيلم التسجيلي بعنوان «البيان التشيلي». وكان بمثابة تحقيق صحفي أثبت بالصوت والصورة الممارسات الفاشية لنظام بينوتشيت. وتمكن ميغيل ليتين من الهرب به خارج البلاد قبل أن تقبض عليه السلطات بعد اكتشاف أمره، واستطاع أن يشارك بهذا الفيلم التسجيلي في عدة مهرجانات عالمية متسبباً بذلك في فضيحة دولية مدوية للنظام القمعي في تشيلي. أما غارسيا ماركيز فراقب ما حدث فلم يستوقفه فقط التحقيق الصحفي المقدم من خلال ذلك الفيلم التسجيلي، بل ذهب بحسه الصحفي الأصيل إلى ما وراء العمل أي إلى المخرج ميغيل ليتين، فقرر أن يكتب تحقيقاً صحفياً روائياً يجسّد فيه تلك المغامرة التي رأى أن أبعادها الإنسانية لا تقل أهميةً عن موضوع الفيلم التسجيلي ذاته الذي أخرجه ميغيل ليتين.

4. مقالات غارسيا ماركيز بين 1974-1995

تتناول هذه المجموعة المترجمة من مقالات غارسيا ماركيز إحدى أهم الحقب التاريخية لأميركا اللاتينية التي تلت الثورة الكوبية مباشرة، لذا فإن العديد من المقالات إما تتحدث عن فيدل كاسترو وإما عن الشعب الكوبي وإما عن تأثير ثورة كوبا في مناحي الحياة بأسرها في القارة، أو امتداد صداها إلى مناطق أخرى في العالم. ومن ثم يقص غابو موثقاً بلغته الصحفية أحوال الاشتراكية في تشيلي، والميليشيات الثورية عبر أميركا الجنوبية، والتأثير والتأثر بحركات ثورية دولية كما هو الحال في البرتغال أو أنغولا مثلاً. وبينما هو يفعل ذلك يميّط اللثام عن الأدوار الفاعلة لقوى أخرى مثل الرأسمالية والامبريالية العالمية والقوى المناوئة التي تعمل من المهجر، وهي قوى تحكمت أو تدخلت للتحكم في المشهد السياسي والاجتماعي الداخلي في أميركا اللاتينية. وبينما هو يقص رؤيته عن هذا المشهد العام، يولي غابو بحسه الأدبي اهتماماً ماثلاً بتفاصيل أخرى لا تقل أهميةً عن سابقتها، منها على سبيل المثال، علاقات النخب العسكرية في أميركا

اللاتينية مع واشنطن، والفساد المستشري في جميع مؤسسات المجتمعات اللاتينوأميركية التي كانت، ولم تزل وإن بنسبٍ أقلّ، عائقاً أمام استكمال الأهداف التي انطلقت الحركات الثورية بالأساس لتحقيقها، كما يعرض غابو للحراك الثقافي الذي اعتمدت عليه شعوب القارة دوماً للصمود في وجه العقبات سواء كانت قمعاً أو حظراً اقتصادياً أو تقشفاً أو غير ذلك.

لعلّ من أكثر التيمات التي تثير انتباه القارىء في هذه المجموعة من مقالات غارسيا ماركيز الصحفية هي الأيقونات والميل إلى مزج النضال الشعبي بالواقعية الخيالية والإلحاح على علاقات الجنوب-الجنوب. وأما الأيقونات فتتسحب هنا على شخصيات قيادية أثرت بشكلٍ في تشكيل تلك المرحلة من تاريخ أميركا اللاتينية ولا سيما فيدل كاسترو وتشيه غيفارا اللذان ربطتهما صداقة شخصية بغابرييل غارسيا ماركيز منذ عام 1948. ففي ذلك العام كان كاسترو، الذي لم يكن إلا ناشطاً سياسياً آنذاك، قد دعا إلى عقد لقاء بين ممثلين لطلاب جامعات أميركا اللاتينية من باب إبداء الدعم لتحركاتهم الثورية ضد الإمبريالية والأنظمة الاستبدادية في مختلف بلدان القارة، وحدد كولومبيا مكاناً لانعقاد ذلك المؤتمر. وخلال وجوده في كولومبيا التقى بـ «خورخي لعادر غاييتانو» القطب الليبرالي الكولومبي المعروف الذي وعد كاسترو بمساعدته على ترتيب مكان للمؤتمر الطلابي الذي كان يعد له، واتفق معه على لقائه ثانية بعد يومين لاستكمال هذا الترتيب. وفي الموعد المحدد ذهب كاسترو ومن معه للقاء الزعيم الكولومبي إلا أن الأخير اغتيل عند خروجه من مكتبه للقائهم برصاصات ثلاث كانت سبباً في تداعي الأحداث ونشوب الحرب الأهلية الكولومبية. تدافع الكولومبيون إلى مكان الحادثة وعم الهرج والمرج. وتصادف وجود مجموعة من الطلبة الكولومبيين في المكان، وكان من بينهم غابرييل غارسيا ماركيز، وقد استوقفهم في خضم ذلك كله نشوب النيران فجأة في المبنى الذي كانوا يقطنون فيه بالقرب من مكان حادثة الاغتيال. فهرع غابرييل غارسيا ماركيز إلى المبنى محاولاً إنقاذ آله الكاتبة وبعض المقالات التي كان على وشك إرسالها إلى إحدى الصحف. وفي محاولة يائسة منه لإنقاذ الآلة الكاتبة ما كان منه سوى أن رماها من الشباك فتهدمت عند ارتطامها بالشارع. كان كاسترو على مقربة من هذا المكان فرأى الآلة الكاتبة تهوي من الشباك وكانت هذه هي مناسبة لقائه الأول بغارسيا ماركيز. ولعلّ ما اكتنف هذا اللقاء الأول بينهما من مصادفات لا معقولة كان هو ما دفع غابرييل غارسيا ماركيز، أثناء حديثه ذات مرة معلقاً على حادثة تعرفه بكاسترو، إلى القول بأنه لا حاجة إلى الخيال في أميركا اللاتينية بما أن الأحداث نفسها تفوق الخيال وتستلزم قدراً من الواقعية لسرد ما بها من لا معقول⁸. وربما تلفت حادثة اللقاء الأول بين كاسترو وغارسيا ماركيز نظرنا إلى أجزاء أخرى في القصة توطرها وتفسرها. أما أولى تلك الأجزاء فهي حدوث هذا

التعارف خلال فترة من أهم الحقبة التاريخية الثورية الحافلة بالنضال والصراعات في أميركا اللاتينية. وأما ثانيها فهو وجود الصحافة، من خلال رمز الآلة الكاتبة، كجزء أساسي مواز وموثق للأحداث ومؤثر فيها ومتأثر بها. ولعلّ هذا كله يفسر الطريقة التي ينسج بها غارسيا ماركيز هالةً أسطوريةً حول شخصية كاسترو وغيثارا في هذه المجموعة من المقالات التي نقدم ترجمتها هنا للقارئ العربي. وقد نرى غابو يصف مراراً وتكراراً بُعدَ نظرٍ وحصافة كاسترو ودهاءه السياسي وقدراته الخطابية العبقريّة. كما نراه يفعل الشيء نفسه، وإن بصورة أقلّ، في مقالات أخرى واردة في هذه المجموعة عن تشيه غيثارا، فيحدثنا عن سلاسته في عبور الحدود براً وجواً خلسةً، وعن مشاركاته في القتال مع الثوار في عدة بلدان في أميركا اللاتينية ثم في إفريقيا التي تعلّم ثقافة أهلها ولغتهم في محاولةٍ منه لتحرير عقولهم ونفوسهم من الاستعمار. وقد امتدت العلاقة الإنسانية القوية التي ربطت بين غابو وكاسترو لتشمل حب الكاتب لكوبا وشعبها، وهو ما يؤكده الحوار الذي أجرته معه مجلة نيويورك تايمز في الثمانينيات والذي أقرّ غابو خلاله أنه انتهى من فورهِ من تأليف كتابٍ عن كوبا كان قد عكف على العمل به مدة ثلاث سنوات متصلة، ثم قرّر ألاّ ينشره بعد اكتشافه أنّ نبرته في الكتاب لازعة بدرجة قد تضرّ سياسياً بكوبا وتضعف موقفها أمام أعدائها.⁹ وربما يعود ذلك الشغف إلى كون كوبا جزءاً من منطقة الكاريبي التي يؤمن غارسيا ماركيز بأنّ لها خصائص فريدة فهي، مثلما أوضحنا آنفاً في هذه الدراسة، يمتزج فيها تراث أهل البلاد الأصليين بتراث الأفارقة في خليطٍ ثقافيٍّ ساحرٍ أو لا معقولٍ أو واقعي-خياليٍّ، وهو تحديداً ما نلاحظ أنّ الكاتب يحاول أن يعكسه في كثيرٍ من المقالات المترجمة في هذه المجموعة وهو نفسه الواقع الخيالي الذي يسعى إلى إبرازه في كلّ مرّة يعرض فيها الشعب الكوبي ونضاله.

د. هبة العطار

جامعة كليفلاند ستيت

الولايات المتحدة، 2017

تشيلي- الانقلاب العسكري والأميركان¹⁰

في أواخر عام 1969، اجتمع ثلاثة جنرالاتٍ منَ البنتاغونِ معَ أربعةٍ عسكريين تشيليينَ على العشاءِ في منزلٍ بإحدى ضواحي واشنطن. أمّا المضيف فكان الكولونيل خيراردو لوبث أنجولو، ملحق سلاح الطيران التابع للبعثة العسكرية التشيلية في الولايات المتحدة، وأمّا ضيوفه التشيليون فكانوا زملاءه من الأسلحة الأخرى في الجيش التشيلي. وأقيم العشاء على شرف الجنرال كارلوس تورو ماثوتي، قائد سلاح الطيران التشيلي الذي وصل في اليوم السابق إلى واشنطن في مهمة تمهيدية. وتناول الضباط السبعة سلطة فواكه ولحماً بقرياً مشوياً مع بعض الخضروات، وارتشفوا صنوف النبيذ الذي تخصص في إنتاجه مزارع تشيلي، حيث كانت الطيور في تلك الآونة تشدو ناعمةً بأشعة الشمس الساطعة بينما واشنطن غارقة في ثلوجها لحظة اجتماعهم. ودار الحوار بين الجميع باللغة الانجليزية عن الشيء الوحيد الذي بدا مهماً للتشيليين آنذاك، أي انتخابات الرئاسة المتوقعة في تشيلي خلال شهر أيلول/سبتمبر التالي. وعندما همّوا بتناول الحلوى بعدَ العشاء، تساءل أحدُ جنرالاتِ البنتاغون عن خطة جيش تشيلي حال نجاح مرشح اليسار، سلفادور آيندي، في الانتخابات. فأجابه الجنرال ماثوتي: «إذا حدث هذا الأمر سوف ننتزع قصر الرئاسة «لامونيدا» انتزاعاً في نصف ساعة ولو اضطررنا إلى حرقه». وكان الجنرال إرنستو باييثا رئيس الأمن القومي التشيلي من بين المدعويين إلى العشاء تلك الليلة، وهو نفسه الجنرال الذي أدار لاحقاً الهجوم على قصر الرئاسة «لامونيدا» أمراً بالفعل بإحراقه أثناء الانقلاب. وقد لعب اثنان من مساعديه دوراً حاسماً في ذلك الهجوم: وهما الجنرال أوغسطو بينوتشيت، قائد القوات الحربية، والجنرال خافيير بلاثيوت الذي وجه الضربة القاضية إلى سلفادور آيندي. كما كان من بين المدعويين تلك الليلة لواءٌ كتيبة جوية سيرخيو فيغيروا غوتيريث، الذي صار وزيراً للأشغال العامة لاحقاً، كذلك لواء جوي غوستافو لبيه، وهو مَنْ أعطى الأمر لاحقاً بقصف قصر الرئاسة بالصواريخ. أمّا آخر المدعويين فكان الأميرالاي أرتورو ترونكوسو، الذي صار قائد القوات البحرية في مدينة فالبارايسو بعد أن قادَ القوات البحرية التي أصدرت أولى شرارات الانقلاب الدّموي الذي بدأ فجرَ 11 أيلول/سبتمبر.

كان هذا العشاء التاريخي أول اتصال بين البنتاغون وممثلين عن أسلحة الجيش التشيلي الأربعة. وخلال اللقاءات التالية التي انعقدت سواء في واشنطن أو تشيلي تمّ الاتفاق على تصعيد الجنرالات الأكثر تماشياً مع مصلحة الولايات المتحدة إلى سدة الحكم حال نجاح حزب الوحدة الشعبية في الانتخابات. وخطط الجميع لذلك ببرودٍ شديدٍ كما لو كان الأمر متعلقاً بتدريباتٍ عسكريةٍ عاديةٍ ولم يلق أيّهم بالاً إلى مصلحة تشيلي العليا. بل ما هو أكثر من ذلك، فالتخطيط لعملية الانقلاب تلك كان قد بدأ بالفعل منذ فترةٍ بعيدةٍ ليس امتثالاً للضغوط التي مارسها شركة الاتصالات الدولية «انترناشونال تلغراف آند تليفون» فحسب، إنّما تلبيةً لحسابات السياسة الدولية. وكانت وزارة الدفاع الأميركية - البنتاغون- هي التي وضعت الخطة، غير أنّ من اضطلع بتنفيذها كان وزارة المخابرات البحرية، وهي التي قامت بتنسيق المعلومات الواردة من الأجهزة الأخرى بما في ذلك جهاز الـ «سي آي إيه» نفسه. ونفذ المخطط برمته تحت الإشراف السياسي لمجلس الأمن القومي الأميركي. وكان من الطبيعي أن توكل المهمة إلى سلاح البحرية وليس إلى الجيش، لأنّ الانقلاب في تشيلي كان سيتزامن مع عملية «أونيتاس»، وهي مجموعة المناورات البحرية المشتركة بين أميركا وتشيلي والتي تُجرى في المحيط الهادي، وكان من المزمع القيام بها خلال شهر أيلول/سبتمبر أي الشهر المقرر لإجراء الانتخابات في تشيلي، ومن ثم لم يكن امتلاء المجالين البرّي والجوي بآلات الحرب والرجال المتمرسين بفنون القتال ليثير الريبة. ويُحكى عن كيسنغر في تلك الفترة أنّه قال لبعض التشيليين: «إني لا أعبأ بجنوب العالم، أي من جبال البرانس نزولاً، ولا أعلم عنه شيئاً». لكنه عندما قال هذا الكلام كان مخطط الانقلاب قد تمّ بالفعل الانتهاء من إعداد تفاصيله، لذا يصعبُ تصور ألا يكون كيسنغر والرئيس نيكسون نفسه قد أحيطا علماً به.

أما تشيلي التي تأمروا عليها فهي دولةٌ صغيرةٌ تمتد على مساحة 4.270 كيلومتراً طويلاً و190 كيلومتراً عرضاً، وتضم عشرة ملايين نسمة يعيش مليونان منهم في العاصمة سانتياغو. ورغم صغرمساحتها إلا إنّها تتفرد بأمورٍ عدّة. فهي تنتج أفضل نوعية نحاس في العالم؛ فحجم إنتاجها منه بالكاد يقلّ عن نظيره في الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفياتي. وتنتج أنواعاً من النبيذ تضاهي في جودتها النبيذ الأوروبي، وإن كانت لا تصدر منه الكثير لأنّ التشيليين يستهلكون معظمه. ويبلغ متوسط دخل الفرد فيها ست مئة دولار أي هو من أعلى معدلات الدّخل في أميركا اللاتينية على الرغم من أنّ نصف دخلها القومي تقريباً يصبّ في مصلحة ثلاث مئة شخص دون غيرهم. ومنذ عام 1932، صارت أول جمهورية اشتراكية في القارة ومن ثم حاولت تأمين النحاس لولا أنّ تجربتها مع الاشتراكية آنذاك لم تدم سوى ثلاثة عشر يوماً فقط. وجدير بالذكر أنّ متوسط الهزات الأرضية في تشيلي هو هزة كل يومين وزلزال مدمر كل ثلاث سنوات، لدرجة أنّ أكثر

الجيولوجيين تفاؤلاً لا يعتبرونها دولة ذات يابسة بل مجرد امتداد مهزوز لجبال الأنديز المحاطة بالغمام، ويؤمنون بأنه مقدر لها أن تختفي يوماً، بكنوزها من النيترات ونسائها الجميلات، من جراء كارثة طبيعية كبرى. أما شعب تشيلي فهو من ألطف شعوب القارة، يحب الحياة ويستمتع بها إلى أقصى حد، وإن كان ميالاً إلى الشك والمضاربات الفكرية. أذكر مثلاً أن أحد أصدقائي التشيليين قال لي يوماً إنه «لا يوجد شخص واحد في تشيلي بوسعه يوم الاثنين أن يجزم إن اليوم التالي هو الثلاثاء»، بما في ذلك محدثي نفسه. وعلى الرغم من هذا الشك الدفين، أو بالأحرى بفضل ذلك الشك، استطاع التشيليون أن يحققوا درجة عالية من التحضر والنضج السياسي والرقي الثقافي، وهذه الصفات أو الإنجازات تُعدّ من أهم مزاياهم التي يرمز إليها حصول تشيلي وحدها على اثنتين من جوائز نوبل الثلاث التي حصدها أميركا اللاتينية، فكانت إحداها من نصيب بابلو نيرودا الذي يُعدّ من أكبر شعراء القرن.

ولا بد أن كيسنغر كان على علم بكل ذلك لحظة ادعائه عدم علمه شيئاً عن جنوب العالم، لأنّ حكومة الولايات المتحدة نفسها آنذاك كانت مطلعة على أدقّ خفايا ما يفكر فيه التشيليون. فقد قامت، من دون إذن من تشيلي، بتمحيص كل شيء عن البلد من خلال عملية تجسس اجتماعي وسياسي ممنهجة عُرفت باسم «كاميلوت». كانت عملية استقصاء دقيقة تمت من خلال أسئلة استبائية محددة خضعت لها كل الفئات الاجتماعية والمهنية والعمالية في كلّ شبر من البلاد بغية الوقوف علمياً على مدى التطور السياسي وماهية الاتجاهات الاجتماعية لدى الشعب التشيلي. وكان أحد الأسئلة التي احتوى عليها الاستبيان هو ذاته السؤال الذي طُرح على الضباط التشيليين بعد ذلك بخمس سنوات أثناء العشاء المذكور في واشنطن: «كيف ستكون ردة فعلكم إن وصل الشيوعيون إلى الحكم؟»، وما كان طرح هذا السؤال اعتباراً فالولايات المتحدة باتت متيقنة تماماً بعد عملية «كاميلوت» أن سلفادور آيندي سوف ينجح في انتخابات الرئاسة، بل هي لم تقدم أساساً على إجراء ذلك الاستطلاع في تشيلي إلّا لعلمها بتاريخ وقوة قاعدتها الشعبية ومهارات قادتها إضافة إلى ظروفها الاقتصادية والاجتماعية التي تؤهلها لمستقبل زاهر، وكان هذا بالتحديد هو ما أكدته عملية «كاميلوت»؛ فتشيلي كانت مرشحة كي تكون ثاني جمهورية اشتراكية في القارة بعد كوبا. إذن، لم يكن الهدف الحقيقي من وراء اهتمام الولايات المتحدة هو مجرد الحيلولة دون تولي سلفادور آيندي الحكم وحماية استثماراتها في تشيلي، بل هو إعادة إنتاج تجربة الولايات المتحدة في البرازيل التي كانت من أبشع التجارب ولكن أكثرها فائدة للإمبريالية.

ثم وقع ما كان متوقعاً أي انتخب الطبيب الاشتراكي سلفادور آيندي رئيساً للجمهورية في الرابع من أيلول/سبتمبر عام 1970، لكن لم ينفذ الانقلاب وذلك لعدة أسباب كان أكثرها ذيوياً هو أيضاً أكثرها طرافة، إذ يحكى أن أحد أفراد البنتاغون قد تقدم إلى سفارة تشيلي بطلب لاستخراج منّي تأشيرة لفريق كورال عسكري. وبالطبع لم يكن لأي من أعضاء ذلك الفريق ثمة صلة بعزف أو غناء، فحقيقة الأمر إنهم كانوا خبراء سريين في فنون الانقلاب. وقد اكتشفت الحكومة التشيلية خطتهم فرفضت منحهم التأشيرات ومن ثم - حسبما أشيع - تم تأجيل الانقلاب. غير أن السبب الحقيقي وراء التأجيل كان التقويم الدقيق للوضع الذي قامت به الأجهزة الأميركية وعلى رأسها وكالة المخابرات الأميركية والسفير الأميركي في تشيلي، إدوارد كوري، وخلصهم إلى قصور الخطة الموضوعة لاقتصارها على الجانب الإجرائي وإغفالها التغيرات الفعلية على أرض الواقع آنذاك. ففوز حزب الوحدة الشعبية لم يحدث ذعراً مجتمعياً كما توقع البنتاغون، بل العكس صحيح، إذ حازت سياسات الحكومة الجديدة ولا سيما في مجالي العلاقات الخارجية والاقتصاد رضاء شعبياً كبيراً. فخلال العام الأول وحده تم تأميم ستة وأربعين مصنعاً وأكثر من نصف القطاع المصرفي، كما تمت إعادة أكثر من 24 مليون هكتار إلى الفلاحين، وتمت السيطرة على التضخم، وحلت مشكلة البطالة وزاد دخل الفرد بنسبة 40% تقريباً. ومن قبل، كانت حكومة الحزب الديمقراطي المسيحي إبان حكم الرئيس السابق إدواردو فراي قد أعلنت عن عزمها تأميم النحاس، لكنها لم تفلح وقتذاك سوى في شراء واحدٍ وخمسين بالمئة من مناجم النحاس، بل وفيما يتعلق بمنجم «لاتينييتي»، اضطرت إلى دفع مبلغ باهظٍ يفوق ثمنه الفعلي كي تتمكن من استرداده من الشركة المالكة. أما حكومة الوحدة الشعبية فقد نجحت في اتخاذ إجراء قانوني حاسم مكنها من إعادة السيطرة على كل مناجم النحاس التي كانت تستغلها فروع الشركتين الأمريكيتين «أناكوندا» و«كنيكوط» دونما الاضطرار إلى منحهما أية تعويضات انطلاقاً من حقيقة تمكن الشركتين، على مدى خمسة عشر عاماً، من تحقيق أرباح خيالية تربو على الثمانين ألف مليون دولار. أما البرجوازية الصغيرة والطبقات المتوسطة الأخرى التي كان بوسعها دعم أي انقلاب عسكري محتمل، فقد وجدت نفسها منتفعة في ظل الحكومة الجديدة على نحو لم تكن تتوقعه ولم يشكل انتفاعها هذا ضرراً على مصالح أي فئة أخرى بما في ذلك البروليتاريا، باستثناء مصالح النخب الغنية ورأس المال الأجنبي. أما القوات المسلحة فكان أفرادها، من المنظور الاجتماعي، مشتركين مع الطبقة الوسطى في العمر والخلفية والطموح، ولم يكن لديهم أدنى دافع أو ذريعة كي يساندوا شردمة من الضباط تسعى إلى الانقلاب. انطلاقاً من كل تلك الحقائق إذن، قرر الحزب الديمقراطي المسيحي عدم دعم الانقلاب العسكري المخطط له ومعارضته بشدة لعلمه بأنه ما كان ليلقى تأييداً

حتى بين فلوله. لكن صار هدف الحزب في المقابل هو بذل قصارى جهده لإضعاف الحكومة الحالية والسيطرة على ثلثي البرلمان في الانتخابات التي كان من المزمع إجراؤها في شهر آذار/ مارس 1973، لأنه لو تسنى له ذلك لتمكن من الاحتكام إلى الدستور وعزل رئيس الجمهورية. وكان حزب الديمقراطية المسيحي يضم ملاك الصناعات الحديثة وصغار ومتوسطي ملاك الأراضي وأبناء الطبقة البرجوازية والطبقة الوسطى في المدن، بينما كان حزب الوحدة الشعبية من جانبه لا يضم سوى العمال الفقراء والفلاحين والطبقة الوسطى الدنيا في المدن. ومن ثم نجح حزب الديمقراطية المسيحي اليميني المتطرف في مخططة فتحالف مع الحزب القومي وسيطر على البرلمان ولم يترك لحزب الوحدة الشعبية سوى التحكم في السلطة التنفيذية وهو الأمر الذي أدى إلى انقسام البلاد. ومن العجيب أن صار إدواردو فراي، الكاثوليكي الذي لا يؤمن بالماركسية، أكثر المنتفعين من نظرية الصراع الطبقي، وقد عمل على تأجيج ذلك الصراع بغية إفشال الحكومة ودفع البلاد دفعاً نحو الانهيار والتدهور الاقتصادي. ثم جاء الحصار الاقتصادي الذي فرضته الولايات المتحدة انتقاماً من تعرض شركاتها في تشيلي للتأميم دون دفع تعويضات من جهة، وابتزاز الطبقة البرجوازية التشيلية من جهة أخرى، ليكملا الإجهاز على البلاد. وكان الحصار فعالاً لأنه على الرغم من قيام تشيلي بتصنيع كل شيء بدءاً بالسيارات وانتهاء بمعجون الأسنان، إلا أن كل تلك الصناعات كانت بلا جدوى حقيقية بما أنها كانت تعتمد على رأس المال الأجنبي في تشغيل مئة وستين مصنعاً على الأقل، كما كان ثمانون بالمئة من مواد التصنيع في تلك المصانع مستورداً، هذا في الوقت الذي كانت تحتاج فيه البلاد إلى ثلاث مئة مليون دولار سنوياً لاستيراد بضائع استهلاكية وأربع مئة مليون دولار أخرى لسدّ مستحقات الدين الخارجي. ولم يكن بوسع تشيلي المراهنة على الدول الاشتراكية لجلب قطع الغيار الأساسية والنادرة بما أن معظم اعتمادها في الصناعة والزراعة والمواصلات كان على المكننة الأميركية الصنع. على الرغم من إن الاتحاد السوفياتي لم يأل جهداً في دعمها، فعندما لم يكن يملك ما يزيد عن حاجته من القمح، قام آنذاك بشرائه من أستراليا وإرساله إلى تشيلي، كما قام بتحويل مبالغ ضخمة من الدولارات إليها من خلال بنك شمال أوروبا الكائن في باريس. أمّا كوبا، ففي تقان مثالي وإن لم يكن شديد الجدوى، فقد أرسلت من جانبها سفينة محملة بالسكر كهدية إلى تشيلي. ما كان هذا كله ليؤدي طالما ظلّت حاجات البلاد لا حصر لها لدرجة دفعت بسيدات الطبقة البرجوازية المرفّهة يوماً إلى الخروج في تظاهرة أخذن يقرعن خلالها خُللهن تدمراً من الاضطراب إلى الاعتماد على بطاقات التموين واحتجاجاً على مطالب الفقراء التي رأينها مبالغاً فيها، وقد تعمدن الخروج بحللهن اللامعة

وقبعاتهن الأنيقة في اليوم نفسه الذي كان فيدل كاسترو ينهي فيه زيارة لتشيلي استمرت ثلاثين يوماً وكانت لها أصداء عالمية كبرى.

رقصة الكويكا الأخيرة لسلفادور آيندي

هنالك أدرك الرئيس سلفادور آيندي - وقد أعلنها صراحة - أن إرادة الشعب لم تكن نافذة سوى على الحكومة لكن لا على السلطة. وبدأت تلك الحقيقة مرعبة لآيندي الذي كان حريصاً أيما حرص على الشرعية، وهو ذاته الحرص الذي كان سبباً في تدميره لاحقاً، فهو رجل دافع عن الشرعية حتى الموت، وما كان ليجد غُضاضةً في الخروج من البوابة الرئيسية لقصر الرئاسة «لامونيدا» مرفوع الرأس لو أنهم عزلوه من منصبه بمقتضى الدستور. وتروي الصحافية والسياسية الإيطالية روسانا روساندا التي زارته في تلك الفترة، أنها وجدته مجهداً ومتوتراً ومثقلاً بالهموم، متهاكاً على ذلك المقعد الأصفر الوثير، وهو نفسه المقعد الذي ارتمت عليه فيما بعد جثته بوجهه الذي مزقته المدافع. وكان أعضاء الكتلة الديمقراطية المسيحية الذين أيده فيما سبق قد انقلبوا ضدّه آنذاك، فسألته روسانا قائلة: «بمن فيهم توميتش؟»، فأجابها آيندي قائلاً «الجميع». كانت انتخابات آذار/مارس 1973 بمثابة أكبر مخاطرة في حياته، خصوصاً وأنّ كل المؤشرات كانت تؤكد أنّ حزب الوحدة الشعبية ما كان ليحصل فيها سوى على ستة وثلاثين بالمئة من الأصوات. لكن ما حدث هو أنّه حصل على أربعة وأربعين بالمئة من الأصوات على الرغم من التضخم الرهيب وأزمة التمويل وتظاهرة الحلل المدوية. كان هذا نصراً مذهلاً وساحقاً حتى أنّ آيندي عندما صار وحده في مكتبه دونما أي شهود سوى صديقه وكاتم سره الصحفي أوغوستو أوليفارس، أغلق الباب ورقص وحده رقصة «الكويكا». واعتبر الحزب الديمقراطي المسيحي فوز حزب الوحدة الشعبية دليلاً على أنه لم يعد هناك ثمة سبيل شرعي لمجابهة المسار الديمقراطي الذي وطده الحزب الفائز. لم تكن رؤيته لحجم المغامرة التي ينوي القيام بها أو وسيلتها قد اتضحت بعد، لكنه اعتبرها مسؤولية تاريخية كبرى. بينما اعتبرت الولايات المتحدة فوز حزب الوحدة الشعبية إنذاراً خطيراً وليس مجرد تهديد لمصالح شركاتها المؤممة، وكان مبعث تخوفها هو أن الأحداث بهذه الصورة كانت تؤسس لسابقة غير مقبولة على مسار التطور السلمي لشعوب العالم، فقد تغري دولاً أخرى - منها خصوصاً فرنسا وإيطاليا التي كانت ظروفها الداخلية مشابهة - لتحذو حذو تشيلي. إذن، فقد اتحد كثير من القوى داخلياً وخارجياً لتشكل كتلة واحدة معادية، بينما فشلت الأطراف التابعة لحزب الوحدة الشعبية، والتي كانت مشكلاتها الداخلية أكبر مما اعترفوا

به، في تنسيق رؤيةٍ واحدةٍ بشأن نتيجة الانتخابات ولاسيما أن حكومة آيندى وجدت نفسها ممزقةً بين فريقين من أتباعها أولاهما فريق رأى وجوب استغلال الحراك الشعبي لإحداث تغيير اجتماعي شامل، والآخر فريق أكثر اعتدالاً وتخوفاً من الانزلاق في حرب أهلية، فرأى وجوب التوصل إلى اتفاق مع حزب الجبهة الديمقراطية المسيحية. لكن هذه الأخيرة لم تكن تسعى من جانبها سوى لكسب الوقت.

وكالة المخابرات الأميركية والإضراب

كان الإضراب الذي قام به سائقو الشاحنات هو القشة التي قصمت ظهر البعير وذلك لأن الاقتصاد التشيلي كان يتوقف على النقل البري نظراً للطبيعة الجغرافية الوعرة للبلاد، مما يعني أن أي عطل في هذا القطاع كان سوف يصيب البلد بأسره بالشلل. وارتأت المعارضة أنه من اليسير إحداث مثل هذا الشلل لأن قطاع النقل تحديداً كان من أكثر القطاعات التي تأثرت بندرة قطع الغيار وبنية الحكومة المبيتة للاعتماد على الاتحاد السوفياتي بدلاً من أميركا في استيرادها للماكينات اللازمة. وقد استمر الإضراب في هذا القطاع طويلاً لأنه كان ممولاً بسخاء من الخارج. حتى أن بابلو نيرودا كتب آنذاك لأحد أصدقائه الأوروبيين يخبره بأن وكالة المخابرات الأميركية دعمت ذلك الإضراب عن طريق إغراق البلاد بالدولارات عبر السوق السوداء إلى أن بلغت الأزمة ذروتها، وكان ذلك قبل حدوث الانقلاب بأسبوع تقريباً، عندما نفذ الزيت واللبن والخبز. وخلال الأيام الأخيرة من حكم حزب الوحدة الشعبية، وبينما الاقتصاد ينهار والبلاد على شفا حرب أهلية، انصبت مناورات كل من الحكومة والمعارضة على محاولة إحداث تغيير في توازنات القوى داخل الجيش إلى أن كانت الضربة الأخيرة والقاضية عندما نجحت المعارضة، قبل حدوث الانقلاب باثنتين وأربعين ساعة، في عزل الرتب الكبرى المؤيدة لسلفادور آيندي واستبدالهم - على غرار لعبة الشطرنج - بكل الضباط الذين كانوا قد حضروا ذلك العشاء في واشنطن. غير أنه بدا أن لعبة الشطرنج السياسي تلك قد انفرطت من يد القائمين عليها، فقد تحولوا هم بدورهم إلى قطع في لعبة شطرنج أخرى أكثر تعقيداً وخطورة من مجرد كونها مؤامرة بين الإمبريالية وقوى المعارضة؛ فلقد تحولت المسألة إلى مواجهة طاحنة بين الطبقات الاجتماعية ومصالحها المتضاربة بصورة آلت إلى كارثة اجتماعية غير مسبوقه في تاريخ الأميركيين.

الجيش الأكثر دموية في العالم

من يفهم تشيلي يعلم أنّ أي انقلاب عسكري لا يمكن أن يكون إلا دمويًا. وكان آيندي يدرك هذا وقد صرح به فعلياً للصحافية الإيطالية روسانا روساندا: «واهم من يظن أنّ انقلاباً عسكرياً في تشيلي بوسعه أن يكون على غرار ما نراه في بقية دول أميركا اللاتينية، أي أن يقتصر على تغيير الحرس في قصر الرئاسة، وذلك لأنّه إذا خرج الجيش على الشرعية في بلد كهذه فسوف تنهمر حتماً حمامات الدماء على غرار ما حدث في أندونيسيا». وكانت قناعة آيندي في هذا الصدد مستندة إلى سوابق من التاريخ. فعلى العكس مما أُشيع، طالما تدخلت القوات المسلحة التشيلية بشكل عنيف وقمعي في السياسة كلّما رأت مصالحها الخاصة مهددة، والدليل على ذلك مثلاً، هو تدخل الجيش مرتين خلال القرن العشرين وحده لإملاء الدساتير في تشيلي. بل إن الانقلاب العسكري المذكور ليس سوى السادس من نوعه في غضون خمسين عاماً فقط. ولعلّ النزعة الدّموية لدى الجيش التشيلي مرتبطة بتاريخ حروبه الضارية ضد أهالي البلاد الأصليين «الآراوكانوس» والتي استمرت ثلاث مئة عام. ويروى أنه في عام 1620، اختل أحد أفراد الجيش التشيلي بنفسه على إثر قتله أكثر من ألفي شخص في معركة واحدة. كما روى خواكين إدواردس بيبو في مؤرخاته، أنه في محاولته القضاء على وباء التيفوئيد أقدم جيش تشيلي على إخراج المرضى من فراشهم وقتلهم بالسّم. ويحكى أنه خلال إحدى معارك الحرب الأهلية التي اندلعت عام 1891 واستمرت سبعة أشهر، لقي عشرة آلاف شخص مصرعهم. أما شعب البيرو فيؤكد أنه عندما سقطت عاصمتهم «ليما» في يد الجيش التشيلي أثناء حرب الباسيفيك، قام الجنود التشيليون بنهب مكتبة «دون ريكاردو بالما» لا لقراءة ما بها من كتب إنما لاستخدام أوراق تلك الكتب في الغائط. بل ولا يقارن كل ما سلف ذكره، على بشاعته، بضراوة الجيش في قمع الحركات الشعبية. فعلى سبيل المثال، على إثر وقوع زلزال بمدينة فالبارايسو عام 1906، قامت قوات البحرية بتصفية أعضاء نقابة عمال الموانئ في مذبحه راح ضحيتها ثمانية آلاف عامل. وفي مقاطعة إكيكي في بدايات القرن العشرين، حاول بعض الثوريين الاختباء في مبنى مسرح البلدية فراراً من العسكر، لكن انهالت عليهم المدافع ووقع منهم ألفا قتيل. وفي الثاني من نيسان/ إبريل عام 1957، سحق الجيش التشيلي مظاهرة شعبية كانت قد اندلعت في أحد المراكز التجارية في العاصمة سانتياغو، ولم يتم الوقوف لاحقاً على عدد القتلى لأن الحكومة دفنت الجثث سراً. وخلال حكم إدواردو فراي، وقع إضراب في منجم السلفادور فاستخدمت الشرطة العسكرية الرصاص لتفريق المتظاهرين مريعة ستة قتلى من بينهم عدة أطفال وامرأة حامل. وكان قائد تلك العملية جنراً عبوساً يبلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً وكان أباً لخمس أطفال، كما كان أستاذاً في علم الجغرافيا ومؤلفاً لعدة كتب تتناول الشؤون العسكرية، وكان اسمه «أوغوستو بينونتشيت». أما

أسطورة البعد الشرعي والإنساني لذلك الجيش الدموي فقد تم نسجها لخدمة مصلحة الطبقة البورجوازية التشيلية، ووجد حزب الوحدة الشعبية نفسه مضطراً للحفاظ على استمرار تلك الأسطورة أملاً منه في استمالة الرتب الكبرى في المؤسسة العسكرية، خصوصاً وأنّ سلفادور آيندي لم يكن يأمن سوى لقطاع الجيش الذي يضمّ البسطاء والفلاحين وهو القطاع الوحيد الذي تواصل معه مباشرةً، وبالفعل لم يقدم أي من أفراد هذا القطاع سوى بعض ضباطه القدامى على مؤازرة الانقلاب العسكري، أما شباب الضباط في ذلك القطاع فقد قاوموا مدة أربعة أيام حتى تمت تصفيتهم بالقنابل المنهمرة عليهم من الجو أثناء المعركة الشهيرة التي وقعت بين فصائل الجيش المختلفة عشية الانقلاب والتي قام خلالها الضباط الانقلابيون بقتل نظرائهم الذين رفضوا الانضمام إليهم أو الذين رفضوا الامتثال لأوامر القمع، فقصوا دون رحمة على أي ضابط سولت له نفسه التصدي لهم سواء في سانتياغو أو خارجها، كما أعدموا بالرصاص كل من تجرأ على الصمود في وجههم على سبيل العبرة لبقية أفراد الجيش مثلما حدث مع الكولونيل كانتورياس قائد مدينة بينيا دل المار الذي لقي حتفه على يد مساعديه ضرباً بالمدافع. وقد ادعت حكومة الانقلاب فيما بعد أنّ موت كل أولئك الضباط الشرفاء إنما كان على يد المقاومة الشعبية. لكن الزمن وحده كفيل بجلاء الأبعاد الحقيقية لتلك المجازر التي تمت داخل الجيش، فقد نقلت الجثث فوراً إلى خارج التكنات عن طريق عربات القمامة وقبرت سراً في مكان ما. وكانت نتيجة ذلك كله إنه لم يتبق سوى بضع مئات من الضباط على رأس قوات تم تدجينها فكانت هي التي نفذت عملية الانقلاب.

من ناحية أخرى، شارك العديد من الجهات الأجنبية في تنفيذ الانقلاب المأسوي. فعلى سبيل المثال، كانت عملية قصف قصر الرئاسة الجمهوري «لامونيدا»، التي تمت ببراعة فائقة أذهلت الخبراء، من تنفيذ قوات جوية أميركية كانت قد دخلت البلاد تحت مظلة المناورة العسكرية «أونيتاس» بحجة تقديم عرض جوي يوم 18 أيلول/سبتمبر الموافق لعيد الاستقلال الوطني. كما تسلل ضباط مرتزقة من مختلف الدول المجاورة عبر بوليفيا وظلّوا مختبئين حتى حان يوم الانقلاب فنفذوا مطارقاتٍ دموية لسبعة آلاف لاجئ سياسي لاتينوأميركي كانوا يلوذون بتشيلي. وكانت البرازيل التي آوت في الأصل هؤلاء الضباط العملاء هي التي أشرفت على تنفيذهم تلك المطارقات، وقبل ذلك بعامين كانت البرازيل هي أيضاً، التي دعمت انقلاب بوليفيا الذي أسفر عن خسران تشيلي لبوليفيا كحليف أساسي لها، وبالتالي عن تهريب مواد لازمة للانقلاب المذكور عبر الحدود بين تشيلي وبوليفيا، ولعلّ هذا يفسر انهمار الأموال الطائلة آنذاك من الولايات المتحدة على بوليفيا لتمويل تلك الاستعدادات السرية الممهدة للانقلاب في تشيلي. وكان الجنرال ويليام ويستمورلاند قد قام في عام 1972 بزيارة سرية إلى عاصمة بوليفيا لم يفصح عن الهدف من

ورائها في حينه، لكن بعد انقضاء زيارته بوقت قصير، وعلى الحدود بين بوليفيا وتشيلي، تم رصد حركة تغيير في أماكن الجنود والآلات الحربية كان من شأنها إعطاء ضباط الانقلاب التشيليين فرصة لتعزيز مواقعهم الداخلية والقيام بحركة تنقلات وترقيات استعداداً للانقلاب المرتقب.

وفي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وبالتزامن مع موعد المناورة العسكرية «أونيتاس»، نفذت أخيراً، خطة الانقلاب الأصلية التي كانت قد وضعت أثناء ذلك العشاء المذكور في واشنطن. وعلى الرغم من أن تنفيذها تمّ بعد ثلاثة أعوام من العشاء المذكور إلا أنها جاءت مطابقة تماماً للاتفاق الذي نصّ على ألا تكون مجرد انقلاب تقليدي لإحدى كتائب الجيش، بل عملية حربية مدمرةً وحثيثة بما أن الهدف منها لم يكن مجرد التخلص من حكومة ما، بل زرع بذرة شؤم مماثلة لتلك التي زرعت من قبل بكل آلياتها القادرة على الإرهاب والتعذيب والقتل في البرازيل، وذلك بغية استئصال كل العوامل السياسية والاجتماعية التي كانت قد سمحت في الأساس بظهور كيان مثل حزب الوحدة الشعبية في تشيلي. والحقيقة أن حصيلة الانقلاب التي تمّ إحصاؤها بعد وقوعه بأربعة أشهر كانت مخيفة إذ قتل حوالي عشرين ألف شخص، وتمّ تعذيب ثلاثة آلاف مسجون سياسي بصور وحشية، وتمّ فصل خمسة وعشرين ألف طالب، وتسريح أكثر من مئتي ألف عامل، وقد حدث هذا كله حتى قبل تنفيذ الخطوة الكبرى أي قبل قتل آيندي.

موت رئيس

عندما حانت المعركة الأخيرة كان البلد بأسره خاضعاً لقوات الانقلاب المنتشرة في كل مكان بينما ظلّ سلفادور آيندي متمسكاً بالشرعية ومصرّاً على مبدئه في الجمع بين بغضه الشديد للعنف وبين ثوريته العتيدة، وهو المبدأ الذي جعله يعتقد أن الأحوال في تشيلي ستؤول سلباً إلى الاشتراكية طالما تمّ الحفاظ على إطار من الشرعية البرجوازية. لكن الواقع علمه بعد فوات الأوان أن أي تغيير لا يتحقق بواسطة الحكومة إنما بواسطة مؤسسات الدولة الفاعلة. ولعلّ ذلك الإدراك الذي جاء متأخراً هو ما منحه القوة لكي يواصل المقاومة حتى مات تحت الرماد ووسط النيران في بيت مظلم كان قد بناه مهندس إيطالي كي يكون مبنى لأحد المصارف قبل أن يصير ملجأ لرئيس بلا سلطة. ولقد قاوم سلفادور آيندي لمدة ستّ ساعات كاملة معتمداً على سلاح كان قد أهذاه له فيدل كاسترو، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يستخدم فيها سلاحاً في حياته، أما أوغوستو أوليفارس، الذي قاوم إلى جانبه حتى الرmq الأخير، فقد أصيب بجروح عديدة ومات متأثراً بإصاباته.

وفي حوالى الساعة الرابعة مساءً، تمكن الجنرال خافيير بلاثيوس من الوصول إلى الطابق الثاني برفقة مساعده الكابتن غاياردو وفريق من الضباط. وكان سلفادور آيندي بانتظارهم هناك حيث الصالون الأحمر بأثاثه المقلد من طراز لويس الخامس عشر ومزهرياته الصينية ولوحات الرسام روخنداس. وقد لقيهم بلا ربطة عنق وبساعدين مشمرين ورأس مغطى بخوذة أشبه بتلك التي يلبسها عمال المناجم وملابس ملطخة بالدماء وسلاحه في يده. وكان آيندي يعرف الجنرال بلاثيوس جيداً حتى إنه قبل ذلك بعدة أيام كان قد أخبر أوغوستو أوليفارس عن خطورة هذا الرجل وصلته الوثيقة بسفارة الولايات المتحدة، لذا حالما وقعت عيناه عليه أثناء صعوده السلم صاح به قائلاً: «أيها الخائن» ثم صوب سلاحه نحوه فأصابه في يده. وقد لقي آيندي حتفه أثناء تبادلته إطلاق النار مع هؤلاء الضباط الذين قاموا - وكأنّ هناك امتثالاً لطقس من الطقوس الغامضة- بالتناوب على إطلاق الرصاص تباعاً على جثة الرجل قبل أن يقوم أحدهم بتحطيم وجه الجثة بكعب بندقيته كما هو مثبت في الصور التي التقطها المصور خوان إنريكي ليرا التابع لجريدة «المركوريو»، وكان الوحيد الذي سمح له بتصوير الجثة. ولفرط ما حطموا رأسه لم يسمحوا فيما بعد لزوجته السيدة أورتنسيا آيندي بأن تكشف وجهه عندما أطلت لتراه في مرقده داخل التابوت.

كان آيندي قد أكمل عامه الرابع والستين في شهر تموز/يوليو السابق على موته. كان من مواليد برج الأسد الذي تظهر صفاته جلية في عناده وقوة عزيمته وصعوبة التكهن بأفعاله حتى أن أحد وزرائه قال عنه ذات مرّة: «إن ما يفكر فيه آيندي لا يعلمه أحد سوى آيندي». وكان عاشقاً للحياة ومحباً للورود والكلاب وصاحب ذوق كلاسيكي. أما خير شمائله على الإطلاق فكانت السيرة الطيبة التي خلفها وراءه؛ فالفرد قد حباه بشرفٍ نادرٍ ومأسوي في آنٍ واحدٍ، وهو أن يموت مدافعاً بالنار عن حقوق طبقة بورجوازية واهية وعن محكمة عليا خذلتها بإعطائها الشرعية لقاتليه، وعن برلمان بائس نزع عنه الشرعية رضوخاً للمعتدين، وعن معارضة باعت نفسها لقوى الفاشية، وعن نظام عقيم كان هو نفسه قد اعتزم تصفيته لكن دونما إطلاق رصاصة واحدة. والحقيقة أنّ تلك الحادثة، وإن كانت قد وقعت في تشيلي- لسوء حظ التشيليين- غير أنها تفرض نفسها كجزء من تاريخ الإنسان المعاصر، أي جزء من ذاكرتنا الجمعية إلى الأبد.

حوار مع فيليب أغى¹¹

خسر سلفادور آيندي انتخابات الرئاسة التشيلية التي جرت في أيلول/سبتمبر عام 1964 لصالح إدواردو فراي مرشح حزب الديمقراطية المسيحية. بدا هذا الأمر في حينها مجرد حلقة من حلقات ممارسة الديمقراطية العريقة والهادئة في تشيلي. لكننا إذا ما حاولنا إعادة تقويم الموقف الآن لتبين لنا أن خسارة سلفادور آيندي تلك لم تكن سوى انتصاراً خفياً لوكالة المخابرات الأميركية (السي آي إيه) التي أنفقت ملايين الدولارات على دعم أحزاب اليمين وشراء أصوات مرتزقة لمناهضة المرشح الاشتراكي. هذه هي إحدى الحقائق الكثيرة التي يميظ عنها اللثام اليوم عميل سابق للسي آي إيه في مدينة مونتيفيديو يدعى فيليب أغى ضمن كتاب يصدر له في شهر كانون الثاني/يناير عن دار نشر بنغوين اللندنية بعنوان «من داخل المؤسسة: مذكراتي عن السي آي إيه». ويقول في كتابه: «واجهنا آنذاك مشكلة عجز مكتب التمويلات التابع للسي آي إيه في واشنطن عن الحصول على كميات كافية من العملة التشيلية من بنوك نيويورك مما اضطره إلى شرائها من مدينة ليما أو مدينة ريو دي جانيرو. لكن حتى هذه الوسيلة لم تفلح في توفير كل ما كنا نحتاج إليه من عملة». ويضيف قائلاً: «كان وكيلنا المكلف بشراء ما نحتاج إليه من عملة هو بنك فرست ناشونال سيتي بنك في مونتيفيديو، فهو الذي أرسل رجاله إلى مدينة سانتياغو كي يقوموا وبسريرة تامة بشراء كميات متفرقة من عملة الإسكودو التشيلية¹². فعادوا في غضون يومين بالكمية المطلوبة مخبأة بالطريقة المعهودة أي في حقائب ثياب نجحوا في تهريبها عبر جمارك المطار بعد رشوة العاملين فيه». كانت كمية العملة التي حصلوا عليها هائلة لدرجة أن أغى أمضى يوماً كاملاً في إحصائها قبل أن يقوموا في اليوم التالي مباشرة، حسبما يقول في كتابه، «بإرسال تلك الكمية من العملة ثانية إلى سانتياغو بواسطة الحقيبة الدبلوماسية».

والحقيقة أنه تسنى لفيليب أغى أن يحكي لي هذه الأمور بنفسه إبان مقابلاتي إياه في لندن والتي حادثني خلالها بلغة أسبانية سليمة ووجه ملامحه أشبه بمحيا طالب رياضيات مجتهد، وإن ظلّ تواضعه أكثر سماته لفتاً للنظر رغم حمله شهادة تخصص في علم الفلسفة من جامعة نوتردام الواقعة في مدينة ساوث بند بولاية إنديانا. كانت تلك المدينة هي المكان الذي بدأ منه العمل لحساب «السي آي إيه» وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره. وعلى مدار العشرة أعوام التالية تنقل بين

مدن كيتو ومونتيفيديو والمكسيك، قبل أن يترك الخدمة عام 1969 عندما تبين له من خلال تجربته الشخصية أن الولايات المتحدة إنما تدعم الظلم والفساد من أجل ضمان استمرار سيطرتها الإمبريالية وتوسعها في أميركا اللاتينية. وقد قضى الأعوام الثلاثة الأخيرة في مكان ما من العالم عاكفاً على تأليف كتاب يسرد فيه تجربته، فكان هذا الكتاب القوي والجاد والحاسم الذي لا يسع المرء سوى قراءته بنهم شديد. وكاد كلانا بعد جلستنا المطولة والثرية التي محصنا خلالها المعلومات والأحداث أن يسامح «السي أي إيه» عن كل خطاياها لأننا خلصنا إلى أنه، رغم جبروتها وأموالها، ما كان لها أن تنفذ أيّاً من أهدافها لولا تواطؤ بعض حكومات أميركا اللاتينية أو خسة بعض موظفيها أو فساد أكثر ساستها. ففي الإكوادور مثلاً، كان الطبيب الشخصي للرئيس فيلاسكو إيبارا -و هو كولومبي الأصل ويدعى فيليب أوقايي- يبيع تقريراً أسبوعياً «للسي أي إيه». كما سهل تواطؤ موظفي هيئة البريد هناك عملية إيصال الحقائق الدبلوماسية الواردة من كوبا والاتحاد السوفياتي والصين إلى مكتب «السي أي إيه» كي يقوم أحد الضباط العاملين فيه، وكان يدعى جون بيكون، بفتح الطرود وتصويرها ثم إغلاقها وإعادة ثانياً إلى إدارة هيئة البريد. بل كان أحد سفراء الإكوادور أنفسهم لدى الأمم المتحدة عميلاً «للسي أي إيه». كذلك كان حال ثلاثة من دبلوماسيي الأوروغواي العاملين في هافانا، وحال أحد مراسلي وكالة أنباء «أنسا» في مونتيفيديو، وحال موظفة الآلة الكاتبة التي كانت تعمل في مكتب القيادة العسكرية التي تولت السلطة بعد الرئيس أروسمينا، وحال أحد وزراء المالية، وحال اثنين من زعماء الحزب الاشتراكي المسيحي، وحال أحد وكلاء السيارات في مدينة غوايكيل، وكذلك مدير المبيعات بشركة فيليب موريس في أميركا اللاتينية، بل وحال خوانيتا، أخت فيدل كاسترو شخصياً. وما كان «للسي أي إيه» أن تتمكن من تخبئة ميكروفوناتها في العديد من فنادق أميركا اللاتينية لولا مساعدة أصحاب تلك الفنادق أنفسهم، وما كان لها أن تتنصت على محادثات ساسة اليسار لولا مساعدة أجهزة المخابرات المحلية ذاتها التي لا تتوانى عن مد الوكالة الأميركية بقوائم يومية بأسماء المسافرين أو بيانات شخصية عن أي من المواطنين. وما كان لمكتب «السي أي إيه» في مونتيفيديو أن يتحكم في عدد لا يحصى من المحادثات الهاتفية لولا توافر شبكة سرية مكونة من حوالى ثلاثين زوجاً من الخطوط التليفونية أمدته بها مصلحة التليفونات المحلية نفسها. وبروي أغى في كتابه أنه بعد انتخاب أروسمينا رئيساً للإكوادور، قام رينالدو فريا نائب رئيس مجلس الشيوخ بالأكوادور بتحديد موعد مع تيد نولاند، مدير «السي أي إيه» في مدينة كيتو، كي يساعده في الحصول على منصب نائب رئيس الجمهورية. وبالفعل قام نولاند بطلب مساعدة الزعيم المحافظ أوريليو دافيللا وحقق لرينالدو فريا مطلبه. والغريب في الأمر أن كلا الرجلين، فريا

ودافيلاً، لم ينشغلا كثيراً بكونهما تحولاً بهذا الشكل إلى مجرد أجيرين يعملان لمصلحة نولاند. ومما يؤكد ذلك هو سعي رينالدو فريا بعد حصوله على منصب نائب الرئيس لمطالبة «السي آي إيه» برفع عمولته التي يتقاضاها من الوكالة من ست مئة إلى ألف دولار شهرياً، بل وأخذ وعداً منها بمضاعفة هذا المبلغ حال وصوله إلى الرئاسة. وبالطبع لم تكن الرشاوى التي تبذلها «السي آي إيه» كلها ضئيلة بهذا الشكل. فلقد عرضت مثلاً رشوة بمبلغ ثلاثين ألف دولار لتجنيد ضابط استعلامات في سفارة كوبا بمدينة مونتيفيديو لقاء تقرير وافٍ عن عمليات المخابرات الكوبية، وزادت عليها خمسين ألف دولار نظير مفاتيح الرسائل المشفرة، فضلاً عن ثلاثة آلاف دولار شهرية إضافية لقاء خدماته «للسي آي إيه» أثناء انتدابه فيما بعد في أي من سفارات كوبا. إذن، ليس من المستغرب بالمرّة أن يبلغ أحد بنود ميزانية «السي آي إيه» المتعلقة بأميركا اللاتينية - ولم يكن سوى بند النفقات النثرية- سبعة وثلاثين مليون دولار عن عام 1967 وحده، وذلك لأنّ جلّ هدف الولايات المتحدة آنذاك كان التسبب بقطع العلاقات بين دول أميركا اللاتينية وكوبا حتى يتمّ تهميش الأخيرة تماماً. ومن ثمّ دعمت الولايات المتحدة انقلابات عسكرية ومولت إضرابات تضر بالأمن العام، وسانددت عمليات قمع دموية ضد حركات الاحتجاج الشعبية والطلابية وأغدقت الأموال على أحزاب اليمين والرشى على الإصلاحيين، ووطدت سلطة الجماعات المسلحة، وجعلت الجامعات بؤراً سهلة الاستقزاز والتأجيج، واستغلت طلاباً حسني النية في توزيع منشورات داعية لانقلابات كان قد تمّ طبعها أساساً في سفارات الولايات المتحدة. وفي هذا الصدد يقول آغوى: «غالباً لم يكن أي من هؤلاء الطلبة - سوى زعمائهم المدفوعي الأجر- يدري بأنه إنما يخدم السي آي إيه»، بل كانت كل الشعارات التي رسمت في تلك الفترة على الجدران سواء ضد كوبا أو لمصلحتها -بحسب الحسابات السياسية السرية في حينها- تتمّ بتمويل من «السي آي إيه» نفسها. ويروي آغوى في كتابه أيضاً كيف أطاحت مكالمة تليفونية حاسمة الرئيس فلاسكو إيبارا عندما رفض قطع العلاقات مع كوبا. ويحكي كيف أطيح أيضاً خليفته، أروسمينا، لأنه وجه إهانة إلى سفير الولايات المتحدة. كما يروي عن عمليات إطاحة كلّ من فرونديزي في الأرجنتين وكوادروس في البرازيل لرفضهما قطع العلاقات مع كوبا. ويقول آغوى إنه عندما رضخت الإكوادور عام 1962 للضغوط الهائلة التي مارستها الولايات المتحدة: «احتقلنا بذلك النصر بشرب الشمبانيا في مكاتبنا في كيتو، وانهاالت علينا رسائل التهنئة من مكتبنا الرئيسي في الولايات المتحدة». لكن بعد ذلك التاريخ بعامين، كان آغوى جالساً في المكتب الرئيسي للوكالة بواشنطن ليتابع باهتمام بالغ المؤامرة التي حاكتها الولايات المتحدة لطرد كوبا من منظمة الدول الأميركية. وكانت المؤامرة قد بدأت بحملة تشهير شنت على كوبا إثر إعلان فنزويلا عثورها على شحنة

سلاح في أراضيها ادعى أحد تجار السلاح البلجيكيين أنه كان قد باعها إلى كوبا. ولم تنطل تلك القصة على أغى الذي كان يتابع الأحداث من مرصده في واشنطن، إذ يقول: «بدا لي أن حملة التشهير برمتها ضد كوبا ما كانت سوى عملية مدبرة من قبل مكتب السي آي إيه في كاراكاس، وأعتقد أن الوكالة هي نفسها التي دبرت مسألة شحنة السلاح تلك ربما بمساعدة المخابرات المحلية في فنزويلا».

ولعل أكثر عمليات الوكالة تحدياً ونجاحاً كانت تلك المتعلقة بالبرازيل. وكان نولاند على إثر عودته من رحلة إلى ريو دي جانيرو في عام 1963 قد أفصح لأغى «إن البرازيل هي معضلتنا الكبرى في أميركا اللاتينية، بل هي الأخطر منذ أزمة الصواريخ مع كوبا». ولكي تتغلب «السي آي إيه» على تلك المعضلة قامت بتمويل مرشحي اليمين خلال الحملة الانتخابية عام 1962 بتكلفة «لم تقل حتماً عن اثني عشر أو عشرين مليون دولار». وظلّ ضغطها يزداد شراسة حتى تسنى لها في عام 1964 ليس فقط إطاحة الرئيس غولار بل وتوطيد القوة الغاشمة للجماعات المسلحة. وفي هذا الصدد يقول أغى: «يبدو أن ذلك حدث بناء على قرار من الرئيس جونسون نفسه لا لتجنب حدوث انقلاب مضاد على المدى القصير فحسب، بل لتأسيس سلطة داخلية تضمن للولايات المتحدة سيطرة سريعة وطويلة الأجل». وكانت ثمرة ذلك المخطط الشرير هي سقوط الأنظمة في كل من الأوروغواي وبوليفيا وتشيلي تبعاً.

إن كتاب أغى رائع لأنه يكشف أيضاً تورط «السي آي إيه» في إسقاط شيدي خاغان رئيس وزراء دولة غوايانا البريطانية، ويفضح كيف أن الوكالة كانت وراء إرسال أسلحة عبر الحقيبة الدبلوماسية الصادرة من ميامي من أجل تصفية الديكتاتور تروخييو في سانتو دومينغو فور قرار حكومة الولايات المتحدة التخلي عنه. ويميط الكتاب اللثام أيضاً، عن حقيقة تلقي فرق التعذيب في أميركا اللاتينية تدريباتها داخل مؤسسة خاصة بمنطقة قناة بنما، ويثبت بالدليل القاطع أنه في الوقت الذي طُرِدَ فيه كوبا من منظمة الدول الأميركية عام 1964 كانت تتوافر أسباب أخرى أكثر وأولى تقتضي طرد الولايات المتحدة نفسها من المنظمة لتدخلها السافر والدموي في الشؤون الداخلية لدول أميركا اللاتينية.

لم يكن يسع فيليب أغى أمام كل تلك الفضائح المذكورة، والتي زادها سوءاً اقتحام قوات المارينز لمدينة سانتو دومينجو، سوى القيام بوقفة مع ذاته تساءل فيها عن ماهية «الهدف من وراء قمع التغيير، إذا كان هذا القمع نفسه يؤدي إلى استمرار الظلم؟». ولم تكن تلك المواجهة مجرد

أزمة عابرة بل كانت موقفاً سياسياً قاطعاً، فما كان منه إلا أن اتخذ قراراً حاسماً بترك «السي آي إيه» والانضمام إلى الثورة في أميركا اللاتينية: وهذا هو فيليب آغوي.

المعركة التي قتل فيها ميغيل إنريكيث¹³

(روتها كارمن كاستييو لغابرييل غارسيا ماركيز)

عقدنا العزم على ترك ذلك المنزل يوم الاثنين التالي كي ننتقل إلى مكان آخر أكثر أماناً، لكن قوات المخابرات المناهضة للشيوعية DINA عاجلتنا وقتلت ميغيل. والغريب أنها كانت المرة الأولى التي تعرضنا فيها للهجوم منذ أن اضطررنا إلى الاختباء بعد وقوع الانقلاب، لأن ميغيل كان يؤمن بأنّ بالمخبأ الأكثر أماناً هو الذي توفره الحياة العامة اليومية، لذا فقد كنا نمارس حياتنا بشكل طبيعي مولين جل نشاطنا سراً للعمل السياسي الموكل إلينا من قبل الحزب.

كان منزلاً كبيراً مكوناً من غرفة جلوس وغرفتي نوم ومكتب وفناء داخلي صغير ملحقة به غرفة ضئيلة المساحة كنا نخبئ فيها السلاح. وكان الحي الذي يقع فيه البيت جميلاً، وسكانه خليط من العمال والطبقة البرجوازية المتوسطة، وكانوا جميعاً في منتهى اللطف والود، ولم يكن ليخطر ببالهم أن ميغيل من أكثر الرجال المطاردين من قبل أجهزة النظام الديكتاتوري في تشيلي. لم يكن أحد منهم ليتخيل هذا لأننا لم نسع إلى الاختباء قط، فعندما ذهبنا للسكن في ذلك الحي، أخبرنا الجيران أن ميغيل مضطر للعمل من البيت نتيجة مرضه بالكلية، وكنت أنا يومياً أنتهز وقت انشغال نساء الحي بالخروج إلى السوق كي أخرج لإجراء الاتصالات اللازمة والحصول على المعلومات التي كانت تتوالى من مختلف أجهزة الحزب. وجاءت ابنتا ميغيل، خيمينا وكاميل، لتقيما معنا لشهور عدة وكنا قد دربناهما على التعامل معنا أمام الناس بصورة لا تفضح أمرنا. وإنه لمن حسن الحظ أننا أودعناهما إحدى السفارات استعداداً لترحيلهما خارج البلاد قبل موت ميغيل بثلاثة أيام فقط. ومما زاد من ترسيخ صورة الحياة الطبيعية التي كنا ندعي أننا نحياها هي كوني كنت في الشهر السادس من الحمل، فكان من الصعب أن يرتاب أحد في أن تكون امرأة مثلي متورطة في عمل سياسي كبير وخطير كهذا. أما التخفي الوحيد الذي كان يلجأ إليه ميغيل كلما أراد الخروج إلى الشارع، فكان بأن يخلق ذقنه ويمشط شعره بصورة مختلفة ويضع نظارات طبية. لكنه ظلّ يقود سيارته الفيات بنفسه. وبالطبع كان يقودها مستخدماً رخصة مزورة وإسماً مستعاراً.

أما معضلتنا الحقيقية فكانت فيما تحتم علينا حمله من سلاح. وبينما كانت الملاحظات تشتد علينا في الأشهر الأخيرة، حدث ذات مرة أن وجدنا أنا وميغيل نفسينا وسط مدينة سانتياغو في مواجهة حائط بشري من العسكر الذين كانوا يفتشون المارة. وكنا مدركين أنه بمقدورنا المرور من دون افتضاح أمرنا بمجرد إبراز بطاقات الهوية المزورة، لكن مشكلتنا الحقيقية كانت فيما كنا نحمله من أسلحة. لذا تأهبنا للمواجهة وكان أماننا خياران لا ثالث لهما: إما أن نمر بسلام وإما نطلق النار لنفتح طريقاً لأنفسنا. لكن كأن شيئاً غريباً دعا كلاً منا في تلك اللحظة بالذات إلى فعل الشيء نفسه ألا وهو تحية الضباط بود كما لو كنا أصدقاءهم أو حلفاءهم، فتمكننا من اجتياز العربات الخمس والدبابات العديدة دون أن يتعرض لنا أحد بل بادلونا جميعاً التحية.

بعدما تمكننا من تأمين ابنتي ميغيل، قرر الحزب أن على ميغيل التواري عن الأنظار وعدم تنفيذ أي مهمة أخرى تعرضه للمواجهة. في ذلك الوقت تولى أندريس باسكال- الذي حل فيما بعد محل ميغيل في الأمانة العامة للحزب- مهمة تنفيذ تلك العمليات كي يتفرغ ميغيل بالكامل لتحليل التقارير وإعداد الوثائق اللازمة. بمعنى أن عمله الأساسي صار التفكير والتخطيط للحزب. فكان يدرس بعمق الأزمة الاقتصادية العالمية وتاريخ أميركا اللاتينية ووضع تشيلي في العالم. وكان يمضي أوقاتاً كثيرة في المساء عاكفاً على قراءة الموسوعة البريطانية أو على تفحص خريطة ضخمة للعالم، بينما كنت أتولى أنا مهمة الخروج إلى الشارع كي أجمع المواد التي يبعث لنا بها المناضلون. لكن العناء الحقيقي كان يبدأ دوماً بعد عودتي بكل تلك الأوراق إلى المنزل، فنفتح تلك الحقائق ونجابه حقيقة الأبعاد السياسية والمقترحات الواردة من قبل القاعدة العامة التابعة للحزب.

الغريب أن ميغيل لم يتحدث قط عن الموت رغم علمه بمطاردته له. كان عاشقاً للحياة، وبحكم كونه طبيباً فقد كان يعلم أن الصحة واللياقة الجسدية ضروريتان للنضال الثوري، فكان يقضي ساعة كل صباح في ممارسة الرياضة ويجبرني أن أقوم بالتمارين معه، ثم يتناول فطوراً وفيراً. وكان ذواقاً لما طاب من الطعام وعليماً بأجود أنواع النبيذ، وكان يخصص وقتاً للاستماع إلى الموسيقى، فلقد كان متيماً بالموسيقى الشعبية لأميركا اللاتينية ومحباً للتانغو ومغرمًا ببعض موسيقى واغنر، لكنه كان مضطراً للاقتصار على ما نملك من أسطوانات وكانت في مجملها قليلة. وكان من يزورنا من الأصدقاء في تلك الفترة غالباً ما يمكث معنا لتناول الغداء وأحياناً للمبيت، وبما أنهم كانوا جميعاً من أعضاء الحزب فقد كان حديثنا غالباً ما يدور حول العمل السياسي. وذات يوم حدثني ميغيل فجأة عن الموت. كان ذلك قبل مصرعه بخمسة عشر يوماً. وبداء لي الأمر غريباً فلم أدر ما بوسعي أن أقول. لكنني تيقنت تلك الليلة أن ميغيل لم يكن يخشى الموت إنما عازم

فقط على عدم الخروج للبحث عنه بنفسه لإيمانه بعدم ضرورة القيام بتضحيات عديمة الجدوى. وأنا أؤكد هذا الأمر لأن ميغيل إنريكيث لم يكن يسعى قط، وهو بعد في الثلاثين من عمره، للموت بتلك الطريقة، بل كان عازماً على النضال حتى النصر ولم يكن مستعداً للخسارة. كان يعلم ماذا يريد وكان يعلم كيف يحققه، وكان على اقتناع تام أن دوره الأهم سيبدأ بعد النصر. وكان يحمل بداخله العزم على أن يكون زعيماً يسارياً ذا قيادة ورؤية، وجميعنا كنا نعلم عنه ذلك، فهو كان يشعر أن واجبه يحتم عليه الحفاظ على حياته.

وقعت المواجهة التي قتل أثناءها ميغيل يوم السبت الموافق 5 تشرين الأول/أكتوبر 1975. وكنا قبل ذلك بعدة أسابيع قد شعرنا بأن هناك شيئاً ما يحدث، وعلى الرغم من عدم تمكننا من تحديده بوضوح إلا أن شعورنا كان كفيلاً بدفعنا إلى محاولة ترك ذلك المنزل فوراً. فالضربات المتتالية التي كان ينهال بها النظام على حزبنا أكدت لنا أنه بدأ يتتبع آثارنا، وأن لديه معلومات شبه وثيقة فلعل أحدٌ وشى بنا. لذا أسرعت في العثور على منزل صغير من غرفتين كان مظهره العام أقل إثارة للشكوك لكونه محاطاً بأشجار فاكهة ومحتوياً على حظيرة دواجن، فضلاً عن وقوعه في منطقة هادئة كانت ستسمح لنا بالمكوث فترة طويلة دون أن يفتضح أمرنا لولا أن وقعت لنا مجموعة من الأحداث تسببت في تعطيل خططنا. فعلى سبيل المثال، بعد أن دلني أحد معارفي على شخص بمقدوره لعب دور الوسيط وشراء المنزل الجديد باسمنا، فُبِضَ على ذلك الوسيط عينه يوم الخميس الموافق 3 تشرين الأول/أكتوبر. ولم أتمكن في اليوم التالي، الجمعة، من تدبير أي شيء، فاضطررت إلى الخروج مرة أخرى يوم السبت تاركة ميغيل في المنزل ليعمل مع زملاء آخرين لنا في الحزب. لكن فشلت كل مساعيّ خلال الصباح. وأثناء عودتي توقفت عند أحد المحال القريبة لأشتري طعاماً، ولما رجعت إلى البيت في الساعة الواحدة محملة بالأكياس استقبلني ميغيل وكان مرتدياً قميصه الأزرق السماوي وكنزته البيج ونظارته التي كان يضعها فقط عند الخروج. وقال لي بهدوء لكن بحسم: «علينا المغادرة فوراً»، موضحاً أن سيارتين تابعتين بلا شك للمخابرات قد مرتا ببطء أمام المنزل، عندئذ تأكدت شكوكنا بأن مخبأنا قد انكشف ولم يعد بوسعنا أن نضيع ثانية واحدة.

كان كل شيء معداً للهرب، فالسيارة جاهزة في الكاراج وفي داخلها أمتعتنا، ولم يكن يتبقى سوى حقيبتين في غرفة النوم كانت فيهما أوراق هامة. وكان زميلانا الآخران، أومبرتو سوتومايور وكونيو مولينا (الذي قتل بعد ذلك بعدة أيام على يد الشرطة في أحد شوارع سانتياغو) لا يزالان معنا في البيت. وكنا في طريقنا نحو الكاراج عندما اقترب أحد الزميلين من النافذة

وصاح «ها هم مجدداً». عندئذ فقط أدركنا أنهم بصدد الانقضاض علينا من فورهم، وبالكاد تمكنا من التقاط أسلحتنا في اللحظة ذاتها التي انهالت طلقات الرشاشات على واجهة المنزل. فعاجلهم ميغيل بالرد من نافذة غرفة الجلوس بعدما هرع إلى سلاحه الذي كان يحتفظ به دوماً قرب الفراش. بينما أخذ زميلانا الآخرين يطلقان النيران من أماكن متفرقة. وشرعت أنا بدوري في إطلاق النيران من غرفة النوم مستخدمة سلاحاً صغير الحجم. ولم أكن قد تلقيت تدريباً عملياً على استخدام الأسلحة، لذا فإن مجرد سماعي دوي الطلقات الصادرة من قلبي كان مفزعاً. كنت أصوب باتجاه الشارع دون أن أرى أحداً بعينه كأنما كنا نصارع وحشاً خفياً. وفجأة، بعد حوالي عشر دقائق من إطلاق النار، توقف سيل الرصاص فأشار إليّ ميغيل بيده نحو الباب كي نهرب عبر الفناء الخلفي. فاجتذبت إحدى الحقائق التي كانت تحوي الأوراق والتي كنت مسؤولة عن تأمينها. وفي تلك اللحظة بالذات شعرت بانفجار ولطمة مميتة، وشعرت بأن ذراعي اليمنى ممزقة ورأيتها متدلية ومضرجة بالدماء وفقدت شعوري بها. كانت إحدى القنابل قد أقيت من الشارع وانفجرت في غرفة الجلوس ونالتني شظاياها فهتكت ذراعي وأصابنتي بجروح متفرقة في جسدي كله، فوقعت أرضاً لكني لم أشعر بالألم أو خوف بل شعرت أن الموت وشيك. وشعرت بزميلنا «مولينا» يمر من جانبي وهو يصوب طلقاته باتجاه باب البيت وسمعته وكأنه يقول: «يبدو أنهم قد نالوا منك» أو شيئاً من هذا القبيل. فحاولت أن أقوم لكني لم أستطع ووقعت عيناى على ميغيل وقد سقط أرضاً على ظهره عند مدخل الكاراج وكان سلاحه لا يزال في يده بينما لطخت الدماء وجنتيه ولاسيما اليسرى. كانت عيناه لا تزالان تتحركان وكان نظره مثبتاً عليّ وهو يتنفس بصعوبة. كانت رؤيتي له على تلك الحال أكبر من احتمالي ففقدت الوعي. ومنعني إغمائي من معرفة ما حدث لمولينا أو سوتومايور. جل ما استطعت أن أتبينه بوضوح عند استردادي الوعي هو أنه لم يعد في المنزل سواي أنا وميغيل. لم أتمكن من الحركة لكني رأيته مستنداً إلى حائط الكاراج بينما كانت بقعة الدماء لا تزال على وجنته وهو مستمر في إطلاق النار بهدوء. وآخر ما أذكره عنه قبل أن أفقد الوعي ثانية هو وجهه وقد اقترب مني كأنما انثنى على ركبتيه ليقول لي شيئاً لم أستطع فهمه.

لا أعرف كم مضى عليّ من الوقت في تلك الحال قبل أن أفيق ثانية؛ فوفقاً لتصريحات الحكومة الفاشية استمرت تلك المعركة مع ميغيل ساعتين. وكان أول ما فاجأني عند استردادي وعيي هو الصمت المطبق في المنزل الخاوي. لم أكن أشعر بالألم ورغم عدم تمكني من الحراك فقد داخلني اقتناع عجيب بأنني لن أموت. وعندما اقتحم أول شرطيين الباب واندفعوا داخل المنزل الصامت شعرت بخليط من الرعب والارتياح وقلت لنفسى «تّباً! سيخرجونني من هنا وغالباً

سوف أبقى على قيد الحياة»، عندئذ انقض أحدهما عليّ وضربني على وجهي فكسر إحدى أسناني وصرخ بي: «أيتها العاهرة، ماذا كنت تفعلين هنا؟». لكن الشرطي الآخر أمره بأن يتركني صائحاً به: «هذه المرأة حامل. أخرجوها من هنا». وأذكر أنهم سحبوني باتجاه الشارع وسط أوامر متضاربة حول الإتيان بسيارة إسعاف لي أم لا. وكانت هناك جموع من الناس متجمهرين في الشارع والعديد من سيارات الشرطة، ولم أزل أسمع دوي صفارات إنذار ودوي طلاقات نارية مصوبة نحو المنزل، ما جعلني أظن أن ميغيل لا يزال على قيد الحياة يقاومهم. وفور دخولي سيارة الإسعاف انتابتنني رغبة عارمة في الوصول بسرعة إلى أي مكان، لكن الشرطيين اللذين صعدا معي اختلفا حول مصيري إذ رغب أحدهما في اقتيادي إلى السجن بينما أراد الآخر أخذني إلى المستشفى. وتمكن الأخير من فرض رأيه فكانت رؤيتي للأطباء والممرضات بمثابة نفحة حياة جديدة، وصار جل همي أن يقوم أحدهم بإبلاغ زملائي بأني ما زلت على قيد الحياة، فقد رأينا ما حدث مع زملاء آخرين لنا عند القبض عليهم، إذ كان العسكريون يسارعون في إعلان موتهم زوراً قبل أن يقتلوهم في غرف التعذيب فيما بعد. لذا فإنه فور انفرادي بإحدى الممرضات التي كانت تنقل لي دماً سارعت إلى القول: «أبلغني عمي خايمي كاستييو بمكاني»، وأعطيتها رقم تليفونه، فهاتفته وأنقذت حياتي. وكانت أخبار الحادث قد أثارت دويّاً عالمياً أسفر عن موجة من التضامن معي شكلت ضغطاً على الحكومة العسكرية، وكنت طوال فترة وجودي في المستشفى أجهل وجود هذا التضامن. لكن لاحقاً، وبعد ساعات لا تحصى من التحقيق والمشادات بين المحققين الذين كانوا يحاولون استخراج معلومات مني بالقوة من جهة، والأطباء الذين يتولون علاجي من جهة أخرى، وبعد عملية جراحية دقيقة لعلاج ذراعي التي لا تزال عاجزة، وبعد أن تلقيت في المستشفى خبر موت ميغيل المفجع وقلقي حيال مستقبل ابنه الذي كان قد بدأ يتحرك في أحشائي، وبعد العديد من ليالي الوحدة والرعب، أسفر ذلك التضامن عن مجيء ضابط من الجيش جعلني أمضي العديد من الأوراق قبل أن يصطحبني إلى المطار وهو يستشيط غضباً ويودعني طائرة دون إخباري بوجهتها. لم يبلغني أحد سوى بعد اقلاع الرحلة أننا كنا في اتجاهنا إلى هنا، أي إلى لندن.

البرتغال أرض أوروبا الحرة¹⁴

دخلني شعور فور وصولي إلى مدينة لشبونة منذ أسبوعين بأني كأنما أعيش مجدداً أجواء شبيهة بوصولي للمرة الأولى، في فترة شبابي، إلى مدينة هافانا، بالتحديد يوم 20 كانون الثاني/يناير 1959، أي بعد اندلاع ثورة كوبا بأيام قليلة. ولم تكن أجواء الصيف الوليد في البرتغال أو رائحة مأكولات البحر التي عبقت بها البلاد أو نسيم الحرية في كل مكان وراء شعوري هذا، بل كانت وراءه أسباب أخرى أعمق. فلقد وجدت الاندماج العرقي الذي أفرزته مستعمرات البرتغال في إفريقيا وقد ظهر جلياً على محيا البرتغاليين وطباعهم بينما ضجت البلاد بلهب موسيقى ساحل العاج وأنغولا الشبيهة بألحان بلادنا الاستوائية. كما وجدت تشابهاً بين القوات البرتغالية العائدة من المستعمرات وقوات كوبا عند عودتها من «السييرا مايسترا» من حيث ميل رجالها إلى إطلاق لحاهم، على الرغم من أنهم في السابق لم يكونوا ليطلقوها سوى في أوقات الحزن. كما ميّزت تشابهاً بينهما أيضاً، من حيث إقبال الجيش البرتغالي على التقارب مع المجتمع المدني؛ فأفراد الجيش يندمجون في الحياة اليومية بينما يذودون عن المجتمع المدني بأسلحتهم. أما وجه الشبه الأكبر بين البرتغال الآن وكوبا التي زرتها منذ خمس عشرة سنة فهي حالة المرح المعدي في دولة لا تعرف النوم، وهي ذات الحالة التي طالما تميزت بها المناطق الاستوائية التي تمتزج فيها السعادة بقلة النظام، فنوافذ المكاتب العامة مضاءة في أي وقت من الليل، والوزراء، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين، قد يعنّ لهم إنجاز بعض مهامهم الوظيفية في الثانية صباحاً. وأذكر أنني عندما كنت في مدينة هافانا منذ أعوام عديدة خلت كنت قد قلت: «لو كان ثمة شيء ليقضي على هذه الثورة فلا بد وأن يكون إسرافكم في الكهرباء». ولم يفعل أصدقائي الكوبيون عند سماعهم قلبي هذا آنذاك سوى ما يفعله أصدقائي البرتغاليون الآن، ألا وهو الإغراق في الضحك والاستمرار في ترك الأنوار مضاءة. وقد أيقنت التشابه بين البرتغال وكوبا عندما رأيت مندوب القوات المسلحة الذي استقبلني في المطار. كان ضابطاً في الثامنة والعشرين من عمره، أسود اللحية، زيتوني البشرة، تطل من عينيه تلك النظرة المجنونة التي تميز كل البرتغاليين، وقد حيّاني بلكنة منطقة الكاريبي قائلاً: «أهلاً يا غابرييل، مرحباً بك في البرتغال، أرض أوروبا الحرة». وهكذا بدأت زيارتي القصيرة والمكثفة للبرتغال والتي أتيح لي خلالها التحدث مع وزراء وعمال وكتاب مرتابين وتجار خائفين وسياسيين متشككين وعسكريين واثقين بسلطتهم، لكن دون أن ألتقي رجل

دين واحداً. فما زادني حديثي مع هؤلاء جميعاً إلا تأكيداً أن انطباعي الأولي بأن وضع البرتغال ليس شبيهاً بوضع أي بلد أوروبي آخر بما في ذلك أسبانيا، بل هو، سواءً بمزاياه أو عيوبه، أشبه ببلدان أميركا اللاتينية.

جدران تضج صرخاً

قال لي أحد أعضاء مجلس الثورة في البرتغال «ليس بمقدور أحد أن يفهمنا سواكم أنتم اللاتينوأميريكيون. فحتى أكثر الأوروبيين تقبلاً للآخر لا يتعاملون معنا سوى من منظور الدول المتقدمة ويعجزون عن إدماجنا في منظوماتهم». وكان محقاً في كلامه إلا أن المعضلة بدت لي أكبر مما صورها بدليل أن رئيس الوزراء البرتغالي نفسه، الفريق فاسكو غونثالث، كان قبل ذلك بعدة أيام قد حث نظرائه خلال مؤتمر حلف الأطلسي على: «إظهار المزيد من التفهم والإقلاع عن التشكك»، لكن بالطبع ما كان لأحد أن يفهم شيئاً إن لم تكن لديه أساساً الرغبة في فهمه. والحقيقة أن الدعوة التي أطلقها رئيس الوزراء وسط خضم المصالح التي تداعت خلال ذلك المؤتمر في بروكسل قد لخصت ببلاغة شديدة معضلة البرتغال وسبب وضعها الحالي والعراقيل التي تعترض مستقبلها. فعلى الرغم من كون البرتغال واحدة من أفقر دول العالم إلا أنها كانت مجبرة، بحكم موقعها الاستراتيجي ونظراً لأسباب تاريخية وجغرافية، على الجلوس إلى الطاولة نفسها بجوار أكثر دول العالم ثراءً وتقدماً، وإن ظلت هي تتحدث بلغة لم تكن أي من تلك الدول على استعداد لتفهمها. لكنها رغم فقرها المدقع وحالتها الرثة، كانت مختالة بماضيها ولاسيما يوم أن كانت لها السطوة على الممرات المائية في العالم.

ولقد ألقى الواقع السياسي في البرتغال بظلاله على كل مناحي الحياة فيها حتى صار كل شيء مُسيّساً، بدءاً بساحة الروسيو في قلب لشبونة وانتهاء بأقصى شبر منسي في نجوعها. فما من سنتيمتر واحد من جدار أو لوحة إعلانية بالطرق أو قاعدة تمثال إلا ويحمل شعاراً سياسياً: فما هو مثلاً شعار «الاتحادات النقابية» الذي رفعه حثيثاً الشيوعيون المنهمكون في اتهام الاشتراكيين بالسعي إلى شقّ صف الطبقة العاملة من أجل إخضاعها لرحمة تيار الاشتراكية الديمقراطية الأوروبي، وها هو الشعار المبهم «نعم للاشتراكية لكن مع الاحتفاظ بالحريات» الذي رفعه الاشتراكيون الذين اعتبروا الستالينية هي الخطر الأعظم، وها هو شعار «لا للإمبريالية الرأسمالية والإمبريالية الاشتراكية» الذي رفعه أحد أحزاب اليسار المتطرف الذي بلغت راديكاليته حد التحريض، وها هو شعار «يعيش المسيح ملكاً» الذي رفعه التيار الكاثوليكي، وها هو شعار

«التصويت الحر هو سلاح الشعب» الذي رفعه الليبراليون، وها هو شعار «السلاح هو صوت الشعب». وكان هناك حزب إضافي رأى الكثيرون أنه ممّول من قبل الصين في حين رأى آخرون، بالطبع، أنه ممّول من قبل المخابرات الأميركية، وكان يغرق البلاد كل صباح بصحف عديدة على درجة عالية من جودة الطباعة، تفصح ممارسات النظام الحاكم، وتشن حرباً ضروساً على الأحزاب الأخرى وتهاجم كل ما يتعارض مع فكرة تولي الشعب السلطة دون استبطاء. وتصدّر مشهد الماء العكر هذا كله صائدان: أحدهما تمثل في مدّعي التقوى الذين انتشروا في كل مكان محاولين إخافة الناس من العواقب الوخيمة لشرب الكحول وممارسة الجنس، أما الآخر فكان تيّار الثورة المضادة اليميني، بإمكاناته الضخمة وأتباعه المتربصين بكل البؤر، والذي ابتز الناس باسم الدين وحاك المؤامرات ضد مصالحهم الاقتصادية وعمل على إشاعة أن البرتغال الجميل الذي طالما امتدحته الأغاني قد ولّى إلى غير رجعة.

الأفلام الفاضحة لها قدرها أيضاً

وبينما كان الجدل حول الواقع السياسي سائداً ومدوياً وحماسياً، كانت الحرية، شأنها شأن كل شيء حديث، تعاني مخاطر حداثتها. فلشبونة كانت من أجمل مدن العالم، لكنها وحتى العام الماضي كانت أيضاً واحدة من أتعس مدن العالم بسبب نظام ديكتاتوري قروسطوي عجيب دام نصف قرن واستمد قوته من بوليس سياسي عديم الرحمة. أما الآن فهي مدينة تعج بحوادث طرق مذهلة، ليس لأن البرتغاليين يقودون بطريقة متهورة فحسب إنما لأنهم يشعرون بأنهم سعداء وأحرار لدرجة تدفعهم إلى عدم احترام إشارات المرور. كما تعج بالمطاعم الراقية حيث قوائم المأكولات البحرية النفيسة، حيث كان البورجوازيون الذين يعانون تردي الاقتصاد يلعنون الشيوعيين جهاراً. وتعج بالمطاعم الشعبية، حيث أطباق الأرز الشهي المطبوخ بدماء الدجاج، حيث كان العاملون يتساءلون إن كان من حقهم أن يقبلوا بقشيشاً في ظلّ النظام الجديد. لا أحد يكف عن الكلام أو الحركة في هذه المدينة ولا أحد ينام، حتى أنك في الرابعة صباحاً من أى يوم من أيام الأسبوع، وليكن الخميس مثلاً، لن تجد تاكسيّاً واحداً فارغاً. وفي اليوم التالي مباشرة لاندلاع ثورة القرنفل، حدث انفتاح جنسي ولا سيما في مجالي الصحافة والمسرح، حتى إن إحدى المسرحيات استخدمت جسد إيفا بيرون كرمز لكيل النقد السياسي، وهو الأمر الذي دفع بحكومة الأرجنتين إلى التهديد بوقف تصدير اللحم إلى البرتغال إذا لم يتم إيقاف تلك المسرحية. ولم يكن هذا التهديد هيناً بما أن الأرجنتين كانت تمد البرتغال بحوالي ستين بالمئة من حاجاتها من اللحم. لكن حكومة البرتغال لم توقف عرض المسرحية بل وسمحت أيضاً، بعرض الأفلام الجنسية في دور السينما بحجة أن الحرية يجب أن تشمل كل شيء. فما كان من آلاف من الأسبان، من ذوي الانتماءات السياسية المبهمة، إلا الاندفاع عبر الحدود نحو البرتغال إقبالا على تلك الأفلام قبل أن يعودوا لعبور الحدود يوم الاثنين بوجوه منهكة من النشوة وصوت حالهم يقول «اللعة، ما هذه الروعة، لا بد وأن هذا لن يدوم». أما الأسبان الذين كانوا يقطنون على الحدود مع البرتغال، في منطقتي غاليثيا واكستريما دورا تحديداً، فقد كانوا أوفر حظاً من الفريق السابق بما أنه كان بوسعهم التقاط إرسال التلفاز البرتغالي. وحتى وقت قريب، لم يكن بوسعهم أن يتصوروا أنه سوف يكون بإمكانهم أن يشاهدوا في عقر دارهم أكثر الأفلام تحريماً في أسبانيا أي «التانغو الأخير في باريس».

الجانب الآخر من الصورة

لكن، للأسف، على الجانب الآخر من كل هذا المرح، كانت الصورة قاتمة. كان النظام الديكتاتوري قد نجح في تحسين حال الاقتصاد وخفض الديون الخارجية، إلا أن ذلك لم يتأتى سوى بواسطة الاستغلال الوحشي لمستعمرات البرتغال في إفريقيا وبواسطة إلغاء ميزانية المصروفات العامة، ما أدى إلى انعدام الانفاق على التعليم والخدمات الصحية وغيرها من أوجه الدعم الحكومي، فصار المواطن البرتغالي بلا أيّ سند أو ثقل. ووفر النظام الديكتاتوري، بما أفرزه من أيدٍ عاملة رخيصة، ظلاً ظليلاً للشركات الدولية في البرتغال، فكانت مهزلة بكل المقاييس لأن تلك الشركات صدرت منتجاتها بأسعار أقل من سعر الكلفة، بما أنها كانت تبيعها من نفسها خارج البرتغال، ثم ادعت أنها منيت بخسائر بالغة كي تمنع البرتغال من الاستفادة من فرض الضرائب عليها. وقد حاولت حكومة الثورة وضع حد لهذا الموقف الشائن بمساعدة العمال الذين يعملون في تلك الشركات ذاتها، وبدلاً من اللجوء إلى التأمين، سعت إلى زيادة إحكام سيطرتها على الصناعات، فما كان من تلك الشركات سوى أن نقلت بمنتهى البساطة نشاطها إلى سغافورة. كان الواقع صعباً وكان البرتغاليون واعين بأن بلدهم في اللحظة الراهنة يستهلك ثلاثين بالمئة أكثر مما ينتج وأكثر من احتياطي ما يملك من ذهب، وبالتالي فإن معدل الاستهلاك الحالي بالكاد يكفي البلاد لبضعة أشهر أخرى.

أما البرتغاليون في الخارج فكان منهم مليون ونصف مليون مهاجر في ألمانيا وسويسرا وهولندا. وعلى الرغم من عملهم هناك في ظروف قاسية إلا أن عودتهم إلى البرتغال حالياً لن تكون سوى كارثية، لأنهم لا يخففون من وطأة البطالة في الداخل فقط، بل يساهمون في تقليل الاستهلاك ويزيدون مدخول البلاد من العملة الصعبة. ولقد حاول بعض الرأسماليين البرتغاليين الفارين إلى الخارج استغلال وضع أولئك المهاجرين عن طريق إنشاء بنوك في عدة مدن أوروبية للاستحواذ على أموالهم. فقامت الحكومة بإرسال عدة وفود سياسية كي تشرح لأولئك المهاجرين مناورات المعارضة، وقد نجحوا في اقناعهم بمعاودة إرسال أموالهم إلى بنوك البرتغال الوطنية.

أما معركة البرتغاليين لإنقاذ السياحة في بلادهم فكانت من أصعب معاركهم على الإطلاق، إذ قام صحفي مشهور من أصل برازيلي، يدعى لا ثيردا، بنشر مقال أكد فيه أنه يتم اغتصاب الأجنيبيات في شوارع لشبونة. وأشيع أن الشواطئ مزرجة بالدماء، وأن المسلحين يتعقبون الناس على الطرق السريعة، وأن البلشفيين يأكلون الأطفال. فما كان من أفواج السياحة التي كانت تترك اليونان وقبرص لتلوذ بالبرتغال إلا أن بدأت تبحث لها عن وجهات أخرى. ولم يعد في فندق الريتز

بجلاله وعظمته في شهر أيار/مايو سوى نزيلين. في المقابل، كانت هناك فنادق أخرى تمتلئ بطفيلي الثورة وبالانتهازيين الذين يفدون من كل أنحاء العالم للاستمتاع بشمس البلاد الساطعة. أما المفارقة الكبرى فهي أن هؤلاء الانتهازيين هم ذاتهم من وفدوا قبل ثلاث سنوات على تشيلي، بل وهم ذاتهم من وفدوا قبل ذلك أيضاً، على هافانا، حيث ظل الحال على ما هو عليه حتى نضجت الثورة فوضعت حداً لكل ذلك اللغظ.

كم من الطرق تقود نحو الاشتراكية

على الرغم من كل هذا المشهد المظلم، لم يبد أن البرتغاليين خائفون، بل العكس صحيح، فإن «الثورة الحقيقية هي الشعب»، وهذا ما يقوله أعضاء حركة القوات المسلحة وهم أصحاب السلطة السياسية الحقيقية وأصحاب الحق في إطلاق النار، وهم يقولونه بعفوية شديدة وإيمان صادق. فعلياً ألا ننسى أن البرتغاليين، على مدار تاريخهم، مشهورون بأنهم أصحاب رؤية. لذا فإنه بوسع العسكريين، وسط كل تلك الأحوال البركانية التي تعيشها البلاد، أن يضطلعوا بأكبر المهام، وأن ينجزوها بإتقان وبعزيمة لا تلين.

كان شعار الحركة الذي يرمز له بحروف معدنية منتشرة في كل مكان ويبدو كأنه لوحة فنية، وكانت صحف الحركة هي الأكبر والأكثر ظهوراً، وكان جلُّ هدفها جمعاً هو إدماج الشعب والقوات المسلحة في كتلة واحدة موحدة. والحقيقة إنه لم يكن بهم حاجة لرفع أية شعارات مكتوبة، لأن مبادئهم كانت جلية على وجوههم، فهم يعرفون ماذا يريدون ويعلمون الوقت المناسب لتحقيق ما يريدون. ومعظمهم لم يكونوا سوى طلبة جامعيين عندما استدعاهم النظام الديكتاتوري لاستغلالهم في حروب الجيش في المستعمرات، فتعلموا السياسة من خلال تعاملهم مع العدو، أما الآن فهم يمارسون الثورة عملياً ويعملون دون التقيد بساعات عمل ودون توقف، سواء في الإدارة العامة أو في حملات تسييس الفلاحين، ويعملون كل ذلك بجدية شديدة ولكن بشيء من التبسيط، فالديمقراطية، حسبما يقولون، تبدأ في الثكنات: فالضباط والجنود يتعاملون بلا تكلف ويتقاسمون غرف النوم والطعام. وللمرة الأولى في تاريخ الإنسانية صار للجيش حق عدم الامتثال للأوامر إن لم يشرح الضباط الهدف منها.

أما العبارة التي يكررها الجميع فكانت: «نحن في طريقنا نحو تطبيق الاشتراكية»، لكن لم يكن بوسع أحد حتى الآن أن يحدد أي شكل من أشكال الاشتراكية قابل للتنفيذ في ظل الأوضاع

الحالية في البرتغال. غاية ما في الأمر أن بناء اشتراكية على الطريقة البرتغالية، تكون لها استقلالية عن أيّ مركز سلطوي عالمي ومرتكزة على قيم الإبداع والإنسانية، بدا أنه الهدف الأكبر الذي حددته حركة القوّات المسلحة بمعاونة غير مشروطة من حليف هو الوحيد حتى الآن: أي الحزب الشيوعي. إذن، التحدي كبير، لكني على قناعة تامة إنهم سيبلغون هدفهم.

بماذا يفكر الشعب؟

يعتقد الكثيرون في البرتغال أن إجراء انتخابات 25 آذار/مارس كان الخطأ الأول والأكبر للثورة. فلقد أجريت تلك الانتخابات دون رغبة الحزب الشيوعي، وقد خرج منها باثني عشر بالمئة من الأصوات فقط، بينما شجع عليها الحزب الاشتراكي، وقد حصد فيها ثمانية وثلاثين بالمئة من الأصوات. وقد اتفقت كل التحليلات الجادة على أن تلك النتائج لا تعكس الواقع، ففي ظل الظروف الراهنة في البرتغال، لم يكن معقولاً قياس الواقع السياسي بناء على عدد الأصوات. وحسبما قال لي أحد الأساتذة الجامعيين، فإن «ظاهر الأمر هو حصول الحزب الاشتراكي على العدد الأكبر من الأصوات، لكن واقع الأمر هو إن الحزب الشيوعي كان صاحب السطوة السياسية الكبرى بما أنه الأكثر اندماجاً في القاعدة الشعبية. وما كان تصويت اليمين المعتدل لصالح الاشتراكيين سوى محاولة للتخفي وراء شرعية الانتخابات إلى أن تسنح له فرصة فيضع حداً للثورة». إذن، كانت تلك الانتخابات هي السبب وراء الكثير من المشكلات التي تواجهها البرتغال اليوم، ولا سيما لتأجيجها الصراع بين الحزبين الشيوعي والاشتراكي، وهو الأمر الذي أعطى الفرصة لليمين كي يشن حملة تشهير من خارج البلاد ضد الحكومة البرتغالية واضعاً إياها في وضع لا تحسد عليه. وقال لي أحد أعضاء مجلس الثورة: «لقد وقعنا في فخ عقيم. فلقد أطلق الوعد بإجراء انتخابات وسط فرحة انتصار الثورة دون علم حقيقي بأحوال البلاد، وكان عدم إجرائها يضع صدقية المجلس العسكري على المحك». فأجبتة موضحاً: إن الثورة الكوبية، رغم كل ما تعرضت له من ضغوط، لم تقع في مثل هذا الفخ. فعاجلني بالرد قائلاً: إنّ الانتخابات التي أجريت في كوبا كانت فاقدة الصدقية نظراً للتزوير الذي تعرضت له طويلاً، ثم أكد قناعة مجلس الثورة في البرتغال في كون الانتخابات حقاً واجباً للشعب بعد ما عاناه من ديكتاتورية على مدار نصف قرن. لكن، على الرغم مما قال، يظل واقع الأمر، أن تلك الانتخابات أعطت لليمين فرصة ما كان ليعطيها اليمين ذاته لأحد لو كان هو من وصل إلى السلطة.

ولا يبدو حالياً أن هناك حلاً للصراع بين الحزبين الشيوعي والاشتراكي، والذي تسبب بأسوأ ما عصف بالبرتغال خلال هذا القرن. فكلاهما يكيل الاتهامات للآخر بالعمالة لقوى دولية خارجية، وهي اتهامات صحيحة إلى حد ما، وهو ما أقلق المجلس العسكري. إلا أن ماريو سوارس، الأمين العام الذكي والقدير للحزب الاشتراكي، ينكر أن يكون لحزبه أي التزام يذكر بقوى الاشتراكية الديمقراطية في أوروبا. وخلال تناولي الغداء معه لمدة ثلاث ساعات على شاطئ مدينة استوريل الرائع وبصحبتنا ابنته الثاقبة البصيرة والمتحمسة وثلاثة آخرون من الأصدقاء، ظهر لي جلياً إلى أي حد كان منشغلاً بالنزاع مع الشيوعيين. فلقد بدا لي لطيفاً ومثقفاً، وذا أسلوب سياسي أوروبي تقليدي، غير أن ما كان يمر به من توتر بسبب ما يحدث قد جعله يبدو وكأنه افتقد أي روح للدعابة. كان موقفه صريحاً وحاسماً، فقد كان يرى أن أكبر خطر يهدد الثورة البرتغالية لم يكن الإمبريالية ولا اليمين، بل الستالينية. وكان يعتقد أن البلاد ليس بوسعها الاستمرار من دون مساعدات خارجية، لكن لا سبيل للحصول على تلك المساعدات نظراً لمواقف الحزب الشيوعي غير الواقعية. وبدا لي أنه يرفع شعاراً دون غيره، ألا وهو شعار «الاشتراكية مع الحرية»، لكنني لم أكن متأكداً إن كان سعيه إلى تلك الحرية المنشودة في ظل ثورة لا تزال ضعيفة لحدثة عهداً لن ينتهي به الحال، كما حدث في تشيلي من قبل، للصب في مصلحة اليمين بدلاً من إفادة قوى التغيير. وقد بدا لي أنه متحفز لدرجة ما، فعلى الرغم من استعداداته الواضح للصمود حتى النهاية، إلا أنني لم استشعر لديه ثقة كافية في المستقبل.

في المقابل بدا لي الشيوعيون في منتهى الثقة والسيطرة. ففي مقر إدارتهم العام، القائم في بناية قديمة ومتقشفة وموصدة جميع مكاتبها، وحيث يسود الشعور بأن هناك قوة خفية صلبة، أخبروني أن خلافاتهم الأساسية مع ماريو سوارس مبعثها أولاً، المفارقة بين تصريحاته بمناهضة النظام الرأسمالي وغموض موقفه حيال الاحتكارات، وحثه ثانياً، على التعددية النقابية مقابل مبدأ الوحدة النقابية الذي يرفعه الشيوعيون، فضلاً عن اتهامهم له بالازدواجية لسعيه للحصول على تأييد شعبي في الداخل في الوقت نفسه الذي يستमित فيه خارج البرتغال في موالاته لقوى الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية.

إلى متى تستمر صراعات العائلة؟

رغم سطوتهم، عانى الشيوعيون مشاكل خطيرة: منها مثلاً، الذعر الذي يثيره مجرد التفوه باسم الحزب الشيوعي أمام قطاعات واسعة من الشعب عانت طويلاً من قبل على يد النظام الفاشي

والسيطرة الكنسية؛ ومنها أيضاً، خوف الكثيرين من أن يحاول الاتحاد السوفياتي، من خلال الحزب، تأسيس نظام غريب عن الطابع البرتغالي؛ ومنها خلاف الحزب الشيوعي مع الأحزاب الشيوعية الأخرى في أسبانيا وإيطاليا؛ ومنها معارضة كل الحركات الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية وحكومة الولايات المتحدة للحزب؛ ومنها الصورة المنفرة لأمينه العام، ألفارو كونال، وهو شيوعي قديم نشأ في غياهب السجن والسرية، وهو رجل غامض وشبه أسطوري يتعارض حضوره المخيف مع تلقائيته اللطيفة، وطالما استغل اليمين خشونته تلك لكيل حملات تشنعية ضد الحزب.

أما أخطر ما في خلاف الحزب مع الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وأسبانيا فهو أن كلاً منهم على حق، إنما في إطار الظروف الخاصة بكل بلد. فالحزب الشيوعي الإيطالي محق مثلاً في سعيه إلى التحالف مع الحزب الديمقراطي المسيحي الإيطالي، لكنه ينتقد البرتغاليين لمحاولتهم حل الحزب الديمقراطي المسيحي البرتغالي، على الرغم من أن هذا الأخير لم يكن في الحقيقة سوى أحد بقايا النظام الفاشي. أما الحزب الشيوعي الأسباني فكان على حق لإعلانه تأثره بالأزمة مع ماريو سوارس، لأن الأسبان يحاولون سراً الوصول إلى تحالف بين القوى التقدمية والليبرالية يدعمها شيء أكبر من مجرد مباركة الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. أما البرتغاليون فهم بدورهم على حق عندما يقولون إن أولويتهم يجب أن تكون البرتغال. وتكاد هذه الخلافات أو الاختلافات بين أحزاب دول متجاورة، تتباين فيما بينها في مدى تقدمها الاقتصادي والسياسي، تكون طبيعية ولا خطر منها لولا أنها تعطي فرصة كبيرة لليمين لاستغلال الموقف. وقد واجهت كوبا أزمت مماثلة إلا أنها تغلبت عليها.

وإلى جانب الحزب الشيوعي، هناك عشرة أحزاب أخرى في البرتغال، لكن مشكلتها جميعاً بلا استثناء هي أن أياً منها لا يمكن اعتباره ذا قاعدة شعبية حقيقية. فالحزب الاشتراكي يضم جزءاً ضئيلاً من البروليتاريا الصناعية وأجزاء عريضة من الطبقة الوسطى وجزءاً لا بأس به من العمالة المهاجرة. أما الحزب الشيوعي، الذي تحيط به أجواء أكبر من السرية، فيزيد مجموع ما قضى أعضاء مجلس إدارته من سنوات في السجن على الثلاث مئة سنة، وهو يسيطر على غالبية البروليتاريا الصناعية، وعلى قطاع عريض من الجماعات الطلابية، كما يعتمد على محابة المجلس العسكري الواضحة له، وكذلك ولاء الصحافة. غير أن تلك البروليتاريا الصناعية، في المقابل، تمثل جزءاً صغيراً جداً من القاعدة الشعبية الفاعلة في البلاد. إذن، كانت القوة الرئيسية للثورة تكمن أساساً في كتل الفلاحين المتواضعين والبؤساء، والتي تخضع في الشمال لسيطرة قوى

الإقطاع والسلطة الكنسية ذات الطابع القروسطوي، بينما هي تخضع في الجنوب لسيادة الإقطاع الموالين لرأس المال، لكن، سواء في الشمال أو الجنوب، ظل هؤلاء الفلاحون يملكون حساً أصيلاً لا يتزعزع عن الملكية الخاصة.

الثورة تولد وحيدة في الريف

كان الريف بلا شك المكان الأمثل الذي تطورت فيه الثورة بسرعة. لكن كان من الصعب متابعة تطوراتها فيه لضعف التغطية الصحفية فيه، ولعدم تطابق الرواية الرسمية لحقيقة الأحداث وتلقائية تطورها، لذا ظلّ كثير من أوجه الثورة التي اندلعت في الريف غير معروفة. وكان قد بدأ، في اليوم التالي مباشرة بعد سقوط النظام الديكتاتوري، وضع اليد على كثير من الأراضي في المناطق الإقطاعية الجنوبية بشكل عشوائي على الأغلب، انطلاقاً من مبدأ الملكية الخاصة الذي يؤمن به الفلاحون.

وقد يتوجب التمييز بين ثلاثة مستويات من الإجراءات أفرزتها أو أقله، سمحت بها الحكومة الجديدة في الريف ألا وهي: الإجراءات الرسمية والنقابية والتطوعية. فأما الإجراءات الرسمية، فقد تم إنشاء مركز لإعادة التنظيم الزراعي وهو جهاز حكومي هدف إلى القضاء على عشوائية الإجراءات في الريف وإلى تكوين مجموعات تعاونية من الزراعيين يضم كل منها ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين عاملاً زراعياً ومدعم بالدعم الفني والمادي، خصوصاً في المناطق التي عانت الإقطاع سابقاً.

أما على المستوى النقابي، فكان الهدف هو توعية تلك العمالة كي تنضم إلى جمعيات فئوية، لكن تركزت مهمة نقابات العمال الزراعيين الرئيسية في مكافحة البطالة وإجبار الملاك على استثمار الأراضي غير المستغلة. وقد حاول اليمين التسلل من هذا الباب عن طريق تأسيسه لنقابات أو تعاونيات وهمية، أو عن طريق دفع أجور أعلى من الأجور التي كانت قد حددتها النقابة على ضوء الواقع الاقتصادي. وقد آتت تلك المجهودات النقابية ثمارها عندما ازدادت رقعة الأراضي المزروعة في الجنوب بشكل ملحوظ في الشهور الأخيرة على الرغم من نقص توافر التقنيات اللازمة.

وأما الإجراءات التطوعية فقد كانت أكثر ما عكس روح الثورة، سواء في ما حققته من نتائج ملموسة ولا سيما في مجال توعية عمال الريف، أو في تشكيل مجموعات للاستفادة من

الأراضي غير المستغلة التي طالما سيطر عليها الإقطاع في الجنوب خصوصاً. لكن، على الجانب الآخر، أدى الاعتماد أحياناً على المجهودات التطوعية عند تأسيس التعاونيات العمالية في الريف إلى عدم تنظيم مواعيد عمل العمال وعدم حصولهم أحياناً على رواتبهم، ما كان يدفعهم إلى توزيع المال فيما بينهم أسبوعياً حسب حاجة كل منهم، كما أدى إلى دفع العمال الزراعيين إلى الانخراط في صراعات عديدة للحيولة دون محاولات قوى اليمين استغلالهم وابتزازهم. ولكن، في الوقت نفسه، لم يكن هناك بدٌ من المغامرة بتلك المجهودات التطوعية طالما أن الدعم الرسمي المتمثل في مركز إعادة التنظيم الزراعي كان بعده محدوداً، مما يفسر قول أحد الزراعيين: «نعلم المخاطر المحدقة بنا لكننا مستعدون للدفاع عن مواقفنا بالسلاح إذا اقتضى الأمر».

لا مكان لمن يرفض الديناميت

«لا سلاح للفلاحين حتى يتعلمون كيفية استخدامه»، كان هذا هو الوعد الرسمي الذي قطعه المجلس العسكري على نفسه، ومن أجل هذا الغرض أسس أكثر أجهزة الثورة البرتغالية ابتكاراً وتشويقاً وفاعلية، ألا وهو جهاز حملات الديناميت الثقافي. وهو ببساطة جهاز مكون من مجموعة من كتائب التسييس التابعة للمجلس العسكري، مهمتها الاندماج في صفوف الفلاحين لمساعدتهم على التخلص من الأفكار البالية وتوعيتهم بشأن الثورة وضرورة تطبيق الاشتراكية. ففي الشمال مثلاً، حيث كانت الأحزاب السياسية قد فشلت في تفتيت مقاومة الفلاحين الأكثر صموداً، نجحت كتائب الديناميت، عن طريق التعليم والإقناع والمثل الحسن، في خلق نوى بنية أساسية من شأنها التصدي بنجاح لسادة الإقطاع السياسي والعتاة من رجال الدين.

وكان الرجل الذي ابتدع هذه الفكرة وأشرف على تنفيذها سيراً على نهج تجربة مماثلة كان قد سبق وأن تم بالفعل تطبيقها في كوبا، هو قائد في سلاح البحرية يدعى راميرو كوريبا، وهو في الأصل طبيب في الثانية والثلاثين من العمر، ذكي ومتقف، عضو في مجلس الثورة، وأحد العقول السياسية التابعة للمجلس العسكري، الأمر الذي كان يدعو للدهشة ليس لحدثة سنه فحسب، إنما لبساطته وبشاشته أيضاً. وأثناء لقائي به، في مكتب داخل مبنى عتيق عجيب كان ملكاً لإحدى المليونيرات الغربية الأطوار قبل أن تنتزع الثورة ملكيته منها، شرح لي راميرو كوريبا النتيجة المؤكدة من وراء تنفيذ فكرته، فقال: «نحن نعتقد أن الديناميت الثقافي هو السبيل إلى تأسيس الاشتراكية التي تحتاج إليها البرتغال». وبدا أن راميرو كوريبا يؤمن أن ذلك الجهاز كان وراء اكتساب الثورة البرتغالية ديناميكيته الفعلية وتحقيقها إنجازات أكيدة لا رجعة عنها. وأضاف

حينذاك: «إن لم تلحق أحزاب الثورة بذلك الديناميت فسوف تتخلف عن الركب»، ذلك بأن الثورة البرتغالية، التي تحدى بها المخاطر من كل جانب، كانت في سباق مع الزمن. وعندما هممت بوداع راميرو كوريبا قلت: «سوف أعود ثانية في كانون الثاني/يناير 1976»، فأغرق في الضحك مجيباً: «سيكون هذا متأخراً جداً، لأننا وقتئذ سوف نكون في كانون الأول/ديسمبر 1978». والحقيقة أنني انصرفت من اللقاء مبتهجاً، لكن بينما أنا في المصعد وسوس لي الشيطان بسؤال دون إجابة: «اللعة! ترى ما رأي الشعب في كل هذا؟».

الاشتراكية في متناول العسكريين

يتضح مما تقدم أن المجلس العسكري لم يكتف بأن يكون حكماً بين الأحزاب السياسية المتصارعة على الحكم، بل ألزم نفسه بدناميكية خاصة مؤداها خلق قاعدة شعبية خاصة مبنية على أساس تواصله المباشر مع بالفلاحين. وأخبرني ثيسار أوليفيرا، ولعله كان أحد أقرب المواطنين من المجلس العسكري، وكان شاباً ذكياً وعلماً ببواطن الأمور، أن «المجلس العسكري يصبو إلى تحقيق الديمقراطية ووحدة النقابات وإلى الحيلولة دون سيطرة حزب بعينه على الحياة السياسية». وبالتالي، استنتجت أن المجلس العسكري إنما هدفه أن يتحول بدوره إلى حزب. وقد حدثني الكولونيل فاريل غوميث الذي يعمل في معهد علم الاجتماع الحربي حول هذا الموضوع قائلاً: «لم يتضح لنا هذا الأمر بعد. لكن ما نعلمه جيداً هو أنه لن يكون هناك أي تيار أيديولوجي داخل التكتلات العسكرية إلا وللقات المسلحة صلة وثيقة به». أما الضابط أوتيلو سارايفا دي كارفالو، وكان أحد المخططين الاستراتيجيين للانقلاب ضد الديكتاتورية الفاشية، وأحد المسؤولين عن استتباب الأمن العام وأحد أكثر قادة المجلس الأعلى للثورة صلابة وراдикаلية، فقد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حين أخبرني: «إن الثورة البرتغالية تتضرر من جراء الانشقاق الناشئ عن صراع الأحزاب. فإن تمكنا من إقناع القاعدة الشعبية بسحب تأييدها لأقطاب الأحزاب مقابل الالتفاف حول المجلس العسكري باعتباره قوة سياسية فاعلة في البلاد، عندئذ سيتحول المجلس العسكري يقيناً إلى حركة تحرير قومية، مما سيدفع هذا البلد بقوة إلى الأمام ويسير بالثورة في خطى ثابتة نحو الاشتراكية التي نأملها». لذا كان سارايفا كارفالو أحد أهم الداعين إلى إنشاء لجان دفاع عن الثورة، وهي اللجان التي شكل مجرد احتمال تأسيسها-مثلما هو متوقع طبعاً وكما كان حال نظائرها في كوبا- قلقاً للأحزاب.

أما الأحزاب فكان صراعها يقلق العسكريين ويسبب لهم مشكلات هم في غنى عنها، ويؤدي إلى شق الصف الداخلي وضياح وقت يؤمنون أنه لا يعوض، فقد قال لي أحد ضباط المجلس العسكري: «إن سرعة الأداء لهي عامل أساسي في نجاح المسار»، مما يفسر سبب حنقهم من الاشتراكيين خلال الأسبوع الأول من حزيران/يونيو. وكان الكثير من العسكريين على قناعة بأن الاشتراكيين يحولون دون التغيير، وأنهم بقصد أو دون قصد يقومون بأفعال تضر بالثورة من جراء سيرهم على خطى الديمقراطية الاشتراكية الأوروبية، ومحاولتهم فرض نظام أشبه بالديمقراطية الليبرالية منه بالاشتراكية. وكان أكثر ما يضايقهم ويقلقهم هو سيطرة الاشتراكيين على أبواق الإعلام ذات الصدى العالمي والتي تدعمها قوى الإمبريالية والديمقراطية الاشتراكية. وكان بعض العسكريين قد استفزهم التحالف الذي وقع أخيراً، بين الاشتراكيين وممثلين عن السلطة الكنسية سعياً منهم إلى تصعيد مشكلة وقعت في الإذاعة الكاثوليكية «ريناسينسا» مثلما صعدوا من قبل واقعة حدثت مع صحيفة «لا ريوبليكا». وقد كانت تلك السلطات الكنسية هي ذاتها التي طالما دعمت الديكتاتورية الفاشية بلا أية موارد في الماضي، رغم تبرئها من ذلك الآن وتظاهرها بالدعوة إلى إرساء حرية سعت هي نفسها من قبل وعلى مدى قرون إلى قمعها، سواء بالإذعان المتواطئ أو بالممارسة الصريحة. على كل حال، أي من تلك الممارسات التي كانت تصب في مصلحة القوى المناوئة للثورة في البرتغال سبق وأن كان لها نظير صارخ في أمريكا اللاتينية، وهنا أقصد تحديداً، إضرابات أصحاب الأعمال وتظاهرات الحلي في تشيلي التي اتضح فيما بعد أنها كانت ممولة من وكالة المخابرات الأميركية.

بدون التزامات تجاه أي قوى عظمى

وعلى العكس من موقفهم حيال الاشتراكيين، نظر العسكريون بعين الاستحسان إلى تحالف الشيوعيين بقاعدتهم الشعبية الراسخة والمنظمة والتي تعد دعامة العسكريين الوحيدة الآن. وقد أخبرني أحد العمال، ولم يكن له أي انتماء حزبي، قائلاً: «الفرق الكبير هو أن الشيوعيين يمارسون أنشطتهم، حتى السري منها، هنا داخل البلاد، في حين يمارسها الاشتراكيون في الخارج». ومن ثم فهناك شائعة منتشرة بقوة في لشبونة تؤكد أن رئيس الحكومة، فاسكو غونسالفس، كان في الأصل مناضلاً شيوعياً منذ عشرين عاماً. لكن لم يكن أحد متأكداً تمام التأكد من صحة تلك المعلومة، وبالطبع لم أحاول أنا أن أغامر بالسؤال عن مدى صحتها، غير أن أحد الزعماء الاشتراكيين قال لي: «حتى لو لم يكن فاسكو غونسالفس شيوعياً فالمؤكد أنه يود لو

يكون». والحقيقة إن مقابلي مع الرجل نفسه لم تسعفني في الوقوف على حقيقة تلك المعلومة، فلقد بدا لي فاسكو غونسالفس طيباً ومتواضعاً، وكان مجهداً من جراء عدم النوم على مدى أربع وعشرين ساعة إثر عودته من بروكسل، كما اتسم مسلكه عموماً بثقة السياسي المسيطر على الأمور وبحكمة رجل الدولة المحنك.

وعندما أبديت لأحد أصدقائي القدامى تعجبي من أن فاسكو غونسالفس لا يشرب سوى المياه المعدنية في كل الحفلات أياً كان نوعها، قال لي: «إنه الملتزم الوحيد الذي يمكن الوثوق به». ولعل الرجل كانت تحيط به شائعات سلبية كونه كان يقطن في القصر المنيف والكئيب نفسه الذي عاش فيه أوليفيرا سالاثار حتى مماته. غير أن فاسكو غونسالفس لم يعبأ قط بما يثار حوله من شائعات. وكان غونسالفس غالباً ما يعطي انطباعاً، على غرار ما فعل أثناء رحلته الأخيرة إلى بروكسل، بأنه سيقود البرتغال نحو اشتراكية ديمقراطية غير منحازة إلى أي من القوى العظمى، وبأنه يملك المؤهلات والتصميم والذكاء الذي يمكنه من تحقيق هذا الهدف.

لذا كانت الخلاصة الأكثر وضوحاً في البرتغال هي أن العسكريين مستعدون لإقامة الثورة الاشتراكية على الرغم من أنف الأحزاب المتصارعة والقوى الداخلية المناوئة والحصار الدولي. ومن أجل تحقيق هذا الهدف فقد خلعوا لباسهم العسكري وخرجوا بزي مدني ليتسابقوا جنباً إلى جنب مع السياسيين في الظفر بتأييد الجماهير. وانتشر شعارهم اللافت، «الشعب والجيش يد واحدة»، في كل مكان: على الجدران والملابس ونوافذ السيارات.

مثال المحاربين

ترى ما المنتظر من تلك الوحدة؟ وكيف تسنى للجيش، بعد زوال ديكتاتورية قائمة على الحديد والدم، أن يفهم أن التغيير مستحيل دون اندماج حقيقي مع الشعب؟ وكيف أدرك أن البديل الإيجابي الوحيد للبرتغال هو الاشتراكية؟ هذه هي الأسئلة الأساسية التي قد تساعد على فهم مسار لم يسبق له مثيل، ولا حتى في دولة البيرو، وكان مساراً مؤهلاً لخلق مرحلة مذهلة ومثالية في التاريخ المعاصر.

أما إجابة ذلك فبسيطة. فعندما اشتد سعي حرب المستعمرات منذ حوالي عشرة أعوام، قرر ضباط النظام الديكتاتوري الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية استحداث جيل من الضباط ينتمون إلى الطبقة الوسطى لكي يضعوهم على خط المواجهة في المستعمرات النائرة.

ومن أجل هذا الغرض تم أولاً، فتح باب الأكاديمية الحربية لقبول هؤلاء الضباط الجدد، ثم تم الشروع في استقطاب طلبة جامعيين لتجنيدهم في الجيش عن طريق ترقيتهم مباشرة إلى رتبة ملازمين أوائل. وبهذه الطريقة تغيرت بالكامل في غضون أعوام قليلة ملامح طبقة جيل الوسط من الضباط. وفي هذا الصدد يقول أحد الضباط: «لقد كنا أكثر إحساساً بمشكلات الشعب ممن سبقونا من ضباط أرسطراطيين. لذا فقد كان يسيراً علينا نحن، أي جيل الوسط، ممن كنا في العشرينيات من عمرنا، أن نتفاعل مع طموحات الشعب». وقد تمكن ضباط جيل الوسط الذين كانوا ناشطين سياسياً، والذين طالما ناضلوا كطلبة في الجامعات ضد الفاشية، من خلق حوار مستمر وعميق داخل القوات المسلحة كان من شأنه نشر الوعي ومن ثم القضاء على الديكتاتورية الكارثية. وحول الشأن نفسه، أضاف ضابط آخر قائلاً: «نحن نتاج حرب المستعمرات. فقد تشكل وعينا أثناء الليالي الطويلة التي قضيناها في التحاور مع الجنود، وهم الذين يمثلون عموم الشعب أولاً وأخيراً، ومع الضباط الذين تميزوا بنشاطهم السياسي الجامعي، ومع المحاربين المرتزقة الذين طالما فاجأونا بعزيمتهم ووضوح رؤاهم». ومنذ ذلك الحين صارت الديكتاتورية أسيرة هيكلها القروسطوي، وصار محكوماً عليها بالإعدام.

و خلال مشاوراتي الطويلة مع العسكريين، سواء اللواءات منهم أم الجنود، أدهشتني دقة لغتهم واستقلالهم ووضوح إيديولوجيتهم وثقافتهم الجمّة. ولقد تحدثت مع عدد كبير منهم، على سبيل المثال، طالب سابق في كلية الصيدلة يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، وقد صار الآن كولونياً في السلاح الجوي، ومع طالب هندسة سابق صار الآن قائداً في سلاح البحرية، ومع ملازم ذي لحية كثيفة كان في السابق صياد استاكوزا، بل ومع وزير الخارجية نفسه، القائد أوغسطو ميلو أنطونس، وهو مدخن شره وبشوش، يعتبره رفاقه أحد أهم مفكري المجلس العسكري وأذكاهم، فوجدته رجلاً بمقدوره الانتقال بسلاسة من مناقشة موضوع سياسي إلى الحديث عن مسألة في الأدب دونما تكلف أو عناء.

كانت خلاصة ما توصلت إليه أن الجيش، نظراً إلى تركيبته الاجتماعية واتفاقه مع حاجات وطموحات الشعب وبنائه الأيديولوجي وحماسه للديمقراطية، كان مهياً تماماً للمضي قدماً على طريق تأسيس الاشتراكية في البرتغال. وقد وقع أخيراً، ما زاد من تهيئته لتلك المهمة ولا سيما بعد المحاولة الفاشلة التي وقعت في ١١ آذار/مارس الماضي والتي كانت كفيلة بدفع العناصر الثورية داخل القوات المسلحة لاستخدام حق المبادرة بإطلاق النار إن لزم الأمر.

مؤامرة دولية كبرى

لكن، للأسف، لم يكن هذا كله كافياً وحده، لأنه وفقاً للدستور الساري فإن المجلس الأعلى للثورة هو الجهاز الأعلى المناط به الإدارة والتعديل والشورى والصلاحيات الحكومية الكبرى. وكان المجلس مكوناً من ثمانية وثلاثين عضواً، من مختلف أسلحة الجيش والرُتب، يتم اختيارهم بالانتخاب. وكانت سلطة المجلس الأعلى للثورة تفوق سلطة مجلس الوزراء. وكان متوسط أعمار أعضائه حوالى ثلاثين عاماً، لكن لم يكن ذلك كفيلاً بجعلهم متطابقين من حيث المواقف أو الآراء، فقد كانوا ينحرفون في مناقشات داخلية دائمة وطويلة وحادة تتأثر وطأتها بالتناقضات الرهيبة التي تعصف بالبلاد. لكن، في الوقت نفسه، لم تكن بينهم اختلافات عميقة خاصة وقد غلب عليهم التيار اليساري، لذا كانت قراراتهم الكبرى تأتي بعد تحليل واقعي لأحوال البلاد.

لكن ظل التهديد الحقيقي للمجلس كامناً في الصراعات الحزبية والاستقطابات المستمرة التي تقوم بها القوى المناوئة في الداخل والخارج، وتعتن اليسار المتطرف الذي كان يصب بدوره في مصلحة تلك القوى المناوئة، إضافة إلى الخوف المتصاعد من احتمال اندلاع حرب أهلية في أنغولا، حيث فشلت ثلاث حركات تحرير في الوصول إلى توافق. ولقد أظهر المجلس الأعلى للثورة تردداً في الدفع بقوات من أجل التوسط لحل النزاع هناك، كما رفض الضباط البرتغاليون أنفسهم العودة إلى إفريقيا لإيمانهم بانتهاء الزمن المرير الذي كان يدفعهم إلى التدخل في شؤون تلك البلاد. لكن، على الجانب الآخر، كان التوصل إلى حل في أنغولا قد يعني احتمال إرغام ست مئة ألف برتغالي مقيم هناك على العودة إلى البرتغال وهو أمر من شأنه إشعال المزيد من الاضطرابات وخلق مشكلات اقتصادية وسياسية أشد خطورة من تلك الموجودة بالفعل.

أما أكثر المشكلات إلحاحاً وصعوبة وفجاجة فكانت أن دول أوروبا الغربية، الواقع معظمها تحت سيطرة الاشتراكية الديمقراطية والديمقراطية المسيحية، كانت جميعها تقدم للإمبريالية الأميركية الخدمة الفاتلة نفسها التي سبق وأن قدمتها لها النخب الإقطاعية اللاتينية وأميركية ضد كوبا. كانت مؤامرة دولية كبرى تتخفى وراء قناع الديمقراطية، وكان هدفها الحيلولة دون تأثير الثورة البرتغالية سلباً في مصالح معينة لابد وأنها ستتأثر إذا ما نجحت البرتغال حقاً في تحقيق الاشتراكية. ومن الواضح أن تلك المؤامرة قد ساهمت فيها بحماسة منقطعة النظير الصحافة الأوروبية والتلفزيون والإذاعة التي يدعمها جميعاً رأس مال دولي. كما بدا جلياً، أن القوى المتآمرة، على غرار ما فعلت من قبل في كوبا منذ عام 1960، لن تتوانى عن شيء ولن تترك حيلة ولا ابتزازاً دونما اللجوء إليهما. ونظراً إلى موقع البرتغال الاستراتيجي، فسوف يتحتم

على الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأوروبية أن تظلّ على مسافة ما من هذا النزاع. ومن ثم، لن يتبق للبرتغال في الحقيقة سوى حلفائها الطبيعيين من العالم الثالث وعلى رأسهم الدول العربية، فحتى مستقبل ارتباطها مع أسبانيا بدا غير واضح.

إذن، بدا واضحاً أن البرتغال، على أحسن تقدير، لن تتمكن من تقادي ذلك النفق الطويل من التقشف والتضحية الذي سبق وأن مرت به كوبا طيلة الخمسة عشر عاماً الماضية، حتى أن أحد أعضاء المجلس الأعلى للثورة قال: «سنحاول تقادي ذلك بأي ثمن لكننا سنجابهه إذا اضطررنا». وسوف يخلق هذا التقشف الحتمي مشكلات في لشبونة وفي مراكز عمرانية أخرى، طالما لم تنزل هناك كتل اجتماعية متمسكة بمستوى الحياة المظهرية ذاتها الذي اعتادته أيام الديكتاتورية. وقد أخبرني أحد الصحفيين المشهورين عن قناعته بأنه «لن تكون هناك مشاكل إلا في المناطق الساحلية، لأن باقي الشعب عانى التقشف بالفعل على مدى قرون طويلة، لذا فأي تقشف لن يكون جديداً ولن يكون أشد مما عاناه». وبهذه القناعة اختتمت زيارتي للبرتغال، وأفصحت لمن جاءوا لوداعي عن يقيني بأن الثورة البرتغالية لن تفتقد البطولة ولا الحصافة ولا الإبداع. فردت عليّ الكاتبة ماريا فيلو دا كوستا قائلة: «إذن فنحن ناجون لا محالة لأن الشعب البرتغالي -حاله كحال الشيطان- يعتمد في حيله على طول خبرته أكثر مما يعتمد على شيطانيته».

كوبا من الألف إلى الياء 15

ليلة الحظر الليلاء

سيداتي وسادتي، الحقيقة المجردة هي أن كوبا الآن ليس فيها عاطل واحد، أو طفل لا يذهب إلى مدرسة، أو إنسان حاف أو بلا مأوى أو بلا قوت يكفي وجباته الثلاث يومياً، كما أنه ليس فيها شحاذ أو أمي أو مواطن أياً كان عمره غير ملتحق بالتعليم المجاني بجميع مراحلها، كما لا يوجد فيها فرد واحد لا يتمتع بتأمين صحي مضمون ومجاني أو يعاني للحصول، دون مقابل، على أدوية أو خدمات صحية أياً كان مستواها، كما أنه ليس فيها حالة واحدة من ملاريا أو تيتانوس أو شلل أطفال أو جذري، وليس فيها دعارة أو ركود أو سرقة أو محسوبية أو قمع شرطي أو تمييز من أي نوع أو تحت أي حجة، وليس فيها أحد محظور عليه دخول أي مكان أو مشاهدة أي فيلم أو أي عرض رياضي أو فني، وليس فيها مواطن لا يتمتع بحق الاحتجاج حال منعه من مزاوله أي من حقوقه أولاً يتمتع بحق رفع احتجاجه إلى أعلى سلطة في الدولة. وكلامي هذا ليس اعتباطياً أو مرسلأ بل هو مبني على زيارة انتهيت بنفسني من القيام بها إلى كوبا ولم أترك خلالها شيئاً دون تمحيص. فقد قمت برحلة استمرت نحو ستة أسابيع بدت بلا نهاية، ووفقاً لبرنامج محدد وضعته بنفسني بحسب فضولي المهني. وأستطيع الجزم بأنني خلال تلك الرحلة لم أنجح في الحصول على القدر اللازم من الحرية لإنجاز برنامجي فحسب، بل أتحت لي كل سبل الحرية الممكنة التي مكنتني من الوقوف على الحقيقة. وقد صحبني في هذه الرحلة ابني رودريغو البالغ من العمر سبعة عشر عاماً والذي قام بالنقاط ألفي صورة شملت أماكن مختلفة في الجزيرة لا تخطر ببال أحد، كما صحبني مرشد ودود، جاد، ونشيط فتح أمامي دون مبالغة كل الأبواب التي كنت أطرقها، وكذلك صحبني سائق ذكي ومرح طالما كان يعطيني شعوراً غريباً بالسعادة. وهكذا تسنت لي زيارة كل شبر من ذلك البلد، بدءاً بوادي فينيالس بغموضه الرائع ونخيله المتعانق مع سحابه، وانتهاءً بمدينة سانتياغو دي كوبا بمنازلها الهادئة وحدائقها العيقة بالياسمين والممتدة حتى مرتفعات سييرا مايسترا، وكذلك بدءاً بجزيرة دي بينوس حيث السجون الأزلية تخسر تحديها أمام مجتمع فتي لا يتعدى متوسط أعمار أفرادها خمسة عشر عاماً، وانتهاءً بشواطئ ماتانثاس الباهرة ومنبع الإرادة الشعبية. ولقد أتحت لي الفرصة خلال رحلتي لمحاوره عمال وجنود وفلاحين

وربات منازل وأطفال مدارس وبعض أهم قادة الدولة، حتى وصلت إلى قناعة بأنه ليس ثمة مكان في تلك البلاد لم تتغلغل فيه الثورة عميقاً، وأنه ليس هناك مواطن واحد فيها لا يشعر بمسؤوليته عن المصير المشترك لجميع أفراد ذلك الشعب. فقد بدا لي أن كل مواطن كوبي بات مؤمناً بأنه إذا وقعت ذات يوم كارثة ما ولم يتبق على إثرها أحد في كوبا سواء هو وحده فإنه، في ظل حكم فيدل كاسترو، سيظل بمقدوره مواصلة السير بالثورة قدماً حتى بلوغ برالأمان. وعليّ أن أعترف من دون موارد، بأن بلوغي هذه القناعة كان أهم وأعظم تجربة في حياتي.

اشتراكية ملموسة

في حديثه عن الدين المسيحي قال شسترتون إنه يراه منعكساً في كل شيء بما فيها المأكولات، كالكويسي مثلاً، أو الماكينات، كالترام على سبيل المثال. ولعل شيئاً من هذا القبيل ينطبق على حالة الثورة الكوبية. فثمة نظام اشتراكي إنساني ملموس يتشكل هناك، وهولا يحتاج إلى تنظير، فهو ينطلق حراً في الشوارع والبيوت ومتغلغلاً في الحياة اليومية. إنها اشتراكية يبيلورها الكوبيون على قدر حاجاتهم وإمكاناتهم، بحماسة وجدية بالغتين، وبمرح دائم، وبذلك اللمسة المجنونة الخفية التي تكتنف كل أفعالهم والتي تعد شيمتهم الأزلية والأجمل. فبوسع أي إنسان أن يرى بنفسه أن كل شيء في كوبا، سواء كان وسيلة مواصلات أو حتى ثمرة خضار، صار جزءاً ضمن نظام وليد للإنتاج والتوزيع، وليس هذا فحسب، فبوسعه أن يدرك أيضاً شيئاً آخر أكثر أهمية من ذلك، ويعد في الوقت نفسه مصدر تفرد تلك الثورة وعظمتها، ألا وهو الروح المعنوية الجديدة. ومبعث هذه الروح في رأيي هو أن كوبيي اليوم هم أكثر حرصاً على المشاركة في الثورة منهم على تحقيق مصالح شخصية من ورائها. وهذا ما لمستته بنفسه في ردة فعل سائقي القوية عندما اعترض على وقوع إهمال تسبب بإرباك برنامجنا لعدة أيام، فقد صرخ قائلاً: «يجب التحقيق في الأمر كي نعلم من المسؤول عن هذا الإهمال. فأنا لم أجتهد طوال أربعة عشر عاماً من أجل أن أرثدي هذا القميص أو أنتعل هذا الحذاء، إنما لكي لا يقع في كوبا إهمال من هذا النوع». وفي رأيي، لن يكون من الممكن، بعد انقضاء أوقات العسر، تكوين فكرة محددة عن الثورة الكوبية دون استيعاب كيفية تولد تلك الروح الجديدة من رحم ألم الحظر المظلم. فلقد كانت كوبا قبل غلبة الثورة بلداً ملقى في أحضان الأميركيين لدرجة أن الرئيس كارلوس مانويل دي ثيسبديس ألقى خطاب تنصيبه باللغة الإنكليزية. فقد كانت وزارة الخارجية الأميركية آنذاك هي التي ترسم ملامح سياسته الداخلية والخارجية. فصناعة السكر، وهي عماد الاقتصاد الكوبي، كانت حكرًا على

أباطرة التجارة الأميركيين الذين كانوا يحطّون بطائراتهم الشخصية في مطارات خاصة دونما الخضوع لأية قيود من أي نوع. وكانت المصانع ووسائل النقل والأجهزة المنزلية ومستلزمات الطعام والقراءة وحتى فلسفة الحياة نفسها مستوردة جميعها من الولايات المتحدة. ولم يكن هناك قطع غيار من أي نوع، فإن تعطلت قطعة بإحدى الماكينات، كان الحل ببساطة هو الاتصال هاتفياً بميامي أو نيويورك لإرسال القطعة المطلوبة فوراً بالطائرة في اليوم نفسه. وبالتالي عندما فرضت الولايات المتحدة الحظر في العام 1962 اكتشفت كوبا فجأة أن جل ما تملكه هو الستة ملايين كوبي المنتشرون في أنحاء جزيرة عارية تحت الشمس.

الحظر إبادة جماعية شنعاء

وعلى العكس مما يظن الكثيرون، لم يمثل الحظر قطعاً للحبل السري بين كوبا والولايات المتحدة. بل كان محاولة شنعاء للإبادة الجماعية حركها ماردماردي أياديه عبر العالم بأسره. فقد تأثر العديد من مصانع الدول الغربية التي كانت تتعامل مع كوبا بذلك الحظر، وبيع البعض منها في إنكلترا أو أسبانيا إلى مشترين من الولايات المتحدة من أجل الحيلولة دون التعامل مع كوبا. وظلّ أحد الزوارق التابعة للمخابرات الأميركية حتى وقت قريب يحوم في المياه الإقليمية الكوبية لمنع وصول أي من المراكب المحملة بالبضائع إلى الجزيرة المحاصرة. وصارت التهديدات الدائمة بالغزو المسلح، والابتزاز الممنهج، والاستفزازات المستمرة مصدراً لتوتر الكوبيين ولاستنزاف طاقاتهم البشرية بشكل أسوأ كثيراً من مجرد الحصار الاقتصادي. وكانت الولايات المتحدة آنذاك، ولا تزال، تدعي إنه حصار لا يؤثر في توريد الدواء. لكني رأيت بنفسني في وزارة الصحة العامة في هافانا رسائل واردة من معامل أميركية تفيد بامتناعها عن بيع الدواء اللازم لكوبا خوفاً من اتخاذ الحكومة الأميركية إجراءات انتقامية ضدها. وما هو أكثر من ذلك: فعندما عرضت كوبا الإفراج عن بعض العملاء المحتجزين في شاطئ «خيرون» لقاء حصولها على أطعمة لازمة للأطفال ومضادات حيوية، قامت الولايات المتحدة بتسليم هؤلاء المفرج عنهم دون أن تفي في المقابل بتوريد جزء كبير من الأدوية المتفق عليها.

أما إحدى أبشع عواقب ذلك الحظر وأقلها وضوحاً فكان استقطاب الولايات المتحدة الممنهج للفنيين والمهنيين الكوبيين. وبما أن أبناء الطبقات العليا اجتماعياً واقتصادياً كانوا هم أصحاب الحظ الوحيد في الحصول على تعليم عالٍ قبل الثورة، فقد وجد كثير من فنيينهم ومهنييهم ضالتهم في النظام الرأسمالي فقبلوا عروض عمل مغرية قدمت إليهم وهجروا البلاد حاملين معهم

الكثير من الوثائق والأسرار الحيوية. وكان الطب هو القطاع الذي شهد أكبر قدر من التجريف البشري بلغ حد الإجرام. فمن جملة سبعة آلاف طبيب كانوا في كوبا قبل الثورة، فرَّ أكثر من نصفهم إلى الخارج، أما من تخلف منهم فكان عليه التعامل مع مشكلات جديدة في نوعها، فقد أخبرني أحدهم قائلاً: «لم نكن نعرف حتى كمية الأسبرين اللازمة لمواجهة حالات الصداع التي قد يعانيتها الشعب». أما أخطر تلك المشكلات فكانت عدم توافر الأنسولين اللازم لعلاج حالات السكر، ما دفعهم لطلب الكمية التي حسبوا أنها تكفيهم مدة عام من بولندا التي ردت بقولها إن الكمية المطلوبة إنما تساوي ما تستهلكه أوروبا في عشرة أعوام كاملة. غير أن فريق الأطباء هذا الذي بدا متخبطاً في تقديراته الحسابية لكميات الدواء اللازمة هو نفسه الذي أعاد بناء القطاع الطبي في كوبا من الصفر حتى صار اليوم ذا سمعة عالمية لجديته ومهارته.

وشهدت قطاعات أخرى كالصناعة والتعدين والمواصلات والزراعة مثل ما شهده قطاع الطب. فقد قام العاملون فيها بإنجاز مهام الفنيين الفارين، الأمر الذي لم يؤد إلى مواصلة الإنتاج فحسب، بل إلى زيادته بسرعة وثبات. ففي مناجم النيكل مثلاً، اعتمد الكوبيون على ذاكرتهم لإعادة وضع خطط العمل وإعداد وثائق حيوية أخرى كان الأميركان قد حملوها معهم عند مغادرتهم للبلاد. ولقد أخبرنا أحد العمال المسنين واللفطاء في مصنع للكحوليات بمدينة سانتياغو كيف أن مديريه السابقين عرضوا عليه مبالغ طائلة كي يفر إلى الولايات المتحدة، لا من باب التقدير لخبراته أو معلوماته، فقد كانتا عاديتين جداً، إنما للحيلولة دون أن يستفيد منها الكوبيون، فكان رده عليهم مثالياً إذ قال: «ولماذا لم تفكروا في إعطائي هذه المبالغ من قبل عندما كنتم تستخدمونني لقاء راتب لا يغني من جوع؟».

لكن، وسط هذا المشهد كله، كان العامل والفيصل الحقيقي هو البترول. فبفضل دعم الاتحاد السوفياتي ودول اشتراكية أخرى للثورة الكوبية لم يتوقف ولو للحظة أي نشاط في كوبا نتيجة لعدم انقطاع ضخ البترول، حتى عندما استلزم ذلك أن تقطع السفن الروسية الناقلة للوقود مسافة اثني عشر ألف كيلومتر إضافية.

أسوأ ذكريات الحظر: الحمص وسمك البقلة

أجبر شبح المجاعة الكوبيين على إعادة ابتكار حياتهم من الصفر. فابتدعوا تكنولوجيا جديدة بحكم الحاجة ونظماً اقتصادياً كاملاً بحكم الندرة ومنظومة ثقافية متكاملة بحكم العزلة. وتعلمت النساء الطهو بشكل يتفق والمؤمن المتوافرة، وتعلمن الحياكة بطريقة جديدة فبدأن باستخراج الخيط اللازم من طرف ذات القميص الذي كن يقطنه. لكن، وقبل كل شيء، تحتم

عليهن شحذ الإبرة التي يعملن بها لأنه لم يكن بوسعهن الحصول على غيرها لسنوات طويلة. وكان نمو الأطفال قد صار مشكلة عظمى في كل البيوت الكوبية بما أن حصة الكسوة المدّعة من الحكومة لكل طفل كان ثوبين وزوجين من الأحذية فقط ، مما لا يتناسب مع سرعة نمو الأطفال.

إذن، لم يكن هناك منحى من مناحي الحياة إلّا وتتطلب جهداً إبداعياً وتصميماً، ولاسيما روحاً معنوية عالية استمرت على الرغم من أن إذاعة ميامي وتلفازها بالولايات المتحدة ظلا لأعوام طويلة يشنان حملاتهما الإعلامية بغية تفتيت عزيمة الكوبيين وكرامتهم دون أن يكون بوسع حكومة الثورة إيقاف بثهما. وكان يكفي أن يفتح أي راديو أو تلفاز في كوبا كي تصل البرامج الأميركية بكل سطوتها لدرجة أن أحد الكوبيين قال لي ساخراً :«ثم يجروون بعد كل ذلك على القول بإننا معزولون إعلامياً». وبينما الحال هكذا، اكتسب الوقت بعداً جديداً، فكانت ساعات طوال تُقضى في التفكير، وكان الأرق ثقيلاً ومفرغاً في ظل ذلك الحصار الذي بدت وطأته شبيهة بأعنى فترات العزلة التي عرفها التاريخ أيام الطاعون في العصور الوسطى. لكن الفرق الجوهرى هو أن الكوبيين، على العكس من أمراء العصور الوسطى وقساوستها، لم يقضوا لياليهم في التفكير في الموت بل أحالوا لياليهم نهائياً وشهورهم أعواماً كي يتمكنوا من ابتكار طريقة جديدة للحياة، وكي يتقدموا بالرغم من الحصار. ولعله يتحتم على المرء أن يكون على دراية بطبع الكوبيين كي يدرك بالفعل أبعاد هذا الكلام.

والجميل في الأمر أني لا أكاد أجد أيّ كوبي يذكر تلك الفترة بأيّ نوع من الحسرة، بل العكس هو الصحيح. جل ما يتذكرونه جميعاً باشمئزاز هو الحمص وسمك البقلة. فهذا النوع من السمك الذي يعد من الأنواع المفضلة في أوروبا والحمص الذي يطلق عليه الكوبيون «تشيتشارو» كانا وجبتين أساسيتين فرضتهما الحاجة خلال فترة الحظر، لذا ستظلّان إلى الأبد محفورتين في ذاكرة الكوبيين كعلامة على تلك الأوقات العصيبة. فضيق الكوبيين من بطاقات التموين، التي طالما استغلها الإعلام الإمبريالي للتشهير بكوبا، إنما كان مصدره رتابة ما كان يوزع من خلال بطاقات التموين وليس ما يفرضه من تقشف، فقد كانت الخيارات محدودة وكان يتم توزيع المتاح من الأطعمة، وكان أكثر المتاح منها خلال فترة الحصار الطويلة هو الحمص وسمك البقلة. وفي تلك الفترة، لم تتوقف قط «نيتذا فيابول»، تلك المرأة المدهشة، عن تقديم برنامجها التلفزيوني المبدع عن وصفات الطهو، فخفت بذلك من وطأة الملل الذي يسببه الوجود الدائم لسمك البقلة على مائدة الطعام الكوبية بتقديمها أكثر من مئتي طريقة لإعداد هذا السمك كي يبدو طعمه وكأنه دجاج أو لحم بقري. كما قدمت وصفات «تنكرية» للحمص لدرجة أن أحد الكتاب الكوبيين ظلّ عامين

متتالين يتناول طبق الحلوى المفضل لديه والمعد من البطاطا المسكرة قبل أن يعزف عنه فور اكتشافه صدفه أنهم كانوا يعدونه له من الحمص «المتنكر» في صورة بطاطا مسكرة.

و في تلك الفترة كان اللحم البقري يعد شيئاً أسطورياً ليس لندرته مقارنة بالفترات السابقة بل لتضاعف أعداد مستهلكيه. فالإحصاءات تشير إلى أنه في عام 1961، أي عندما بدأ الحظر، كان عدد المواشي المذبوحة في كوبا أكثر من مثيله في الأعوام السابقة. لكن جل ما حدث هو أنه قبل الثورة كان هناك نحو مليون شخص يأكلون اللحم دون غيرهم، بينما ارتفع العدد بعد الثورة ليصل إلى ثمانية ملايين مواطن يأكلون اللحم مرتين في الأسبوع. هذا مع العلم أن صرف اللحم ببطاقات التموين كان للاستهلاك المنزلي فقط، حيث لم تكن هناك قيود على توافره في المطاعم. ولعل هذا الأمر تحديداً له ثمة علاقة بدولة مثل كولومبيا، فالكولومبيون طالما يقارنون وضعهم بحال الكوبيين، بما أن معظمهم يعيش على نظام التموين أيضاً، لمواجهة الفقر المدقع في كولومبيا حيث يتوافر اللحم، على العكس من كوبا، مرتين أسبوعياً ليس فقط في المنازل بل وفي المطاعم، وهي التي لا يرتادها في كولومبيا سوى ميسوري الحال. والمقارنة هنا إنما تثبت عدل النظام الكوبي في توزيعه للسلع المدعمة بين جميع مواطنيه. فحتى في أكثر الأماكن النائية في كوبا، مثل منطقة «سييرا مادري» مثلاً، حيث لا توجد مواشٍ أو أجهزة تبريد، كان موظفو التموين ينقلون البقر حياً إلى هناك ثم يذبحونه ويوزعونه بالقسطاس. وأما فيما يخص السلع الأخرى، فقد بدا موظفو التموين القائمون على توزيع الأجهزة الكهربائية شديداً الحرص بدورهم على تنفيذ مهمتهم بالعدل لدرجة أنهم ظلوا مدة عامين كاملين يحملون الأجهزة إلى بعض المناطق قبل أن ينتبهوا أنه ليس فيها كهرباء من الأساس.

الأهمية السياسية للثورة القصيرة

طرحنا سؤالاً بعينه على ما لا يقل عن مئة امرأة في مختلف أنحاء كوبا فقلت: أي مناحي الحياة أكثر تأثراً بالحظر في رأيك؟ فكانت إجابتهن جميعاً واحدة: «الأحذية». فمتلما كان الحال مع مسألة توفير اللحوم وتوزيعها، آلت الحكومة على نفسها ألا تدع مواطناً كوبياً حافياً. وكان هذا تحدياً عظيماً، فمعظم فلاحي كوبا الفقراء وأطفالها المصابين بالمalaria كانوا حفاة منذ ولادتهم. ومن ثم فإن أكثر ما يلحظ اليوم في كوبا شيئين: انعدام الفروق الطبقيّة وانتعال المواطنين جميعهم أحذية. ولقد تحدثت ابني يوماً بأن أمنحه خمسين دولاراً عن كل صورة يأتييني بها لشخص كوبي حاف، فكانت النتيجة أن الصورة الوحيدة التي استطاع التقاطها كانت لشخص على الشاطئ. بل

وما هو أكثر من ذلك، إذ لم تكن الأحذية توزع ببطاقات التموين إنما مجاناً لأطفال المدارس الذين يفرض عليهم انتعالها منذ بداية تعلمهم المشي كي تقيهم أي أمراض محتملة.

هذا وقد نجح الكوبيون في اتباع الموضة في ملابسهم حتى في أحلك فترات نظام صرف حصص الأحذية والملابس. ومن ضمن إنجازاتهم المثيرة للدهشة كانت مواصلتهم نشر المجلات النسائية التي تحوي آخر أخبار الموضة العالمية، فكانت النساء يدخلن التغييرات على ما لديهن من ملابس وفقاً لفصول السنة، ودائماً كن يجدن إسكافياً يستطيع أن يعدل نعال أحذيتهم أو تغيير شكلها كي تحاكي نظيراتها المصنوعة في باريس. ومن ناحية أخرى، كانت النساء يقمن بإعداد مستحضرات التجميل التي يحتجن إليها وصبغات الشعر التي يستلزمها وكن يحكن جواربهن من باب الأنوثة كي لا يبدن أقل جمالاً من عارضات الأزياء اللواتي تظهر صورهن في المجلات. وليس أبلغ مثال على اعتزازهن بأنوثتهن، رغم كل ما كن يعانينه من فقر، سوى تنانيرهن القصيرة، وهي الأقصر -بصورة مخيفة- على مستوى العالم.

أما اليوم فالكوبيون يتذكرون تلك الأمور بفخر وبروح مرحة يود معظمنا لو يتمتع بها. فهم غير أسفين على آلامهم بل هم يغرقون في الضحك عندما يتذكرون أخطاءهم المذهلة، ومنها مثلاً، خطأ ذلك الموظف الذي أساء فهم أحد الكتالوجات فاستورد ماكينتين لإزالة الثلج، أو ما فعله بعض موظفي التموين الذين قاموا بتوزيع الفردة اليسرى من الأحذية المدعمة على شرق الجزيرة بينما وزعوا اليمنى على غربها. أما أحد زراع التبغ في منطقة بيناردل ريو الذي تحاورنا معه حول كل تلك المفارقات، فقد كان كلامه من أبلغ وأوقع ما سمعنا إذ قال: «كنت منذ ولادتي كالكلب الجربان أبحث عما أسد به جوعي، لكن حلت جميع مشكلاتي منذ فرض ذلك الحظر لأنني أصبحت أحصل على كل شيء». ثم أنهى كلامه ضاحكاً بقوله: «بالنسبة إليّ، فليستمر الحظر». ولا يزال بالطبع الحظر المفروض من قبل الولايات المتحدة مستمراً، لكن الكوبيين تناسوا أمره لأنهم نجحوا في كسره داخل نفوسهم. وهم يتذكرونه فقط بين الفينة والأخرى بنوع من الفكاهة، بينما هم يتذوقون طعم الحياة الكوبية الجديدة التي أبقت على أجمل ما كانت تتمتع به قبل الحظر، كالموسيقى البديعة والرغبة الدائمة في الرقص على أنغامها، والمشاعر الجياشة وكرم الضيافة. فالحظر لم يتمكّن من النيل منهم إلا أنه أحدث لديهم نوعاً من الريبة والغموض اللذين قد يعتبرهما الأجانب الغاشمون نوعاً من التوجس البوليسي، بينما هما في واقع الأمر نوع من التواطؤ القومي الذي يسعى إلى منع الزوار الأغراب من اكتشاف الحيل واللول التي مازالت الحياة الكوبية تزخر بها.

وكانت البشائر تتوالى على كوبا، ففي المساء الذي حلت فيه على مدينة هافانا كان هناك أربعة عشر مركباً من جميع أنحاء العالم مصطفى بانتظار دخول الميناء. والمساء الذي رحلت فيه عنها كان هناك اثنان وعشرون مركباً وشحنة ضخمة من السيارات الواردة من أوروبا يتم إنزالها بطول الميناء وعرضه. كانت البلاد في مرحلة جديدة ذات طابع خاص، حافلة بموسيقى صاخبة ورقص ونكات تطلق جهاراً سخريّة من الأميركيين الذين سقطوا بينما هم يحاولون إسقاطنا. كانت مرحلة امتازت بمزاج جمعي خاص تجلّى في الشوارع التي عجت بالمحبين الذين كانوا يمارسون الحب دون أن يلقوا بالاً للمارة، حتى أن أحد الفرنسيين علق على هذا الأمر ساخراً ومتسائلاً عم إذا كانت تلك الظاهرة تستوجب أن توفر لهم هيئة التمويل أسيرة مدعمة في الشوارع. وفي إحدى ليالي شهر حزيران/يونيو الذي زهت خلاله الاحتفالات، تفجرت روح أهالي هافانا بصورة خرجت عن حدود السيطرة. كانت ليلة رقص فيها الجميع وشربوا الخمر في الشوارع التي امتلأت بالسكاري الذين انزلق كثير منهم في مشاجرات، كما لم يخل الأمر من فضائح ارتكبتها نساء عثرن على أزواجهن في أحضان زميلاتهن في العمل. ففي وسط كل ذلك الهرج والمرج، وفي خضم الصرخات والموسيقى والألعاب النارية، تجلت عظمة وقوة الثورة بمضمونها الذي طالما هزم أعداءها في العالم بأسره، وقد تجسد في جهاز الشرطة. نعم سيداتي وسادتي، فالشرطة في كوبا لم تكن مسلّحة.

الحاجة أم الاختراع

كان فيدل كاسترو عائداً من فوره من الأمم المتحدة وكان يتحدث عن تلك الزيارة في خطابه للجماهير المحتشدة في ساحة الثورة في هافانا عندما اهتزت المدينة جراء انفجارين مدويين. كان ذلك في الثامن العشرين من أيلول/سبتمبر 1959. وكنت أنا قرب المنصة بحكم عملي آنذاك مراسلاً صحفياً، وكنت مثل كل سكان هافانا وقتذاك قد بدأت أعتاد تلك القنابل التي صارت تنفجر أخيراً في أي وقت وفي أي مكان. لكن بعد الانفجار الثاني قطع فيدل كاسترو خطابه وقال بنبرة مختلفة وأكثر حيوية: «نظراً لتلك الهجمات التي تشنها الإمبريالية سنقوم بإنشاء نظام مراقبة ثوري جماعي. سننتبه جميعنا لما يفعل كل منا تحسباً لوجود خونة ومندسين بيننا. فإن ظن أعداؤنا أنهم يستطيعون التغلب على هذا الشعب فإنهم مخطئون». وفي تلك الليلة نفسها وقبل أن يتسنى للحكومة دراسة مبادرة كاسترو كان شعب هافانا بل وشعب كوبا بأسره قد بدأ تشكيل لجان حماية الثورة. فأتار هذا دعر تيارت الثورة المضادة والموالين لها بصورة لم تنجح في فعلها أعتى

المبادرات الأخرى بما في ذلك حملات التأمين الكبرى. وكاسترو وحده كان يعرف إذا ما كانت تلك الفكرة قد جاءت من وحي اللحظة أم أنه كان قد فكر فيها وأضمرها سرّاً بانتظار اللحظة المناسبة للكشف عنها. لكن المهم في الأمر هو أنه لم تكن هناك سابقة مماثلة لتلك المبادرة في أي من الثورات الاشتراكية الأخرى، وليس ثمة ما يشير إلى أن الفكرة كانت مطروحة بأي صورة من الصور قبل ذلك المساء الذي صرح فيه كاسترو بأهمية إنشائها.

طوايع البريد عملة صعبة

أما وظيفة تلك اللجان، كما يتضح من اسمها، فكانت حماية الثورة من أعدائها في الداخل. وقد تجلت فاعليتها في منطقة بلايا خيرون حين نجحت في شل عمل جبهة الثورة المضادة تماماً. وبطبيعة الحال، فإن جهازاً كهذا تم تشكيله تحت وطأة الحاجة، لا يمكن أن يخلو من أخطاء وتجاوزات. فالعديد من أعضاء تلك اللجان تمادوا في مهامهم لدرجة صارت تهدد الحريات الخاصة للمواطنين، إلا أن الزمن والخبرة المبنية على الممارسة كانا كفيلين بإعادة الأمور إلى نصابها. ثم صار زخم الثورة هو المتحكم في شكل تلك اللجان وأدائها، فقد شارك في تلك اللجان حوالي خمسة ملايين من الكوبيين، أي حوالي ثمانين بالمئة من المواطنين الذين تزيد أعمارهم على أربعة عشر عاماً، أي معظم الشعب حتى صار هناك ممثل عن تلك اللجان في كل مربع سكني على طول البلاد وعرضها. وقد انعكست جهودهم جميعاً على سير عملية محو الأمية وتوزيع السلع التموينية والإرشاد الثوري. فخلال العام الماضي وحده على سبيل المثال، وأثناء عملية جمع المواد الخام، انتشلت تلك اللجان من القمامة تسعة وتسعين مليون زجاجة، وثمانية عشر مليون طن من الورق، وخمسة آلاف أونصة من طوايع البريد التي أعيد استخدامها وتصديرها إلى جامعي الطوايع في كل أنحاء العالم. وفي مطلع هذا العام تم إطلاق شعار: «تحويل كوبا إلى حديقة احتفالاً بالجلسة الأولى للحزب الحاكم»، فجاءت النتيجة مذهلة إذ اكتست المنازل جميعاً بالورود بما في ذلك المنازل الواقعة في أكثر الأرجاء النائية من كوبا. ورأينا في مدينة سانتا كلارا حافلة مزدانة بالورود. حتى في مصانع الأدوات الرياضية، لاحت ماكينات الخياطة من بين كرات البيسبول وقفازات المصارعة الحرة مزدانة بدورها بالورود.

لكن، رغم كل هذا، ظل الكل مجمع على كون الرعاية الصحية والتعليم من أهم منجزات الثورة. ولكن في تصوري، كانت هناك إنجازات أخرى أقل وضوحاً لكنها تعد الركائز الحقيقية التي ينطلق منها الإنجازان الأوليان ومنها قطاع الإسكان على سبيل المثال. لكني لا أعتقد على أيّ

حال أن أياً من تلك الإنجازات كانت لتتحقق دون مبادرة ومشاركة لجان حماية مكتسبات الثورة التي جسدت القوة الحقيقية لها.

«نعلم عدد من ماتوا من المرضى من جراء الحظر»

هناك مقابر كنيية ومتناثرة على حافة جرف شاطئ أورينتي كُتب على بعض منها «هذه قبور من قبعوا في انتظار السفينة»، بينما كتب على بعضها الآخر «هذه قبور من لم يبلغهم الدثار». والحقيقة أنه لا فرق بين المعنيين. فقبل الثورة كان أهالي تلك المناطق الواقعة بين سييرا مادري والكاربيبي يمضون أياماً طوال على حافة الجرف ملوحين بملاءات بيضاء لعل أياً من سفن الرأفة تمر فتحمل مرضاهم. لكن غالباً ما كان المريض يلقي حتفه بينما هو ينتظر وصول مراكب العناية الإلهية تلك، فيدفنه ذووه في تلك المقابر البائسة التي مازالت موجودة على سبيل التذكير بمظالم الماضي. أما الآن، فعلى الشاطئ نفسه وبالقرب من تلك المقابر تلوح مستشفيات زرقاء وحمراء وهي الألوان البهيجة التي تميز كوبا الجديدة. فهئية الصحة نجحت في بلوغ تلك الأماكن النائية عبر مندوبيها الذين امتطوا بغالاً ختمت على مؤخرتها بعلامة صفراء. كانت تلك البغال هي وسيلة النقل الوحيدة المتاحة في بدايات الثورة، فكانت تستخدم في إرسال الأطباء، إن توافروا، لفحص أهالي الريف والقرى وتطعيمهم، وإن لم يتوافر طبيب، كانوا يرسلون ممرضة. وهكذا بدأت هيئة الصحة العامة عملها قبل أن تدعمها اللجان الشعبية فتصير مشروعاً جماهيرياً ضخماً كانت أولى حملاته هي التطعيم العام ضد شلل الأطفال. وعلى الرغم من بساطة تلك الحملة التي ما تطلبت أكثر من إجبار كل طفل كوبي على تناول قطعة حلوى تحتوي على المصل، إلا أن العوائق كانت كبيرة، فقد تحتم:

أولاً، تحديد عدد قطع الحلوى المطلوبة للأطفال وهو الأمر الذي لم يكن سهلاً بالمرة في بلد يفتقر إلى إحصاءات سكانية. ثانياً، تعين توزيع قطع الحلوى في مدة لاتزيد عن اثنتي عشرة ساعة لكونها المدة القصوى التي يمكن لتلك القطع أن تبقى خلالها خارج الثلاجات. ثالثاً، تحتم التغلب على اعتراض أولياء أمور هؤلاء الأطفال والذين أفنعتهم القوى المضادة للثورة بطرقها الاحتيالية أن تلك القطع كانت حلوى شيوعية تهدف إلى تدمير عقول أبنائهم. لكن، في الأخير، نجحت اللجان الشعبية في التغلب على كل تلك العوائق وأتمت المرحلة الأولى من اللقاحات الشاملة في كل أرجاء كوبا في ثماني ساعات فقط. وبهذا الشكل استأصلت من كوبا أمراض مثل شلل الأطفال والتيتانوس والجدي وكل الأمراض الأخرى القابلة للتشخيص والعلاج كمرض الملاريا

الذي طالما عاناه الكوبيون ما أدى بمرور الوقت إلى تحويل مستشفيات طالما تخصصت في علاج السل إلى مستشفيات عادية. ولقد كان بانشو غونثالث، القائد النشيط الذي عهد إليه إيصال الثورة إلى الأماكن القاصية في سبييرا مايبيسترا، هو من أخبرني بكل تلك الأشياء أثناء تجوالنا معاً بالسيارة عبر عدة أماكن ظلت حتى أعوام قليلة خلت حجراً صحياً حتى على البغال التابعة لوزارة الصحة. وقد ساعدنا فريق من الأطباء الشباب الطرفاء حديثي التخرج في الوصول إلى مستشفى كالاباثا الذي يحوي سيارة إسعاف مزودة بالتجهيزات اللازمة لكل حالات الطوارئ والتي كانت مهمتها تحديد أماكن الأمهات اللاتي يسكن في تلك المنطقة النائية واللاتي كن على وشك الولادة حتى تنقلهن إلى المستشفى. وأولئك النساء كن في الماضي يتلقين مساعدة قابلات أسطوريات يستخدمن ظفر إصبعهن الصغير لقطع -وتلويث- كيس الماء في رحم الحبل. أما في كوبا اليوم فليس هناك حالة ولادة واحدة تتم خارج المستشفى. ولقم تمت كل تلك الإنجازات الباهرة في ظل الحظر، وتم تدريب أطباء الطوارئ أحياناً دون توافر أدنى الاستعدادات اللازمة لعملهم.

و قد شهد عام 1962 فترة لم تتوافر خلالها أقراص الأسبيرين، فنجح الجراحون في اختراع طرق مبتكرة للتغلب على نقص توافر مواد التخدير. أما القفازات البلاستيكية التي تستخدم أثناء الجراحات وترمى بعد الاستعمال حتى في أكثر البلدان فقراً، فكان يعاد استخدامها في كوبا بعد إخضاعها لعمليات تطهير خاصة اخترعها الأطباء الكوبيون فكانت تستعمل حتى تبلى تماماً. وإذا ما خطر لشخص أن يسأل أحد الكوبيين المتقدمين في العمر عن كيفية توصلهم إلى كل تلك الابتكارات لرد بمرح قائلاً: «الحاجة أم الاختراع». ولا يعني هذا نسيانهم في قرارة نفوسهم السبب الحقيقي وراء ذلك الوضع المفجع، بل على العكس، فقد احتفظوا في ملفاتهم السرية بقوائم لا تحصى لمرضى كان يمكن أن تنقذ حياتهم لولا الحظر.

مستشفى الأمراض العقلية بلا أسوار أو أبواب

زاد عدد الأطباء في كوبا ثلاثة أضعاف مقارنة بعام 1960 حتى صار هناك حوالي اثني عشر ألف طبيب يقومون على خدمة ثمانية ملايين مواطن. أما في كولومبيا، التي من المفترض أن فيها ديمقراطية ولا يوجد فيها حظر، فهناك عشرة آلاف وثمان مئة طبيب فقط يقومون على خدمة أربعة وعشرين مليون مواطن. علاوة على ذلك، لم يتمركز أطباء كوبا في العاصمة ومن ثم لم يعد هناك مواطن كوبي واحد يذهب إلى عيادة طبية تزيد مسافة بعدها عنه على خمسة كيلو مترات، وصار كل طبيب دائم التأهب لنقل المريض إن لزم الأمر إلى المستشفى المناسب لتلقي

العلاج الذي يحتاج إليه مهما كانت تكلفته. أما العلاج والخدمات الطبية والدوائية فكانت جميعها دون استثناء مجانية، بل وإجبارية في بعض الحالات. لهذا كله انخفض معدل الوفيات في كوبا بشكل ملحوظ، كما صار معدل وفيات الأطفال الأقل على مستوى العالم. ولقد تجلت أقصى درجات إتقان هذا النظام الصحي في حالة المصحة النفسية في هافانا حيث صار بمقدور مرضى الحالات المستعصية أن يتمتعوا بحياة اجتماعية وأن يقوموا بعمل مدفوع الأجر وأن يخرجوا من المصحة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع ذويهم. بل تسنى لهؤلاء المرضى أنفسهم إنشاء فريق بيسبول بوسعه المشاركة في البطولات المحلية، وفرقة لرقص الرومبا بوسعها المشاركة في الاحتفالات الشعبية، كما أتيح لهم تشكيل مجموعة للمشاركة في عملية قطع محصول القصب كانت كفاءتها تضاهي مهارة أفضل العمال الأصحاء. وفي باحة المصحة، وكانت متنزهاً صحياً كبيراً، وفروا لهم استاد كرة قدم ومسبجاً أولمبياً، كما وفروا لهم أيضاً ورشاً للنجارة وإصلاح الأحذية والخياطة وصالونات حلاقة وصالات سينما ومسرحاً، وألقوا لهم بها مزرعة دواجن فيها خمسة وسبعون ألف دجاجة تكفي لتغطية استهلاك هافانا ذاتها، كما أقاموا لهم فيها حديقة تحوي أجمل ما في البلاد من ورود. وكان أي عمل يقوم به المرضى مدفوع الأجر حتى أن بعضهم صار يكفل ذويه من الأصحاء الذين يعيشون خارج المصحة. وقد طرحت سؤالاً على القائد أوردات البشوش والقوي، وهو مدير تلك المصحة النفسية التي ليس لها أسوار، محاولاً الوقوف على ماهية مهارته في العلوم النفسية، فأجابني: «لم أكتسبها من أي مكان محدد يا صديقي. فقد كنت طبيب تخدير في لاسييرا. لكن عندما جئنا مع فيدل أمرني هو أن أجعل من هذه المصحة مكاناً آدمياً، فكان ما تراه الآن. فأنا لم أفعل سوى تنفيذ الأوامر».

أكبر حملة لمحو الأمية في التاريخ

وسيراً على نهج قطاع الصحة الذي أعيد النهوض به عن طريق حملات التلقيح والتطعيم، بدأت ثورة التعليم في كوبا بحملة لمحو الأمية هي الأوسع نطاقاً والأسرع في تاريخ البشرية، فحققت نتائج مذهلة. ولقد قام بتنفيذها 268.429 متطوعاً منهم حوالى مئة ألف فتى راوحت أعمارهم ما بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، وقد نذروا أنفسهم لمدة اثني عشر شهراً لمحو أمية سبعة وأربعين بالمئة من السكان البالغ تعدادهم ستة ملايين نسمة. ولقد استلزمت عملية إعداد هذا الجيش من المتطوعين أن يقوم على تدريبهم مئة وعشرون ألف معلم حكومي. وقد حدث هذا كله خلال عام 1962 إبان أحداث شاطئ لا خيرونا،¹⁶ إلا أن حالة الاستنفار الوطني والتأهب

المستمرة لم تحل دون مباشرة حملة محو الأمية. بل العكس هو الصحيح، إذ ساهمت تلك الأحداث في تسهيل الحملة طبقاً لقاعدة أصيلة أخرى متعلقة بالثورة الكوبية، ألا وهي قاعدة تحويل العوائق إلى مكاسب، وهو ما فعله الكوبيون تماماً في مواجهة الاضطرابات وهجمات المرتزقة والاستفزازات الإمبريالية وفي مواجهة الحظر بشكل عام. ولقد حققت الحملة نجاحاً ساحقاً، فقد انخفض معدل الأمية ليصل إلى 3.9 بالمئة. وانبرت الصحافة العالمية تشكك في صحة هذا الرقم، وبعثت اليونسكو خبراءها الذين خلصوا إلى أن الرقم الذي أعلنته كوبا كان بالفعل غير صحيح، فمعدلات محو الأمية لم تكن منخفضة فحسب بل بلغت 2.2 بالمئة أي صارت الأقل على مستوى العالم.

وبينما نحن جالسون في مطعم بمنتجع جزيرة بينوس وعاكفين على مراجعة الإحصاءات الخاصة بتلك الحملة الرائدة، إذ بنا نقع على نموذجين صارخين، فقد كان أحد الحضور الجالس معنا إلى مائدة الطعام نفسها، وهو فني ماكينات زراعية يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، قد تعلم القراءة في الأساس بفضل حملة محو الأمية تلك. كما علمنا أن جدة مرشدنا السياحي كانت، بعد أن ناهزت الثمانين من عمرها، قد تعلمت القراءة بفضل تلك الحملة، وأنها الآن، وقد بلغت الرابعة والتسعين من العمر، طالما تشغل وقتها بالقراءة وتلعن النظام الرأسمالي كل ليلة لكونه السبب وراء حرمانها طيلة عمرها قراءة كل الكتب التي كانت تود لو أسعفها عمرها لقراءتها. ويجوز القول بأن النظام التعليمي الكوبي يتطور بسرعة مبهرة، خصوصاً في الآونة الأخيرة لدرجة أن الإحصاءات تعجز عن الإحاطة بإنجازاته المذهلة. لكننا إذا تحدثنا بلغة إحصائية قلنا إنه في بداية الثورة كان هناك مليون أمي من البالغين ونصف مليون طفل غير مسجل في أي مدرسة وأكثر من عشرة آلاف معلم دون وظيفة. أما اليوم فليس هناك طفل واحد لا يذهب إلى مدرسة ولا يتمتع بحق التعليم المجاني بداية من مراحل الأولى وانتهاء بالتخصصات الجامعية الدقيقة، فضلاً عن توفير الدولة المسكن والمأكل والملبس والأحذية ومستلزمات الدراسة مجاناً للطلاب. فلقد قال فيدل كاسترو ذات مرة «إن الأطفال يجب أن يكونوا سعداء»، ويبدو أنه لم يكن كلاماً مرسلاً بدليل أنه صار شعار المرحلة. ففي معسكرات فاراديرو الصيفية يتمتع الأطفال الكوبيون بأدوات للمرح لا يحصل عليها أبناء بعض مليونيرات أميركا.

أما أهم ملمح ثوري يميز التعليم في كوبا فهو ربط الدراسة بالعمل. ومن ثم يبدأ توجيه الأطفال، منذ بلوغهم الرابعة من العمر، للعب بقطف ثمار البرتقال. وعند بلوغهم الحادية عشرة، يتم توجيههم للعمل عشر ساعات أسبوعياً في الحديقة المدرسية. وعند التحاقهم بالصفوف الدراسية

الأكثر تقدماً يدرسون نصف اليوم ثم يقضون نصفه الآخر في العمل، خصوصاً في حقول الموالح الكبيرة المنتشرة عبر أرجاء البلاد. أما أطفال المدن الذين كان مستواهم العلمي في الماضي لا يؤهلهم حتى لفهم «كيف تبيض الدجاجة» فهم الآن يخرجون للعمل في الحقول مدة خمسة وأربعين يوماً على مدار السنة. وقد نجح هذا النظام في تحقيق عوائد ضخمة تعوّض إلى حد كبير المصروفات الهائلة التي تضخها الحكومة في قطاع التعليم، لكن يصرا الكوبيون على أن الهدف الأساسي ليس هو الربح المادي بل التنمية المعرفية ويستشهدون بأقوال خوسيه مارتى الذي دعا منذ مئة عام مضت إلى ربط التعليم في أميركا اللاتينية بالإنتاج. ولقد طبقت هذه المبادئ ذاتها في مجال التعليم الجامعي، فعلى العكس مما هو الحال في النظم الرأسمالية حيث يتمركز التعليم داخل الجامعات، خرج الكوبيون بالجامعات إلى مراكز العمل، فصار الطب يدرس في المستشفيات، والهندسة في المصانع، والزراعة في الحقول، كما يدرس فن الطهو في أفضل المطاعم الكوبية التي تضاهي أخصر مطاعم البلدان الأوروبية. إذن، لم تقتصر إعادة هيكلة التعليم على المرحلة المدرسية وحدها. ومن ثم فقلما تجد أحداً لا يدرس شيئاً في وقت فراغه، سواء استعداداً للبحث عن عمل جديد أو للترقي في عمله الحالي؛ فهناك أماكن لتعليم كل شيء، هناك مثلاً، مدرسة لتعليم علوم السيرك في هافانا وأخرى لتعليم فن السحر في مدينة سانتياغو. ولقد زادت عملية إنشاء المدارس في كوبا بصورة كبيرة لدرجة تفرض علينا أن نتساءل بجديّة عما إذا كان هناك بالفعل أعداد كافية من الطلبة لملئها.

مئة سنة أخرى لتحقيق الترف

على الرغم من انخراط الجميع في العمل الجاد ظلت هناك مشكلات كبرى تتطلب كل منها حلاً، وكان أهمها على سبيل المثال مشكلة ندرة الأيدي العاملة التي بدا أن الحل الأمثل لمجابهتها سريعاً هو إدخال الميكنة في قطاع زراعة القصب وحصاده وإنتاج السكر بما أنه قد ولى زمن الاعتماد على الطرائق القديمة في حصد المحصول. أما مشكلة الإسكان فقد تم التصدي لها لكن جاء ذلك على حساب ملمح تراثي كوبي أصيل ألا وهو أكواخ القش، التي طالما تغنت الموسيقى الشعبية بشكلها الخلاب تحت أشعة القمر، والتي بدأت في التلاشي. كما تم إيجاد حلول نهائية لكثير من المشكلات الأخرى التي قد تبدو للوهلة الأولى قليلة الأهمية إلا أنها كانت تؤثر سلباً وبعمق في الحياة اليومية كمشكلة أسعار السلع الغذائية والصناعية، فصار كل يوم جديد يشهد

توافراً لتلك السلع في المحال بأسعار قد تقارب أسعارها قبل خمسة عشر عاماً، وذلك لأن الثورة قامت بتثبيت تكاليف المعيشة عند أسعار 1961.

قد يجتهد بعض السائحين في سبر أغوار البلاد، فيفحصون كل ركن ويفتشون في الضمائر عليهم يعثرون على نقائص في ذلك المجتمع الجديد، ولعلمهم كانوا يجدونها أحياناً عندما يقعون مثلاً على نفر من الشباب، في جوار أحد الفنادق الكبرى، يتاجرون بالساعات أو الجوارب النسائية أو العملة الصعبة، أو عندما يعثرون في ركن من أركان الميناء على فتاة كوبية ماجنة واعدت عشيقاً أميركياً طمعاً في أن يهدي إليها حذاء إيطالياً. وكانت السلطات على علم بوجود تلك الممارسات وتدرس كيفية القضاء على مخلفات الماضي السلبية دون اللجوء إلى أساليب قمعية. لكن وحده الشخص المطلع على حقيقة طبع أهل كوبا هو الذي بمقدوره أن يفهم أن أيّاً من تلك الظواهر لا تأثير لها في مسيرة حياة هذا الشعب اليومية، فالشعب الكوبي يستيقظ دوماً في اليوم التالي مبكراً لمواصلة تطوير إمكاناته المادية حتى تصل إلى درجة عالية تتلاءم مع قيمه العالية، فالكوبيون يدركون ما هي أهدافهم ويقرون بها دون موارد معترفين بأن الاشتراكية لا تتعارض مع الحق في تحقيق الترف، ومن ثم هم يكدون من أجل تحقيقه. ولقد صار هذا الهدف تحدياً رسمياً فقد أُعلن أنه في عام 1980، أي بعد خمس سنوات، سوف تكون كوبا أكثر دول أميركا اللاتينية تقدماً.

إن كنتم لا تصدقوني فلتتحققوا بأنفسكم

أولى وأكبر التظاهرات الجماهيرية للثورة الكوبية كانت في الـ 26 من تموز/يوليو 1959، أي بعد شهور قليلة من وصول الثورة إلى الحكم. يومها احتشد تقريباً كل العمال والفلاحين في مدينة هافانا للاحتفال بالهجوم على ثكنات لامونكادا. أما التظاهرة الأخيرة فكانت في الـ 26 من تموز/يوليو من العام الحالي، في مدينة سانتا كلارا العريقة، للاحتفال بذكرى المناسبة نفسها. ولقد حالفني الحظ لحضور كلتا التظاهرتين فبدت لي الفروق بينهما كاشفة جداً عن درجة التطور العميق والنضج الرائع الذي أحرزته كوبا في السبعة عشر عاماً الأولى للثورة. فالأولى غلبت عليها الهمجية إلى أقصى درجة. ففي أقل من ثلاثة أيام، كان قد وفد مليون شخص على العاصمة متسببين في اختناق الفنادق التي أوتهم وبيوت من استضافوهم وفي ازدحام مروري منقطع النظير في الشوارع والأماكن العامة، وفي امتلاء شوارع المدينة بمتشردين حفاة رثي الثياب. وقد اجتهد آنذاك جيش الثورة والطلاب والمتطوعون المدنيون لإحلال بعض النظام وسط

كل ذلك الهرج الذي استمرحتى بعد انقضاء التظاهرة بأسبوع من جراء صعوبة إخلاء المدينة، فطلّت القطارات وعربات النقل العام مكتظة، وعجزت مستشفيات العاصمة عن استيعاب المشردين.

أما الاحتفال هذا العام فكان مختلفاً تماماً، فقد احتشدت الجموع الغفيرة في مدينة سانتا كلارا، لكنها أتت هذه المرة في أبهى حللها واستغرقت ساعتين فقط لملء الساحة المخصصة للتظاهرة، بينما خصصت عربات تابعة للنقل العام لنقلهم ذهاباً وإياباً إلى المدينة بدءاً من الليلة السابقة على الاحتفالية، كما تمت الاستعانة بفرق من خبراء تنظيم الحشود تحسباً للمشكلات التنظيمية. وفي الوقت المحدد، وتحت شمس «لاس فيياس» الحامية، احتشد مليون مواطن كوبي وآلاف من الضيوف الأجانب في الأماكن المخصصة لهم والمركمة سلفاً. وإمعاناً في التنظيم، فتحت طرق وسط الحشود لعبور قافلات الطوارئ الطبية عند اللزوم. وعندما انتهت الاحتفالية، تم إخلاء الساحة في أقل من ساعة دون حدوث أي اكتظاظ أو حادث مروري، وسرعان ما استعادت مدينة سانتا كلارا جوها الهادئ ذا الطابع التاريخي الحالم.

أما اللافت للنظر في هذا المشهد فلم تكن المهارات التنظيمية للاحتفالية إنما النضج السياسي الذي أظهرته الجماهير المحتشدة والتخاطر الذي ترسخ بينها وبين فيدل كاسترو. ففي عام 1959، عندما كانت المرحلة بعدها تتسم بالعشوائية، حامت إحدى طائرات الهليكوبتر التابعة لجيش باتيستا المنهزم فوق رؤوس الحشود المنتظرة قبل أن تحط أخيراً فوق سطح القصر الرئاسي القديم الذي صار فيما بعد متحفاً للثورة. وكانت تلك الطائرة تقل فيدل كاسترو الذي وصل آنذاك متأخراً ساعتين عن الميعاد المحدد، ثم ظلّ يخطب في الناس لمدة خمس ساعات بصورة غلبت عليها العشوائية والتكرار، معطياً إياهم نبذة عن كل شيء كأنه يعطي حصة في مدرسة ابتدائية. أما الاحتفالية في سانتا كلارا فجاءت على العكس من ذلك تماماً، فقد اعتلى كاسترو منصته أمام الحشود في الساعة العاشرة تماماً كما كان معلنأ، وألقى خطاباً استغرق ساعة وعشرين دقيقة وجاء متسقاً ومحددأ ومدعماً بملحوظات مدونة. وأثناء الخطاب، حدث مرّة أو مرّتين أن وجد كاسترو صعوبة في تذكر الكلمة المناسبة التي يريد استخدامها فما كان إلّا أن علت بعض الأصوات من بين الجماهير المحتشدة مذكراً إياه بالكلمة، فكان فيدل يتلقفها منهم بسرعة مواصلاً خطابه بتلقائية. وعلى النقيض مما كان يحدث في سني الثورة الأولى عندما كان لزاماً عليه أن يشرح للجماهير بطريقة تبسيطية أهم أهداف الثورة، صار هناك تواصل خفي يربط تلك الجماهير

بقائدها، مما جعل فيدل كاسترو ينهي خطابه في سانتا كلارا بجملة تقريرية تلقائية وبليلة تجلى فيها نضج الثورة الكوبية قائلاً: «الثورة على مايرام».

المراسل الصحفي الرائع: فيدل كاسترو

أما ذلك النضج الذي أشرت إليه فيظهر في كل مناحي الحياة اليومية في كوبا ولا سيما في شخصية فيدل كاسترو نفسه. في عام 1959 المضطرب، رأيت كاسترو للمرة الأولى. كان منهمكاً في حوار مع أحد العاملين في مطار كماغواي محاولاً إقناعه بالاحتفاظ ولو بدجاجة واحدة في الثلاجة دوماً حتى لا تأخذ السياح الأميركيين النعرة الإمبريالية فيظنوا أن الكوبيين يتضورون جوعاً. كان حينئذ في الثانية والثلاثين من العمر وكان نحيلاً وشاحباً وبلحيته الخفيفة نفسها، تلك التي لا تنمو أبداً، وكانت تشع منه قوة وصلابة إرادة تتخطى إمكاناته الجسدية، بينما شيء ما في نظرتة كان ينم عن ضعف طفولي دفين في قلبه. لم يكن ليهدأ لحظة واحدة فهو دائم الحركة في مجلسه حتى يبدو وكأنه يغير مجلسه مع كل حركة. كانت تلك مرحلة التلقين المكثف التي كان يظهر خلالها عبر شاشات التلفاز دون سابق إنذار ليشرح مشكلة ما متعلقة بالثورة الوليدة، فيتحدث من دون توقف من الرابعة عصراً وحتى منتصف الليل، دون أن يرتشف كوباً واحداً من الماء ودون أن يعطي أحداً فرصة للذهاب لقضاء حاجته، فكان يحلل الموضوع ويقلبه يميناً ويساراً حتى يجعله مستساغاً سهلاً، وبينما هو منهمك في حديثه تجلس السيدات الكوبيات أمام شاشات التلفاز ليرتشفن مشروب الشوكولاته ويأكلن البسكويت بينما يتمن ما بأيديهن من أشغال إبرة.

وها هو الآن رجل تكاد لا تبدو عليه سنواته الخمسون، وقد زاد وزنه حوالى خمسة عشر كيلو غراماً دون أن ينقص ذلك من حيويته شيئاً، بل ازدان بالحلم وحكمة النضج. فقد نجح في السمو على ما تسببه السلطة من صدام خبيث مدمر يتغلغل في النفس فيفسدها، كما سما على الوهن الذي قد يفرضه القلق من شبح مستقبل غير مضمون مليء بالتبعات، بينما كانت الحياة تغريه بأن يركن إلى الشهرة اللحظية والبطولة السهلة. وقد قام هو نفسه بإرساء نظام دفاعي قوي يحميه من الاغترار بالنفس فأصدر قراراً يحول دون أن يحمل أي مشروع أو مكان أو إنجاز عام تابع للثورة اسمه أو اسم أي قائد آخر لايزال على قيد الحياة. بيد أنه، على الرغم من توخيه كل ذلك الحذر الصارم لم يستطع أن يحول دون أن يترعرع في قلوب الكوبيين -فضلاً عن الحماسة والعرفان والثقة اللامحدودة به- شعور آخر، رغم بساطته، طالما تمناه وقلما ناله القادة عبر التاريخ من أكبرهم إلى أصغرهم، ألا وهو الحب. فقد نال حب الجماهير دون شك بذكائه السياسي وحده

وأمانته وبقدرته غير العادية على العمل وباندماجه العميق وثقته المطلقة بحكمة الجماهير وبنظراته الشاملة التي يقوم بها حتى أبسط الأمور التي تعن في الحياة اليومية. وفي ظني الشخصي، والذي يكاد يكون متحيزاً، ما كانت كل تلك الشيم لتكون بتلك الفاعلية لو لم تكن مدعومة بصفة أساسية أخرى يجهلها الكثيرون عن فيدل كاسترو، ألا وهي عبقريته كمراسل صحفي. فكل الوقائع الكبرى للثورة، بإنجازاتها وهزائمه وجذورها البعيدة وتفاصيلها الدقيقة وقيمها السياسية والإنسانية ومواقفها التاريخية، مسجلة كلها في خطب فيدل كاسترو بحرفية الصحفي الماهر. فبفضل تلك التغطيات الخطابية، صار الشعب الكوبي واحداً من أكثر شعوب العالم اطلاعاً على حقيقة أحواله، وذلك عبر مصدر أكثر مباشرة وعمقاً وأمانة من كل الصحف الرأسمالية المغالطة.

أي الكتب محظورة في كوبا؟

ولا يعني ما سبق ادعاء الكوبيين التغلب على مشكلات حرية التعبير أو تداول المعلومات أو الديمقراطية الثورية لمجرد اعتمادهم على ما في خطب فيدل كاسترو من مفاهيم. بل على العكس، فهم بعد أن تغلبوا على الصعوبات المعيشية الأولية بدأوا التصدي بالفعل للمشكلات المذكورة بالجدية والتصميم نفسيهما اللذين واجهوا بهما التحدي الذي فرضه عليهم الحظر، أي كأنما تلك المشكلات كانت مسألة حياة أو موت.

ولعلّ العام الحالي يشهد ثلاثة أحداث مصيرية سواء فيما يختص بكوبا أو بالاشتراكية العالمية.

أما الحدث الأول فهو الإعداد للمؤتمر الأول للحزب الشيوعي والمزمع عقده في كانون الأول/ديسمبر، ومن شأنه إطلاق شرارة البدء في تفعيل الأسس الثورية.

وأما الحدث الثاني فهو مشروع الدستور الاشتراكي الذي كانت قد تمت مناقشته باستفاضة خلال الشهور الأخيرة في جميع المراكز المخصصة لذلك عبر البلاد، وسوف تطرح صيغته النهائية للاستفتاء خلال الأشهر المقبلة.

وأما الحدث الثالث فهو تفعيل السلطة الشعبية عبر الانتخابات التي يسمح بالتصويت فيها لكل من يبلغ من العمر ستة عشر عاماً أو أكثر، مما يعني مشاركة حقيقية ومباشرة للشعب في عملية صنع القرار وتنظيم إدارة البلاد من خلال نظام دقيق وتمثيل حقيقي.

وفي خضم عملية إرساء دولة المؤسسات على هذا النحو، لا يمكن أن يكون ما يوليه النظام من اهتمام لمسألة حرية الإبداع والتعبير وليد المصادفة، فالكوبيون، حالهم كحال بقية الشعوب الساحلية، لديهم حساسية، خصوصاً حيال تلك المسألة، ولا سيما أنها طالما شغلتهم خلال فترة الحظر اللانهائية. ولقد تحدثت مطولاً مع كوبيين من مختلف القطاعات بنوع من الصراحة والحماسة اللتين قد لا يفهمهما سوانا نحن، أي شعوب الكاريبي، حتى تيقنت أنهم قد توصلوا إلى حلول حقيقية وخالقة لكثير من مشكلات الإبداع والتعبير التي لاتزال مصدر نزاعات غير ضرورية في بلدان اشتراكية أخرى ومنها مسائل، وإن كانت معدودة، إلا أنها طالما تعطي الفرصة لاندلاع منازعات عقيمة وتفتح باباً تشن منه التيارات المعادية هجماتها، ومن تلك المواضيع الغبية على سبيل المثال، الجدل حول وجوب التزام الواقعية أو التجريدية في التصوير الفني الاشتراكي، أو وجوب التزام النغمات الناعمة أو الحادة في موسيقى التيار الاشتراكي. ولتفادي مثل ذلك اللغظ اعتمد الكوبيون في مسودة دستورهم حلاً ناجعاً مفاده ضمان الحرية الكاملة لكل أشكال التعبير الفني. لكن في المقابل، هناك بند آخر في الدستور قد لا يبدو للوهلة الأولى مقبولاً، وهو البند المتعلق لا بشكل العمل الفني إنما بمضمونه. وينص البند على وجوب عدم تعارض مضمون العمل الفني مع مبادئ الثورة. وهو أمر مفزع لاسيما وأنه يفترض في الأساس وجود جهة رقابية منوط بها مسبقاً تقويم إمكانية خروج ذلك العمل الفني إلى الوجود من عدمه. بل هو بند غير قابل للتنفيذ بما أنه يتعارض مع الروح العامة للدستور الذي يغلب عليه الطابع المتسامح والإنساني، كما أنه يتعارض مع روعة إطلاق حرية الإبداع والخيال الخلاق والحرية النقدية التي وجدت لها متنفساً اليوم في كل مناحي الحياة الكوبية. ولعل المثير للدهشة والحيرة في كل ذلك هو أن نص ذلك البند لا يحوي في طياته ازدراءً للفنان بل على العكس تماماً فهو اعتراف ضمني بقيمته القصوى في الحياة. فذلك التقييد الذي يحاول البند فرضه إنما مبعثه قناعة بأن العمل الفني الجيد قد يتمكن من إطاحة أي نظام سياسي أو من تغيير مصير العالم. غير أن حقيقة الأمر هي أن أي هزة فاصلة في أي مجتمع حدثت في الماضي أو قابلة للحدوث في المستقبل لا تتوقف على أي عمل فني أياً كان إنما تتوقف على التصدعات الداخلية الخفية في أنظمة المجتمع ككل، ومثل تلك التصدعات مستبعدة الحدوث في حالة كوبا، فبعد جولتي المستفيضة فيها لم يعد لدي أدنى شك في أن الثورة بمأمن من أي عواصف انقلابية قد يزكّيها الفنانون، وإن تراءى لأي كاتب أن يسطر شيئاً ضد مصلحة البلاد فإنه لن يصطدم عندئذ ببند دستوري بل ستكون الثورة نفسها قد نضجت بالشكل الكافي الذي سوف يسمح لها بإذابته.

الصحافة الاشتراكية مرحلة ومبتكرة

تعد مسألة تداول المعلومات التي يتعامل معها الكوبيون بحساسية شديدة من أكثر الإشكاليات تعقيداً. والحقيقة إن من يقولون -سواء بحسن نية أو سوء نية- إن كوبا ليس فيها حرية صحافة فهم إنما يشيرون إلى شيء مختلف تماماً، ألا وهو عدم وجود صحافة كتلك التي صنعتها الرأسمالية للدفاع عن مصالحها وفرض أهدافها، فهذا النوع من الصحافة لا يوجد ولن يوجد ثانية في كوبا أبداً، لأن النظام الاجتماعي البورجوازي استؤصل من جذوره ويجري حالياً إحلال نظام آخر محله من شأنه أن يسمح بأن تكون وسائل الإعلام كلها ملكية عامة. فالكوبيون عازمون على التوصل إلى مفهوم جديد للصحافة من منطلق اشتراكي.

و في الوقت الراهن، تخضع معظم الصحف للحزب الشيوعي. وهي لا تفعل شيئاً سوى الحشد والتوجيه لكنها عاجزة تماماً عن إمداد القراء بمعلومات أو بأي رؤية نقدية. وهناك إذاعات رسمية لإذاعة موسيقى شبابية معاصرة وموسيقى شعبية من التراث وألحان الرومبا الساخنة مع نشرات إخبارية قصيرة. وهناك أيضاً، إذاعة خاصة للتغطية المتواصلة لآخر الأخبار، فلا يقع شيء إلا ويذاع على الكوبيين نباحاً. هذا إضافة إلى صحيفة مسائية، أقل حجماً من صحيفة «غرانما»، تصدر عن هيئة شباب الحزب الشيوعي وفيها جزء مخصص لبريد القراء، وكانت قد نشرت منذ أسابيع قليلة خلت شكوى لإحدى الممرضات التي ابتاعت تلفازاً تالفاً من أحد المحال التابعة للحكومة. إذن، فالشيء السيئ في كل وسائل الإعلام المذكورة هو خضوعها جميعاً لإدارة وسيطرة الحزب الشيوعي، وبذلك الكوبيون أن في ذلك قصور واجب التعديل، لذا فإنهم حالياً بصدد إنشاء سلسلة صحف مملوكة للدولة تكون موازية لتلك التي يملكها الحزب الشيوعي، أي تكون خاضعة لعامة الشعب وليس لنخبته. كما يعترف كل من اتحاد العمال والاتحاد النسائي إصدار صحفه الخاصة. ومن ثم فلا بد وحتماً أن يتمخض هذا السيل الجديد من الصحف والمجلات التي بدأت تغرق أكشاك بيع الصحف عن صحافة كوبية جديدة خالية من السلبات السالفة الذكر، ويجوز التكهن منذ الآن بأنها سوف تكون صحافة ديمقراطية مرحلة ومبتكرة.

السلطة الشعبية حقيقية: تحققوا بأنفسكم

سوف يتمّ البت بشأن كثير من الأمور الآنفة الذكر خلال المؤتمر الأول للحزب الشيوعي المزمع انعقاده في شهر كانون الأول/ديسمبر. أما في العام المقبل فسوف يتمّ تعميم تطبيق تجربة

السلطة الشعبية التي أثبتت فاعليتها في منطقة «ماتنتاس» على بقية المناطق في الدولة، الأمر الذي سوف يكون بمثابة إعادة هيكلة شاملة وغير مسبقة لأجهزة الدولة والإدارات المحلية، ليس انطلاقاً من تصورات سياسية واجتماعية جديدة عن السلطة فحسب، بل انطلاقاً من تصور أخلاقي جديد عنها أيضاً. إذن، فهي الديمقراطية الحقيقية التي لا يفرض فيها مرشح نفسه على الناخبين بل التي يفرضون هم من خلالها من يرونه الأصلح والتي يكون لهم فيها حق عزل هذا المرشح نفسه من منصبه إذا ارتأوا عن حق ضرورة ذلك، ومن ثم يصير منصب كمنصب مدير إحدى المحليات مثلاً بأهمية وجدية منصب رئيس الوزراء.

ولقد بات جلياً أن الشعب لن يعتمد في اختياره لممثليه في البرلمان على أعضاء الحزب الشيوعي وحدهم، مما يعني بالضرورة إتاحة مساحة اختلاف رؤى بين نواب الحزب الشيوعي ونظرائهم من الأحزاب الأخرى حول مختلف المسائل المتعلقة بإدارة الحكومة، وإن ظلّ الأساس بالطبع هو هيمنة رأي الأغلبية في النهاية. وقد قلت لأحد الشيوعيين الكوبيين بأن ذلك قد «يعني نهاية الحزب»، لكنه أجابني بقوله: «على العكس. إن هذا التحدي الدائم سيزيد من سلطة الحزب ودوره الريادي».

وعلى أية حال، إن أهم شيء فيما يتعلق بسلطة الشعب هو أن تقوم على مفهوم هرمي يضمن للقاعدة التحكم باستمرار وبصورة مباشرة فيمن هم على قمة الهرم، وليس العكس، وهذا بعينه هو ما يعرف بديكتاتورية البروليتاريا وهي التي نجح الكوبيين في إدماجها في عاداتهم وموسيقاهم وألعابهم الرياضية ومعاركهم السياسية وفي المصائب الخفية التي تعج بها حياتهم اليومية. ولفرط ما صارت جزءاً من هويتهم وصلت بهم الدرجة إلى الاستشهاد بأقوال لينين أو مارتى للتعليق على مختلف مواقف حياتهم اليومية، وغالباً ما يكون الاستشهاد في محله.

لكن، اللعنة، لا تعيروا اهتماماً لما أقول عن كوبا. اذهبوا فتحققوا بأنفسكم.

نعم! المقاومة التشيلية موجودة¹⁷

(حوار مع خايمي غاشموري)

نعم، المقاومة التشيلية موجودة، لكن تعين علينا التغلب أولاً، على قلة خبرتنا وثانياً، تخطي كثير من العقبات التي لم يدرِ أصدقاؤنا في الخارج عنها شيئاً، فعلى سبيل المثال، رغم أن العمل السري كان أول ما شرعنا القيام به إلا أن صفوفنا ظلت لفترة مكشوفة وخبراتنا بدت محدودة على الرغم من عمل الحزب الشيوعي سراً لفترات طويلة، إلا أن أيّاً من تلك الفترات لم تكن تقارن بالأوقات التي خضعنا فيها للقمع الخارجي. كذلك استغرقنا وقتاً طويلاً محاولين التواصل مع الجماهير كي نرسخ سبل المقاومة الشعبية، ولنحول دون أن ينجح النظام الديكتاتوري في تهميش الشعب. لكن في نهاية الأمر، نجحنا في تخطي كل تلك العقبات.

صحافة سرية متداولة أكثر من الصحف الرسمية

لقد اعتمدنا في توعيتنا وحشدنا للجماهير على صحف تصدرها بانتظام تحتوي على بيان مستفيض عن أشكال المقاومة، وكانت متداولة أكثر من الصحف التي يصدرها النظام. وكان توزيع تلك الصحف في حد ذاته يتيح لنا زيادة قاعدتنا الشعبية ككيان سياسي نظراً إلى توزيعها في مختلف التجمعات العمرانية والمراكز الصناعية وبين قطاعات الطلاب. أما هدفنا الأول من وراء هذا الانتشار الإعلامي فكان الوصول إلى الطبقات الوسطى التي لم تكن توالي الجبهة الشعبية في الماضي قبل أن تبدأ أخيراً، في تدارك موقفها.

عقوبة مغلظة حال توزيع منشورات أو الرسم على الجدران

كانت قدرتنا على التعبئة من أهم ملامح مقاومتنا السرية، وكانت تطلب جهداً كبيراً مبنياً على نشر الشعارات بدلاً من الإغراق في التحليلات، وكان نشر تلك الشعارات يتم إما بواسطة المنشورات الدوارة وإما بواسطة الرسم على الجدران. وكان تأثيرها يقاس بمدى قدرتها على

إزعاج سلطات الحكم الديكتاتوري، ولعل هذا ما يفسر فرض السجن لمدة تتراوح من خمسة عشر إلى ثلاثين عاماً كعقوبة لهذا النشاط، وأنه في أعقاب كل تصوير جداري تقريباً كانت هناك عملية تمشيط عسكرية موسعة تزداد شراسة في كل مرة. ففي شهر أيلول/سبتمبر الماضي مثلاً، كانت هناك خمس عشرة محاولة لتوزيع منشورات في شوارع سانتياغو، ولم تستغرق الشرطة آنذاك سوى خمس عشرة دقيقة لتطويق المنطقة، أما الآن فيستغرقها الأمر ثلاث دقائق فقط، مما يعني أن النظام يولي أهمية قصوى لما نقوم به نظراً إلى سرعة اختراقنا وعمقه للجماهير. وقد لا تصدقني إن أخبرتك أننا تمكنا في إحدى المرات من حشد أكثر من خمسة آلاف عامل في سانتياغو. ولقد بدأنا نعمل العام الحالي على التوسع في حشد الجماهير من خلال النقابات، ولم نقصر على الوحدات العمالية السرية المعروفة بـ CUT، إنما عملنا من خلال منظمات عمالية أخرى أيضاً. فعلى سبيل المثال، كنا قد وضعنا برنامجاً متكاملًا للتعاون الرياضي بين المؤسسات العمالية المختلفة تمخض عن تنظيم احتفالية رياضية كبرى في استاد سانتياغو في الأول من أيار/مايو، فما كان من أجهزة النظام سوى أن حالت دون عقد الاحتفالية، لكن بعد أن كان هدفنا الأساسي من وراء تنظيمها قد تحقق بالفعل، إذ تم كسر حاجز منع العمال من التجمع. ونظراً لمواصلتنا تنفيذ مثل تلك الخطط تسنّى لنا ذات مرّة حشد حوالي خمسة آلاف عامل في مسرح سانتياغو وهو ما اعتبرناه انتصاراً عظيماً لنا على نظام ديكتاتوري يبذل قصارى جهده لتقليص سلطة الطبقة العمالية. كما أتاحت لنا تلك الخطط بلوغ مرحلة أرقى من النضال، ألا وهي النضال من أجل الحقوق الاقتصادية والحريات النقابية، فتمكنا من تحفيز أكثر من ألف عاطل عن العمل، أي حوالي 20% من القوى العاملة، على التظاهر، كما نجحنا في استقطاب بعض القوى التابعة لأحزاب الوسط وقوى التكتل الديمقراطي المسيحي، وبعض من كانوا على الحياد وكثيرين ممن كانوا قد تعاونوا في فترات سابقة مع النظام العسكري.

لا يسقط الحكم العسكري من تلقاء نفسه. السؤال هو متى؟

كان منهجنا بالنسبة إلى الكفاح المسلح واضحاً وواقعياً. كنّا نؤمن أن الحكم العسكري لن يسقط من تلقاء نفسه، إنما يتعين إسقاطه بالقوة، وكانت التجارب السابقة تؤكد لنا أن النظام سوف يلجأ إلى استخدام كل ما في جعبته المسلحة من حيل لمقاومة ضربة كهذه. ونظراً إلى عدم وقوفنا حتى الآن على حجم إمكاناته العسكرية، فقد غلب على ظننا بالتالي أن الكفاح المسلح قد لا يخدم الحركة الثورية لأنّ من شأنه استدراجنا إلى ميدان يتفوق فيه عدونا علينا، ومن ثم كرسنا جهدنا

في الوقت الراهن للكفاح الأيديولوجي بما أنه الميدان الذي نتفوق فيه على عدونا. ولا تعد هذه مهادنة من جانبنا على الإطلاق، فنحن نعي أن الهدف من وراء مقاومتنا النضالية هي خلق علاقات قوى تفوق تلك التي يملكها عدونا على المستوى العسكري، وندرك أنه، من الناحية الاستراتيجية، ليست ثمة هزيمة يمكن لها أن تلحق بأي نظام فاشي ما لم تفرز المقاومة أولاً، قوة عينية تتخطى الأيديولوجيات، لكن جلّ ما في الأمر فقط أن الظروف الحالية غير مواتية لتنفيذ هذا الأمر.

تياران متناقضان داخل الحكم العسكري. لأيهما الغلبة؟

هناك أزمة محورية كبرى تواجه الحكومة الفاشية في تشيلي، فقد كانت عاجزة عن تأمين الظروف التي تضمن لها استتباب قبضتها وكانت تخسر تدريجياً الدعم الذي تمتعت به في السابق نظراً لازدياد حالة الاستياء ضدها حتى داخل المؤسسة العسكرية نفسها. ولا يعني هذا بالطبع أن النظام الديكتاتوري قد فقد سيطرته على المؤسسات القمعية الموالية له، إنما كان يعني فقط أن هناك إدراكاً متزايداً بين القائمين على تلك المؤسسات لحجم الأزمة التي يعانيها النظام الحاكم من جراء سياساته، وهي أزمة بلغت ذروتها عام 1975 عندما تسبب هذا الإدراك المتزايد في انقسام القيادات العليا على نفسها. وعلى الرغم من استمرار فريق كبير منهم في مولاته لـ بينوتشيت وفي رغبته في استمرار الوضع على ما هو عليه، إلا أن تلك الانقسامات كانت مؤشراً لما يواجهه الحكم العسكري من مشكلات يعجز عن حلها وتدفعه، على المستوى السياسي والاجتماعي، إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء والإقدام على المزيد من المخاطر بالتعاون مع حزب الديمقراطية المسيحي. وكان هناك فريق آخر من القيادات يسعى إلى فتح قنوات سواء داخل البلاد أو خارجها لكسر العزلة التي انزلت فيها الحكومة، إلا أن مساعيه كان ينقصها عنصران أساسيان: أولهما، وجود حد أدنى من الحرية السياسية، وثانيهما، تعديل صريح لمسار السياسة الاقتصادية. وقد بدأ هذا الفريق الأخير يحظى بدعم قوى إمبريالية كبرى.

الحرب ضد بيرو: محاولة الحكم العسكري المستميتة لإنقاذ نفسه

يشيع الحكم العسكري، بصورة ممنهجة لكن غير مباشرة، أن هناك احتمالاً لنشوب حرب مع بيرو. وكان الهدف الأول من وراء تلك الشائعة هو الاحتفاظ بوحدة القوات المسلحة عن طريق

صرف انتباه قادتها بعيداً عن الأزمات التي تسبب فيها النظام الحاكم وتوجيه انتباههم في المقابل إلى احتمال التصادم العسكري مع بيرو. ومن ثم، كلما زادت حدة الاعتراض داخل المؤسسة العسكرية على أسلوب النظام الحاكم في إدارة البلاد، ازدادت محاولة الأخير في الإيحاء بقرب شن حرب محتملة. لكن الأخطر من ذلك هو أنه كان هناك أناس داخل النظام الحاكم يظنون بالفعل أن الهجوم على بيرو يشكل وسيلة ناجعة ومباشرة لضمان تأييد الولايات المتحدة للحكم العسكري في تشيلي.

نحن جيش منخرط في الحياة العامة¹⁸

(حوار مع ألبرتو كامبس)

في الخامس عشر من شهر آب/أغسطس ١٩٧٢، إبان حكم الجنرال أليخاندرو لانوسي قام ثمانية وعشرون من الثوار الأرجنتينيين بالهرب من سجن بتاغونيا الحربي. وقد تمكن تسعة منهم من اختطاف طائرة ولجأوا إلى تشيلي طالبين حماية حكومة حزب الوحدة الشعبية. أما التسعة عشر الباقون فقد تم القبض عليهم وترحيلهم إلى قاعدة تريلو الحربية، حيث قامت فرقة العمليات هناك بإعدامهم بالرصاص دون محاكمتهم. وقد نجا من تلك المذبحة ثلاثة فقط. أحدهم، وكان عندئذ يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، هو ألبرتو كامبس الذي أجرى غابرييل غارسيا ماركيز معه حواراً «في مكان ما من العالم». كان كامبس يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً عندما التحق بجيش التحرير الوطني *ELN* الذي تشكل في الأرجنتين دعماً للحركة التي قادها تشي غيفارا في بوليفيا. فلما قُتل هذا الأخير، التحق أعضاء جيش التحرير بالجيش الثوري *FAR* الذي انصهر فيما بعد، في عام 1973 تحديداً، داخل حركة مونتو نيروس.

غابرييل غارسيا ماركيز: لا أعلم ما إذا كنت قد لاحظت خلال رحلتك عبر أميركا اللاتينية أن صورة حركة «المونتونيروس» ملتبسة بعض الشيء حتى بالنسبة إلى بعض من ينتمون إلى اليسار المستتير. وقد يعزى ذلك إلى جهل الكثيرين بأصل وطبيعة تلك الحركة وأيديولوجيتها، التي تعتبر نفسها ثورية وإن كانت في واقع أمرها لا تبدو مختلفة عن أي حركة شعبية أخرى في الأرجنتين. هل بوسعك أن تفك لنا طلاس هذه المعضلة؟

ألبرتو كامبس: للوقوف على طبيعة حركة المونتونيروس يتعين أولاً فهم المسار السياسي الأرجنتيني بداية من عام 1935 والذي تشكلت خلاله طبقة اجتماعية كبيرة وقوية، ألا وهي طبقة البروليتاريا نتيجة للحركة الصناعية في البلاد. ولقد نجح الجنرال خوان دومينغو بيرون عند توليه الرئاسة عام 1945 في العمل مع فريق من الضباط التقدميين على إيقاظ المشاعر الوطنية لدى تلك الطبقة الجديدة التي شعرت للمرة الأولى أن لها صوتاً يمثلها في السلطة. كما كانت إيڤا بيرون، التي أحرزت شعبية جماهيرية غير مسبوقة نظراً إلى منشئها وفرادتها وجاذبيتها، همزة وصل حاسمة بين الجماهير وبيرون.

غابرييل غارسيا ماركيز.: لكن هناك انطباع عام أن نظام بيرون كان فاشياً، بل إن علاقته بألمانيا النازية أكدت هذا الانطباع.

ألبرتو كامبس: خلال فترة رئاسته الأولى، أظهر بيرون مواقف وطنية تتناسب مع الأوضاع السائدة في الأرجنتين آنذاك. وكانت سياسته في محلها، فقد وازنت بين الوطنية ورأسمالية الدولة وتنظيم الطبقة العاملة. لذا فإنه خلال عشر سنوات فقط قفز عدد أعضاء الاتحاد العام للعمال GGT من خمس مئة ألف إلى خمسة ملايين.

غابرييل غارسيا ماركيز: كيف إذن، تفسر السهولة التي أطاحوه بها؟

ألبرتو كامبس: لم يطيحوه بسهولة، بل كانت مؤامرة كبرى حاكتها طبقة أصحاب رؤوس الأموال والقطاعات الرجعية داخل الجيش والإمبريالية الأميركية التي كانت في 1945 خارجة لتوها من الحرب العالمية مفعمة بقوة وجشع لا حد لهما. وقد نجح ذلك التحالف الجهنمي في إسقاط بيرون لكنه لم يستطع إخضاع الطبقة العاملة. وعلى مدى ثمانية عشر عاماً، لم تأل «ثورة التحرير» المزعومة، أو بالأحرى «ثورة التدمير»، جهداً لتصفية الحركة البيرونية سواء من خلال الإبادة أو الصهر. ولم تترك وسيلة، شرعية كانت أو غير شرعية، لإنجاز هذا الهدف. وفي خضم تلك الأجواء تحديداً، ظهرت حركة مونتونيروس عام 1970 كحركة مقاومة مسلحة ضد الديكتاتورية العسكرية.

غابرييل غارسيا ماركيز: من أين أتيتم باسم الحركة؟

ألبرتو كامبس: إنه الاسم الذي طالما استخدم خلال القرن الماضي للإشارة إلى الفلاحين الثائرين الذين ناضلوا من أعماق الأرجنتين ضد الإمبريالية البريطانية. وكان الاسم «مونتونيروس» يستخدم آنذاك بصورة تحقيرية عند الإشارة إلى هؤلاء، لكن يشرفنا نحن أن نحملة.

غابرييل غارسيا ماركيز: من شكل القاعدة الأساسية للمونتونيروس؟

ألبرتو كامبس: أناس ذوو عقلية متفتحة انشقت عن الحركة البيرونية، أو الأحرى هم جيل أكثر انفتاحاً حلل بصورة أكثر عمقاً الواقع المادي والفكري في الأرجنتين، وتوصل إلى أن المخرج الوحيد يكمن في استحواذ العمال على السلطة للبدء في كفاح حقيقي ضد أصحاب رؤوس الأموال وضد الإمبريالية.

غابرييل غارسيا ماركيز: في الحقيقة، من الصعب تصور انشقاق حركة «المونتونيروس» عن الحركة البيرونية ثم استمرارها رغم ذلك في العمل داخل الحركة البيرونية نفسها. إن هذا الأمر يبدو ملتبساً.

ألبرتو كامبس: الواقع أن حركة المونتونيروس قدمت نفسها منذ نشأتها بوصفها ذراعاً ثورية وحربية للحركة البيرونية ولم تقدم نفسها مطلقاً بوصفها حركة منشقة عنها. وكان هذا عين الصواب، فلو كنا قد انشققنا عنهم لكنا قد فقدنا موقعنا وسط الجماهير حيث نشأنا وتطورنا وناضلنا. فنحن نؤمن باستحالة تحقيق التحرر الوطني خارج القاعدة الجماهيرية، كما نؤمن بأن الاستراتيجية الوحيدة الصحيحة لاستعادة السلطة هي شن حرب شعبية ثورية.

غابرييل غارسيا ماركيز: لكنكم شاركتكم عام 1973 في لعبة الانتخابات ونحيتم السلاح جانباً واشتركتكم مع الجيش النظامي في تنفيذ بعض العمليات الحربية. ألا يبدو لك ذلك بدوره، إن لم يكن نوعاً من العبث، فأقله نوعاً من التناقض؟

ألبرتو كامبس: بالطبع لا. ففي الحادي عشر من آذار/مارس عام 1973 انتخب الشعب الأرجنتيني السيد هيكتور كمبارو لرئاسة الجمهورية أملاً فيما كان يمكن أن يحققه برنامجه من تطور للوطن، وبما أننا في الأساس حركة موالية دوماً لإرادة الجماهير كان من الطبيعي أن نندمج آنذاك في الحكم الجديد وأن نشارك بقوة في إعادة الهيكلة السياسية والنقابية. ولم يتضح لنا سوى فيما بعد أن كل ذلك كان سراباً وأن البيروقراطية النقابية وأقطاب الحركة البيرونية المتشددون وقوى الرجعية والخونة كانوا قد عزموا جميعاً على تقويض مسار الديمقراطية، فعزلوا كمبارو عن الحكم وعينوا مكانه الجنرال بيرون الذي كان وقتذاك أسير العجز والمرض وعصابة لوبيث ريغا، ثم شرعت تلك القوى في إقالة كل البيرونيين الثوريين من مناصبهم، وأسست هيئة التحالف الأرجنتينية المناهضة للشيوعية AAA فبدأت بتصفية ممنهجة لكل البيرونيين الحقيقيين، ونفذت تلك الهيئة الفاشية المسلحة ما يربو على ألفي جريمة قتل حتى الآن.

غابرييل غارسيا ماركيز: لقد نجح المقاومون التشيليون من جانبهم في التمييز بوضوح بين الاختباء والمقاومة سراً. أي الحالتين أقرب توصيفاً لوضع المونتونيروس؟

ألبرتو كامبس: نحن منخرطون في الحركة الشعبية الأرجنتينية ومنتشرون عبر أرجاء البلاد. أي نحن موجودون في كل مكان، فنحن فصيل مندمج في الحياة اليومية العامة اندماجاً، فبعضنا يعمل في البنوك، وبعضنا يعمل في المصالح الحكومية، وبعضنا يعمل في مجال السينما

والمسرح، وبعضنا يعمل في المصانع. لكن قادة الحركة هم بالطبع الذين يعملون سراً من داخل القاعدة الجماهيرية الأرجنتينية التي تعد أقوى الحركات في أميركا اللاتينية وأكثرها تنظيماً، وهي محل عملنا الرئيسي.

غابرييل غارسيا ماركيز: عندي فضول لمعرفة إلى أي مدى يضطر قادة الحركة المثقلون بمهامهم النضالية إلى الزهد في الحياة العائلية والعاطفية ومتع الحياة البسيطة الأخرى.

ألبرتو كامبس: نحن نحرص على المحافظة على حياتنا العائلية بقدر المستطاع وبالقدر الذي يتلاءم مع طبيعة كل منا الخاصة. وعموماً ولا اعتبارات أمنية، نحن نفضل أن تكون الزوجة هي الأخرى عضواً بالتنظيم لأننا نتداول معلومات حساسة للغاية تتطلب الكثير من التضحيات. لكن عسى ألا يكون هذا سبباً في حصرنا في الصورة التقليدية للمناضلين، فنحن في نهاية الأمر بشر، نذوب عشقاً ويروقنا ما لذ وطاب من الطعام ونحب أولادنا، وتحضرني هنا جملة تشي غيثارا: «على المرء أن يكون صلباً لكن دون أن يفقد الرأفة»، مثل ثمرة جوز الهند.

غابرييل غارسيا ماركيز: إذن أنتم لا تؤمنون بأي طريق أخرى للنضال سوى الكفاح المسلح.

ألبرتو كامبس: نحن نؤمن أن هذه هي الوسيلة الوحيدة المتاحة في بلدان العالم الثالث. ليس هناك بديل آخر، فالإطاحة الحاسمة بالسلطة يجب أن تكون مسلحة.

غابرييل غارسيا ماركيز: أيعني هذا حرب شوارع؟

ألبرتو كامبس: لقد نجح الجيش الثوري الشعبي ERP لأول مرة في تاريخ الأرجنتين في زرع نواة نضالية في منطقة الجبال لم يتمكن الجيش النظامي من التغلب عليها. لكننا نؤمن أن الأحداث الفارقة، في حالة الأرجنتين بالذات، إنما تقع في المدن. لذا فنحن ننفذ عملياتنا في المدن على الرغم من وعينا بالعوائق، فنحن نعلم مثلاً، صعوبة الاحتفاظ بجيش كامل لنا في العاصمة، بوينوس آيريس، وهي المدينة الكبيرة المعقدة التي تضم ما يقرب من عشرة ملايين نسمة، كما نعلم صعوبة تحديد مناطق بعينها دون غيرها لتنفيذ أو عدم تنفيذ أي من عملياتنا. لكننا ندرك أن علينا انتهاز استراتيجية معينة للمدن وأخرى للريف نظراً للطبيعة الخاصة بكل منهما.

غابرييل غارسيا ماركيز: إذن، لو فرضنا أن هناك انتخابات مبكرة، ماذا سيكون موقف المونتونيروس؟

ألبرتو كامبس: سنعاد المشاركة فيها بالطبع لأننا مع فكرة الحرب الشاملة والانتخابات جزء من تلك الحرب. فالمسألة ليست إما الحرب وإما الانتخابات. ومن حسن الحظ أن جماهير الأرجنتين أميل إلى تفضيل الانتخابات على الحرب، لأن هذا يتوافق مع مفهومنا عن الحرب الشاملة التي تعني الكفاح بكل وسيلة وعلى كل المستويات لنيل الحرية.

غابرييل غارسيا ماركيز: كيف تقيسون درجة القبول الشعبي لأي من مبادراتكم؟

ألبرتو كامبس: نحن نعيش وسط الجماهير ونعي أهمية ألا نطرح عليهم أبداً مشروعاً لا يتناسب مع درجة وعيهم. فطرح مشروع أكبر أو أقل من مستوى إدراكهم قد لا يحظى بأي تأييد. ومن ثم نحرص أن تكون حربنا الشاملة متوائمة بدقة وفي كل حين مع درجة الوعي الجماهيري في الأرجنتين.

غابرييل غارسيا ماركيز: إن القوات المسلحة الأرجنتينية حالها كحال أمثالها في العالم أجمع، لا بد وأنها تنطوي على تناقضات داخلية عميقة وكاشفة. هل تأخذ حركة المونتونيروس ذلك الأمر في الحسبان؟

ألبرتو كامبس: هناك اتجاهان رئيسان داخل القوات المسلحة الأرجنتينية، أحدهما يميني النزعة، أما الثاني، وهو الذي نجح في فرض هيمنته حتى الآن، فيراهن على الاحتفاظ شكلاً بالديمقراطية، ولاسيما قبل انتخابات 1977. ويواجه هذا التيار الثاني صعوبة في مواصلة هيمنته نظراً إلى تصاعد حركة احتجاج الجماهير على سياساته الفعلية، ولاسيما عجزه عن السيطرة على الأزمة الاقتصادية التي تفاقمت بصورة غير مسبقة في الأرجنتين والتي أقلقّت الولايات المتحدة التي تشترط نوعاً من الثبات الاجتماعي والاقتصادي لضخ استثماراتها، وهو الأمر الذي لا ولن يتوافر في الأرجنتين لفترة طويلة مقبلة. إذن، فالأمل الوحيد أمام هذا التيار لمواجهة فشل سياساته هو تحجيم التيار اليميني داخل صفوف الجيش بواسطة دعم التيارات الثورية داخله، رغم عدم تيقنه أساساً من وجودها بالفعل فيه، لكنه يسعى على أية حال إلى حثّ الضباط ومساعدتهم والجنود على الانحياز إلى جانب الشعب.

غابرييل غارسيا ماركيز: لاحظت خلال حوار معك استخدامك مفردات ماركسية مع العلم بأن أشد ما تأخذه بعض الأحزاب اليسارية على حركة المونتونيروس هو التباسها الأيديولوجي. فلنوضح هذه النقطة إذن: ما هو موقفكم من الماركسية؟

ألبرتو كامبس: نحن نعترف بالماركسية كمنهج تحليلي للواقع، وهو منهج علمي لا غنى عنه. لكن الثورات إنما تصنعها الشعوب عن طريق انتشار الوعي أولاً، وثانياً، عن طريق تنظيم الطبقة العاملة وثالثاً، عن طريق الممارسة الثورية.

غابرييل غارسيا ماركيز: إن كان ما تقوله صحيحاً، فما هي أوجه الاختلاف، التي طالما تدعون أنتم وجودها، بينكم وبين الحزب الشيوعي؟

ألبرتو كامبس: لقد فقد الحزب الشيوعي قاعدته بالكامل في الأرجنتين منذ العام 1945 نتيجة تحليله الخاطئ لواقع البلاد الذي اعتبره مجرد حالة شبيهة بالواقع الأوروبي، فأساء استغلال بعض حركات الإضراب داخل قطاع العمال الذي كان هو نفسه يدعي حمايته مما جعل العمال يشعرون بالخيانة ومن ثم انضموا إلى البيرونية. منذ تلك اللحظة فقد الشيوعيون قدرتهم على تمثيل الجماهير، بل وفقدوا أيضاً، ثقة تلك الجماهير بهم، حتى أن العمال يتوجسون الآن من مجرد سماع كلمة شيوعية أو كلمة ماركسية أو أي من المفردات الأخرى المتعلقة بالحزب الشيوعي.

غابرييل غارسيا ماركيز: لكن في المقابل أظن أن علاقاتكم بالجيش الثوري الشعبي ERP قد تحسنت بصورة ملحوظة.

ألبرتو كامبس: لقد واجهتنا مصاعب مع الجيش الثوري الشعبي بشأن تحليل بعض الأمور لكن في المجمل تُعد علاقتنا به طيبة.

غابرييل غارسيا ماركيز: وماذا عن علاقتكم بالحركات الثورية الأخرى في أميركا اللاتينية؟

ألبرتو كامبس: نحن نؤمن بأن نضالنا إنما يتعلق بالقارة بأسرها، فمصير شعوبها متشابك. ونحن حالياً بصدد التواصل مع كل الحركات الثورية في أميركا اللاتينية بشكل خاص، ودول العالم الثالث بشكل عام، للتعاون من أجل إحراز الأهداف المشتركة والتغلب على الخلافات التي نؤمن بأن أيٍّ منها لا يعدو كونه مرحلياً، ويمكن تجاوزه لأن هدفنا جميعاً واحد وهو الثورة.

غابرييل غارسيا ماركيز: بالفعل ولكن أي نوع من الثورات تحديداً؟

ألبرتو كامبس: هناك ثورة واحدة فقط ألا وهي الثورة الاشتراكية.

غابرييل غارسيا ماركيز: صحيح ولكن أي نوع من الاشتراكية بالتحديد؟

ألبرتو كامبوس: ليس هناك سوى اشتراكية واحدة فقط.

المونتونيروس: محاربون وسياسيون¹⁹

(حوار مع ماريو فيرمينيش)

لعل أول ما يلفت نظرك إليه هو جسمه الذي يبدو من الإسمنت المسلح. أما ثاني ما يلفت انتباهك فهو شبابه فهو يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً. عيناه ثاقبتان، ابتسامته تنحسر عن أسنان قوية ومفلجة، والحمرة تغلب على شعره الكث وشاربه بصورة تجعل شكلهما مستعاراً. ولعل في هيئته الخارجية وشخصيته أبلغ علّة وراء صعوبة العثور عليه، فكأنه قط ضخّم دائم التأهب للوثوب. وقد صافحني قائلاً: «مرحباً. أنا ماريو فيرمينيش». كان الأمين العام لحركة المونتونيروس، وأحد أكثر الرجال الذين تتعقبهم أجهزة القمع الأرجنتينية، وأحد أكثر من يحاول الصحفيون الوصول إليه، إلا أن تصرفاته كانت غاية في التلقائية لدرجة أنها بدت مستعارة هي الأخرى كشعره وشاربه، وهو ما دفعني أن أبدأ حواراً معه محاولاً وضعه في موقف الدفاع، فقلت: «لقد مضى عام على المجلس العسكري برئاسة الجنرال خورخي فيديلا في الحكم، وانطباعي الشخصي هو أنهم نجحوا في تلك الفترة الوجيزة في القضاء على المقاومة المسلحة، وبالتالي أنتم، أي حركة المونتونيروس، لم يعد لديكم ما تفعلونه. لقد انتهيتُمْ».

لم يهتز ماريو فيرمينيش بل رد على الفور قائلاً: «كنا نعلم منذ تشرين الأول/أكتوبر من عام 1975، أي إبان حكم إيسابل بيرون، أن هناك إعداداً للقيام بانقلاب عسكري في شهر آذار/مارس من العام التالي. ولم نحاول من جانبنا أن نحول دونه لعلنا بأن ذلك الانقلاب لم يكن، في نهاية الأمر، سوى جزء من الصراع داخل الحركة البيرونية ذاتها. وعندما قمنا بحساباتنا الحربية توقعنا أن يُقتل منا حوالي ألف وخمسة مئة شخص خلال العام الأول للانقلاب المرتقب. وبدا لنا أنه لو تمكنا من الحيلولة دون تعدي عدد قتلنا لهذا الحد لتمكنا من تقليل حجم خسائرنا. وبالفعل لم يتعد عددهم ما توقعناه. وما هو أكثر من هذا، فلقد بدا النظام الديكتاتوري منهكاً ومحاصراً في حين ظللنا نحن نحظى بشعبية متزايدة بين الجماهير بوصفنا البديل الأمثل».

فقلت بلفت نظره قائلاً: «لكن الفرق هو أن خيرة قادتكم كانوا من بين هؤلاء الألف وخمسة مئة قتيل، بينما لم يفقد الجيش النظامي إلا ضباطاً ثانويين». ولكن لم يتفق ماريو فيرمينيش معي بهذا الشأن. فبينما أقر بفقدان المونتونيروس لنفر من قادتهم القديرين إلا أنه أكد في الوقت

نفسه أن العدو فقد بدوره نفراً من أهم قياداته. ثم ختم كلامه في هذا الصدد قائلاً: إنّ «فيديلا نفسه لم ينج سوى بأعجوبة في الفرار مرتين من الموت على أيدينا».

وعلى الرغم من ردوده الواثقة والمحددة وطلاقة المدهشة، إلا أن ثمة شيئاً فيه لم يقتعني لاسيما وأن تفاوله بدا لي مصطنعاً، فما كان مني سوى أن قلت له ذلك: «أنا متفائل بطبعي ويروقني المتفائلون، لكني لا أثق بالأشخاص مفرطي التفاؤل». ولظنّي أن الجيش النظامي لا بد وأنه تحسب بدوره لحجم خسارته المحتملة، استطردت قائلاً: «لعلهم مثلكم يظنون أنهم هم الذين انتصروا»، فسارع فيرمينيش إلى تنفيذ رأيي قائلاً: «إنّ العسكريين ظنوا أنه بوسعهم تصفية كل القوى المنظمة ضدهم في الفترة الممتدة من آذار/مارس إلى كانون الأول/ديسمبر 1976، وأنه بحلول عام 1977 سيكون بوسعهم ملاحقة ما تبقى من تلك القوى من شرادم. لكن يبدو أن حساباتهم كانت سياسية أكثر منها واقعية، ولعلّ قادتهم أنفسهم لم يوقعوا بصحتها، والأدهى أنهم إن كانوا قد صدقوها بالفعل، فذلك إنما هو مؤشر على جهلهم المطبق بحقيقة مسار الحركة البيرونية على مدى ثلاثين عاماً».

إعدام آرامبورو

على الرغم من وضوح رؤى ماريو فيرمينيش السياسية، إلا أنني لم أستطع التغلب على صورتني الذهنية عنه كمقاتل في الأساس، بما إنه لم يفعل شيئاً أكثر من الانخراط في القتال منذ ولادته في بوينس آيرس عام 1948. وكان والده قد بدأ مشوار حياته كمشرف مبانٍ حتى صار فيما بعد مهندساً، مثله كمثّل العديد من أبناء الطبقة الوسطى ذوي الدخول المستقرة في الأرجنتين. وعندما سقط حكم بيرون عام 1955، كان ماريو بالكاد يبلغ السابعة من العمر عندما رأى عربة نقل محملة بعمال خرجوا لمواجهة الانقلاب العسكري حاملين السلاح الوحيد الذي يملكونه، أي عصيهم، فظلّ المشهد عالقاً بذهنه إلى الأبد. حينذاك، كان قد توالى على رئاسة الأرجنتين أربعة عشر رئيساً في فترة اثنين وعشرين عاماً، لم يتح لأيهم خلالها أن يكمل دورته الرئاسية. فالجنرال بيدرو إوخينيوارامبورو نفسه الذي أطاح بيرون لم يتمكّن من المكوث في الحكم سوى ثلاثة أعوام فقط، انسحب بعدها ليقطن في شقة بالدور الثامن في العقار رقم 1053 في شارع مونتيبيديو في بوينس آيرس، مبتعداً عن الحياة السياسية برمتها، أقله في الظاهر، إذ يصّر فيرمينيش أنه «ظلّ ضالعا من الباطن في أعمال تآمرية» حتى عام 1970 عندما حضر ذات يوم في التاسعة صباحاً شابان في زي عسكري ليصطحباه بعيداً عن منزله بحجة حمايته، لكنهما في الحقيقة اقتاده إلى

عقار قديم بالقرب من بوينس آيرس حيث أخضع لمحاكمة عسكرية أدين خلالها وأعدم على إثرها. وكان أحدهم قد أشار على منفذي العملية باستخدام خمسين كيلو غراماً من الجير لدفن الجثة حتى لا يبقى لها أثر. لكن العكس هو ما حدث إذ ظلت الجثة محفوظة وسرعان ما طفت على السطح واكتُشف أمرها. أما الجماعة التي نفذت تلك العملية، والتي لم تكن قد اشتهرت بعد، فكانت جماعة «المونتونيروس». بل كان ماريو فيرمينيش، والذي كان يبلغ من العمر آنذاك واحداً وعشرين عاماً، ضمن الفريق المنفذ للعملية وإن لم يكن ممن صعدوا إلى شقة آرامبورو، لكنه ارتدى حلة ضابط وظلّ واقفاً على الرصيف المقابل للمبنى كي يحول دون أن يتعرض أحد للسيارة، التي كانت مصطفة بشكل مخالف، استعداداً لنقل آرامبورو. ومن قبل تلك العملية، كان ماريو قد شارك في تنفيذ خمس عشرة عملية أخرى، لكنه آنذاك كان لا يزال مغموراً وكانت حركة «المونتونيروس» مكونة من عشرة أشخاص فقط، وكان هو الثالث في الترتيب من حيث الأهمية.

هذا كله إنما يؤيد فكرة أن تكوين ماريو فرمينيش وخبرته غلبت عليهما الطبيعة القتالية، وبالتالي يفسر ردة فعله الحماسية عندما واجهته بظني بشأن انعدام الخيارات السياسية أمام حركة المونتونيروس. فقد قلت «ليس عندكم سوى القتال، فهذا هو خياركم الأوحـد والهزيل»، لا لأستفزه بل تعبيراً عن قناعاتي الشخصية، فسارع يرد قائلاً: «هذا غير صحيح بالمرّة، فأحد المفاهيم الأساسية التي يركز عليها نضالنا الثوري هو عدم تحكم الكفاح المسلح في حركة الجماهير، بل العكس هو الصحيح، فالحركة الجماهيرية هي التي مهدت، منذ حوالى ربع قرن، لظهور الكفاح المسلح. فقد بدأت الحركة الجماهيرية عام 1945 ثم تلاها الكفاح المسلح عام 1970». وكان كلامه هذا، باختصار، يعني أن الحركة البيرونية الجماهيرية تخطو إلى الأمام بدافع من وعيها المستقل الذي قد يسبق بل يتفوق أحياناً على إدراك نخبتها. فبحسب قوله، إنها حركة تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاستقلال الاقتصادي والسيادة السياسية في الأرجنتين، كما أنها حركة مناهضة للإمبريالية والأوليغاركية وأنها ظلت تعمل على مدى خمسة وعشرين عاماً بلا نخبة مما جعلها حركة غير بيروقراطية، خصوصاً بعدما تكتّفت لها خيانة بيروقراطيتها النقابيين. ويضيف فيرمينيش: «لم نلجأ إلى الكفاح المسلح إلا بعد أن استنفدنا كل الوسائل الأخرى. فقد فشلت الانتخابات، كما فشلت محاولة خلق جبهات انتخابية بمرشحين غير بيرونيين، وفشلت عملية إبطال التصويت، كما فشلت عملية الانقلاب الشعبي، وفشلت ثلاث محاولات انقلابية على يد كتائب ريفية غير متمرسة، بل وفشلت أيضاً، محاولة إعادة بيرون نفسه بصورة سلمية. هذا كله إنما يعني أن حركة مونتونيروس لم تكن هي التي بدأت ذلك المشهد بل هي تمخضت عنه، وأن لجوءها إلى الكفاح المسلح ليس سوى انعكاس لنبض الشعب».

الكفاح يزيد المرء إنسانية

من خلال حوار مع ماريو فرمينيش، وقفت على أن أكثر ما يشعل حماسه هو لا تقليدية حروب المدن. فهو يرى أن قلة الانتشار العسكري بالمدن إنما ييسر لحركتهم عملية تعبئة الجماهير سياسياً. فبينما تقبع القوات المسلحة في ثكناتها، ينتشر أتباع المونتونيروس في كل مكان مندسين بين صفوف الجماهير كالسمك في الماء. ويشرح فرمينيش ذلك قائلاً: «إن مقاتلينا ينتشرون عبر أرض العدو، وقد يخلعون عنهم سلاحهم ليلاً لكنهم يظلّون يقظين ومتأهبين». ويبدو وكأنه لم ينتبه إلى اتسام كلماته تلك بنبرة بلاغية، فحاولت أن أسترعي انتباهه لتلك النقطة فسألته عما إذا كان طول سني الكفاح القاسية قد جرّده من إنسانيته، فأجابني: «لا أحد يتجرد من إنسانيته طالما هو منخرط في كفاح إنساني». والغريب أن جملته كانت في محلها، كما غلب عليها مرة أخرى الطابع البلاغي رغم عدم ولعه بالأدب، فقد أنهى دراسته الثانوية وبعضاً من دراسته الجامعية في كلية الهندسة دونما أن يقرأ رواية واحدة في حياته «بما في ذلك رواياتك أنت» -حسبما أوضح لي بلطف- فقد كان يقرأ الكتب السياسية فحسب، لكن دون أن يكملها هي الأخرى لأنه يختار من الفهرس الموضوع الذي يهيمه فقط فيقرأه. وظننت أن طريقته الغربية في القراءة لها علاقة بحياته المملوءة بالمخاطر، لكن بدا أن له رأياً آخر فقد قال لي: «هناك فرق بين أن تعيش مختبئاً وأن تعمل في السر»، علماً بأنه طالما كان يعمل في الخفاء ويتوخى الحذر خوفاً من عثور أعدائه عليه، لكن فيما يبدو كان يرى أن هذا كله لم يمنعه يوماً من مواصلة حياته الاجتماعية بصورة عادية، فكان يستضيف أصدقاءه المقربين، ويحضر حفلات خاصة، ويخصص بعض الوقت لمشاهدة التلفاز. وكانت مشكلته الحقيقية فقط حال خروجه إلى الشارع لاضطراره إلى اتخاذ تدابير أمنية مشددة. ولعل أكثر ما كان يزعجه في هذا كله هو عدم تمكنه من الذهاب إلى السينما. فطيلة السنوات السبع الأخيرة لم يشاهد سوى أربعة أفلام كان أحدها أثناء رحلة على متن طائرة تمكن من استقلالها من مطار بوينس آيرس بواسطة هوية مستعارة فراراً من وجه الأجهزة الأمنية التي كانت تمشط البلاد بحثاً عنه. وقد يبدو أن رجلاً مثله، لا يخرج من بيته سوى لتنفيذ عمليات مسلحة، لا بد وأنه قد تعرض للموت غير مرّة. لكنه يرى أنه لم يتعرض للموت سوى مرّة واحدة فقط، وذلك خلال إحدى العمليات التي تبين له فيما بعد أنها لم تكن تستحق العناء. كان ذلك عام 1970، عندما حاول هو وأحد رفاقه، الذي تخفى في زي بائع قهوة، انتزاع سلاح أحد ضباط الشرطة المناوبين على حراسة منطقة الاستراحة الرئاسية في لوس أوليفوس. وقد نجح في ذلك لكن ليس قبل أن يتمكّن الضابط من استخدام سلاحه لإطلاق الرصاص مصيباً فرمينيش في

إصبعه. ويذكر فيرمينيش تلك الواقعة قائلاً: «كانت معجزة. لقد حالت إصبعي دون وصول الرصاصة إلى قلبي».

الأبناء هم سندنا

وأثناء حديثي معه، أسر لي ماريو فيرمينيش فجأة، كأنما في زلة لسان، أن إحدى متع حياته الكبرى كانت اللعب مع أبنائه. ولم اندهش لسماع ذلك فالشيء الذي اكتشفته عن أعضاء جماعة المونتونيروس هو اصطحابهم الدائم لأبنائهم حتى أثناء تنفيذهم أكثر عملياتهم صعوبة وخطورة. ولقد تسنت لي رؤيتهم في مخابئهم وهم يغيرون حفاضات أطفالهم ويرضعونهم بينما هم عاكفون في الوقت ذاته على إنجاز أمور سياسية هامة. وأغرق فيرمينيش في الضحك عندما ذكرت له هذا وقال «إنه أمر طبيعي. فقد ولى الزمن الذي كان يسود فيه الاعتقاد أن الثوريين لا يمكن أن يكون لديهم أبناء». وأضاف قائلاً: إنه لو كان الفيتناميون قد فكروا بهذا المنطق البالي منذ ثلاثين سنة لما صار لديهم من ينتصرلهم في الحرب، ثم واصل كلامه مؤكداً أن «الأبناء هم سندنا». فلما تقوه بذلك صار من الطبيعي أن يردف فوراً رابطاً هذا الموضوع بالأرجنتين صاحبة أقل معدل مواليد في القارة مما يحتم عليها -في رأيه- مضاعفة عدد سكانها ليقوموا على حماية حريتها مستقبلاً، فقال: «يبلغ متوسط عدد الأبناء في العائلة الأرجنتينية ثلاثة أفراد، لكن يجب إن يرتفع هذا المتوسط ليصيرخمسة أفراد، يكون منهما اثنان لاستيفاء الحد السكاني الأدنى، والباقون لمضاعفة إجمالي السكان». ولم يكن كلامه هذا مجرد كلام نظري، فلقد أدرك بحكم خبرته أن هناك خصوصية لنضال الشخص الذي يعول، ففي رأيه: «وجود الأبناء سبب يجعله أكثر حرصاً على نفسه».

من ناحية أخرى، لم يكن السؤال الذي طالما كان يطرح في تلك الآونة عن نية الرئيس الأمريكي كارتر حيال أميركا اللاتينية ليثير اهتمام فيرمينيش، لذا اكتفى بالرد علي عندما طرحته بقوله «إن التحرير لا يمكن أن يأتينا من الخارج»، وقد بدا لي رده في محله تماماً. ثم انفجرت أسأريه عندما سألته إن كان بمقدوره أن يخبرني تحديداً بتوقعاته لما يمكن أن يكون عليه مستقبل بلاده، فقال متحمساً: «بالطبع. إن النظام الديكتاتوري لن يصمد لعام آخر فالظروف مهيأة للقيام بضربة قاضية أخيرة ضده. وسوف تبرز الحركة البيرونية وحركة مونتونيروس كبديل أمثل من شأنه أن يمهد لتأسيس حزب المونتونيروس، وعندئذ سوف تتشكل جبهة تحرير وطنية من شأنها مناهضة الديكتاتورية والأوليغاركية والإمبريالية». وكان فيرمينيش يؤمن أن البرجوازية

الأرجنتينية التي طالما تأثرت مصالحها سلباً من جراء الشركات العالمية الكبرى والقطاع العام، وأحزاب تقليدية أخرى مثل حزبي الراديكال والإنترانسيخنتي، بل و«الحزب الشيوعي نفسه» بحسب قوله، سوف تكون جزءاً من تلك الجبهة الوطنية. ولقد أدهشتني إشارته إلى الحزب الشيوعي لعلمي بموقف شيوعيي الأرجنتين حيال حركة المونتونيروس ولاطلاعي أيضاً، كما هو معلوم للجميع، على موقفهم الموالي للنظام الديكتاتوري العسكري، لذا حاولت أن أستوضحه أكثر حول هذه المسألة فسألته «حتى الحزب الشيوعي؟». فعاد وأكد بهدوء قائلاً: «نعم بما في ذلك الحزب الشيوعي». إذن، كان على يقين بأن الجميع سوف يقبل في نهاية المطاف بالتحول نحو الاشتراكية وفقاً لبرنامج مناسب يشمل إلغاء الاحتكارات الأجنبية وتأميم الشركات المحلية الكبرى بعد تعويض مالكيها واحترام الملكيات الخاصة للشركات الصغيرة وتحويل بعض القطاعات الأخرى إلى تعاونيات. وقد بدا واثقاً بشدة بإمكانية تكوين تلك التحالفات لدرجة أنه كان يعزو فشل الحركات الثورية في أميركا اللاتينية خلال فترة الستينيات إلى العجز عن إشراك البورجوازيات المحلية كحليف أساسي على الصعيدين العسكري والسياسي. ثم ختم كلامه بتنهيده عميقة قائلاً: «إن الثورة الأرجنتينية ستكون ثورة أميركا اللاتينية». ولعله كان محقاً في كلامه إلا أنني أثبت أن أرضي غروره فأتركه يختم الحديث بهذه الجملة الانتصارية، فمازحته بلطف قائلاً: «كان الأرجنتينيون قبل تشي غيفارا لا يشعرون حتى بالانتماء إلى أميركا اللاتينية ثم هاهم الآن فجأة يشعرون أنهم من يجسدون هوية القارة». فتلقف مني فيرمينيش المزحة بضحكة رنانة حررتة تماماً من حالة التحفز المسيطرة عليه. ثم حاولت في نهاية حديثي أن أتفق معه حول ما بوسعي أن أكتبه عن مكان وزمان لقائي به، فأجابني وقد استرخى تماماً في مقعده: «الأفضل دوماً هو قول الحقيقة». لكن الحقيقة كانت مذهلة. فقد تقابلنا واكتشف كل منا هوية الآخر بالصدفة البحتة على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق المحيط الأطلسي.

لا يخطر لي أيّ عنوان لهذا المقال²⁰

قبل أن تندلع الثورة في كوبا، لم يكن لدي فضول لمعرفة أيّ شيء عنها، فعلى سبيل المثال، لم تكن مدينة هافانا بالنسبة إليّ أو إلى الكثيرين من أبناء جيلي في أميركا اللاتينية سوى رمز للمجون، وكنا نراها ماخوراً للأميركيين حيث بلغت الإباحية الفجة فيها ذروتها وصارت مضرباً للمثل في هذا المضمار، بما أنه كان من اليسير فيها شراء وقت لمشاهدة رجل وامرأة من لحم ودم يمارسان الرذيلة في مكان أشبه بخشبة مسرح لقاء مبلغ زهيد من المال قد لا يتعدى الدولار الواحد، كما اختلط فيها ذلك المجون بذيوع ألحان شيطانية ومتع حسية شتى وتقاليع في المحيا والملبس. إذن، كانت منظومة متكاملة للهو ومبعثاً للإثارة في منطقة الكاريبي. لكن في الوقت نفسه، كان المثقفون من جيلي يدركون أن كوبا كانت أكثر المستعمرات الأسبانية ثقافة، فلم تنفك تعقد فيها الحلقات الأدبية والمسابقات الشعرية على الرغم من تبول البحارة الأميركيين جهلاً على تماثيل الأبطال، وهجوم بلطجية أنظمة الحكم بأسلحتهم على المحاكم لسرقة أوراق القضايا. فإلى جانب صدور مجلة «الأسبوع الساخر»، وهي من ذلك النوع الذي قد يقرأه الرجال في الحمام خلصة من وراء زوجاتهم، كانت أرقى مجلات أميركا اللاتينية في الفن والأدب تنشر في كوبا، فضلاً عن الملاحق التي دأبت على نشر القصص المصورة المسلسلة التي كانت أحداثها قد تمتد عدة أعوام فيتعلق قراء القارة بأحداثها شغفاً بينما هم يطلعون من خلال تلك الإصدارات نفسها على لوحات أماليا بلاييث الفنية بألوانها الخلابية أو أبيات خوسيه ليثاما ليما الشعرية. مثل تلك التناقضات الصارخة إنما كانت تزيد من صعوبة فهم ماهية ذلك البلد شبه الأسطوري الذي لم يكن في تلك الفترة قد فرغ بعد من حروبه من أجل الاستقلال والذي لم يكن سهلاً التكهّن بمصيره السياسي حتى عام 1955. ففي ذلك العام تحديداً، إبان إقامتي في باريس، سمعت يوماً ولأول مرة اسم فيدل كاسترو، وكان ذلك على لسان الشاعر نيكولاس غيين الذي كان يعيش هو الآخر في المنفى بلا أمل في العودة إلى وطنه، وكان يقيم في فندق غران هوتيل سان ميشيل وهو أقل الفنادق سوءاً في ذلك الشارع المليء بالفنادق الرخيصة، وهو نفسه الشارع الذي كنت أنا وآخرون من أميركا اللاتينية نقيم فيه آنذاك ونشغل أوقاتنا بأكل الجبن الأزرق والقرنبيط المسلوق بينما نحن نتحين لحظة العودة إلى بلادنا. وكانت غرفة نيكولاس غيين، كمثيلاتها في الحي اللاتيني، مكونة من أربعة جدران ثبتت عليها لوحة باهتة، وفيها مقعدان قديمان، وحوض لغسل اليدين، ومشطف

محمول، وسرير صغير يصلح لشخصين كان قد استلقى عليه ذات مرّة عاشقان من السنغال قبل انتحارهما. غير أنني أراني الآن، وبعد عشرين سنة من ذلك اليوم، عاجزاً عن استرجاع صورة محددة في مخيلتي عن ذلك الشاعر داخل تلك الغرفة، لكنني في المقابل أراني أرسم في مخيلتي صوراً له في أجواء أخرى لم أكن قد رأيته فيها فعلياً أبداً: كأني أتصوره ممسكاً بمروحة يدوية ومسترخياً على مقعد هزاز، عصراً، في شرفة أحد القصور المطلّة على مزارع السكر التي طالما جسدتها لوحات فناني القرن التاسع عشر في كوبا، ذلك لأن نيكولاس غيبين ظل يحتفظ في باريس ببعض العادات الكوبية الأصيلة كالاستيقاظ مع أولى بشائر الفجر (دون الحاجة إلى سماع الديكة) حتى في أقسى ليالي الشتاء القارص، وقراءة الصحف على ضوء سخان القهوة الذي طالما كانت تهب عليه في كوبا الرياح الوافدة من حقول قصب السكر وقد تخللتها نغمات الغيتار مع بشائر النهار الحار المُميّز لمنطقة كاماغواي. بل ودأب الشاعر نيكولاس غيبين على فتح نافذة شرفته في باريس، على نحو ما كان يفعل في كاماغواي، وعلى إيقاظ الشارع كله بقراءته أخبار أميركا اللاتينية مترجمة عن الفرنسية بلهجته الكوبية.

انعكس حال أميركا اللاتينية ببلاغة شديدة في الصورة الفوتوغرافية الرسمية التي التقطت أثناء مؤتمر رؤساء الدول المنعقد آنذاك في بنما؛ فالبكاد كان يلوح أي زي مدني وسط كل البزات والنياشين العسكرية، حتى أن الجنرال دوايت أيزنهاور نفسه ارتدى حلته العسكرية بمناسبة التقاط تلك الصورة التاريخية، وهو الذي طالما حاول خلال فترة رئاسته للولايات المتحدة إخفاء رائحة البارود المنبعثة من قلبه تحت ستار الأزياء الفاخرة التي كان يبتاعها من بوندستريت. في تلك الفترة، أطل نيكولاس غيبين يوماً من نافذة شرفته في باريس وصاح معلناً نبأً فريداً: «لقد سقط الرجل!»، فاشتعل الشارع إثارة على الفور لأن كل منّا ظن أنّ الذي سقط كان حاكم بلاده، فمن كانوا من الأرجنتين ظنوا أنه يتحدث عن خوان دومينغو بيرون، ومن كانوا من باراغواي ظنوا أنه يتكلم عن ألفريدو ستروسنر، ومن كانوا من بيرو ظنوا أنه يقصد مانويل أورديا، والكولومبيون اعتقدوا أنه يشير إلى غوستافو روخاس بينيا، والنيكاراغويون ظنوا أنه يتكلم عن آناساسيو سوموزا، والفنزوليون اعتقدوا أنه يعني ماركوس بيريس خيمينيث، والغواتيماليون اعتقدوا أنه كاستييو آرماس، والدومينيكيون ظنوا أنه رافايل ليونيداس تروخييو، والكوبيون ظنوا أنه فلورنسيو باتيستنا. لكن سرعان ما تبين لنا أن الخبر الذي جاء به نيكولاس غيبين كان يتعلق ببيرون، ومن ثم أخذ غيبين يرسم لنا بانوراما قاتمةً للأوضاع في كوبا قبل أن يخلص إلى القول بأن «الأمل الوحيد الذي أراه في المستقبل إنما يتجسد في شاب يهيم حالياً في أرجاء المكسيك»، ثم سكت على طريقة العرّافين قبل أن يستطرد قائلاً: «اسمه فيدل كاسترو». لم يكن ليخطر ببال أحد

أنه بحلول قمة رؤساء الدول المقبلة بعد ذلك بثلاث سنوات، والتي كان من المرتقب انعقادها في مدينة كاراكاس، سيكون ذلك الاسم المذكور قد فتح لنفسه بعزم وخلال فترة وجيزة طريقاً تجعله محطّ انتباه رؤساء دول القارة. ولم يكن ليخطر ببال أحد أنّ الثورة الاشتراكية الأولى في أميركا اللاتينية كانت قد بدأت تتشكل بالفعل في منطقة السييرا مادري في كوبا، بما أننا جميعاً كنا نترقب انطلاقها بالأحرى من فنزويلا التي استطاع شعبها تخطيط مؤامرة أطاحت الآلة القمعية الضخمة للجنرال ماركوس بيريث خيمينيث خلال أربع وعشرين ساعة فقط. في الحقيقة، كانت المؤامرة الشعبية التي نُفذت في فنزويلا مذهلة ولا سيّما لبساطتها وسرعتها وفاعلية نتائجها. اعتمدت تلك المؤامرة على التزام أفراد الشعب جميعاً يوم الـ 23 من كانون الثاني/يناير 1958 بإطلاق أبواق السيارات وتعطيل الأعمال والخروج إلى الشارع لإسقاط النظام الديكتاتوري. وقد بدت الخطة في ظاهرها غاية في السذاجة خصوصاً عندما نوهت بها بعض الصحف القومية التي كان العديد من موظفيها سيشاركون في تلك المؤامرة. وبالفعل، في اليوم المتفق عليه، أطلقت في وقتٍ واحدٍ جميع أبواق السيارات وبلغ حجمُ حالات الازدحام المرورية نسباً غير مسبوقة، وخرجت حشود من طلاب الجامعة والعمّال إلى الشارع لتواجه قوات النظام بالحجارة والزجاجات، وهبطت مجموعاتٌ هائلةٌ من الفقراء قادمةً من التلال المجاورة، والتي كانت تكسوها أكواخ شبيهة بديكورات بيت لحم التي تُرى أثناء أعياد الميلاد المجيد، واتجهت صوب المدينة فأحالتها إلى ساحة معركة. وبحلول الليل وعقب إطلاق كثيف للنيران ودوي سيارات الإسعاف، حدثت انفراجة عندما تنافلت الصحف أنباء عن هروب عائلة بيريث خيمينيث داخل إحدى الدبابات ولوذها بإحدى السفارات، ثم خيم صمت مطبق حتى كانت اللحظة التي تسبق بزوغ الصبح، فاندلع عندئذ فجأة صياح الجماهير الصاخبة ودقت أجراس الكنائس وسُمعت صفارات إنذار المصانع وأبواق السيارات، وعلت أصوات الأغاني المحلية من كل النواقد ثم استمرت دون انقطاع على مدى سنتين من الأوهام. وأسرع بيريث خيمينيث بصحبة نفر من أعوانه الخونة ليستقل طائرةً حربيةً متجهةً صوب سانتو دومينغو تاركاً وراءه الخراب الذي تسبب به. وكانت الطائرة بانتظاره منذ الظهيرة في مطار لاكارلوتا الواقع على بعد كيلومترات قليلة من قصر ميرافلوريس الجمهوري وكانت جاهزة للإقلاع فور وصوله. وقد فوجيء الجميع بوصوله وخلفه سرب من السيارات التي تطارده أثناء محاولته الفرار لدرجة أنّه لم تكن هناك فرصة حتى لتثبيت سلّم الطائرة له فاضطر طاقمها لاستخدام حبلٍ لسحب بيريث خيمينيث الذي بدا وقتها أشبه بطفل ضخم ولاسيما بنظارته الخشبية. وفي خضم ذلك كله غفل عن حقيبة يده، وكانت حقيبة عادية من الجلد الأسود لكنها احتوت على المبلغ الذي بالكاد كان يلزم نفقاته النثرية أي ثلاثة عشر مليون دولار فقط. ومنذ تلك

اللحظة وعلى مدار عام 1958 بأسره، بدت قنزويلا وكأنها أكثر بلاد العالم حرية. وبدأ ما حدث وكأنه بالفعل ثورة، خصوصاً وأنه كلما كانت تلوح مشكلة كانت الحكومة تلجأ فوراً ومباشرة إلى الشعب الذي يندفع بدوره إلى الشوارع للتظاهر ضد أي محاولة للارتداد إلى الوراء. وصارت أدق التفاصيل الرسمية متاحة للجماهير، وتم إشراك جميع الأحزاب السياسية بما فيها الحزب الشيوعي في كل أمور الدولة كبيرها وصغيرها، وأدركت الأحزاب بدورها، أقله في البداية، أن قوتها إنما تتبع من ضغط الجماهير في الشارع. أما لماذا لم تصبح قنزويلا بهذا الحدث هي صاحبة أول ثورة اشتراكية في أميركا اللاتينية فهذا لا بدّ وأنه من سوء الطالع لا من سوء الظروف. على كل حال، منذ تلك اللحظة صار هناك أيضاً، تحالف صريح بين حكومة قنزويلا ومنطقة لاسييرا ماييستررا في كوبا لدرجة أن مؤسسي حركة السادس والعشرين من تموز/يوليو في كاراكاس قاموا بدعاية علنية عبر كل وسائل الإعلام، وبمباركة الحكومة الرسمية في قنزويلا، من أجل جمع التبرعات الضخمة وإرسال المساعدات إلى المحاربين في لاسييرا ماييستررا. وقام طلاب الجامعات القنزويلية الذين شاركوا في الحرب ضد النظام الديكتاتوري في بلادهم بإرسال ملابس داخلية نسائية إلى نظرائهم في جامعات هافانا، فكظم الطلاب الكوبيون غيظهم من تلك الإهانة إلى أن قاموا، بعد أقل من عام، بعدما انتصرت الثورة في كوبا، برد الملابس الداخلية إلى مرسلها دون تعليق. كما عملت الصحافة القنزويلية رسمياً لمصلحة لاسييرا ماييستررا مستجيبةً في ذلك لضغط الشارع القنزويلي أكثر منها لرغبة مالكيها؛ فالجميع في فينزويلا كان يشعر أنّ كوبا لم تكن بلداً آخر، بل جزءاً لا يتجزأ من قنزويلا الحرة وجب تحريره هو الآخر.

كان عام 1959 من الأعوام القليلة في تاريخ قنزويلا التي شهدت الاحتفال بحلول السنة الجديدة دون وجود نظام ديكتاتوري في البلاد. وتصادف وجودنا أنا ومرثيديس هناك في تلك الفترة، وكنا قد تزوجنا قبل ذلك بفترة وجيزة، وذات ليلة كنا عائدين مع أولى خيوط الفجر إلى شقتنا في حي سان برناردينو فوجدنا المصعد معطلاً، فاضطررنا إلى صعود الطوابق الستة على أقدامنا متوقفين بين الفينة والأخرى لالتقاط أنفاسنا، ولكننا ما كدنا ندخل شقتنا حتى داخلنا شعور مبهم بأننا كأنما نعيش ثمانية اللحظات نفسها التي عشناها العام السابق: فقد ارتفع صراخ الجماهير الصاخب وعلت أجراس الكنائس وأبواق السيارات وتصاعدت من النوافذ الأغاني والألحان والأصوات الملتهبة سعادة بانتصار إرادة الشعوب. شعرنا كأنما الزمن عاد بنا ثانية، وأن ماركوس بيريث خيمينيث قد أُطيح به من جديد. وبما أنه لم يكن لدينا هاتف ولا راديو فقد سارعنا في نزول السلالم ونحن لا ندري إذا ما كنا قد سكرنا خلال ذلك الحفل الذي كنا فيه قبل قليل، ولكن أحدهم مر بنا وهو يجري مسرعاً مع ومضات الفجر الأولى وأتحفنا بالنبأ الذي لم نتوقعه: فلوخنثيو

باتيستا ترك كرسي الحكم وهرب بصحبة بعض أعوانه على متن طائرة حربية باتجاه سانتو دومينغو. بعد ذلك الحدث بأسبوعين فقط تسنى لي الذهاب إلى هاڤانا للمرة الأولى. وقد أتيح لي ذلك بأسرع مما كنت أتخيل وبصورة لم أكن لأتوقعها. ففي الثامن عشر من كانون الثاني/يناير وبينما أنا في مكتبي أجمع أوراقى استعداداً للرحيل من قنزويلا، إذا بأحد رجال حركة السادس والعشرين من تموز/يوليو يجيء إلى مكتب الجريدة مفتشاً بلهفة عن صحافيين مستعدين للذهاب إلى كوبا في الليلة نفسها، ولاسيما أنه كانت هناك طائرة جاهزة أرسلتها كوبا لهذا الغرض. فوقع الاختيار عليّ أنا وبلينيو أبوليو مندوثا بما أننا كنا من أكثر مؤيدي الثورة الكوبية. لكن بالكاد أتيح لنا وقت للذهاب إلى بيوتنا لالتقاط بعض الأمتعة. وبما أنني كنت قد اعتدت اعتبار قنزويلا وكوبا بلداً واحداً فإنني نسيت حتى أن آخذ معي جواز سفري، والحقيقة هي أنني لم أحتج إليه لأن موظف الجوازات القنزويلي، وقد بدا أكثر انتماء إلى كوبا من الكوبيين أنفسهم، اكتفى بأن طلب مني إظهار أي وثيقة تدل على هويتي، فلم أجد في جيوبي سوى وصل المغسلة، فوضع الموظف ختمه على الوصل وهو غارق في الضحك وتمنى لي رحلة سعيدة. أما المشكلة الحقيقية فقد وقعت لاحقاً، عندما اكتشف قائد الطائرة أنّ عدد الصحافيين كان أكثر من عدد المقاعد المتاحة، وأن وزن المعدات والحقائب يزيد عن المسموح به. وبالطبع لم يكن أحد على استعداد للتخلف عن الرحلة أو التضحية بشيء مما يحمل، وفي الوقت نفسه، كان موظف المطار مصمماً على ضرورة إقلاع الطائرة. وكان الطيار رجلاً جاداً، متوسط العمر، ذا شارب رمادي، وزى طيران رسمي أزرق اللون محلى بالشعار الذهبي الخاص بالقوات الجوية الكوبية التابعة للنظام المخلوع، وقد ظلّ مدة ساعتين تقريباً يقاوم بصرامة كل محاولات إقناعه بالإقلاع حتى خرج أحداً بحجة قاهرة قائلاً له: «لا تكن جباناً يا كابتن، فالـ «غرانما»²¹ نفسها أبحرت بحمولة تفوق المسموح به»، فنظر الطيار إليه ثم إلينا جميعاً بحنقٍ شديدٍ ثم قال وقد بدا وكأنه طعن في الصميم: «الفرق أن لا أحد منا هنا مثل فيدل كاسترو»، ثم أردف يقول وقد مدّ يده إلى مكتب التسجيل ليقطع ورقة من سجل تسجيل الرحلات ويكوها في يده: «حسناً، لنقلع على حالنا هذه لكني لن أترك ورائي أبداً ما يثبت أنّ الطائرة أقلعت بحمولة زائدة عن المسموح به»، ثم وضع الورقة في جيبه وأشار إلينا بيده كي نتبعه. وبينما نحن في طريقنا إلى الطائرة، سألت الطيار بصوت متوجس نتيجة تمزقي بين خوفي المعتاد من الطيران ورغبتي في الذهاب إلى كوبا: «هل تظن أنه يمكننا أن نصل سالمين؟»، فأجابني: «ربما، إذا تدخلت العناية الإلهية».

كانت الطائرة متهاكة، تعمل بمحركين، وأغلب الظن أنها كانت إحدى طائرات القوات الجوية التابعة للمخلوع باتيستا وأن أحد الطيارين لابد وأنه اختطفها بغية الفرار إلى لاسبييرا

ماييسترا قبل أن يتركها في مكان ما مهجورة تحت الشمس إلى أن كانت تلك الليلة الكارثية التي استخدمت فيها لنقل مجموعة من الصحفيين الانتحاريين أمثالنا من قنزويلا إلى كوبا. وكانت الطائرة محدودة المساحة من الداخل، قليلة التهوية، مكسورة المقاعد، وممتلئة برائحة صداً لا تطاق. وقد حاول كل منا أن يجد لنفسه مكاناً مناسباً حتى ولو في الممر الضيق بين الحقائب ومعدات تصوير السينما والتلفزيون. وكنت أشعر بالاختناق بينما أنا قابع في زاوية بالقرب من إحدى النوافذ بمؤخرة الطائرة. وهانت عليّ صعوبة الموقف لما بدا على رفاقي من رباطة جأش إلى أن مال أحدهم نحوي هامساً بينما أسنانه تصطك: «يا لك من محظوظ! يبدو أنك لا تخشى الطيران»، عندئذ فقط دهمني الرعب إذ اكتشفت أن جميعهم مرعوبون مثلي تماماً لكنهم أخفوا ذلك وراء وجوه تدعي الشجاعة. وبدا أن الشيء الوحيد المجدي فعله في ذلك الموقف هو بلوغ مركز مشاعر الخوف الذي تسلّط علينا، فيما إن هذا المركز أشبه بعين الإعصار التي تسبب حالة من الذهول اللاواعي، إذن، فبلوغه كان من شأنه أن يمكننا من تحمل الطيران دون الموت رعباً. أما في حالتي، فأكثر ما كان يساعدي على بلوغ تلك الحالة خلال رحلتي الجوية الطويلة والمؤرقة ليلاً كان ذلك النجم اليتيم الذي طالما ألمحه من نافذة الطائرات والذي يصحبها أثناء رحلاتها عبر المحيطات الموحشة. ولقد حاولت دونما جدوى أن أحدد موقعه أثناء رحلتنا في تلك الليلة المشؤومة فوق الكاريبي داخل تلك الآلة ذات المحركين العتيقين والتي كانت تشق طريقها وسط غيوم صخرية، ورياح مضطربة، ومنزلاقات برقية، متلمسةً طريقها في عتمة الليل، لا يدفعها سوى نبض قلوبنا المرعوبة. وعندما حلّ الصباح، دهمتنا أمطار غزيرة فمالت الطائرة على أحد جانبيها محدثة صوتاً مدوياً أشبه بصوت شراع المراكب التي يجرفها التيار، ثم هبطت مرتعدةً هبوطاً اضطرارياً بينما هي غارقة في دموع الأمطار على ممرات أحد مطارات كاماغواي. وعندما توقفت الأمطار عمّ يوم ربيعي عليل النسمات فأكملنا الجزء المتبقي من رحلتنا الجوية بسلاسة كأنما كنا نطير فوق حقول قصب السكر العطرة أو كأنما كنا على متن مركب محاط بأسماء ملونة أو كأنما كنا محاطين بزهور خلافة. وقبل حلول الظهيرة، كنا قد تمكنا من الهبوط في منطقة ملأى بقصور أسطورية شبيهة بقصور بابل يملكها أغنياء هاغانا، فقد كان مطار كامبو كولومبيا، والذي صار اسمه فيما بعد سيوداد ليبرتاد، واقعاً في تلك المنطقة التي كانت فيها قلعة الجنرال المخلوع باتيستا والتي كان كاميلو سينيغويغوس وأتباعه من الفلاحين قد اعتصموا بها قبل أيام قليلة واندeshوا من ثرائها الفاحش. أما نحن، فريق الصحفيين، فكان أول انطباع لنا عند وصولنا إلى هناك هو شعورنا بهزلية الموقف، ولاسيما عندما خرج لاستقبالنا أعضاء القوات الجوية التابعة للنظام المخلوع الذين لم يلتحقوا بصفوف الثورة سوى في اللحظات الأخيرة بعد أن

كانوا قد تواروا عن الأنظار لفترة داخل ثكناتهم كي تنمو لحاهم فينخدع من يراهم للوهلة الأولى فيظنهم من الثوار الأوئل. والحقيقة أن من قضى منا العام السابق بأسره في كاراكاس، لم يدهشه هذا الجو المحموم والفوضى الخلاقة اللذان لقيناها في هافانا في مطلع عام 1959، وإن ظلَّ الفرق أن ما حدث في قنزويلا كان أن نجحت ثورة مدنية يدعمها تحالف أحزاب مختلفة وقطاع عريض من القوات المسلحة في إسقاط حكومة استبدادية، بينما في كوبا نجحت جحافل من القوات الريفية، إثر حرب طويلة وصعبة، في إطاحة القوات المسلحة التي تصرفت وكأنها جيش احتلال بدلاً من أن تحمي البلاد. كان هذا فرقاً جوهرياً بين الحالتين، وقد ساهم فيما بعد في رسم مستقبل مختلف لكلتا الدولتين. وكان هو نفسه الفرق الذي لاح لنا جلياً منذ الوهلة الأولى ظهيرة ذلك اليوم من شهر كانون الثاني/يناير.

كان المخلوع باتيستا قد اتخذ إجراءات أمنية غير عادية في مدينة هافانا كي يبرهن لشركائه الأميركيين إحكامه قبضته على السلطة وضمانه لاستقرار البلاد، لذا وجدنا المدينة وقد امتلأت بدوريات أمنية ضمت مجندين من الفلاحين، تفوح منهم رائحة العرق، حديثي العهد بالحياة في المدن، حاملين بنادق عتيقة، مرتدين حلاً عسكرياً فضفاضة لا تتناسب مع أحجامهم، وهائمين بذهول بين ناطحات السحاب والآلات المدهشة والأميركيات شبه العاريات اللاتي يأتين على العبارات من مدينة نيواورليينز مبهورات بما يسمعن عن رجال كوبا الملتحين. وعند مدخل فندق هيلتون الذي كان قد تم افتتاحه أخيراً في هافانا، اعترض طريقنا عملاق أشقر يرتدي زياً أزواره بارزة وخوذة شبيهة بخوذات القادة العسكريين، ويتحدث بلهجة كوبية شعبية ممتزجة بلكنة أهل مدينة ميامي الأميركية، ويحاول بهمة تأدية عمله البسيط كبواب. فقام أحد أفراد الفريق الصحفي، وكان قنزويلياً أسود، بإزاحته عن الطريق ممسكاً إياه من ياقة ملابسه ودافعاً إياه باتجاه وسط الشارع، في حين تدخل صحفيون كوبيون لدى إدارة الفندق كي تسمح لنا ولأمثالنا من الزوار الذين كانوا يتوافدون من أرجاء العالم كافة بدخول الفندق دون التعرض لأي تمييز. وخلال الليلة الأولى التي أمضيها هناك، تصادف مرور نفر من شباب الجيش الثوري الذين شعروا بالعطش فدخلوا إلى أول بار وجدوه في طريقهم، وكان بار فندق هيلتون، لطلب الماء إلا أن النادل رفض ونجح بكل أدب في إخراجهم إلى الشارع. وقد حدث هذا على مرأى ومسمع منا، فريق الصحفيين، فأعدناهم إلى الداخل مجدداً وأفسحنا لهم مكاناً للجلوس معنا على الطاولة نفسها. وعندما اطلع الصحفي الكوبي ماريو كوتشيلان فيما بعد على ما حدث أعرب عن خجله وغضبه وقال: «لا يجوز استمرار الحال على هذا الشكل لأبد من قيام ثورة حقيقية، وأقسم لكم إننا سوف نقوم بها».

عملية كارلوتا- كوبا في أنغولا²²

كان تاريخ الـ 24 من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1975 هو المرة الأولى التي كشفت فيها الولايات المتحدة من خلال تصريحات رسمية عن وجود قوات عسكرية كوبية في أنغولا. وقدّرت وقتذاك حجم القوات الكوبية المرسلّة إلى أنغولا بحوالي خمسة عشر ألف جندي. لكن، بعد أسابيع قليلة من ذلك التاريخ، وخلال زيارة قصيرة له لمدينة كاراكاس، أسرّ هنري كيسنجر إلى الرئيس كاربوس أندريس بيريث قائلاً: «إنّ حال المخابرات في الولايات المتحدة يرثى له حقاً! فهل يعقل ألاّ نعلم شيئاً عن اعتزام الكوبيين الذهاب إلى أنغولا حتى أصبحوا هناك بالفعل؟!». لكن أثناء تلك الزيارة نفسها، قام كيسنجر بتصحيح الرقم التقديري الذي سبق وأن أعلنه الولايات المتحدة عن عدد القوات المرسلّة إلى كوبا مقررّاً أنها لا تتجاوز الاثني عشر ألف جندي. ولم يوضح كيسنجر السبب وراء ذلك التغيير في تقدير حجم القوات المرسلّة من كوبا، فواقع الأمر هو أنّ كلا الرقمين كان خطأ. ففي تلك الأونة نفسها كان هناك العديد من رجال الجيش والعسكريين المتخصصين والفنيين المدنيين الكوبيين في أنغولا بالفعل، وكان العدد يفوق ما زعمه هنري كيسنجر. فقد كان هناك عدد لا نهائي من المراكب الكوبية الراسية في خليج لواندا لدرجة أنّ الرئيس الأنغولي آغوستينو نيتو وقف خلف إحدى نوافذ مقره الرئاسي محاولاً إحصاء عدد تلك المراكب، ثم أسرّ بحياء غير مستغربٍ عليه لواحدٍ من موظفيه: « هذا ليس من العدل في شيء. إنّ كوبا ستعرض نفسها للإفلاس إذ استمرت في دعمها لنا بهذا الشكل». ولعلّ الكوبيين أنفسهم لم يتوقعوا أن تكون مساندتهم للشعب الأنغولي بهذا الحجم. جلّ ما أدركوه منذ اللحظة الأولى هو أنّ العملية يجب أن تكون حاسمة وسريعة وأنه لا يمكن بحال أن تفشل.

الاتصالات الأولى

تمت الاتصالات الأولى، والتي توالى فيما بعد بكثافة، بين مجلس الثورة الكوبية وحركة تحرير أنغولا (MPLA) في آب/أغسطس 1965 عندما كان تشي غيثارا يشارك في حروب الكونغو. وفي العام التالي مباشرةً، ذهب آغوستينو نيتو بصحبة أندو، قائد مجلس حركة التحرير الأنغولية الذي لقي حتفه فيما بعد أثناء الحرب، إلى كوبا لمقابلة فيدل كاسترو. ثم قلت

الاتصالات بين الطرفين فيما بعد نتيجة توالي وقائع الصراع في أنغولا. وظلّ الحال هكذا حتى أيار/مايو 1975، عندما كان البرتغاليون يستعدون للجلء عن مستعمراتهم في إفريقيا، وكان الزعيم فلافيو برافو وقتذاك في برازاڤيل بصحبة آغوستينو نيتو فطلب هذا الأخير منه المساعدة لنقل شحنة أسلحة، واستشاره كذلك في إمكانية إمدادهم بدعم أكبر. بعد ذلك بثلاثة أشهر، انتقل القائد راؤول دياث أوغوييس إلى لواندا على رأس وفدٍ مدني من كوبا، فصار آغوستينو نيتو يطلب المساعدات بجرأة أكبر وإن ظل يطلبها على بعض الاستحياء بما أنه طلب إمدادهم فقط بفريق من المعلمين لإنشاء وإدارة أربعة مراكز للتدريب الحربي.

القوات المعادية

علينا أولاً أن نقف على حقيقة الأحوال آنذاك في أنغولا كي نفهم لماذا جاء طلب آغوستينو نيتو متواضعاً بهذا الشكل. فعلى الرغم من أنّ حركة التحرير الأنغولية التي تأسست عام 1956 كانت أقدم الحركات التحريرية في أنغولا والوحيدة التي ارتكزت على قاعدة شعبية عريضة وتميزت ببرنامج سياسي اجتماعي واقتصادي مناسب لظروف البلاد، إلّا أنها كانت الحركة الأقل حظاً من حيث الاستعداد العسكري. فرغم اعتمادها على التسليح الروسي إلّا أنها افتقدت من يدرّبونها على استخدامه. في مقابل ذلك كانت القوات النظامية لزائير على مستوى عالٍ من التدريب والتسليح مكّنها من اختراق أنغولا، في الـ 25 من آذار/مارس من ذلك العام، وإعلان حكومة فعلية في منطقة كارمونا برئاسة هولدن روبرتو، وهو قائد جبهة التحرير الأنغولية وصهر موبوتو، وقد كان مشهوراً بعلاقاته الوثيقة بالمخابرات الأميركية. وفي مقابل ذلك أيضاً، صُعِدَت في غرب البلاد، وتحت حماية زامبيا، جبهة الوحدة الوطنية لاستقلال أنغولا الشامل (أونيتا) بقيادة خونس ساقيمبي، وكان مغامراً عديم المبدأ ودائم التعاون مع العسكريين البرتغاليين والشركات الأجنبية الاستغلالية. وأخيراً، كانت هناك القوات النظامية التابعة لجنوب إفريقيا التي اخترقت الجبهة الجنوبية لأنغولا في الخامس من آب/أغسطس من ذلك العام من جهة أراضي ناميبيا المستعمرة بحجة حماية مجمع السدود المائية في راوكانا-كالواكا.

الإرسالية الأولى

كانت كل تلك القوات سالفة الذكر، بجلّ عددها وعتادها الحربي، على أهبة الاستعداد لإطباق حصارٍ محكمٍ على لواندا عشية الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر بالتزامن مع جلاء الجيش البرتغالي عن تلك الأراضي بجمالها واتساعها وثرواتها اللانهائية والتي تنعم بخيراتها البرتغاليون على مدار خمس مئة سنة. ولقد أخذ القادة الكوبيون تلك الظروف في الاعتبار عند تلقيهم طلب آغوستينو نيتو لذا لم يتقيدوا بتنفيذه حرفياً بل أثروا أن يبعثوا من فورهم بإرسالية قوامها أربع مئة وثمانون خبيراً مهمتهم إنشاء أربعة مراكز تدريب وتنظيم ستّ عشرة وحدة مشاة وتدريب الجنود على استخدام قذائف هاون وتثبيت مدافع مضادة للطائرات في فترة ستة أشهر فقط. فضلاً عن ذلك، أرسلوا كتيبة أطباء ومئة وخمس عشرة سيارة ومعدات مختلفة لازمة للاتصالات. وتم شحن تلك الإرسالية الأولى بواسطة سفن ثلاث تم تخصيصها لإنجاز تلك المهمة. أولاًها كانت سفينة «فيتنام هيرويكو» التي كانت في الأصل باخرة ركاب ابتاعها الديكتاتور المخلوع فلورنثيو باتيستا من شركة هولندية عام 1956 من أجل تحويلها إلى سفينة تدريب لطلاب الكلية البحرية. أما السفينتان الأخريان وعرفتا باسم «الكورال» و«البلاتا»، فكانتا سفينتي بضائع مخصصتين للطوارئ.

لكن الأهم من ذلك كله كانت الطريقة التي شحنت بها تلك السفن، حيث يتجلى فيها حس الحيلة والجرأة الذي التزمه الكوبيون لإنجاز مهمتهم في أنغولا. فمن المدهش أن يشحن الوقود من كوبا بغية تشغيل السيارات المرسلة عند وصولها إلى أنغولا؛ فأنغولا دولة منتجة للبتترول بينما كوبا تحصل على حاجتها من البترول عبر الاتحاد السوفياتي. غير أن الكوبيين قرروا إثارة السلامة، منذ اللحظة الأولى لتخطيطهم لتلك المهمة، فشحنوا حوالى ألف طن من الوقود تم توزيع حمولتها على السفن الثلاث. فحملت «فيتنام هيرويكو» مئتي طن في براميل سعة كل منها خمسة وخمسون غالوناً وأبقت مستودعاتها مفتوحة طيلة الرحلة للسماح بخروج الغازات. أما سفينة «لابلاتا» فقد أفسحت سطحها للحمولة المقررة. وقد تزامنت ليلة شحن الوقود على السفن الثلاث مع احتفال كوبا بأحد أعيادها الشعبية، فأطلقت الألعاب النارية في كل مكان بما في ذلك خليج مارييل القريب من هافانا، ولو أن شرارة واحدة من تلك الألعاب النارية كانت انفلتت لكان بوسعها أن تحيل تلك الترسانات العائمة الثلاث إلى رماد. وقد ذهب فيدل كاسترو بنفسه لحضور مراسم إبحار السفن، فاعتاد منذ ذلك الحين حضور كل الإرساليات التي بعثتها كوبا فيما بعد إلى أنغولا. ولما شهد بنفسه الحال التي كانت ستبحر عليها السفن أطلق أحد تعليقاته العفوية، والتي عادة ما تكون ثاقبة، فقال «على أية حال، تلك السفن حالها أفضل مما كانت عليه الغرانما»²³.

لم يكن الكوبيون واثقين بسماح العسكريين البرتغاليين للمُدَرِّبين الكوبيين بدخول أنغولا. ولذلك فإنه فور تلقي كوبا، في السادس والعشرين من ذلك العام، أول طلب للمساعدة من قبل حركة التحرير الأنغولية، أوكل فيدل كاسترو إلى الكولونيل أوتيل سارايفا دي كارفالو في هاقانا مهمة استصدار موافقة حكومة البرتغال على دخول المساعدات الكوبية إلى أنغولا. وكان سارايفا دي كارفالو قد وعد كاسترو بإنجاز المهمة، لكن عندما حان الموعد المقرر للعملية لم يكن قد حصل على الموافقة بعد. ومن ثم وصلت سفينة «فيتنام هيرويكو» إلى ميناء أمبويم في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر في الساعة السادسة والنصف صباحاً، ووصلت «كورال آيلاند» في السابع من الشهر نفسه إلى ميناء بونتا نيغرا حيث وصلت في إثرها سفينة «لابلاتا» في الحادي عشر من الشهر نفسه. ومرت السفن الثلاث دون موافقة من أحد ولكن دون معارضة من أحد. وحسبما كان مقرراً، استقبل أعضاء حركة التحرير الأنغولية المُدَرِّبين الكوبيين وسهلوا لهم فوراً مهمة إقامة المدارس الأربع. فأقاموا إحداها في منطقة ديلاتاندو التي كان البرتغاليون يعرفونها باسم سالازار، وكانت على بعد ثلاث مئة كيلومتر شرقي لواندا؛ وأقاموا أخرى في ميناء أتلانتيكو في بنغالا، وثالثة في منطقة ساورينو التي كانت تعرف في السابق باسم «انريكه كارفالو»، وكانت واقعة في منطقة الصحراء النائية شرقي لواندا حيث كانت توجد إحدى القواعد الحربية للبرتغاليين الذين لم يتورعوا عن تدميرها قبيل رحيلهم، ثم أنشأ الكوبيون المدرسة الرابعة في منطقة كابيندا. وكانت قوات هولدن روبرتو تقترب آنذاك من لواندا حتى أنه تسنى لأحد مدربي المدفعية الكوبية أثناء قيامه بتدريس الطلبة للمرة الأولى في دلانتادو أن يلح تقديم عربات المرتزقة المصفحة صوبهم. وبالفعل، في الثالث والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، اخترقت القوات النظامية لإفريقيا الجنوبية، بواسطة إحدى كتائبها المسلحة، الحدود الأنغولية من قبل ناميبيا، وتمكنت في مدة ثلاثة أيام فقط من احتلال مدن سادي بانديرا وموساميديس دون أي مقاومة تذكر. وبدا أن عملية الاحتلال كانت يسيرة جداً على الأفارقة الجنوبيين بما أنهم كانوا يحملون معهم شرائط موسيقى صاخبة ليسمعوها داخل دباباتهم، وبما أن أحد قادة القوات المرتزقة التابعة لهم ظنَّ أنَّ بإمكانه إدارة العمليات من مكانه داخل سيارة رياضية ماركه هوندا وهو بصحبة شقراء شبيهة بممثلات السينما ودون أن يحاول حتى الاستعانة بكتيبة استطلاع، كأنما كان في نزهة. ومن ثم لم يتحسب أن ينهال عليه ذلك الصاروخ الذي أفنى سيارته تماماً. ولقد عثر فيما بعد في حقيبة الحساء التي كانت بصحبته على ثوب مخصص للسهرات ومايوه بيكيني وبطاقة دعوة إلى الحفلة التي كان هولدن روبرتو قد أعد لها سلفاً في لواندا للاحتفال بانتصاره.

وبحلول نهاية الأسبوع كان الأفارقة الجنوبيون قد توغلوا بمقدار ست مئة كيلومتر داخل الأراضي الأنغولية، وكانوا يتقدمون صوب لواندا بمقدار سبعين كيلومتراً في اليوم الواحد. وفي الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر قاموا بالاعتداء على العاملين بمركز بنغالا التعليمي مما دفع المُدَرِّبين الكوبيين القائمين على المركز إلى الخروج للتصدي للمعتدين بمساعدة الجنود الذين كانوا يدربونهم والذين كانوا يستكملون تدريبهم إياهم كلما توقفت الهجمات. حتى أطباء البعثة الكوبية أنفسهم استعادوا قوتهم القتالية وخرجوا للمشاركة في المعركة. أما أعضاء حركة التحرير الأنغولية الذين كانوا أكثر اعتياداً واستعداداً لحروب الشوارع منهم للحروب الشاملة فقد أدركوا أن لا قبل لهم بوقف العدوان الذي يشنه عليهم جيرانهم والذي تدعمه القوى الإمبريالية بأعنى الوسائل التدميرية دون الاستعانة فوراً بقوى دولية أخرى.

عالمية كوبا

تمتع الكوبيون على مدار تاريخهم بالقدرة على رؤية الأمور في إطارها العالمي. وعلى الرغم من تأكيد الثورة هذا البعد بوصفه أحد مبادئ الماركسية، إلا أنه يعود فعلياً إلى كتابات خوسيه مارتى.²⁴ ولقد تجلت تلك الرؤية بوضوح - وبشكل متضارب أحياناً - في كل من أميركا اللاتينية وإفريقيا وآسيا. ففي الجزائر مثلاً، بذلت كوبا مساعدات هائلة لمقاتلي جبهة التحرير الوطنية أثناء حربها ضد الاحتلال الفرنسي في الوقت الذي لم تكن الثورة الكوبية قد أعلنت بعد عن طابعها الاشتراكي. وقد دفع هذا بالجنرال ديغول إلى منع طائرات كوبا من استخدام المجال الجوي الفرنسي على سبيل الانتقام. وفيما بعد، وبينما كانت كوبا لا تزال تعاني آثار إعصار فلورا، ذهبت مجموعة من مقاتليها للدفاع عن الجزائر ضد المغرب. ويجوز القول بأنه لم تكن ثمة حركة تحرير في إفريقيا آنذاك إلا وقد نالت تضامناً ما من كوبا، سواء عبر مساعدات عينية وأسلحة أو عبر خبراء فنيين وعسكريين أو مدنيين، ومن ضمن تلك الدول مثلاً كل من موزامبيق منذ عام 1963، وغينيا-بيساو منذ 1965، والكاميرون وسيراليون. كما تمكن رئيس جمهورية غينيا، سيكو تورييه، بمساعدة الكوبيين، من منع نزول مجموعة من المرتزقة على شواطئه. وفي إطار هذا الدعم تعرض القائد بيدرو رودريغيث بيرالتا، الذي صار فيما بعد عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي، للأسر على يد البرتغاليين الذين ألقوا به لعدة سنوات في السجن في غينيا بيساو. وفي إطار هذا الدعم أيضاً تمّ قبول العديد من الطلاب الأنغوليين في كوبا بعدما حث أغوستينو نيتو كل مُبتَغَثي أنغولا في البرتغال على متابعة دراساتهم في بلدان اشتراكية. ولقد

انخرط هؤلاء الطلاب فيما بعد في محاولة إرساء الاشتراكية في أنغولا. وقد شغل بعضهم مناصب رفيعة فيما بعد مثلما هو حال مينغاس، وهو الاقتصادي البارز الذي صار وزيراً للمالية في أنغولا؛ وأنتريكه دوس سانتوس، مهندس الجيولوجيا الذي تزوج كوبية وصار عضواً ثم رئيساً للجنة المركزية لحركة التحرير الأنغولية؛ ومانتوس، وهو المهندس الزراعي الذي صار رئيساً للأكاديمية الحربية؛ ونضالو الذي اشتهر أيام الدراسة كأفضل لاعب كرة قدم في كوبا ثم صار قائداً للجيش الأول الأنغولي. وبالطبع، بعض أسماء هؤلاء ما هي سوى الأسماء الحركية التي عرفوا بها أثناء قيامهم بمهام سرية وحربية لكنهم آثروا الاحتفاظ بها كما هو حال جاكوبو كاييتانو مثلاً الذي ظلّ يحتفظ باسمه الحركي: «الوحش الذي لا يموت».

أما ما يلقي الضوء بحق على تاريخ وعمق اندماج كوبا في إفريقيا فهو ذهاب تشي غيثارا بنفسه وهو في قمة مجده وحنفوانه، للمشاركة في حروب الكونغو. فقد ذهب في الخامس والعشرين من نيسان/أبريل من عام 1965، وهو نفسه تاريخ رسالة الوداع التي أرسلها إلى فيدل كاسترو ليعلمه فيها باستقالته من وظيفته وتحلله من كل ما يربطه بحكومة كوبا. وقد رحل بمفرده على متن إحدى طائرات نقل البضائع متكرراً ومستخدماً اسماً مستعاراً وجواز سفر مزورٍ وحاملاً معه حقيبة تحوي كتباً أدبية والعديد من زجاجات دواء الربو الذي كان يعانيه، وحاملاً معه أيضاً لعبة الشطرنج التي كان يحبها كي يتغلب بها على ساعات الانتظار اللانهائية في الفنادق. وقد تبعه إلى الكونغو في غضون الشهور الثلاثة اللاحقة مئتا محارب كوبي كانوا قد جاءوا من كوبا على ظهر سفينة محملة بالسلاح. كانت مهمة تشي الأساسية هي تدريب المحاربين التابعين لمجلس الثورة الوطني بالكونغو، وهم الذين كانوا يناضلون ضد موسى تشومبيه الذي ما كان سوى ألعوبة في يد المستعمرين البلجيك القدامى وشركات التعدين العالمية. كان لومومبا قد قتل، وصار غاستون سوماليو رئيساً لمجلس الثورة، غير أن لوران كاييلا كان هو من أدار العمليات من مخبئه في كيغوما الواقعة قبالة بحيرة تانجانيقا. كل هذا ساعد على عدم الكشف عن هوية تشي الحقيقية، خصوصاً وأنه بدوره، ومن باب الحيلة، لم يقم بإدارة العمليات بنفسه، كما احتفظ باسمه الحركي «تاتو» الذي يعني الرقم اثنين في اللغة السواحيلية.

عودة غيثارا

مكث تشي غيثارا في الكونغو في الفترة ما بين نيسان/أبريل وكانون الأول/ديسمبر 1965، ولم يقتصر دوره خلالها على تدريب المحاربين فقط بل شمل مشاركته إياهم في النضال. أما

علاقته الشخصية بفيدل كاسترو فقد كثرت التكهّنات حولها آنذاك، لكنها لم تضعف لحظة بل دام التواصل المباشر والود بينهما. وعندما أطيح موسى تشومبيه وبدأ أهل الكونغو يطالبون بانسحاب الكوبيين حفاظاً على اتفاق وقف النار، ما كان من تشي غيفارا عندئذ سوى الرحيل بهدوء مثلما جاء، فسافر عبر مطار دارالسلام، عاصمة تنزانيا، على متن طائرة بضائع، متصنعاً الانهماك طيلة الرحلة في قراءة كتاب عن الشطرنج ليس لشيء سوى لإخفاء وجهه عن الناظرين، بينما كان مساعده الكوبي الجالس في المقعد المجاور يتجاذب أطراف الحديث مع المفوض السياسي لجيش زانزيبار. وكان هذا الأخير من أشد المعجبين بتشّي غيفارا فظلاً يتحدث عنه دون هوادة طوال الرحلة في محاولة منه لمعرفة أخباره ومؤكداً مراراً وتكراراً رغبته في رؤيته مرّة أخرى.

لا شكّ أن مرور تشي غيفارا بهذا الشكل الخاطف والسري عبر إفريقيا قد غرس بذرة لا يمكن لأحد أن ينزعها. فقد انتقل بعض أعوانه فيما بعد إلى برازافيل من أجل تدريب وحدات من المقاتلين تابعة للحزب الإفريقي لتحرير غينيا وكاب فردي، وهو الحزب الذي كان يرأسه أميلكار كابرال، وكذلك لتدريب المقاتلين التابعين لجهة تحرير أنغولا. ولقد قامت كتيبة «كاميلو سيبينفويغوس»، وهي إحدى تلك الكتائب التي دربوها، بالتسلل إلى داخل أنغولا للنضال ضد البرتغاليين. بينما قامت أخرى بالتسلل إلى كابيندا ثم عبور نهر الكونغو والتمركز في منطقة ديمبو التي هي مسقط رأس أغوستينو نيتو ومقرّ صراع دام خمسة قرون ضد البرتغاليين. إذن، يتضح من كل ما سبق أنّ الدعم الذي قدمته كوبا إلى أنغولا لم يأت وليد الصدفة أو الاندفاع، بل هو وليد سياسة التزمت بها الثورة الكوبية دوماً حيال إفريقيا، وإن اكتسى قرار الدعم في حالة أنغولا بشيء جديد ومذهل في آن. فالهدف هذه المرّة لم يكن مجرد تقديم ما تيسر من مساعدات، بل كان توطئة لشنّ حرب منظمة شاملة على بعد عشرة آلاف كيلو متر من حدود كوبا، لا سقف لتكلفتها الاقتصادية والإنسانية، ولا ضمان لتوابعها السياسية.

موقف الولايات المتحدة

كان من الصعب في خضم ذلك كله التكهّن بما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تتدخل بشكل صريح في أنغولا أم ستكتفي بتدخل غير مباشر سواء بمساعدة المرتزقة التابعين لها أو بمساعدة إفريقيا الجنوبية كما دأبت أن تفعل في السابق. لكن كل المؤشرات كانت تؤكد أنها سوف تفكر، أقله بدل المرّة ثلاث، قبل أن تعزم التدخل وذلك لأنها كانت خارجة من فورها من مستنقع فييتنام وفضيحة ووترغيت، ولأن رئيسها كان يفنّد ظهيراً شعبياً، ولأن مخابراتها كانت واقعة

تحت مساءلة الكونغرس وتعاني تدهور صورتها أمام الرأي العام الأميركي، ولأنه كان يتحتم عليها فوق ذلك كله ألا تظهر بمظهر المتحالف مع إفريقيا الجنوبية العنصرية لا خشية من اهتزاز صورتها أمام البلدان الإفريقية فقط، بل أمام المواطنين السود داخل الولايات المتحدة نفسها، وأخيراً، لأنها كانت تمر بموسم انتخابات رئاسية وعام الاحتفال بالمئوية الثانية لإعلان استقلالها عن بريطانيا.

أما الكوبيون من جانبهم فكانوا واثقين من حصولهم على مساعدة الاتحاد السوفياتي ودعمه وبلدان اشتراكية أخرى. لكنهم كانوا أيضاً مدركين العواقب التي قد تنشأ عن عملياتهم في أنغولا فتؤثر في التعايش السلمي والاستقرار العالميين، وهي عواقب قد لا يمكن تداركها إن هم اتخذوا قرار تنفيذ تلك العملية. ومن ثم، كان القرار يشكل معضلة شديدة التعقيد لا يمكن البت بشأنها بين ليلة وضحاها. لكن، واقع الأمر، أنه لم يكن أمام الأمانة العامة للحزب الشيوعي الكوبي بالفعل سوى أربع وعشرين ساعة كي تبت في أمر ذلك القرار. وما كان منها، بعد اجتماع مطول مهيب، إلا أن اتخذت القرار دون تردد في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر. وعلى العكس مما أشيع آنذاك، كانت تلك الخطوة تعكس قراراً كوبياً مستقلاً وسيادياً مما يفسر عدم إخطار الاتحاد السوفياتي بالقرار سوى بعد اتخاذه.

ولعله جدير بالذكر في هذا السياق أنه في الماضي البعيد، في عام 1854 تحديداً، وفي تاريخ مماثل، أي يوم الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر، قامت امرأة عرفت باسم كارلوتا السوداء بالخروج على رأس نفر من عبيد تريوفيراتو في منطقة ماتانثاس لإحداث انقلاب لقيت خلاله مصرعها. ومن هنا جاءت تسمية عملية تدخل كوبا في أنغولا بعملية «كارلوتا».

بدء العملية

بدأت عملية كارلوتا بإرسال كتيبة من القوات الخاصة قوامها ست مئة وخمسون رجلاً، تم تسفيرهم في رحلات جوية متتالية على مدى ثلاثة عشر يوماً من الجناح العسكري بمطار خوسيه مارتى في مدينة هافانا إلى مطار لواندا الذي لم يكن آنذاك قد تحرر بعد من سيطرة القوات البرتغالية. كانت مهمة هؤلاء الرجال الأساسية هي التصدي أولاً لأي محاولة لإسقاط عاصمة أنغولا في قبضة القوات المعادية قبل رحيل البرتغاليين، وثانياً دعم المقاومة حتى تأتي بحراً بقية التعزيزات من كوبا. وكان هؤلاء الرجال المنوط بهم تلك المهمة، خصوصاً من سارع منهم في

السفر على الرحلتين الأوليين، يشعرون بأن الوقت لم يكن في صالحهم وبأن الأوان قد يكون قد فات لإنقاذ أي منطقة أخرى سوى كابيندا. ولقد خرجت الدفعة الأولى من هؤلاء الرجال في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر في تمام الرابعة عصراً في رحلة خاصة تابعة للخطوط الجوية الكويتية على متن طائرة من طراز «بريستول بريتانكا ب ب 218» المروحية التي كان قد توقف مصنعوها البريطانيون عن إنتاجها وتوقفوا تماماً عن استخدامها. ولقد التزم ركاب الرحلة- الذين لم يرغب عن بالهم للحظة تشابه عددهم الاثنتين والثمانين مع عدد رجال الثورة الكويتية الذين ركبوا يخت «الغرانما» مع كاسترو- بالظهور بمظهر السائحين، فارتدى بعضهم ملابس رياضية تكشف عن بشرتهم التي لفحتها شمس الكاريبي، بينما ارتدى البعض الآخر ملابس صيفية مدنية وحمل حقائب عمل غير لافتة للنظر وجوازات سفر عادية تحمل أسماءهم وهوياتهم الحقيقية. ولقد كان أعضاء كتبية القوات الخاصة تابعين لوزارة الداخلية لا للجيش، وكانوا محاربين أكفاء، على مستوى ثقافي وإدراك سياسي عاليين، حاملين شهادات أكاديمية راقية، وقراء نهمين وشغوفين بالمعرفة، لذا لم تكن مسألة تخفيهم في ذلك المظهر المدني غريبة عليهم البتة. وبالطبع لم يكن ذلك التخفي سوى تمويه، فقد كانت الأسلحة مخبأة داخل حقائبهم. وبدلاً من امتلاء بطن الطائرة بأمثلة تقليدية، احتوى هو الآخر على أنواع مختلفة من السلاح اللازم للحرب ومنه مثلاً ثلاثة مدافع وثلاث قذائف هاون. وخصص بابان جانبيان في الطائرة لإنزال الأسلحة من كابينة المسافرين في حالة الطوارئ، ولعل ذلك كان التعديل الوحيد الذي أدخل على الطائرة التي قام على خدمتها طاقم عادي مكون من مضيفتين.

رحلات جوية خطيرة

اضطرت الطائرة للهبوط وسط عاصفة استوائية في مدينة بربادوس للتزود بالوقود مما قطع مسار الرحلة الجوية من هافانا إلى لواندا، ثم اضطرت للهبوط مجدداً ولمدة خمس ساعات في غينيا بيساو حتى يحل الظلام كي تتمكن من التحليق سراً صوب برازافيل. ولقد حاول الكوبيون استغلال تلك الساعات الخمس لنيل قسط من النوم، إلا أن هذا الجزء من الرحلة صار أكثر أجزائها رعباً لامتلاء المطار بالناموس حتى تلطخت ملابسهم ومتاعهم بالدماء لفرط ما لدغهم.

وكان موبوتو قد صرّح ذات مرة بعنجهيته الخطابية المعهودة أنّ أضواء مدينة برازافيل ليست سوى انعكاس لأضواء مدينة كينشاسا -عاصمة زائير- عليها. ولم يجانبه الصواب في ذلك، فقد كانت المدينتان متقابلتين يفصل بينهما نهر الكونغو، وكان مطاراهما متقاربين جداً مما ألزم

الطيارين الكوبيين مزيداً من الحذر كي لا يهبطوا بالطائرة على الممرات الجوية داخل أراضي العدو، فسارعوا إلى إطفاء أنوار الطائرة كي لا يتم رصدتهم من الضفة الأخرى، وبالكاد مكثوا في برازافيل الوقت الذي لزمهم كي يستطلعوا الأوضاع في أنغولا عبر الراديو. أما القائد شيبيتو الذي كانت تربطه علاقة طيبة بالمفوض البرتغالي فقد تمكن من استصدار موافقة الأخير على هبوط الكوبيين بطائرتهم في لواندا، فهبطوا في الساعة العاشرة من ليلة الثامن من تشرين الثاني/نوفمبر، وسط ظروف جوية سيئة، ودون مساعدة أي من أبراج المراقبة. ووصلت بعدهم بفاصل خمس عشرة دقيقة فقط طائرة أخرى آتية من كوبا. وفي اللحظة ذاتها كانت ثلاث سفن بصدد الإبحار من كوبا محملة بالمدفعية الثقيلة ومعدات عسكرية، وكان من المزمع وصولها إلى أنغولا في السابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر. وفي تلك اللحظة نفسها أيضاً، في أنغولا، كانت قوات هولدن روبرتو تواصل عدوانها الغاشم الذي تسبب من ضمن ما تسبب به في إصابة عجز من أهالي البلاد الأصليين أثناء محاولة القوات الوصول إلى ثكنة الـ «گران فارني» حيث تمركز الكوبيون الذين سارعوا من فورهم إلى ارتداء حللهم الزيتونية وخوض المعركة إلى جانب قوات جبهة تحرير أنغولا. لكن ظلت الصحافة الكوبية، من باب الحيطة الأمنية، تؤثر عدم نشر شيء عن تطور العملية في أنغولا، إلا أنه على غرار العادة في كوبا، حتى فيما يتعلق بأشد المسائل العسكرية حيوية، ظلت العملية سرّاً يكتمه ثمانية ملايين مواطن كوبي بحرص شديد. وعلى ضوء كل ما تقدم، صار هناك بُعدٌ جديد لمؤتمر الحزب الشيوعي الذي كان على وشك الانعقاد في الأسابيع القليلة التالية وسط ترقب جماهيري كبير.

كيف تم التجنيد

اعتمدت خطة تشكيل وحدات المقاتلين الذين سوف يرسلون إلى أنغولا على استدعاء قوات الخط الاحتياطي الأول التي تشمل الذكور من سن سبعة عشر إلى سن الخامسة وعشرين عاماً، وكذلك القوات التابعة للجيش الثوري. وقد أخطر هؤلاء تلغرافياً من أجل المثل أمام اللجان العسكرية التابعين لها دونما توضيح سبب الاستدعاء. لكن السبب كان جلياً لدرجة أن كل من وجد في نفسه القدرة على القتال سارع للمثل أمام اللجنة التابع لها دونما الانتظار حتى لتسلم أي إخطار تلغرافي مما شكل عبئاً تنظيمياً على السلطات لمحاولة الحيلولة دون تحوّل ذلك الإقبال المكثف إلى فوضى قومية عارمة، فاضطرت اللجان للالتزام بمعايير صارمة قدر المستطاع في اختيارها للمتطوعين فلم تأخذ في الاعتبار الخبرة العسكرية والاستعداد الجسماني والنفسي للمتقدم

فقط، بل نظرت أيضاً إلى نوعية الأنشطة الأخرى التي قام بها في السابق وإلى تكوينه السياسي. لكن رغم صرامة المعايير إلا أن الكثيرين نجحوا في الالتفاف حولها. فعلى سبيل المثال، هناك مهندس ادعى أنه سائق شاحنات كي يتم قبوله، وهناك موظف مرموق ادعى أنه ميكانيكي، وهناك سيدة تنكرت في زي رجل كي تقبل. وهناك فتى تطوع دون إذن من والده، ثم بعد أن ذهب إلى أنغولا صادف والده الذي كان قد تطوع هو الآخر دون علم الأسرة. وهناك نقيب شرطة في العشرين من العمر فشل في إقناع السلطات بإرساله، ثم اضطر لاحقاً إلى مقاومة كبريائه الرجولية الجريئة كي يتقبل وقوع اختيار اللجنة على والدته، الصحافية، وخطيبته، الطيبية. ولقد طالب بعض المحكوم عليهم بالسجن السماح لهم بالتطوع في أنغولا لكن لم يتجشم أحد عناء النظر إلي مطلبهم. ويذكر أيضاً، أن أولى النساء اللاتي أُقبلن على التطوع، وكان ذلك في بداية شهر كانون الأول/ديسمبر، كان قد رُفِضَ طلبها غير مرّة بحجة «أن المهمة صعبة جداً على المرأة». لكنها كانت مصممة على الذهاب حتى لو تطلب الأمر أن تختبئ داخل أي من السفن المتجهة إلى أنغولا، وكانت قد شرعت بالفعل في وضع أمتعتها في قبو إحدى السفن بمساعدة أحد رفقائها، وكان يعمل مصوراً فوتوغرافياً، عندما جاءها نبأ اختيارها بصورة قانونية للذهاب إلى أنغولا على متن طائرة وليس سفينة. كان اسمها استير ليليا ديباث رودريغيث، وكانت قد عملت مُدرّسة مدة ثلاث وعشرين سنة والتحقّت بالقوات المسلحة في العام 1969، وكانت لها خبرة في مهارات سلاح المشاة. وتصادف أن ثلاثة من إخوانها: ثيذار وروبين وإرينيدلو ذهبوا هم أيضاً إلى أنغولا ولكن كلّ ذهب من طريق لكنهم جميعاً جاءوا الأم بنفس الحجة ألا وهي اضطرارهم للذهاب إلى منطقة كاماغواي للقيام بمناورات حربية بمناسبة المؤتمر الوشيك للحزب الشيوعي. وعاد الأربعة فيما بعد سالمين من أنغولا وكانت الأم فخورة بما أنجزوه هناك إلا أنها لم تغفر لهم قط كذبهم عليها.

انتصار أنغولا

من خلال حواراتي مع العائدين من أنغولا تبين لي أن بعضهم ودَّ الذهاب إلى هناك لمختلف الأسباب الشخصية حتى إن أحدهم، على سبيل المثال، خرج من باب الفرار من البلاد ثم ما لبث أن اختطف طائرة وطلب حق اللجوء إلى لشبونة. لكن لم يذهب أحدٌ قسراً، فقد وقّع الجميع على إقرار بالتطوع قبل المغادرة. وكان مصير كل من رفض الذهاب بعدما تم اختياره للمهمة أن تعرض فيما بعد لكل أنواع التهكم والاستهزاء على المستويين العام والخاص. لكن الغالبية العظمى ذهبت إلى أنغولا عن قناعة تامة بوجود المشاركة من باب التضامن السياسي وانطلاقاً من

الإيمان والشجاعة نفسيهما اللذين تصدى بهما الكوبيون لمحاولات إنزال الجيوش عند شاطئ خيرون قبل خمسة عشر عاماً مضت. ومن ثم يجوز القول بأن عملية كارلوتا لم تكن مجرد عملية إرسال لمجموعة من المقاتلين في مهمة عسكرية بل كانت حرباً شعبية.

أما عملية نقل الموارد البشرية والمادية من كوبا إلى أنغولا فكانت ملحمة حقيقية استغرقت تسعة أشهر. فكانت رحلات الطيران تتم من دون توقف رغم اعتمادها على محركات متهاكة من طراز «بريطانيا» تمّ تحديثها بواسطة تزويدها بفرامل طراز إيليوشين 18 السوفياتية. ولم تكن الحمولة المسموح بها لتلك الطائرات تزيد عن مئة وخمسة وثمانين ألف رطل غالباً، ورغم ذلك فقد كانت كثيراً ما تقلع بحمولة تقدر بمئة وأربعة وتسعين ألف رطل، مما شكل خرقاً للأرقام القياسية المسجلة لذلك النوع من الطائرات. أما قادة الطائرات الذين عادة ما تبلغ ساعات تحليقهم حوالى خمس وستين ساعة شهرياً، فقد تمكنوا من الطيران لأكثر من مئتي ساعة. فضلاً عن ذلك، كان هناك طاقمان من المضيفين الجويين يتناوبان على خدمة كل رحلة من الرحلات على متن الطائرات المذكورة. وسُجِّلَت واقعة لأحد الطيارين ظلّ ماکثاً على مقعده داخل الطائرة بين رحلات الذهاب والإياب لمدة خمسين ساعة متواصلة منها ثلاث وأربعون ساعة تحليق فعلية. ولقد علق هذا الطيار لاحقاً، دونما ادعاء أية بطولة، بقوله: إن «هناك لحظات يبلغ الإنسان فيها قمة الإنهاك فلا يعود يشعر بعد ذلك بأي إنهاك إضافي». وبالتالي، طالما كان الطيارون والمضيفون يفقدون الشعور بالتوقيت الفعلي فيستدلون عليه من خلال حاجات جسدكم الطبيعية: فكانوا يأكلون فقط عندما يشعرون بالجوع وينامون فقط إذا شعروا بالنعاس.

كان خط الرحلة الجوية من هافانا إلى لواندا محفوفاً بالمخاطر، فقد كانت المعلومات عن سرعة الرياح غير متاحة على أجهزة ذلك الطراز من الطائرات نظراً للارتفاعات التي كانت تحلق عليها والتي كانت تراوح بين ثمانية عشر ألفاً وعشرين ألف قدم. وكان الطيارون يحلقون على مستويات ارتفاع غير مسموح بها من أجل توفير الوقود، وكانوا يعتمدون على تخمينهم للحالة الجوية أثناء طيرانهم، وطالما جهلوا الظروف الجوية التي سيجابهونها عند وصولهم إلى وجهتهم. أما أكثر أجزاء تلك الرحلة الجوية خطورة فكانت المسافة التي تقطعها الطائرة بين برازافيل ولواندا وذلك لعدم توافر مطار بديل يسمح بهبوطها في حالات الطوارئ. لكن الأدهى من كل ذلك كان قرار العسكريين في حمل أسلحة ومتفجرات وصواريخ خارج الصناديق المخصصة لها بحجة تقادي زيادة حمولة الطائرات.

أما الولايات المتحدة ففي إطار خططها لإجهاض المهمة فقد قامت باستغلال أكثر نقاط تلك الطائرات ضعفاً أي محدودية سعة خزانات الوقود فيها ما يحول عادة دون قدرتها على الطيران المتصل لفترات طويلة، ومن ثم أجبرت الولايات المتحدة حكومة باربادوس على منع تلك الطائرات من الهبوط للتزود بالوقود. فما كان من الكوبيين أمام هذا التحدي إلا أن قاموا بتغيير مسار الطيران فصارت الرحلة عبر المحيط تبدأ من أولغين في أقصى شرق كوبا وصولاً إلى جزيرة صال في ساحل العاج مما شكل مخاطرة رهيبة لأن الطائرات كانت تصل في أعقاب رحلات الذهاب بمخزون من الوقود بالكاد يكفيها ساعتين آخرين، بينما كان مخزون الوقود المتوافر خلال رحلات العودة بالكاد يكفي ساعة إضافية نتيجة لاتجاه الرياح المعاكس. ثم اضطر الكوبيون فيما بعد إلى التحول عن ذلك الطريق ذي المخاطرة العالية لا شيء سوى لتفادي الهبوط في ساحل العاج، فلجأوا في المقابل إلى حمل أربعة خزانات وقود إضافية داخل كابينة الطائرة وإلغاء ثلاثين مقعداً مخصصاً للمسافرين في كل رحلة من تلك الرحلات. ولم يكن الهبوط في غوايانا بدوره بديلاً مناسباً لأن شركة تكساكو، وهي الشركة المستخرجة للبترول في غوايانا، كانت ترفض أن تبيع الوقود للكوبيين. ولقد حاولت كوبا الالتفاف حول هذا الوضع عن طريق إرسالها سفينة محملة بالوقود إلى غوايانا غير أنها تعرضت لحادث غير مفهوم أدى إلى تلوث حمولتها بالماء والرمل. وفي خضم كل تلك المحاولات، التزمت غوايانا بتضامنها مع كوبا حتى اضطر سفير الولايات المتحدة بنفسه إلى تهديدها بقصف مطار جورج تاون هناك وتدميره. أما عمليات صيانة الطائرات فكانت تنجز في أقل من منتصف الوقت الذي تستلزمه عادةً. وقد تكون هناك روايات عن طيارين اضطروا للطيران مرات عديدة على تلك الرحلات دون توافر أجهزة رادار، لكن أياً منهم لم يذكر أنه قد واجه مشاكل فنية مستعصية. لذا فبحلول نهاية تلك الحرب، ورغم كل تلك الظروف العجيبة، تمكن الطيارون الكوبيون من إتمام إجمالي مئة رحلة وواحدة بين كوبا وأنغولا.

ولم تكن تجربة كوبا في نقل الموارد البشرية والمعدات إلى أنغولا عن طريق البحر أقل صعوبة. فقد اعتمدت في ذلك على سفينتي الركاب الوحيدتين المتاحتين والتي اتسعت كل منهما لحمولة أربعة آلاف طن. وقد حولت كل المساحات داخل تلك السفن إلى غرف للنوم، كما حولت قاعات الترفيه والمطاعم والممرات إلى حمامات. وكان عدد المسافرين في بعض الرحلات على كل واحدة من السفن الثلاث يبلغ أضعاف العدد المسموح به أي ستة وعشرين ألفاً عادةً. أما سفن الشحن التي لم تكن طاقتها تتحمل أكثر من ثمانين مسافراً، فقد اضطرت إلى حمل ألف مسافر في المرة الواحدة، إضافة إلى عربات مصفحة وأسلحة ومتفجرات، كما حولت أقيبتها وصالوناتها إلى

مطابخ. ومن باب ترشيد استهلاك الماء، استُخدِمت الأطباق البلاستيكية وعلب الزبادي بدلاً من أكواب الشرب الزجاجية، واستُخدِمت البراميل كأحواض للاغتسال، وُخِصَّت مساحة على سطح السفينة تسع خمسين وحدة حمام كانت تفرغ محتواها من الصرف في البحر مباشرة. وفي غضون ستة أشهر فقط، بدأت تظهر أعراض التهاك على ماكينات المراكب الأكثر قدمًا. ولعله كان الشيء الوحيد الذي استاءت منه أوائل مجموعات العائدين إلى كوبا والذين تأخرت عودتهم بضعة أيام من جراء انسداد أنابيب التنقية في «فيتنام هيرويكو». فأدى هذا العطل إلى تعطيل رحلات العودة التالية مما دفع بأحد المسافرين للانتباه إلى مغزى قول مأثور عن تشيه غيفارا مفاده أن تقدم أي كتيبة يعتمد على خطوات أبطأ أفرادها. كانت مثل تلك المعوقات تبدو عظيمة في حينها خصوصًا وأن السفن الكوبية كانت تتعرض لجميع أنواع الاستقرازات على يد مدمرات أميركية كانت تحاصرها أياماً متواصلة أو على يد طائرات حربية ترصدها وتتعبها بالتحليق على ارتفاعات منخفضة.

ورغم الظروف الصعبة التي اكتنفت تلك الرحلات التي كانت تستغرق عشرين يوماً تقريباً إلا أن أي منها لم يواجه أية مشكلة صحية خطيرة. فخلال الاثنتين وأربعين رحلة التي امتدت على مدار أشهر الحرب الستة، لم تحتج الفرق الطبية الموجودة على ظهر تلك السفن سوى إلى إجراء عملية استئصال زائدة دودية وأخرى لحالة بواسير، واضطروا مرّة واحدة فقط إلى مداواة حالة إسهال حادة تسببت فيها وجبة لحوم معلبة. أما الداء الذي استشرى بين المسافرين وتعذرت مداواته فكان ميلهم الشديد جميعاً إلى مواصلة القتال في أنغولا. حتى أن أحدهم، وكان ضابطاً احتياطياً، ارتدى حلته الزيتية واندس وسط صفوف الجيش ونجح في التسلل إلى أنغولا، وقد صار فيما بعد أحد أفضل الضباط الذين ذاع صيتهم أثناء تلك الحرب.

من ناحية أخرى، كانت المساعدات السوفياتية الواردة عبر عدة قنوات تقتضي دوماً وجود أفراد مؤهلين لتدريب المقاتلين على استخدام الأسلحة الجديدة والمعدات المعقدة التي كان الأنغوليون مازالوا حديثي عهد بها. ولقد حضر رئيس أركان حرب كوبا بنفسه إلى أنغولا في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر. حينذاك بدا كل شيء رائعاً عدا أن يخسروا الحرب.

الخسارة المحتملة

لكن واقع الأمر كان ينبىء باحتمالية خسارتهم لتلك الحرب. وتأزمت الحال بشدة خلال شهر كانون الأول/ديسمبر حتى أنهم بدأوا يدرسون إمكانية التحصن في منطقة كابيندا ثم تأمين جزء من الشاطئ قرب لواندا تمهيداً لإخلاء القوات. وللأسف لاحت تلك الاحتمالية في وقت كان هو الأسوأ سواء بالنسبة إلى الكوبيين أو الأنغوليين. فمن جانبهم، كان الكوبيون يستعدون لأولى الجولات الانتخابية بين السابع عشر والرابع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، وكان قادة الحزب الحاكم يعرفون أن فشل العملية العسكرية في أنغولا يعني ضربة سياسية في مقتل بالنسبة إليهم. أما الأنغوليون فكانوا يستعدون من ناحيتهم لمؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية الذي عقدوا عليه الآمال لاستقطاب بقية الدول الإفريقية في صفهم.

وقد تأزمت الحال في شهر كانون الأول/ديسمبر:

أولاً، بسبب التفوق العسكري الضخم الذي أظهره العدو بعد حصوله على دعم عسكري تفوق قيمته على الخمسين مليون دولار من الولايات المتحدة؛

ثانياً، بسبب تأخر أنغولا في طلب المساعدة من كوبا والبطء القسري في نقل العتاد والمعونة بين البلدين؛

ثالثاً، بسبب الظروف البائسة والتخلف الثقافي الذي خلفه الاستعمار الغاشم في أنغولا على مدى خمس مئة عام. ولعلّ هذا العامل الأخير هو أكثر ما زاد من صعوبة الاندماج بين المحاربين الكوبيين وأفراد الشعب المسلح من الأنغوليين. فقد وجد الكوبيون أنفسهم أمام ظروف مناخية مماثلة لما عرفوه في بلادهم، وطبيعة مماثلة، وأمطار طوفانية مشابهة، وأوقات غروب رعديّة يمتزج فيها عبير العشب برائحة الزواحف تماماً كما هو الحال في كوبا. بل واكتشفوا أنهم كانوا يشبهون الأنغوليين كثيراً وطالما مزحوا بأنه لا سبيل للتمييز بين كوبي وأنغولي إلا بلمس أرنبة الأنف بما أن غضروفها يكون أطرى نتيجة للطريقة التي تحمل بها الأمهات أبناءهن الرضع بطريقة تؤدي إلى سحق أنوفهم في ظهورهن.

كان المستعمرون البرتغاليون، ولعلهم من أكثر المستعمرين طمعاً وبخلاً في التاريخ، قد شيّدوا مدناً حديثةً وجميلةً ليعيشوا فيها إلى الأبد، فيها مباني مكسوة بزجاج حراري ومحال كبيرة ذات إعلانات ضخمة. وكانت جميعها مدناً مخصصة للبيض على غرار تلك التي شيدها الأميركيون حول مدينة هافانا القديمة فيشاهدها باندهاش الفلاحون الذين يهبطون لأول مرة من الجبال نحو الحضر. فتحت تلك القشرة الحضارية كان يرقد بلد كبير شديد البؤس. فمستوى معيشة

أهل البلاد الأصليين كانت الأقل على مستوى العالم. وكان معدل الأمية يربو على التسعين بالمئة، وكانت الظروف الثقافية أشبه بالعصور الحجرية. حتى في المدن الصغيرة، كان الرجال وحدهم هم من يتكلمون البرتغالية، وكان أحدهم يجمع بين سبع زوجات في الدار الواحدة. وكان انتشار الشعوذة والرجعية يشكل خطراً على مسار الحياة اليومية، بل وعلى مسار الحرب أيضاً. فقد كان الأنغوليون على قناعة بأن لدى البيض مناعة ضد الرصاص. وكانوا يهرعون خوفاً من الطائرات ويرفضون النزول للقتال في المخابئ لاعتقادهم بأن الأماكن الشبيهة بالقبور هي للموتى فقط. والحقيقة إن تشي غيثارا كان قد سبق ورأى في الكونغو المقاتلين يتبعون تقاليد معينة ظناً بأنها تحميهم من أهوال القتال فيعلقون العقود والسلاسل على المدافع والأسلحة ويغطون وجوههم بالألوان. وقد أولع تماماً بهذه الطقوس حتى أنه عكف على دراسة الثقافة الإفريقية واللغة السواحيلية حتى يتمكن من التأثير في تلك الشعوب من الداخل إيماناً منه بأن هناك قوة جبارة داخل الوعي البشري لا يمكن هزيمتها بالأسلحة ألا وهي الاستعمار الثقافي.

مهمة الأطباء

كانت الظروف الصحية متردية كثيراً بطبيعة الحال. ففي سان بدرو دي كوتا، اضطر الكوبيون للجوء إلى القوة لانتزاع طفل من أهله بعد تعرضه لحروق هائلة من جراء سقوط ماء مغلي عليه، لأن أهله كانوا يلزمون جانبه دون فعل شيء ظناً منهم بأنه لا أمل في إنقاذه. كما اضطر الأطباء الكوبيون للتعامل مع أمراض لم يعلموا عنها شيئاً من قبل. وجدير بالذكر أنه إبان الحكم البرتغالي في أنغولا، كان هناك تسعون طبيباً، أغلبهم في العاصمة، يقومون على خدمة ستة ملايين نسمة. وعندما رحل البرتغاليون عن أنغولا أصبح إجمالي عدد الأطباء ثلاثين فقط لدرجة أنه عندما وصل أحد أطباء الأطفال الكوبيين إلى مدينة بويرتو آمبويم رأى بعينه خمسة أطفال يموتون أمامه دفعة واحدة دون أن يستطيع هو أن يفعل شيئاً نتيجة نقص الموارد اللازمة، فكانت تجربة مريرة بالنسبة إلى طبيب مثله يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر يأتي من بلد فيه واحد من أقل معدلات وفيات الأطفال في العالم. لكن جدير بالذكر في المقابل، أن حركة تحرير أنغولا الـ MPLA ، خلال سني صراعها الطويل ضد الاستعمار البرتغالي، اجتهدت في استئصال البدائية مما مكّنها من إحراز النصر في النهاية. وكان جهدها في المناطق المحررة ينصب على رفع مستوى الوعي السياسي والثقافي للمواطنين، ومكافحة القبلية والتمييز العنصري، ودعم مجانية التعليم والرعاية الصحية. فكانت تلك هي نواة المجتمع الجديد.

حرب كبرى

لكن كل الجهود المتميزة التي بذلتها حركة تحرير أنغولا لم تعد تجدي عندما تحولت حرب الشوارع إلى حرب كبرى ذات تقنية عالية، فعندئذ لم يعد من الممكن مواصلة الاعتماد على ذوي الخبرة العسكرية والسياسية وحدهم، بل صار لازماً استدعاء جميع أفراد الشعب. فقد كانت حرباً ضرورياً لزم فيها توخي الحذر من خطر المرتزقة والمدافع بقدر توخي من خطر الثعابين والوحوش المفترسة. والأمثلة على ذلك كثيرة. فأتثناء إحدى المعارك، وقع ضابط كوبي في فخ كان قد نُصِبَ للأفيال. كما شعر الكوبيون مراراً، ولاسيما في كابيندا، بتعمد الأفارقة كشف مواقعهم للعدو عن طريق شفرة دقات الطبول التي كانت تسمع على مسافة خمسة وثلاثين كيلومتراً، وذلك لأن الأفارقة السود الذين جُبلوا على كراهية البرتغاليين كانوا في بادئ الأمر شديدي العداء للكوبيين البيض. ومن ضمن الأمثلة أيضاً، ما كان يفعله العسكريون البيض التابعون لجنوب إفريقيا، والذين كانوا يقصفون سيارات الإسعاف بمدافع 140، حيث كانوا يتعمدون إحداث ستاراً من الدخان في ساحة المعركة كي يتمكنوا من سحب جثث قتلاهم من البيض، تاركين جثث السود فريسة للطيور الجارحة. بل ويحكى أنه في منزل أحد قادة «أونيتا»، الذي كان يعيش منعماً ومحتماً وراء ستار وظيفته، عثر رجال حركة تحرير أنغولا داخل إحدى الثلاجات على بقايا أمعاء ودماء مجمدة لأسرى الحرب الذين كان قد التهمهم أتباع «أونيتا».

الأخبار السيئة

كانت الأنباء الواردة إلى كوبا جميعها سيئة. ففي الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر، في هنغو، حيث كانت هناك عملية هجوم من قبل القوات المسلحة الشعبية لتحرير أنغولا ضد الغزاة من جنوب إفريقيا، دخلت إحدى العربات المصفحة الكوبية التي كانت تقل أربعة من القادة إلى طريق كان خبراء الألغام قد حذروا من خطورته. ورغم مرور أربع عربات سابقة عبر هذا الطريق بسلام، إلا أن الخبراء حذروا العربة المصفحة من المرور فيه لاسيما وأنه لا جدوى منه سوى توفير بضع دقائق فقط. فما كان من العربة فور مرورها عليه إلا أن طارت في الهواء من جراء الانفجار. فأصيب اثنان من قادة الكتائب الحربية الخاصة إصابات بالغة. بينما لقي راؤول ديث آرغوبيس، القائد العام للعمليات الدولية في أنغولا، وأحد أكثر الشخصيات المحبوبة في كوبا، حتفه في الحادث الذي كان من أكثر الأخبار مرارة بالنسبة إلى الكوبيين، لكنه لم يكن الخبر الأسوأ

خلال تلك الفترة العاصفة. ففي اليوم التالي وقعت كارثة كاتوف التي ربما تعد أكبر نكسات تلك الحرب على الإطلاق. وقد وقعت على النحو الآتي: نجحت كتيبة من مقاتلي جنوب إفريقيا في إصلاح أحد الجسور المقامة فوق نهر نهيا ثم عبرته من فورها متسترة بضباب الصباح وفاجأت كتيبة تأمين الدفاع الاستراتيجي الكوبية. وبتحليل أسباب تلك النكسة لاحقاً، تبين أن اللوم يقع على عاتق الجانب الكوبي. غير أن أحد الخبراء العسكريين، وكان ممن شاركوا في الحرب العالمية الثانية، رأى أن هذا التحليل قاسٍ جداً وأسراً لأحد القادة الكوبيين الكبار بقوله: «هذا ليس سوى خطأ طبيعي طالما يحدث في الحرب»، لكنه ظلّ بالنسبة إلى الكوبيين خطأً حربياً فادحاً وقع قبل خمسة أيام فقط من موعد انعقاد مؤتمر الحزب الذي يسبق الانتخابات.

إدارة فيدل

كان فيدل كاسترو يتابع بنفسه أدق تفاصيل هذه الحرب، فقد حرص على حضور مراسم وداع كل السفن المرسلة من كوبا إلى أنغولا، كما اعتاد الاجتماع في مسرح لاكابانيا بجميع المقاتلين قبل رحيلهم. كذلك حرص على الذهاب بنفسه لإحضار قادة القوات الخاصة، وهم الذين استقلوا أولى الرحلات الجوية إلى هناك، وكان يقلهم حتى سلم الطائرة في سيارته الخاصة السوفياتية الصنع. ولعله في تلك اللحظة. وأثناء كل مراسم التوديع تلك، كان فيدل كاسترو يحاول السيطرة على شعوره الدفين بالحسد تجاه من يذهبون إلى حرب لا يستطيع هو الذهاب إليها. في تلك الفترة، لم يكن هناك مكان واحد على خريطة أنغولا إلا استطاع كاسترو تحديده، ولم يكن هناك شيء يحدث في تلك الحرب إلا وله دراية به. فقد كان تركيزه في تلك الحرب شديداً ودقيقاً بحيث كان بوسعه أن يحدد أي معلومة خاصة بأنغولا كما يفعل فيما يخص كوبا، فقد كان عليماً بمدنها وعاداتها وشعبها كأنما عاش فيها طيلة حياته. وفي بداية الحرب، عندما كان الوضع متأزماً، كان فيدل كاسترو يمضي ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة متواصلة في غرفة قيادة العمليات، أحياناً دون أكل أو شرب، لفرط اندماجه مع الأحداث. وكان يحاكي ما يحدث على أرض المعركة محركاً العساكر الملونة على الخرائط الدقيقة التي كانت تمتد بعرض الحائط ومحاولاً توقع تحركات العدو التالية، وكانت تعليقاته حتى في أحلك اللحظات تنم عن ثقته بالنصر. فعلى سبيل المثال، كانت إحدى الوحدات المقاتلة التابعة لحركة تحرير أنغولا الـ MPLA قد أُجبرت على نسف أحد الجسور كي تعوق تقدم العربات المصفحة التابعة لجنوب إفريقيا. فما كان من فيدل كاسترو إلا أن بعث إليهم برسالة ناصحاً: «لا تنسفوا جسوراً أخرى كي لا تجدوا أنفسكم فيما بعد

عاجزين عن تعقب العدو». وكان على حق. ففي الأسبوع اللاحق، تعين على الكتائب الأنغولية والكوبية البدء بإصلاح ثلاثة عشر جسراً في فترة عشرين يوماً كي تتمكن من تعقب الغزاة أثناء فرارهم.

اعتراف رسمي

أثناء مراسم ختام المؤتمر الحزبي في الثاني والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، اعترفت كوبا رسمياً للمرة الأولى بوجود قوات تابعة لها في أنغولا. ورغم أن مصير الحرب لم يكن قد تحدد بعد، كشف فيدل كاسترو في خطاب الختام أنه تم سحق غزاة كابيندا في اثنتين وسبعين ساعة فقط، كما أجبرت قوات هولدن روبرتو في الشمال على التقهقر إلى مسافة تربو على المئة كيلومتر بعيداً عن لواندا بعد أن كانت قد تمكنت في التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر من الوقوف على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً فقط من العاصمة، كذلك تم إجبار الكتائب المصفحة لإفريقيا الجنوبية على التقهقرون رجعة إلى مسافة مئتي كيلومتر بعيداً عن لواندا بعد أن كانت قد نجحت في أقل من عشرين يوماً في التقدم مسافة ست مئة كيلومتر نحو العاصمة. وبالطبع كانت كل تلك المعلومات قوية ومطمئنة إلا أنها لم تكن تعني بعد أن النصر قد تحقق.

أما الأنغوليون فكان حظهم أوفر خلال مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية المنعقد في أديس أبابا. فقبل انعقاده بعدة أيام، تمكنت القوات بقيادة القائد الكوبي فيكتور شويغ كولاس، ذلك الرجل الأسود الضخم الذي كان قبل الثورة يعمل ميكانيكي سيارات، من طرد هولدن روبرتو من عاصمته المغتصبة في كرمونا واحتلال المدينة، ثم استولت في غضون الساعات القليلة التالية على قاعدة نيجاجي الحربية. وكانت المساعدات الكوبية تتوالى على أنغولا في تلك الفترة، فعلى سبيل المثال، وصلت في أوائل شهر كانون الثاني/يناير خمس عشرة سفينة دفعة واحدة إلى لواندا آتية من كوبا، مما مكن قوات جبهة تحرير أنغولا الـ MPLA من شن هجوم متواصل على جميع الجبهات كان من شأنه قلب الموقف لصالحها بشكل نهائي، لدرجة أنه بحلول منتصف شهر كانون الثاني/يناير كانت قد بدأت هجومها على الجبهة الجنوبية رغم أنه لم يكن من المزمع الشروع في الهجوم على تلك الجبهة قبل شهر نيسان/إبريل. أما بالنسبة إلى سلاح الطيران، فعلى العكس من جنوب إفريقيا التي امتلكت طائرات من طراز كانبرا وزائير التي امتلكت طرازي ميراج وفيات، لم يكن لأنغولا أسطول جوي لأن البرتغاليين دمروا جميع القواعد الجوية قبل رحيلهم، ومن ثم لم تحتكم أنغولا سوى على بضع طائرات قديمة من طراز دي سي 3 تمكن الطيارون الكوبيون من

تشغيلها وكانوا إذا استخدموها ليلاً في نقل الجرحى اضطروا للهبوط بها على ممرات شبه مضاءة بشكل بدائي فتعلق بعجلات الطائرة جذوع أشجار الغابات ونباتاتها. لكن، في فترة ما أثناء الحرب، حصلت أنغولا على سرب طائرات من طراز ميغ 17 يفوق كلاً منها طيار كوبي، إلا أن استخدام تلك الطائرات اقتصر على خدمة كبار القادة العسكريين أو على الدفاع عن لواندا فقط.

وفي مطلع شهر آذار/مارس هُزمَ المرتزقة الإنكليز والأميركيين الذين كانت المخابرات الأميركية قد قامت بتجنيدهم في اللحظة الأخيرة في محاولة يائسة من جانبها لقلب موازين المعركة، وترتب على هزيمتهم تحرير الجبهة الشمالية ومن ثم تحركت كل القوات، بأمر من مجلس قيادة العمليات، لتتمركز في الجنوب. وكان خط السكك الحديدية التابع لبنغيلا قد تمّ تحريره وكانت الـ «أونيتا» في حالة من التشرذم لدرجة أن قوات جبهة تحرير أنغولا الـ MPLA لم تحتج سوى لإطلاق صاروخ واحد على كاغو كوتينهو فكان كفيلاً بإفناء منزل خونس سافيمبا.

فرار العنصريين

بدأت قوات جنوب إفريقيا في التقهقر منذ منتصف آذار/مارس، وكان ذلك على الأرجح امتثالاً لأوامر من جهات عليا خشيت تعقب قوات جبهة تحرير أنغولا الـ MPLA لها عبر ناميبيا التي كانت قد أخضعت هي الأخرى مما كان يعني وصول الحرب إلى عقر دارهم في جنوب إفريقيا. وقد أدى تقهقرهم بالطبع إلى حصول جبهة تحرير أنغولا الـ MPLA على دعم كل دول إفريقيا السوداء ومعظم دول الأمم المتحدة المناهضة للتمييز العنصري. ولم يشكّ المقاتلون الكوبيون في حقيقة هذا التقهقر، خصوصاً بعد أن صدرت لهم الأوامر بالتحرك بكثافة نحو الجبهة الجنوبية. ولم تتلق جبهة تحرير أنغولا بعد فرار مقاتلي جنوب إفريقيا عبر حدود ناميبيا أوامر بتعقبهم، في حين كانت الأوامر الوحيدة التي تلقتها هي السيطرة على السدود المهجورة وتأمين العمال أيّاً كانت جنسيتهم. وفي التاسعة والرابع صباحاً من اليوم الأول من شهر نيسان/إبريل، وصل زحف قوات جبهة تحرير أنغولا الـ MPLA بقيادة القائد الكوبي ليوبولدو ثيناس فرياس إلى سد راوكانا الذي يبعد مسافة قصيرة من السلك الشائك الفاصل بين الحدود. وبعد ذلك بساعة وربع، طلب حاكم جنوب إفريقيا المنتدب في ناميبيا، الجنرال إويف، واثنان من ضباط الجيش السماح لهم بعبور الحدود لبدء التفاوض مع جبهة تحرير أنغولا، فاستقبلهم القائد ثينتراس فرياس في كوخ خشبي يقع في المنطقة الفاصلة بين البلدين والتي يبلغ طولها عشرة أمتار. فجلس ممثلو المُعسكرين بصحبة مترجميهم حول مائدة طعام كبيرة. وحاول الجنرال إويف، وكان رجلاً في

الخمسين من عمره ممتلئاً وأصلع الرأس، أن يظهر بمظهر الرجل اللطيف المرح ووافق من دون تحفظ على شروط جبهة التحرير. ورغم إن إبرام المعاهدة ذاتها لم يستغرق سوى ساعتين، امتد اللقاء لوقت أطول من ذلك لأن الجنرال إويف كان قد أحضر معه وليمة دسمة أُعدت في ناميبيا وأخذ يشرب الخمر منتشياً ويحدث أعدائه حول مختلف المواضيع التي منها مثلاً، قصة فقدانه أحد أصابع يده اليمنى في حادث سير.

إخلاء القوات الكويتية

قام هنري كيسنجر بزيارة رئيس وزراء السويد أولوف بالمي في استوكهولم في أواخر شهر أيار/مايو. وفي أعقاب لقائه معه، أعرب لوسائل الإعلام العالمية عن سعادته الغامرة بقرار كوبا إخلاء قواتها من أنغولا. وأشيع آنذاك أن الأنباء حول هذا القرار كانت مسربة عن رسالة شخصية بعث بها فيدل كاسترو إلى أولوف بالمي. وكانت سعادة كيسنجر مبررة بالطبع بما أن رحيل القوات الكويتية من أنغولا يزيح حملاً كبيراً عن كاهل الولايات المتحدة التي كانت منهمكة بحملات الانتخابات الداخلية.

والحقيقة أن فيدل كاسترو لم يكن قد بعث بأي رسالة إلى أولوف بالمي. غير أن المعلومات التي تسربت عن طريق أولوف كانت صحيحة لكن غير مكتملة. فخطة إخلاء القوات الكويتية من أنغولا كان قد تمّ الاتفاق عليها إبان اللقاء الذي عُقد بين فيدل كاسترو وأغوستينو نيتو في الرابع عشر من آذار/مارس في مدينة كوناكري والذي لاحت لهم خلاله بشائر النصر. وقد نص الاتفاق على أن يتمّ إخلاء القوات الكويتية تدريجياً شريطة أن يظلّ في أنغولا عدد كافٍ منهم لفترة قد تطول أو تقصر حسبما يقتضي الحال من أجل تشكيل جيش حديث وقوي يكون قادراً في المستقبل على ضمان الأمن الداخلي واستقلال البلاد دون الاعتماد على مساعدات خارجية. ومن ثم، فإنه عندما أدلى كيسنجر بتصريحه ذاك في استوكهولم كان أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل كوبي قد عادوا بالفعل من أنغولا بينما البقية في طريقهم للعودة ولكن ظلّ هناك تعميم على هذا الإخلاء لدواع أمنية.

وكانت استير رودريغث، وهي من أولى الكويتيات التحاقاً بركب المقاتلين الذين ذهبوا إلى أنغولا ومن أولى العائدين من هناك، قد تعرضت لموقف أثبت لها عبقرية الكويتيين في العلم ببواطن الأمور. ففور عودتها إلى كوبا وقبل أن يُخطر أهلها بعودتها، كانت استير قد أُودعت وحدة

الحجر الصحي في مستشفى القوات البحرية في هافانا. وبعد ثمان وأربعين ساعة سُمح لها بالخروج فذهبت إلى ناصية الشارع لتستقل تاكسيًا. ورغم عدم محاولتها تجاذب أطراف الحديث مع السائق إلا إنه رفض في النهاية تقاضي أي أجر منها لعلمه بأنها كانت عائدة أخيرًا من أنغولا، فسألته محتارة «لكن كيف عرفت بهذا الأمر؟»، فأجابها: «لأنني رأيتك أمس في شرفة مستشفى القوات البحرية، وأعلم أنها مقصورة على علاج العائدين من أنغولا».

روح النصر

في تلك الفترة قمت بزيارة إلى مدينة هافانا. ومنذ لحظة وصولي إلى المطار، انتابني مشاعر أكيدة بأن شيئاً عميقاً في الحياة الكوبية كان قد تغير عن العام السابق الذي زرت فيه البلاد. كان هناك تغير ملحوظ في روح الناس وطبيعة الأشياء، حتى في الحيوانات والبحر، بل وفي صميم الحياة الكوبية نفسها. فقد انتشرت بين الرجال صيحة الثياب المؤلفة من أقمشة خفيفة وجاكيت قصير. كما كانت تسمع العديد من الكلمات البرتغالية في لغة الشارع الدارجة. وصار من الممكن تمييز لكلمات جديدة إلى جانب اللكنات الأفريقية المعهودة التي تميز الموسيقى الشعبية. أما في المتاجر والأوتوبيسات المكتظة، فباتت الحوارات أكثر صخباً من المعتاد بين المؤيدين المتحمسين لتدخل كوبا في أنغولا وأولئك الذين لم يستوعبوا سريعاً أهمية ذلك التدخل. أما أكثر ما وجدت تشويقاً وغباءاً، فكان عدم اغترار العائدين من أنغولا بقيمة ما أنجزوه هناك رغم إدراكهم لتأثير هذا الحدث في صنع التاريخ العالمي، فقد واصلوا حياتهم بشكل طبيعي وتواضع من يؤمن بأنه لم يؤد سوى واجبه. غير أن أحداً لم ينتبه لأمر آخر على قدر كبير من الأهمية والإنسانية وإن بدا أقل وضوحاً، ألا وهو شعور قطاع عريض من الكوبيين بأن ماحدث كان بمثابة تعويض لهم عن سنين طويلة عانوا خلالها دون ذنب من نكسات متتالية. وقد استغل فيدل كاسترو شعورهم هذا فحثهم على التغلب على كارثة المحاصيل التي منيوا بها في عام 1970. والحقيقة أن الشعب كان قد اعتاد منذ وقت طويل الانتصار على هزائمه بوعي سياسي قوي وعزيمة نفسية خارقة. فقد تعين عليه منذ انتصاره في بلايا خيرونا بل وعلى مدار الخمسة عشر عاماً التي تلت أن يعرض على النواجز إثر مقتل تشي غيفارا في بوليفيا، وتصفية سلفادور آيندي في تشيلي، وإبادة الكتائب الثورية عبر أميركا اللاتينية، ومعاناة ليالي الحظر الاقتصادي السرمدية، وفداحة الأخطاء العديدة والمتأصلة التي ارتكبت فكادت تؤدي بهذا الشعب وتدفعه إلى الهاوية. إذن، أدت كل تلك الكوارث، إضافة إلى بطء تحقق أهداف الثورة، إلى تراكم شعور الكوبيين بتعرضهم دون ذنب لعقوبات

لانهائية، ولذا جاءت أنغولا أخيراً، لتولد لدى هذا الشعب نشوة الانتصار الكبرى التي طالما
انتظرها.

بلى الجنرال توريوخوس

لديه من يكتب له 25

منذ بضعة أيام، فعل الجنرال توريوخوس رئيس حكومة بنما شيئاً يؤكد شخصيته الفذة. فلقد استقبل عشرين صحافية مكسيكية بمفرده، وظلّ يحاورهن مدة ثمانٍ وأربعين ساعة دون توقف سوى لضرورة ما، كالذهاب إلى النوم مثلاً. وبحلول اليوم الثالث لم يعد هو نفسه يتذكر بوضوح ما صرّح به لهن. لذا فقد فعل ما أملته عليه الحكمة:

أولاً، صوّب تصريحات كانت تعبر عن مواقفه الشخصية لكن لم يكن من الممكن نشرها على حالها؛

ثانياً، أقر تصريحات أخرى بدا له أنها من محض اختلاق الصحافيات لكن كان من المفيد أن تنشر على أنها من بنات أفكاره هو؛

ثالثاً، ترك جزءاً من التصريحات يحوم حوله الغموض.

ثم بدا له، وسط كل ما سبق، أن يقول عني إنني ضالع في المفاوضات المزمع إجراؤها بينه وبين بعض نشطاء اليسار الباناميين في المنفى. وبما أنه -و هو صاحب الخبر- لم يجد ضيراً من التصريح بذلك، فإنني بدوري لم أجد غضاضة في إدخال بعض الإضافات على الخبر نفسه لكي يعلم الجميع بشكل واضح كيف أني ضالع في أشياء بعيدة كل البعد عن الأدب.

فمنذ أقل من عام مضى، وجدت نفسي يوماً في بنما بعلم المحكمة الدولية لجرائم الحرب وموافقتها، لكن من دون انتداب رسمي منها لي. وقد تكرم الجنرال توريوخوس آنذاك ودعاني إلى غداء بدأنا خلاله حواراً استمر أرضاً وبحراً وجواً -على متن طائرة هليكوبتر- حتى انتهاء زيارتي وحتى بعد انتهائها. كنا نتحدث لغة واحدة. فكلانا لا يلبس ربطة عنق وكلانا يتكلم بصراحة أهل السواحل المعهودة التي غالباً ما يعتبرها أهل المدن القارية ضرباً من سوء الأدب، لذا ففي غضون ثمانٍ وأربعين ساعة لم يعد لدينا ما نقوله أو نشربه. وقد بدا لي الجنرال رجلاً مباشراً، إنسانياً، ذا بصيرة، وكارهاً للعنف. وقد غادرت البلاد حاملاً انطباعاً أكيداً بأن هذا الرجل ينجز الأشياء على

أكمل وجه ممكن أخذاً في الاعتبار الظروف الراهنة والصعبة في بنما. وبالطبع قمت أثناء زيارتي بطرح مسألة السجناء السياسيين ومنفيي اليسار عليه. وفقاً لتقارير المحكمة الدولية لجرائم الحرب، يتمّ تعذيب العديد من السجناء السياسيين في بنما بوحشية وتتم تصفية أي من المنفيين على يد الحرس الجمهوري إذا ما تجرأ أيهم على العودة. فما كان من الجنرال سوى أن ضحك من هذه الاتهامات معتبراً إياها محض افتراء، وأكد لي أنه لم يكن هناك في بنما سوى سجينين سياسيين، ليسا باناميين، وأنهما في حالة ممتازة. لكنه أعرب عن قلقه من مجموعات اليسار المتطرفة داخل البلاد قائلاً: «إنهم يريدون استباق الخطوات ولا يسعنا أحياناً قبول ذلك». وكان أكثر ما يقلقه هو كونهم مخترقين من قبل المخابرات الأميركية التي تسعى لاستخدامهم من أجل بليلة منطقة قناة بنما. وعلى الرغم من ذلك، فإنه عندما سألتني أحد الصحفيين لاحقاً عن رأيي في تلك المجموعات اليسارية أجبت: «أستحسن وجودهم على الساحة طالما يحملون قيمة تخدم اليسار»، وقد صرحت برأيي هذا أمام الجنرال نفسه، وكان هو من دماثة الخلق بمكان فلم يحاول أن يعترض على رأيي. والحق إن مشكلة المنفيين كانت من أكثر المشكلات تعقيداً. وكنت قد التقيت بعضهم في المكسيك فأخبروني باستعدادهم للعودة إلى بنما للنضال من أجل استعادة القناة وتحقيق مطالب شعبية أخرى قابلة للتحقيق في ظل الأوضاع الراهنة، لكنهم أكدوا لي أنهم لن يعودوا إلا إذا أصدرت الحكومة أمراً بالعمو العام عنهم جميعاً. فما كان من الجنرال توريوخوس سوى أن أعطاني إجابة فورية بشأن هذا الطلب كي أوصلها إلى المنفيين ومفادها أن مسألة العفو كانت غير مطروحة لأنها تفتح الباب على مصراعيه أمام متآمري اليمين وهم الأكثر عدداً وتسليحاً. إذن، فعلى العكس مما تمّ التصريح به خلال الحوار بين الجنرال والصحافيات العشرين فيما بعد، كان الحوار بيني وبين الجنرال قد توقف عند هذا الحد فقط.

لكن منذ حوالي أقل من شهر، توقف الجنرال في زيارة لبضع ساعات في المكسيك وقام، نزولاً على طلبي، باستقبال متحدث باسم المنفيين أراد أن يعرض عليه بنفسه وجهة نظرهم. وقد أخبرني كلاهما فيما بعد أن المقابلة كانت إيجابية وودودة وأنه قد تمّ الاتفاق خلالها على أن يعقبا لقاء آخر يعقد في بنما خلال الشهر التالي مباشرة لاستكمال المفاوضات. وقد اقترح الجنرال، من باب إبداء حسن النية، أن أحضر أنا أيضاً ذلك الاجتماع المرتقب فوافق المتحدث باسم المنفيين على هذا الأمر. إذن، هذا هو باختصار فحوى الخبر الذي أفصح عنه الجنرال لأولئك الصحافيات. وقد سألتني زوجتي مرثيديس عندما قرأت الخبر في الصحف: «ما شأنك أنت بكل هذا؟»، فأجبتها محاولاً قول الحقيقة ولو أقله لمرة واحدة: «أرى أنه من العبث أن يكون مناظرو اليسار في صراع مع الجنرال توريوخوس بسبب خلافات شكلية بحتة، في حين أن كلا الطرفين متفقان على مبادئ أساسية قد يكون مردودها مفيداً على الجميع، خصوصاً في تلك الأوقات الصعبة التي تمر بها

أميركا اللاتينية». وبدا رأيي، بالطبع، صائِباً لمرثديس وإن أبدت تخوفها من أن أقدمي في السن كان قد بدأ يكسبني صرامة أشبه بأهل المدن غير الساحلية.

أنغولا بعد عام:

أمة في المرحلة الابتدائية²⁶

لم تتوافر أعواد الكبريت في أنغولا الأسبوع الماضي، وهو أمر لا يستطيع المرء أن يفهم أبعاده سوى إذا عايش الموقف بنفسه: فالمدخنون المتوترون كانوا يعترضون طريق المارة ليستجدوا منهم عود ثقاب أو يستوقفون العربات ليستسمحوا سائقها في استخدام ولاعة السجائر الأوتوماتيك، بل كادوا يحكون حجراً بآخر كما في العصر الحجري كي يحصلوا على الشعلة التي بدا وأن حياتهم متوقفة عليها. وفي الوقت نفسه، نفذ الصابون والحليب والأسبرين وأمواس الحلاقة وكثير من السلع البسيطة الأخرى اللازمة للحياة اليومية، كما نفذ الملح في بعض المناطق منذ أكثر من ثلاثة أشهر. وحذر الأطباء الأنغوليون زوار البلاد من أكل أي بقوليات غير مطهوه أو فاكهة غير مقشرة، لكنه كان تحذيراً نظرياً لأنه لم تكن هناك بقوليات من الأساس، كما لم تكن الفاكهة الوحيدة التي رأيناها على مدى ثلاثة أسابيع سوى بضع برتقالات ذابلة في مطعم أحد الفنادق. كما حذرونا من شرب المياه غير المغلية إلا إذا كانت مياهاً معدنية، لكن المياه المعدنية كانت قد نفذت بدورها بسبب نفاد أغطية الزجاجات.

كان الحال على النقيض تماماً في لواندا، عاصمة أنغولا، التي فوجئت بجمالها الأخاذ وأنا أتأملها من نافذة الطائرة قبل هبوطها، وقد بدت لي مخالفة للصورة التقليدية التي طالما رُسِمت عن إفريقيا السوداء ومخالفة للصورة الكاثوليكية الحاملة التي ترسمها الأغاني الفلكلورية عن البرتغال؛ فلواندا كانت أشبه بمنتجعات الرفييرا الإيطالية الحديثة ولاسيما بشاطئها المديد ونخيله المتناسق وناطحات السحاب بزجاجها الأزرق والمطلة على بحر فيروزى. ولعلّ اندهاشي لرؤية هذا المشهد سببه الصدمة التي تلقيتها قبل ذلك بأربع ساعات فقط عند اطلاعي على حقيقة إفريقيا السوداء أثناء توقف رحلتي الجوية في مدينة كونكاري عاصمة غينيا الاستوائية، حيث رأيت في مطارها أكوام المخلفات والطائرات الخردة جنباً إلى جنب الطائرات العملاقة التابعة لكبرى شركات الطيران الأوروبية، وحيث رأيت الشارع الرئيسي الوحيد في المدينة يحمل اسم بطل أجنبي، أي اسم فيدل كاسترو، وقد خيمت عليه مظاهر الهيمنة السياسية من خلال لوحة ضخمة للرئيس سيكو توري مرسومة بألوان زاهية ومرفوعة بين لوحين آخرين إحداهما للرئيس

الروسي ليونيد بريجينيف وأخرى للصيني ماوتسي تونغ. كان الشارع عريضاً مهماً ومغبراً بصورة غير عادية، وكان فيه رجالٌ في ثياب رثة يمشون منكسرين، ونساء كثيرات يسرن ببطء وحزن، وإن بدا لي أنهن الأكثر طولاً ورشاقة وربما الأكثر جمالاً في العالم بأربطة رؤوسهن وخرقهن الملونة البالية الملتفة حول أجسادهن. لكن كانت رائحة المكان هي أكثر ما لفت نظري لحظة فتح باب الطائرة. وأذكر أن الكاتب ألبرتو مورافيا كان قد حدثني قبل ذلك بعدة سنوات في إيطاليا عن رائحة إفريقيا، وعلمت منه لأول مرة أننا بدورنا لنا رائحة معينة يميزها الأفارقة. غير أن الحقيقة فاقت خيالي، فقد كانت رائحة نفاذة وخارقة. لم تكن أشبه برائحة أشياء أو حيوانات أو بشر، بالأحرى كانت رائحة الحياة في هذا الجانب الآخر من العالم.

كان وصولي إلى لواندا ظهر ذلك اليوم الخريفي الرائع، خصوصاً بعد الجزع الذي انتابني في كونكاري، بمثابة عودة لا بد منها إلى الحضارة الأوروبية. فرأيت الناس هناك، ولا سيما الشباب منهم، لا يرتدون ثياباً محلية كما هي الحال في غينيا بل ثياب شواطئ الصيف الرأسمالي، بسراريلهم الملونة الفضفاضة، وقمصانهم ذات الألوان الاستوائية الزاهية وأحذيتهم ذات الكعوب الغليظة والعالية. لكن لم تكن المدينة من الداخل سوى قشرة خاوية؛ فأسواقها التي كانت تعد من أكثر أسواق إفريقيا رواجاً أيام الحكم البرتغالي صارت راكدة، ومحالها التي احتفظت لافتاتها المضئية بأسماء أشهر ماركات المجتمع الاستهلاكي كانت نوافذها مهشمة ورؤوسها مفككة، ومقاهيها بشرفاتها المطلة على الشاطئ، ومطاعمها الأخاذة، وكبارياتها التي حملت إعلانات لنساء عاريات، وفروع البنوك الأوروبية الكائنة في أرقى أحيائها، كانت جميعها مغلقة. أما في مرسى خليجها العميق واللامع حيث كانت طيور النورس تشاكس الأسماك الوفيرة، فقد كانت السفن متكدسة في انتظار إنزال حمولاتها نظراً لعدم توافر العمالة الكافية وتعطل المعدات اللازمة لذلك في الميناء. وكانت حشود الفقراء الهائمة على وجهها في كل اتجاه لافتة للنظر بسبب ارتفاع أعدادها ووجودها باستمرار. ولم يكن هؤلاء سوى العمال الساعين إلى وجهات عملهم سيراً على الأقدام ليس في لواندا فقط بل في هوامبو ولوبانغو والعديد من المدن الأخرى. كانت الحكومة منذ أواخر عام 1975 قد حددت تعريفه رمزية تضمن لهم مواسلاتهم، لكن القرار لم يخرج قط إلى حيز التنفيذ بما أنه لم يكن هناك من الأساس أوتوبيسات أو عربات نقل أو تاكسيات أو أية وسيلة مواسلات أخرى. حتى أكثر فنادق لواندا شهرة ورقياً بتصميماته الداخلية الحديثة وموقعه المطل على البحر، لم يسلم مطعمه على مدى أسبوعين كاملين من نفاذ الطعام سوى من نوعين وهما الدجاج والسمك البكالا المجفف، بل واضطرت إدارة المطعم لإغلاقه أكثر من مرة قبل الموعد الرسمي بساعة. وقد حكى لي أحد رفاقي في الرحلة ضاحكاً أنه كان قد لمح ذات مرة بيضة داخل

مطبخ المطعم لكنه لم يتمكّن من إقناعهم بتقديمها له على الفطور. وفي أحد أيام الثلاثاء تعطل مكيف الهواء وكان العامل الوحيد القادر على إصلاحه في السويد. وفي أحد أيام الأربعاء نفدت المياه الدافئة ولم يكن أحد قد استعد لذلك. وفي أحد أيام الخميس توقفت خدمة تنظيف الغرف، فلما سألت متى ستُستأنف أجنبي موظف الفندق بطريقة درامية قائلاً: «لن تعود أبداً». والحقيقة أن كلماته لم يشبها ضيق أو قلة تهذيب، بل على العكس، فقد غلبت عليها نبرة ارتياح. وكان مدير جريدة لو نوفيل أوبزرفاتور، جان دانيال، قد كتب في الأسبوع السابق من باريس في افتتاحية العدد أن «لا شيء يعمل على الإطلاق في أنغولا». ورغم مبالغة كلماته إلا أنها لامست الحقيقة. إذن، فلنوضح الآن لماذا بلغت الأحوال في أنغولا ذلك الحدّ المزري وماذا فعلت حكومة الـ MPLA (الحركة الشعبية لتحرير أنغولا) خلال سني حكمها الأولى لمجابهة تردي الحال على هذا النحو.

فضيحة مدوية

تعود أزمة نفاذ السلع في أنغولا إلى يوم الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1975، أي يوم الاستقلال القومي، عندما رحل الجيش البرتغالي عن البلاد وأُعلنت جمهورية أنغولا الشعبية. وقد رحل مع قوات الاحتلال حوالي أربع مئة ألف برتغالي، كانوا هم آخر حلقة في سلسلة الأجيال الطويلة التي استمتعت طويلاً وعرضاً -منذ ما قبل إنشاء مدينة نيويورك نفسها بقرن من الزمان- بأراضي أنغولا الشاسعة والغنية. ووفقاً للاتفاق المبرم مع جبهة الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، فقد سُمح للمحتلين بحمل كل أغراضهم عند الرحيل. فما كان منهم إلا أن حملوها عن بكرة أبيها فيما يشبه النزوح المدمر الذي يكاد ألا تكون له سابقة في تاريخ البشرية. ولم يكن من المستغرب عليهم فعل ذلك، فالبرتغال التي كانت ترزح تحت حكم ديكتاتوري يستغل الدين، لم تكن متحضرة كدول أوروبية أخرى، بل لم تكن سوى دولة استعمارية مظلمة تتوقف حياتها على مستعمراتها في إفريقيا. حتى أن مليون عاطل برتغالي، وهم تقريباً معظم الطبقة العاملة البرتغالية، اضطروا للسفر إلى الخارج بحثاً عن عمل فاضطر بعضهم لقبول القيام بأحقّ الوظائف التي تحتاج إليها الدول الأكثر تقدماً في أوروبا، بينما اختار فريق آخر منهم الذهاب إلى إفريقيا ولا سيما أنغولا، حيث كان سابقوهم من المستعمرين البرتغاليين قد شيّدوا مدناً خلاصة بنية الاستمتاع بها وحدهم إلى الأبد، وقد أغراههم في ذلك كون أنغولا بلداً غنياً بالموارد الطبيعية الوفيرة على عكس ما هي الحال في دولة مثل زانزيبار التي بالكاد كانت تملك شيئاً سوى إنتاجها من محصول القرنفل،

أو دولة مثل تنزانيا بمدخولها من محصول الكاجو الذي كان يتعين عليها تصدير مئة وستين ألف طن سنوياً منه - أي نعم، مئة وستين ألف طن سنوياً منه! - لقاء شراء حاجتها من البترول وحده.

ركن المستعمرون البرتغاليون إلى قوتهم ووثقوا أيمًا ثقة بدوام الحال لديهم لدرجة أنهم غفلوا عن انحسار الكيانات الاستعمارية الأخرى من حولهم في بقية إفريقيا، ومن ثم ظلّوا يشيدون فنادق شاهقة ويعبدون طرقاً وعرة لم تطأها من قبلهم سوى الأفيال، بل قاموا بفتح طريق يعد تحفة معمارية بين لوبانغو وموزامبيدس لم تكن هناك ثمة ضرورة من وراء تعبيده سوى تمهيد طريق للهبوط من أعلى الجبل إلى البحر مباشرة. وكانوا على قناعة تامة بأن تلك المشاريع المعمارية كفيلة بأن تقلب لمصلحتهم ميزان الحرب التي شرعت في شنها الـ MPLA (حركة التحرير الشعبية الأنغولية) منذ العام 1961 وفشل جيش النظام الديكتاتوري البرتغالي في هزيمتها. ولقد أجبرتهم وطأة تلك الحرب فيما بعد على الاستعانة برؤوس أموالٍ أجنبية ففتحو أبواب البلاد على مصراعيها أمام تدخل الشركات العملاقة وإن ظلّوا محتفظين لأنفسهم بالسيطرة على القطاعات الحيوية اللازمة لحياتهم هناك. فلما حان وقت رحيلهم بعد هزيمتهم البطيئة التي لم يكن منها بد والتي طالما لم يتجشموا عناء فهمها، حملوا معهم ما اعتبروه ملكاً لهم تاركين أنغولا حرة خاوية على عروشها. فاصطحبوا معهم جميع الفنيين البرتغاليين ومعظم العمالة الصناعية والستين ألف أنغولي الوحيدين المدربين على القيام بأي عمل نافع في مجالات السوق أو الكهرباء أو الميكانيكا أو السباكة أو التدريس بل حتى في مجال التخديم. كما شحنوا معهم ثلاثة آلاف سيارة خاصة على باخرة تابعة لشركة «ناشونال كاش ريجستر» التي كانت لها مصالح عدة في البلاد. كما شحنوا ثمانياً وعشرين عربة نقل بعضها بحراً، على متن بواخر، وبعضها الآخر برأ، عبر الدول المجاورة. أما عربات النقل التي لم يتمكّنوا من نقلها فقد أشعلوا فيها النيران. كما ألّفوا في البحر بالعديد من سيارات النقل العام والأوتوبيسات والماكينات الزراعية والمعدات الصناعية عالية القيمة. ولعلمهم بأن العملة الأنغولية لن تجدي في أي مكان آخر، فقد سارعوا في إنفاقها، فأفرغوا السوق المحلية من محتواها في غضون ساعات. وبدافع شيطاني خبيث، قاموا بتدمير حمامات المنازل التي هجروها وبياتلاف مصاعد العمارات ومفاتيح النور والتليفونات وتحطيم أعمدة الإنارة وكابلات الكهرباء وأقفال الأبواب ومواسير المياه. أما الهيئات التي انتقلت إلى حيازة الدولة مثل المستشفيات والمعامل الرسمية، فقد بدت في الظاهر وكأنها لم تُمس، لكن واقع الأمر أن كلاً منها كان قد أفرغ من جزء محوري لازم لتشغيله مما استلزم أقله عاماً بأسره لإعادة تشغيلها. أما الجيش البرتغالي النازح فقد خلف وراءه أطلالاً وزرع ألغاماً في المطارات التي كان قد أنشأها أثناء الحرب، ونزع خطوط السكك الحديدية وحطم منشآت الموانئ وأفنى المواشي في الحقول.

ولعل آثار الفرقاطتين اللتين مازالتا غارقتين في خليج لواندا تشهد على ذكرى تلك الممارسات المشينة. والعجيب في الأمر هو أن ذلك الجيش المدمر هو نفسه الذي أسقط النظام الديكتاتوري في البرتغال إبان ثورة القرنفل عام 1974. أما ما لم يتمّ تدميره في أنغولا على يد البرتغاليين فقد تم تدميره على يد جيش إفريقيا الجنوبية التابع لنظام البيض العنصريين وهم الذين اعتمدوا في تمويلهم لغزواتهم على نهبهم لأنغولا. فنهبوا من أراضي هوامبو الغنية والخصبة ما لا يقلّ عن مئة وخمسين ألف رأس ماشية وخزنوها في مبرداتهم على الحدود. كما نهبوا محاصيل القهوة والدقيق والآثار التاريخية والقطع النادرة من التراث الشعبي. وتسببوا خلال خمسة أشهر فقط، وصفها الأنغوليون بـ «حرب التحرير الثانية»، بإتلاف مئة وأربعة وأربعين جسراً من الجسور الأسطورية المقامة على غابات الجنوب والتي كان الواحد منها يمتد لمسافة ثلاثة كيلومترات، والتي يحتاج إصلاح كل منها إلى عشرات السنين.

فرصة وحيد القرن

هذه هي الأطلال التي تسلمتها حكومة حركة التحرير الشعبية الأنغولية من الاستعمار. فاثنان في المئة فقط من الشعب كان يجيد القراءة والكتابة بالبرتغالية، لكن الغالبية، وخصوصاً النساء في الريف، لم يكونوا يجيدون حتى الحديث بالبرتغالية. وكان هناك مئتا ألف حالة سل، وستة آلاف حالة ملاريا، وعشرون ألف حالة جذام، وكان كل هؤلاء وأولئك منبوذين بلا رعاية. كما كانت هناك حالات عديدة مسجلة لأمراض مثل شلل الأطفال والدوسنتاريا والأمراض التناسلية المستعصية. أما ظاهرة تعدد الزوجات التي طالما حيرتنا نحن الغربيين، فلقد تم اللجوء إليها في تلك الظروف كمحاولة مجتمعية دفاعية تهدف إلى تعويض حالات الوفاة المرتفعة وإتاحة الفرصة لولادة جيل جديد من الأحياء. لكن ظلت مصيبة أنغولا بلا نظير، فمن بين كل ألف مولود كان يموت ثلاث مئة خلال عامهم الأول. لذا فعلى الرغم من مضي الزمن فإنه لم يزد تعداد السكان في أنغولا على ستة ملايين نسمة، كان معظمهم تقريباً من أهالي البلاد الأصليين الذين يشغلون رقعة جغرافية تساوي ثلاثة أضعاف مساحة البرتغال.

لم ينعم المستعمرون البرتغاليون على الأنغوليين بأكثر مما جادوا به على الحيوانات. فقد تعمدوا تشجيع القبلية لكي يحولوا دون تشكل روح وحدوية قومية: فالفصائل العرقية، والبالغ عددها أحد عشر فصيلاً، التي وجدها البرتغاليون عند احتلالهم البلاد عام 1575 تدهور حالها وازدادت الانقسامات بينها. فعلى سبيل المثال، حرم المحتلون على الأهالي القاطنين في مناطق

استخراج الألماس الاشتغال بالزراعة لكي يجبروا حوالى خمسة وعشرين ألفاً منهم على العمل في المناجم. أما أهالي الجنوب، وكانوا يعملون أساساً بالرعي، فقد نقلوهم أفواجاً إلى الشمال ونقلوا أهل الشمال إلى الجنوب للحيلولة دون تمركز أي فصيل منهم في أي بقعة أرض لفترة زمنية طويلة، وبالتالي تتم زعزعة الأواصر الثقافية والسياسية التي قد تنشأ عن مثل تلك التمرکزات. ولقد تسببت هذه السياسات الخبيثة في حرمان الأنغوليين، عدا من اشتغل منهم في الأعمال الإدارية، من تعلم أي مهارة على الإطلاق، فصارت الغالبية غير مدربة على صنع أي شيء بالمرّة، ما صب في مصلحة المُستعمرين . أما الأقلية الأنغولية التي نالت حظاً من التدريب فهي التي شكلت فيما بعد طبقة أشبه بالأرستوقراطية، اتسمت بالرجعية والفساد، وصارت تعرقل أية إصلاحات اجتماعية كي تواصل الاحتفاظ بامتيازاتها، مستغلة في ذلك وجودها في مواقع حيوية، فقد تمرتست بأعداد لا حصر لها في الهيكل الإداري البيروقراطي وبدا من العسير إقصاؤها عنه بسبب سيطرة أتباعها على أسرارهِ الدقيقة بإحكام. ومن ثم، لم يتبق أمام العديد من شباب الفلاحين الذين لم يكونوا قد رأوا الكهرباء في حياتهم من قبل سوى النزوح إلى المدن طلباً للرزق. فمنهم الشاب الساذج الذي لا يدري حتى كيف يغير لمبة كهرباء، ومنهم عاملة خطوط الاتصالات الدولية التي لا تدري في أي بلد تقع مدينة نيويورك، ومنهم عمال البريد المستجدون الذين ما زالوا يتدربون على قراءة العناوين بينما تتراكم من حولهم رسائل البريد. إذن، كانت هناك حاجة مُلحة لحملة قومية يكون من شأنها تعليم اللغة البرتغالية لمن لا يجيدها، وتعليم الحساب، ونشر القراءة والكتابة بين الأميين، لكن قبل هذا وذاك، محو أمية من كانوا سيقومون بعملية محو الأمية، فالبلد بأسره كان يحبو.

الأطباء اثنين - اثنين

بدا الأنغوليون رابطي الجأش أمام هذا الكم الهائل من المشكلات. فشعورهم بالوقت كان مختلفاً وهم ذوو صبر وتواضع وأناة ورهافة حس وبصيرة نافذة. فعلى سبيل المثال، تجسد تعبيرهم الوحيد عن حقنهم الشديد على الاستعمار الذي دام أربع مئة عام في تحطيمهم لتمثيل الأبطال البرتغاليين واستبدالها ببعض الآلات التي استخدموها في حربهم الظافرة ضد المحتل كـ بعض الدبابات والمدافع وإحدى العربات المصفحة التي كانت قد تحطمت خلال إحدى المعارك. وللأنغوليين أيضاً قدرة عجيبة على مقاومة الألم والاحتفاظ بالأسرار والتزام الصمت المطبق لفترات طويلة. إذن، فكل شيء قابل للتحقيق لكن بما يتوافق مع الإيقاع الأنغولي الذي قد يربكه أي

إيقاع مخالف. ومن ثم، فإني عندما تحدثت مع أحد كبار المسؤولين عن إمكانية إرسال عدد كبير من الأطباء المتطوعين فوراً إلى أنغولا، ما كان منه سوى أن هدا اندفاعي اللاتيني بحركة من يده وقال «حسناً. لكن ليأتوا اثنين اثنين». وأذكر أن أحد الوزراء الأنغوليين قد دعاني ذات مرة لتناول الطعام وحرص على حجز الطاولة من اليوم السابق، لكننا عندما وصلنا إلى المطعم في اليوم والساعة المحددين لم يكن أحد في المطعم يدري عن الحجز شيئاً. غير أن ذلك لم يسبب أي توتر للوزير الذي لم يحاول الكشف عن هويته السياسية للعاملين في المطعم، فما كان منهم إلا أن اقترحوا عليه الانتظار لمدة نصف ساعة في الصالون المتاخم لقاعة المطعم، فجلس أمام التلفاز واضعاً في فمه غليوناً مطفاً، وانتظر بصبر مدة ساعتين دون أن يتجشم حتى عناء النظر إلى ساعته. لكن لم يكن وراء طيبة الشعب الأنغولي أي ضعف، فبحسب قول رئيسهم أغوستينو نيتو لي: «إذا وقع الأنغولي تحت ضغط كبير فإنه ينتفض مدافعاً عن نفسه بلا هوادة».

لا مزيد من الأخطاء الأسطورية

كانت كل تلك المصاعب كفيلة بجعل عملية بناء دولة جديدة وحررة تستغرق قرناً. فمن المدهش إذن، أن نجد مؤشرات أكيدة تنبئ بإحراز تقدم ملموس بدءاً من السنة الأولى بعد الاستقلال. فالعديد من المصانع أعيد تشغيلها ولاسيما أربعة مصانع كبرى لتكرير السكر، وجمعت ثمانية آلاف طن من محصول القهوة، وبُذلت محاولات لإعادة تنظيم التجارة الخارجية وللنهوض بصناعة الأسماك، وتمت حملة تطعيم كاملة ضد شلل الأطفال في مدة ثمان وأربعين ساعة فقط بدلاً من مدة أربعة أيام كما كان مخططاً في الأصل، وتم خفض معدل وفيات الأطفال إلى مئة من كل ألف خلال العام الأول فقط، بفضل مجانية الخدمات الطبية وتطبيق الطب الوقائي، كما كُثِّفت دورات إعداد الفنيين. وتم ذلك كله، بالطبع، بالتعاون مع دول صديقة كثيرة منها كوبا. ولعلّ إعادة هيكلة المواصلات كانت من أكثر الأشياء صعوبة لأنها تتطلب وقتاً طويلاً. فمسألة نفاد أعواد الكبريت في مدينة لواندا - رغم أن فيها مصنعاً قادراً على إنتاج تسعين ألف علبة سنوياً - إنما يُعزى إلى توافر الخشب اللازم لتصنيع تلك الأعواد في منطقة كابيندا الواقعة على بعد ست مئة كيلومتر شمالاً، لكن عدم توافر الزوارق اللازمة لنقله من هناك إلى العاصمة. وكانت مشكلة النقل هذه هي ذاتها السبب وراء ندرة الطعام في لواندا حيث كان المواطنون يضطرون للانتظار أحياناً أمام محال الطعام ثلاثة أيام متصلة حتى يأتي دورهم للدخول فلا يجدون شيئاً متبقياً ليشترونه. هذا في الوقت الذي كان الطعام متوافراً بأسعار معقولة في مدينتي هوامبو ولوبانغو. ورغم عزم الحكومة

توفير ثلاثة آلاف عربة نقل جديدة خلال الأشهر الثلاثة التالية، إلا أنها أدركت أنه ينقصها الشيء الأساسي لتشغيل تلك العربات ألا وهو السائقون، فأنغولا بأسرها لم يكن لديها أكثر من اثنين وثلاثين سائقاً.

من ناحية أخرى، لم تتمكن الدولة من أن تسترد سريعاً كثيراً من المؤسسات الحيوية سوى تلك التي هجرها البرتغاليون. فهي لم تتمكن سوى من تأميم البنوك لتسهيل المعاملات المصرفية اللازمة لإعادة بناء الوطن، بينما ظلت تتفاوض مع الشركات الأجنبية من أجل الوصول إلى تسويات مقبولة. وكان هذا ما حدث في قطاع البترول مثلاً، فمنذ شهر كانون الأول/ديسمبر عام 1975، اتخذت شركة «غولف أويل» الأميركية المستغلة لحقوق كابيندا قراراً خبيثاً بوقف عملها هناك مما حرم أنغولا على مدار سنة ونصف السنة تقريباً من تحصيل نصيبها، أي مليون ونصف مليون دولار عن اليوم الواحد، وهو المنصوص عليه لقاء استغلال الشركة لتلك الحقوق. وظلت أنغولا عاجزة عن إنهاء عمل تلك الشركة هناك حتى أن الرئيس أغوستينو نيتو علق على هذا الأمر بواقعية مثالية قائلاً «هذا يعني أن شركة «غولف أويل» ستستمر في زيادة أرباحها على حساب استغلال عمالنا وثرواتنا. ولسنا بموقف يسمح لنا بوقف هذا الأمر دون جلب مثالب عدة على شعب أنغولا، غير أن سكوتنا أيضاً على استمراره يجلب عواقب أسوأ»، فأسوأ ما في الأمر هو أن القوات المسلحة الأنغولية هي التي كانت تقوم بحماية منشآت وموظفي شركة النفط الأميركية في منطقة كابيندا. أما في قطاع مناجم الألماس فقد اضطرت أنغولا إلى قبول أوضاع مماثلة لتلك التي فرضت نفسها على قطاع البترول. فرغم امتلاك أنغولا لأغنى مناجم الألماس في العالم إلا أن معظمها كانت محتكرة من قبل بلجيكا وأميركا والبرتغال. لذا لم يكن أمام أنغولا سوى المضي قدماً في إنشاء شركة وطنية لاستخراج البترول على أمل الاعتماد عليها مستقبلاً، كما اضطرت مؤقتاً إلى التعاون مع شركات الدول الثلاث المسيطرة على استخراج الألماس. لكن أثناء اضطرارها لقبول تلك الأوضاع المجحفة، شرعت في تدريب فنييها سراً. وكانت هناك بعثة من الخبراء المدنيين الكوبيين تقوم بمساعدة أنغولا على عدم تكرار الأخطاء الفادحة التي كانت كوبا نفسها قد وقعت فيها في أعقاب ثورتها. وقد قال لي أحد المسؤولين في أنغولا إنه «بفضل تلك البعثة استطعنا أن ننجز في عام واحد ما أتمه الكوبيون في عشرة أعوام». أما الكوبيون من ناحيتهم فقد أقرّوا بأنهم تعلموا كثيراً من صبر الأنغوليين وواقعتهم.

أغوستينو نيتو: عذوبة من فولاذ

أما الشيء الجميل وسط ذلك كله فكان تمتع الفريق القيادي في أنغولا بإعداد فكري مدهش ومستوى سياسي وأخلاقي راق تبلور على مدار خمسة عشر عاماً، هي مدة حرب الاستقلال، وصُقل في غياهب السجون والمنفى. وقد تمخض ذلك كله عن حس حكيم هو الذي دفع أغوستينو نيتو، مثلاً، إلى تخير كوكبة من المميزين والموهوبين لإرسالهم إلى الخارج في بعثات دراسية. فقد كان القادة الذين عانوا تجربة السجن هم الأكثر خبرة سياسياً ورقياً أخلاقياً. فأغوستينو نيتو نفسه الذي أنهى دراسته العاصفة للطب في جامعة لشبونة ونال لقب «السجين السياسي» عام 1957 من قبل مفوضية العفو الدولية، كان قد قبع في السجن لمدة سبع سنوات. أما رئيس الوزراء، لوبو دو ناسيمينتو، فقد قضى بدروه في السجن سبع سنين. كما مكث الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة في السجن أربعة عشر عاماً. أما وزير العدل، ديوخينيس بوافيدا، فمكث ثلاث عشرة سنة. ووزير العمل، نوح دا سيلفا ساودي، فثلاثة عشر عاماً هو الآخر. أما وزير التجارة الداخلية، ديفيد آيرس ماتشادو، فمكث تسعاً. وأغوستينو منديس دي كارفالو، القائد الأعلى للحركة الشعبية لتحرير أنغولا، فثلاثة عشر عاماً. كما قبع رئيس هيئة بروتوكولات الرئاسة وعضو اللجنة المركزية للحركة الشعبية لتحرير أنغولا، إرمينيو خواكين إسكورتو، في السجن عشر سنوات. ومكث نائب وزير العلاقات الخارجية، روبرتو فيكتور دي ألמידا، فيه سبعاً. كما رُجّ بوزير إعلام حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنغولا، جواو فيليبي مارتينس، في السجن مدة ستة أعوام. وأمضى لوثيو لارا، العقل المدبر للحركة الشعبية لتحرير أنغولا، نصف عمره مناضلاً من المنفى. أما حالة وزير المواصلات، مانويل باكفيررا، فكانت فريدة في نوعها. فقد اعتقل عام 1960 وهو بالكاد يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، وكان شبه أمي، وظلّ في السجن مدة أربعة عشر عاماً ولم يخرج سوى قبل الاستقلال بفترة قليلة. وتعرف في السجن إلى أنطونيو خاسينتو، الكاتب المرموق والسياسي اللامع والانسان مرهف الحس، فقام هذا الأخير بمساعدته على محو أميته وعلمه الماركسية والآداب، حتى صار باكفيررا الآن، وهو في الرابعة والثلاثين من العمر، كاتباً رائعاً وراوياً مشوقاً لتاريخ وطنه. إن هذا الخليط من الكتاب السياسيين والمحاربين القدامى والمعتقلين ليس إلا شيء طبيعي في أنغولا: فشاعر مثل رناندو كوستا آندرادي هو الذي يدير صحيفة «جورنال دي أنغولا»، كما يدير إنريكي أبرانشي قطاع المتاحف، ويدير روائي مثل لواندينو فيايرا قطاع التلفزيون. لكن، في النهاية، لم يكن هؤلاء وأولئك سوى نفر قليل لا يكفي للقيام بكل المهام التي كانت تحتاجها الدولة آنذاك ومنها، على سبيل المثال، الهيئة الدبلوماسية. فقد شرح لي الرئيس أغوستينو نيتو بلباقة شديدة السبب وراء افتقار أنغولا إلى هيئة دبلوماسية، فقال: «إذا انتدبنا سفراء لنا في الخارج لمكثنا في الداخل بلا وزراء». إذن، كان يتعين عليهم في أنغولا إنجاز كل شيء

بسرعة وسلاسة وعزم مثلما فعلوا في حربهم الطويلة والصامتة والتي كانت تمضي عليهم فيها شهور طوال يضطرون خلالها للالتزام ظاهرياً بضبط النفس بينما هم ينتشرون في أعماق المناطق المحررة ويعملون على خلق نظام موازٍ نجح في النهاية في انتزاع شأفة السلطة الاستعمارية.

ولم يكن الرئيس أغوستينو نيتو نفسه بعيداً عن ذلك الأسلوب الذي انتصروا به في الحرب، بل كان تجسيداً له. ولقد أسعدني الحظ ذات مساء للتأكد من ذلك الأمر بنفسي، عندما استقبلني في حفل وداع قصير أقيم بالقصر الذي كان في السابق محلاً لإقامة الحاكم البرتغالي قبل أن يتحول بعد الاستقلال إلى مكاتب إدارية تابعة للرئاسة. كان مبنى أبيض اللون، بسيط المعمار، مكوناً من ثلاثة طوابق، تطل نوافذه على المدينة بأسرها والبحر بأفاقه. ورغم بؤس شكله الخارجي وقلة عدد الحراس المحيطين به، كانت بداخله حديقة رومانية جميلة وظليلة، وكان بها مكتبة ضخمة. وكان رئيس فرنسا آنذاك، فاليري ديستان، قد أعلن في ذلك المساء نفسه قراره بإرسال قوات فرنسية لدعم حكومة زائير. وبدا الرئيس نيتو مستاءً جداً من ذلك القرار الذي رآه توطئة لمؤامرة امبريالية ضد أنغولا، لكنه لم يفقد للحظة لباقتة ولا حسه الساخر الراقي، فسرعان ما غير الموضوع كأنما كان يتفادى إزعاجي، أنا ضيفه، بموضوع كهذا، وحال تواضعه دون أن يعي أن العالم بأسره كان رهن ردة فعله حيال ذلك القرار الفرنسي. ثم آثرفي المقابل الحديث عن الشعر وهو جالس مع كاتب عابر مثلي في مكتبة أسطورية ملأى بالمقاعد الوثيرة والخزائن الخشبية المعشقة بالزجاج وبعده لا يحصى من الكتب المتراسة بأغلفتها الجلدية الصفراء. وبينما كنا نتحدث، كان هناك قطُّ رمادي جميل ظل يحوم حولنا حتى قفز فجأة وانتزع قطعة من الجمبري من الطبق أمامي. ولم يبدُ للوهلة الأولى أن الرئيس لاحظ ما حدث، لكنني عندما شرعت في تناول بقية الجمبري قام بسرعة باستبدال طبقي بطبقه دون أن يقطع حديثنا. واكتشفت أن أعظم شيمه هي موهبته في رؤية طرفي المشكلة في آن، كما بدا لي رجلاً ثابت المبادئ، دائم التفاؤل، وذا كرامة. وكانت تظهر عليه أحياناً علامات الإنهاك جرّاء سنوات السجن الطويلة وسني الحرب والساعات القاسية واللانهاية التي يمضيها في تصريف شؤون الحكم، لكنه كان يتحمل كل ذلك بحس فكاهي عميق ودون أدنى شفقة منه على نفسه. فهو الذي دأب، عندما كانوا يمنعونه من الكتابة أيام وجوده في السجن، على كتابة أشعاره على قصاصات ورقية صغيرة كان يخبئها ملفوفة داخل السجائر. ولم يكن يستطيع أحياناً سوى تخبئة بيتين من الشعر داخل كل سيجارة. وعندما كانت زوجته ماريا أوخينيا تذهب لزيارته كان يعرض عليها أن تدخن فكانت تحمل السجائر دون إشعالها لعلها بشأن أبيات الشعر المخبأة بداخلها. وعلى مدى سنوات سجنه السبع كتب «الأمل المقدس» وهو مجلد يحتوي على تسع وأربعين قصيدة. ولا أظن أن يكون الرئيس قد حكى لي كل هذا من باب التباهي بمغامراته، بل

قصه بمرح مستقيضاً في التفاصيل قبل أن يختم كلامه بابتسامة حزينة إلى حد ما ويقول: «هكذا ننجز الأشياء في أنغولا». ولعل أكثر ما أدهشني في شخص هذا الرئيس، لعدم توقعي أن أجده فيه، هو عزمه الفولاذي المستتر بين ثنايا تواضعه وعذوبته.

رودولفو وولش

الكاتب الذي سبق المخابرات الأميركية²⁷

في الخامس والعشرين من شهر آذار/مارس الماضي، اختُطفَ الكاتب والصحفي الأرجنتيني رودولفو وولش من بيته في بوينس آيريس على يد الأجهزة القمعية التابعة للنظام الديكتاتوري العسكري. وكلنا على يقين بالطبع أنه قد تمت تصفيته.

لقد عرف القراء رودولفو وولش كأحد أروع كتاب الروايات البوليسية، خصوصاً قراء فترة الخمسينيات عندما كان العالم ما زال أكثر شباباً وأقل صخباً. فأنا مثلاً، اعتدت قراءة أعماله خلال أمسيات الأحاد الكسولة التي كنت أمضيها في أحد بيوت الطلبة بمدينة كارتاخينا. ولقد اشتهر وولش فيما بعد أيضاً، بتحقيقاته الصحفية الممتازة والقوية والتي دأب فيها على فضح المذابح الليلية وجرائم الفساد التي تورطت فيها الشرطة العسكرية الأرجنتينية. وقد تميزت جميع أعماله، بما في ذلك الروائي منها، بواقعية التصوير وعمق التحليل وشجاعة التعبير والفراسة السياسية. أما بالنسبة إليّ شخصياً، فإن رودولفو وولش كان، علاوة على كل ما سبق، صديقاً مرحاً، يتناقض طبعه اللطيف مع عزيمته النضالية. لكن، على الأخص، سيظل رودولفو وولش يعرف إلى الأبد بكونه الرجل الذي سبق المخابرات الأميركية، فهو من اكتشف -مبكراً جداً- قيام الولايات المتحدة بتدريب أفراد منفيين من كوبا داخل غواتيمالا من أجل غزو كوبا عبر شاطئ خيرون في نيسان/إبريل عام 1961. في تلك الآونة، كان وولش يعمل رئيساً للمكتب الرئيسي لوكالة خدمات الصحافة اللاتينية الواقع في مدينة هافانا. وكان أحد رفاق دربه، ويدعى خورخي ريكاردو ماسيتي، وهو مؤسس الوكالة المذكورة ومديرها، قد أنشأ صالة تحرير مجهزة بأجهزة تلغراف لالتقاط المادة الإعلامية التي تنتجها الوكالات المنافسة وتحليلها. وتصادف ذات ليلة أن وقع ماسيتي في مكتبه على شريط تلغرافي لا يحتوي على أخبار بل على رسالة مطولة ومعقدة التشفير، وكان الشريط صادراً عن مكتب وكالة تروبيكال كابل في غواتيمالا. فما كان من رودولفو وولش، الذي طالما شعر بنوع من عدم الرضا الذاتي حيال كتاباته البوليسية السابقة إلا أن أقبل على الشريط محاولاً فك شفرة تلك الرسالة، واستعان في ذلك بكتيبات متخصصة في التشفير وجدها في إحدى مكتبات الكتب المستعملة في هافانا. وبعد عكوفه عليها ليالٍ عديدة، دون سابق

خبرة أو تأهيل، نجح في فك شفرة الرسالة التي لم يكن محتواها مجرد سبق صحفي لصحافي مناضل بل معلومات أرسلتها العناية الإلهية إلى حكومة الثورة في كوبا. كانت الرسالة موجهة إلى واشنطن من قبل مدير مكتب المخابرات الأميركية في غواتيمالا، وهو المكتب الملحق بالسفارة الأميركية هناك، وكانت عبارة عن تقرير يشمل توضيحاً تفصيلياً لعملية إنزال عسكري مرتقبة من قبل الولايات المتحدة على شواطئ كوبا، وأشار التقرير أيضاً، إلى المكان الذي بدأ فيه تجنيد منفذي العملية وكان واقعاً في مزرعة ريتالولويه وهي إحدى مزارع البن الواقعة شمال غواتيمالا. وحتماً لم يكن رجل بطباع ماسيتي لينعم بنوم هانئ أو ليتجاهل تلك المعلومات لذا اتخذ تدابير له لإرسال مراسل خاص من الوكالة إلى المنطقة المرتقبة تنفيذ العملية المذكورة فيها. وبدأ لي خلال الليالي الطوال التي أمضيها بلا نوم بينما نحن مجتمعون في مكتبه أنه لم يعد يستطيع التفكير في شيء آخر سوى تلك العملية. وفجأة خطرت له فكرة ممتازة دهشته يوماً، بينما كان واقعاً عند باب مكتبه يرقب رودولفو وولش وهو يقطع المسافة من الباب نحونا بخطوات قوية حازمة وسريعة وعينين ملونتين بدنا مبتسمتين من وراء عدسات نظارة طبية سميكة الإطار وشعر بدأ ينحسر وقد تخللته شعيرات بيضاء متفرقة وجلد كجلد صياد مخضرم لفرط ما تجعدته الأخاديد العميقة. وكان وولش في تلك الليلة، كحاله في سائر لياليه في هافانا، يرتدي بنطالاً صوفياً غامقاً وقميصاً أبيض بلا ربطة عنق شمרת أكاماه حتى الكوع. وبينما نحن على تلك الحال نرقبه يقترب صوبنا سألني ماسيتي عن رأيي في هيئته، فأجبته بأن وولش كان أشبه بداعية بروتستانتية، فتلقف ماسيتي كلامي منشراحاً وهو يقول: «بالضبط، داعية بروتستانتية يبيع الكتاب المقدس في غواتيمالا». وقد زاد من وجاهة خطته كون رودولفو وولش من أصل إيرلندي مما ضمن اتقانه للغتين الانجليزية والإسبانية. أما الخطة فكانت أن يذهب رودولفو وولش إلى غواتيمالا متكرراً في ثياب رجل دين كي يخطب في الناس ويسرد لهم عن ظهر قلب أهوال يوم القيامة، وينتقل من بيت إلى بيت متعللاً ببيع الكتاب المقدس حتى يتسنى له التسلل إلى داخل منطقة العملية المذكورة. فتحمسنا كثيراً لفكرة ماسيتي وبدأ لنا أنها سوف تؤدي إلى سبق صحفي منقطع النظير، على رغم اضطرابنا فيما بعد إلى ادخال بعض التغييرات على الخطة لأن الحكومة الكوبية كانت تخطط بدورها لتسريب عملاء لها إلى داخل ريتالولويه.

وظلّ رودولفو وولش على مدار الخمسة عشر عاماً التي تلت ذلك السبق الصحفي والسياسي يواصل نضاله حتى قرر يوماً أن يوجه إلى المجلس العسكري في الأرجنتين خطاباً فيه اتهام صريح صار فيما بعد مضرب المثل في الكتابة الصحفية العالمية. وكان قد كتبه سراً في بوينس آيريس وهي نفسها المدينة الجميلة والمسؤومة التي لم يتوان فيها ابن بلده وزميله خورخي

لويس بورخيس، أحد الأدباء الذين رشحوا لجائزة نوبل، عن الإسراع في قبول تكريم مخجل قدمه له بينوتشيت أو عن تملق السلطة وممالاتها، مدعياً أن خلاص الأرجنتين إنما سيكون على يد الحكم العسكري.

تورّيخوس خليط بين البغل والنمر 28

منذ قرابة الشهر، كان الرئيس القنزويلي في زيارة إلى البيت الأبيض عندما قال له الرئيس كارتر: «ذكرني في آخر لقائنا أن أبحث معك سريعاً مسألة بنّما». وعلى الرغم من أن هذه المسألة لم تكن مدرجة على جدول أعمال اللقاء الرسمي بينهما، إلّا أن كارلوس أندريس بيريث لم يمانع الحديث بشأنها فرد قائلاً: «إن آخر من رأيت قبل قدومي إلى واشنطن كان الجنرال تورّيخوس، كما أنني اجتمعت البارحة حتى ساعة متأخرة مع فريق المفاوضين الأميركيين على العشاء». فتعجب الرئيس كارتر من حدوث كل تلك المصادفات بهذا الشكل الدقيق لذا ابتسم وقال: «إذن، أنت الذي يجب أن تخبرني بما آلت إليه الأمور في هذا الشأن». وهكذا تحولت المسألة التي لم تكن أصلاً مدرجة على جدول الأعمال من مجرد نقطة هامشية إلى أهم ما تمت مناقشته خلال تلك الزيارة، حتى أن كارتر صرح أثناء المؤتمر الصحفي الذي انعقد في اليوم التالي، أن تدخل كارلوس أندريس بيريث كان حاسماً في تحريك المعاهدة الجديدة الخاصة بقناة بنما، ثم ألقى بشكل عارض ثناءً حاراً على الجنرال عمر تورّيخوس معرباً عن رغبته في التعرف إليه شخصياً.

في تلك الأثناء كان الجنرال عمر تورّيخوس يتابع مؤتمر كارتر الصحفي عبر شاشات التلفزيون من مسكنه الساحلي في فارايون، وذلك على بعد مئة وخمسين كيلومتراً غرب عاصمة بنما حيث اعتاد أن يقضي نصف الأسبوع محاولاً دون جدوى الحصول على قسط من الراحة. وظلّ ينصت إلى كلمات كارتر بينما هو جالس على أحد كراسي الشواطئ والسيجار المطفأ في فمه ووجهه خالٍ من أية انفعالات ظاهرة. لكن في المساء، وبينما نحن حول طاولة العشاء التي جمعتنا مع اثنين من وزرائه وبعض مستشاريه، أطلق تعليقاً غير متوقع فقال: «عندما سمعت مديح كارتر لي شعرت بنشوة سرعان ما عنفت نفسي عليها قائلاً «تباً لي! ما هذا الغرور» ثم نفضتها عني بسرعة» والحق أنني أحتفظ بذكريات عديدة جيدة ولطيفة عن الجنرال تورّيخوس، لكن أياً منها لا يوفيه حقه مثل هذه الذكرى التي تعد ذكرى تاريخية بحق، لأن تلك الليلة تزامنت أيضاً مع اختتام جدول الأعمال التحضيرى لاجتماع رؤساء الدول المرتقب في بوغوتا. وجاء ذلك العشاء إثر يوم عمل طويل ومكثف ومليء بالتوتر، وقد زاد من حدته الطقس السيئ الذي هب من جهة المحيط الهادئ محدثاً دويماً وحطاماً داخل المنزل ومخلفاً أسراباً من الأسماك الميتة على

رمال الشاطئ بعد انحسار مياه المحيط الثائرة عنها. وبينما نحن نرقب الأخبار الواردة من واشنطن تلك الليلة، طغى الشك والقلق على حديث تورِيخوس رغم ما اشتهر به من حس دعابة وصبر ورباطة جأش، ولاسيما في مواجهة أحلك الضغوط العصبية، فقد أخذ يكرر قوله بأن «شعب بنما أعطاني شيكاً على بياض وليس بمقدوري أن أخذه». وكانت فكرة جمع خمسة من رؤساء الدول الصديقة لاستشارتهم بشأن المسودة النهائية للمعاهدة الجديدة مختمرة في ذهنه تماماً وبات الحصول على دعمهم السياسي والمعنوي له شديد الأهمية لدرجة قبوله الخضوع لأكثر ما يبغض في هذه الحياة ألا وهو المقابلات الرسمية.

ما العمل بخصوص المستحقات الملغونة؟

ظَلَّت المسألة العالقة خلال الاجتماع المنعقد تلك الليلة في فارايون هي إيجاد حل لمسألة المستحقات المالية التي تدين بها الولايات المتحدة بما أنها منذ توقيعها معاهدة بوانو-فاريا عام 1903 مع بنما لم تكن قد سددت سوى مليونين وثلاث مئة ألف دولار. وهو مبلغ زهيد جداً بالمقارنة بأرباح الولايات المتحدة، مما دفع بنما إلى المطالبة بألف مليون دولار فوراً كتعويض عن كل المبالغ المتراكمة دون سداد، إضافة إلى سداد مئة وخمسين مليون دولار سنوياً حتى الموعد المحدد لاسترداد بنما لسيطرتها على القناة في 31 كانون الأول/ديسمبر 1999. ولم تكن الولايات المتحدة ترفض سداد المبالغ المستحقة عليها فحسب، بل كانت ترفض الصيغة التي يتم بها تناول الموضوع لأن قبولها مجرد طرح مبدأ دفع التعويضات يعني إقراراً ضمناً منها بمسؤوليتها عن التسبب بأضرار، لذا لم توافق الولايات المتحدة سوى بعد جهد جهيد على استخدام كلمة «مكافأة»، وهي بالطبع تعني شيئاً مختلفاً تماماً عن كلمة «تعويض»، لكن تلك الكلمة كانت في هذا الموقف بالذات- سوف تؤدي إلى النتيجة نفسها. من ناحية أخرى، ظَلَّت الولايات المتحدة تساوّم بخصوص المبالغ المطلوب منها سدادها، الأمر الذي رآه تورِيخوس إيجابياً بما أنه كان يؤسس لمبدأ وجود مستحقات مالية عليها، لذا أصدر تعليماته إلى موفديه في واشنطن كي يستمروا في صراعهم من أجل المطالبة بتلك المستحقات. وكانت الولايات المتحدة تساوّم على إمكانية تنازل بنما عن تلك المستحقات حال حصولها على بعض مطالبها الكبرى لكن، بالطبع، كانت للجنرال تورِيخوس رؤية أخرى حول هذا الشأن لدرجة أنه عندما حاول أحد مستشاريه أن يقتعه مهوناً الأمر بقوله «مسألة الأموال ما هي في نهاية الأمر سوى قضية ثانوية»، رد عليه تورِيخوس بصورة قاطعة قائلاً: «نعم، المال مسألة ثانوية لكن لمن يملكه».

على كل حال، لم يكن هناك مناص من الصبر، فرغم العقبات كانت المفاوضات قد أحرزت، خلال ستة أشهر فقط من حكم كارتر، تقدماً كبيراً فاق ما تم إحرازه في عهد سابقه، وهو الأمر الذي أوحى بأن الولايات المتحدة نفسها كانت على عجلة من أمرها أكثر من بنما لإغلاق ذلك الملف، فقد بدا كارتر راغباً في إتمام تلك المعاهدة لإثبات حسن النوايا من أجل بدء مرحلة جديدة للعلاقات مع أميركا اللاتينية، ولم تكن أمامه فرصة إلا الفترة الممتدة حتى شهر أيلول/سبتمبر لطرح المعاهدة على الكونغرس للحصول على موافقته عليها. لكن بدا أن الطرفين جانبهما الصواب في مخططاتهما، بما أن المفاوضات بشأن المستحقات المالية دخلت طريقاً مسدوداً لم يتمكن أحد من إخراجها منه قبل انتهاء المهلة المحددة، ومن ثم بدا ضرورياً أن يسارع الجنرال تورِيخوس إلى طرح السؤال المعضلة على خمسة من رؤساء الدول الصديقة: «ما العمل، يا سادة، بخصوص تلك المستحقات الملعونة؟».

عيبه تلقائيته

كل من يعرف، ولو بصورة سطحية، الجنرال تورِيخوس شخصياً يعلم أن الطرق المسدودة قد تزعجه إلا أنها لا تثنيه عن غايته أبداً. فعلى سبيل المثال، بينما كانت الولايات المتحدة تصر في بداية المفاوضات على عدم تقديم أية تنازلات، قال الجنرال لأحد المسؤولين الأميركيين: «الأفضل لكم إذن، أن تردوا لنا القناة بشكل نهائي. فإن لم تفعلوا، سنظل نضغط عليكم سنوات وسنوات حتى تقولوا: «اللعنة!» ها هي قناتكم خذوها واتركونا في سلام». وعلى الرغم من أن الحديث عن دوافع إرجاع القناة بدا مختلفاً هذه المرة، إلا أن التاريخ يثبت أن تهديد الجنرال كان حقيقياً.

ولو وددنا مقارنة طباع الجنرال تورِيخوس بنماذج من عالم الحيوان لقلنا إنه مزيج بين النمر والبغل، فهو أشبه بالنمر من حيث امتلاكه غريزة خارقة ومكراً حقيقياً، بينما هو أشبه بالبغل من حيث عناده اللانهائي. فهاتان الصفتان هما أهم نقاط قوته، وقد تكونان أيضاً من أعظم نقاط ضعفه. أما عيبه الأساسي فكانت تلقائيته التي تصور الكثيرون خطأ أنها أعظم شيمه، وهي تتجلى في محياه الصبياني المتهور الذي استغله أعداؤه في الهجوم عليه، حتى أن الرئيس لوبيث ميشلسين نفسه، وهو الذي قلما يخطئ في تقويمه للناس، قال يوماً: إن الجنرال تورِيخوس يبدو رئيساً فولكلورياً. والحقيقة أنه كان حرياً بـ الرئيس ميشلسين أن يقول إن الجنرال يتمتع بتلقائية قد تبدو أحياناً في غير موضعها؛ ففي إحدى المرات مثلاً، استشاط أحد السفراء الأوروبيين غضباً لأن

تورّيخوس استقبله وهو مستلقٍ على أرجوحة شبكية كانت تحمل اسمه مطرزاً بخيوط ملونة، كما عاب بعضهم على الجنرال طلبه مساعدة سكرتيرته له في لبس جواربه، وفي إحدى المرات، تصادف وجود صياد ثمل على مقربة من بيت الجنرال في فارايون، وشرع الصياد في التطاول على الجنرال بل وانتهى به الحال إلى سب والدّة تورّيخوس، فما كان من الجنرال سوى أن أعطى أوامره للحرس ألاّ يقربوا السكير تلك المرّة، لكن عندما تكرر الأمر وازداد الصياد في تطاوله خرج الجنرال بنفسه إلى الشرفة ورد له الصاع صاعين وسب والدته بالمثل. ولعله كان بمقدور الجنرال تفادي شائعة مثل تلك الصورة السلبية عن نفسه لو حاول التصرف أحياناً بشكل أقل تلقائية، لكن مشكلته لم تكن في عدم قيامه بذلك فحسب، بل وعدم محاولته القيام به لعلمه بعجزه تماماً عن فعل ذلك، حتى أنه كان يفحم من ينتقدونه في هذا الشأن بقوله: «يجب ألاّ تنسوا أنني لست رئيس حكومة بلد أوروبي، إنما أنا رئيس بنما».

الفلاحون وحدهم هم القادرون عليه

كان والدا تورّيخوس معلّمين ينتميان إلى الطبقة الوسطى الريفية، لذا لم تكن شخصيته الحقيقية تتجلى سوى بين الفلاحين. كان يروقه التحدث إليهم بلغة خاصة يستعصي فهمها على غيرهم، كأنما كان بينه وبينهم نوع من التواطؤ الطبقي. ولعل هذا ما يفسر شعوره أثناء وجوده في العاصمة بأنه خارج بيئته الحقيقية، فرغم امتلاكه منزلاً فيها كان قد اشتراه قبل خمسة عشر عاماً عن طريق التأمين الاجتماعي، ورغم أن المنزل كان كبيراً هادئاً ومحاطاً بالأشجار، إلا أنه نادراً ما كان يمكث فيه. وأذكر أنني ذهبت ذات مرّة في زيارة مفاجئة إلى بنما وحاولت التوصل إلى الجنرال لكنني فشلت، فاضطرت إلى طلب مساعدة الحرس الجمهوري. وفي اليوم التالي، عندما تمكنت أخيراً من مقابلته مازحته ساخراً بقولي: أيّ حرس جمهوري هذا الذي يفشل على مدى اثنتي عشرة ساعة في تحديد مكان رئيس البلاد، فأجابني غارقاً في الضحك: «لقد كنت في منزلي الخاص وما كان ليخطر ببال أحد، بما في ذلك الحرس الجمهوري نفسه، أنني كنت هناك». ولقد تسنت لي رؤيته مرّة واحدة فقط في ذلك المنزل فبدأ لي شخصاً آخر. فقد رأيته يومها جالساً في مكتب صغير، مرتب، مكيف، ومليء بصور عائلية وذكريات من حياته العسكرية. وبخلاف المرات الأخرى، كان يومها يرتدي حلته المدنية، وكان واضحاً أنه لا يشعر بالراحة داخل ملابسه الرسمية، بل ولا حتى داخل جلده. ولم أشعر أنا بدوري بالراحة يومها لأنها كانت المرّة الأولى التي أحسست فيها أنه لا يستقبلني كصديق إنما كزائر غريب جاء لإجراء حوار معه. وقد يفسر هذا

سبب اعتياد تورّيخوس استقلال طائرته الهليكوبتر للذهاب للاستئناس بالفلاحين كلما سمحت له الفرصة بذلك. ولم يكن اعتياده الذهاب كثيراً إلى هناك هرباً من المشكلات بما أن مشكلاته طالما بدت له أكبر حجماً في الريف. ولقد اصطحبني ذات مرّة في زيارة لإحدى المناطق الريفية الجاري تنميتها في جميع أرجاء البلاد، فأطلعه الفلاحون آنذاك على ما أنجزوه بدقة وصراحة ثم طالبوه بإطلاعهم على إنجازاته لأنهم رغم بعدهم عن مركز الأحداث كانوا مهتمّين بآخر ما وصلت إليه المحادثات بشأن القناة. وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي رأيت فيها تورّيخوس مجبراً على تقديم عرض مستفيض وشفاف عن حال المحادثات بصورة لم يكن ليفعلها قط مع أي من محدثيه في المدينة.

المشكلة في أن يكون اسمك تورّيخوس

عندما سمعت تورّيخوس يتحدث إلى الفلاحين تأكد لي أنه يدرك أن توقيع المعاهدة لن يُخلّصه من مشكلاته، بل على العكس، سوف تبدأ مشكلاته الحقيقية فور توقيعها. فمسألة القناة كانت مُستنزفة للغاية لدرجة أن حلها كان سيترك فراغاً عميقاً في حياة البانامييين لن يتسنى ملؤه بشعارات، بل بإنجازات فعلية خاصة، وأن حالة الوفاق الوطني التي تشكلت من أجل إنجاز المحادثات شارفت على التلاشي. فهناك مثلاً، طبقة أصحاب رؤوس الأموال التي كانت، رغم محدودية عددها، ترتبط بمصالح قوية مع الولايات المتحدة. وقد دفعت تلك الطبقة بأفضل كوادرها وخدماتها من أجل حل قضية القناة، ولا شك أنها كانت ستطالب بنظير لمجهوداتها. وهناك أيضاً، شعب بنما الذي وفر لتورّيخوس دعماً غير مشروط وتضحيات فائقة، فهو بدوره كان ينتظر المقابل. إذن، كان هناك العديد من الاستحقاقات المؤجلة والوعود غير المستوفاة والتي تمت جميعها باسم الوفاق الوطني. وما بين رحي هاتين الكتلتين المتناظرتين بدا الجنرال تورّيخوس أشبه بأبطال همغواي الضّجرين بثقل انتصاراتهم.

أما الشيء الوحيد الذي لم يكن يعلمه أحد، ولم أجرو أنا بدوري على التقوه به صراحة، فكان رأي الجنرال تورّيخوس نفسه في تلك المعاهدة. فالسؤال الذي بدأ يطرح نفسه دون إجابة شافية كان عن موقفه من تلك المعاهدة لو كان مواطناً عادياً: أكان يصوت بنعم أم بلا في الاستفتاء العام على المعاهدة؟ والحقيقة أن حدسي ككاتب يدفعني للاعتقاد بأنه كان سيصوت إيجاباً لصالح المعاهدة حتى لو لم يكن في قرارة نفسه مقتنعاً تماماً بها، ويرى فقط أنها أفضل معاهدة يمكن إبرامها في ظل الظروف الراهنة، ويرى ضرورة بذل أقصى جهد لإبرامها على النحو الذي فعل

لأنها، رغم كل شيء، كانت تمثل نصراً مظفراً لشعب بنما. لكن، بلا شك، كان الجنرال تورّيخوس يرغب في المزيد ويؤمن بحقه في المطالبة بالمزيد، مثله في ذلك كمثل أغلب البانامييين، وأنا أقول هذا تحديداً بناء على حديثي مع أفراد من كل الطبقات والمشارب في بنما، ومن واقع علمي بأن الجنرال تورّيخوس كان أكثرهم راديكالية لكنه كان يختلف عنهم في كونه الوحيد الذي يحمل على عاتقه حملاً يثقل الكاهل ألا وهو حمل السلطة.

شهور الضباب - تشي في الكونغو²⁹

تعتبر فترة إقامة تشي غيفارا في الكونغو- التي امتدت من شهر نيسان/إبريل حتى شهر كانون الأول/ديسمبر من عام 1965- من أكثر فترات حياته اتشاحاً بالغموض. فلا يزال الضباب يغلف تلك الرحلة البطولية، حتى بعد مرور أكثر من عشرة أعوام على وفاته، وعلى الرغم من حقيقة أن أكثر من ألف شخص، قد تشارك في سرّيتها.

لعلّ أهم ما فيها من إبهام، يتعلق بمرگبات شخصية تشي وبهوية الساسة الذين دفعوه إلى خوض تلك الرحلة الصليبية، التي بدت آنذاك مغامرة لنسق تفكيره، ولا تتفق مع طبيعة شخصيته ولا مع خلفياته الثقافية.

كان تشي قد عاد من فوره منتصراً من هافانا في 14 آذار/مارس عام 1965، عقب جولة قادته حتى أطراف العالم النائية ورفعت من أسهم صورته الإدراكية، كفارس ثوراتٍ مغوار. بدا جلياً أنه قد عاد محملاً برغبةٍ شديدةٍ في الانضمام إلى صفوف ثوار الكونغو.

في الحقيقة، بعد عودته بما لا يزيد عن يومين، كتب إلى والدته رسالةً مطوّلة وغير عادية، حملت علامات وداع مشفرة. قال لها إنه ينوي أن يقضي فترة في جني القصب، تعقبها خمس سنوات أخرى، يقضيها في إدارة إحدى الصناعات الوطنية.

ظلت هذه الرسالة آخر أثر له قبل أن يظهر بعدها بعامين في أدغال بوليفيا.

حام العديد من الشائعات والتخمينات حول هذه السنوات الضبابية. لعلّ أكثرها شيوعاً هي أنّ المخابرات الأميركية قد رصدت عن قرب كل تحركاته، وأنها لم تكتف بوضعه قيد المراقبة اللصيقة، وإنما تجاوزت ذلك لمساعدته على التغلب على بعض العقبات -دون علمه بطبيعة الحال- حتى تقترب من كل تفاصيل أهدافه وخطواته. هذا لا يمنع أن تظهر ثمة دلائل تشير إلى أن المخابرات الأميركية تصدّق تلك الرواية الساذجة التي قالت بأن تشي قد لقي حتفه شتقاً، بعد خلاف مع كاسترو.

تم توجيه السؤال التالي إلى أحد كبار مسؤولي المخابرات الأميركية آنذاك: هل تعتقد بوجود تشي تحت سطح الأرض؟ فكانت إجابته: إنه بكل تأكيد، على عمق سبع أقدام تحت سطح الأرض.

الرحلة الطويلة

غادر تشي هاقانا في 25 نيسان/إبريل عام 1965. صحيح أنه في هذا اليوم نفسه كتب رسالته الشهيرة إلى كاسترو مودعاً إيّاه ومنتزلاً فيها عن رتبته العسكرية وعن كل ما يربطه رسمياً بحكومة كوبا، غير أنه من السذاجة بمكان، اعتبار أن تلك الرسالة كانت بمثابة فراق أو شقاق بينهما. فلم يحدث قط أن تأثرت أو اصر صداقتهما ولا حتى ميولهما السياسية المشتركة، بأي من الأنواء الدراماتيكية التي كانت تعصف، وقتذاك، بالثورة الكوبية. بل بالعكس، يمكن الجزم أن وجود غيثارا في إفريقيا كان بدعم وبموافقة من كاسترو، كما يمكن القول بأن غيثارا أراد أن يستزيد من الحيلة بكتابته تلك الرسالة الخالدة، رامياً إلى عدم توريط كوبا في أية تدخلات، على المستوى الدولي، وهادفاً لأن يقصر كل أنشطته تلك، على صفته الشخصية.

كانت المخابرات الكوبية هي من قامت بالترتيبات اللازمة لتلك الرحلة. وكانت هي من نفذت ذلك التحدي الكبير: إخفاء معالم وجه رجل تُزين صورته جدران نصف الكرة الأرضية، وتبرز شحمتي أذنيه إلى الأمام كعلامة معروفة للجميع.

لاحقاً، في رحلة عودته إلى كوبا، كان عليهم أن يصطنعوا له صلعة مبتكرة وأن يضعوا على وجهه نظارات ذات إطار كبير وسميك يقربه من مظهر القساوسة الأسبان. أما لو عدنا إلى رحلته إلى إفريقيا، فسنجد أن التنكر جاء أكثر بساطة: قصة شعر تقليدية وشوارب كثيفة وكبيرة الحجم، مع ملابس ذات لون أدكن على طراز إنكليزي ذي ياقة طويلة، كتلك التي يرتديها موظفو البنوك مع ربطة عنق ذات ألوان محافظة. لم يكن أحد ليتخيل تشي غيثارا بملابس مدنية. لا يسعنا أن ننسى هنا أن نشير إلى إجراء احترازي آخر للرحلة: لم يكن ليُدخن علناً سيجاره الكوبي الشهير الذي يشكّل مكوناً أساسياً من مكونات مظهره.

من الصعب تحديد الطريق الذي سلكه غيثارا من هاقانا إلى برازافيل، وإن كان من المؤكد أنه كان طويلاً وغامضاً. من المعروف أنه قد سافر عبر طيران تجاري وبجواز سفر لا يخصه وأنه لم يتعرّض لأي تفتيش جمركي في وقفاته المتعددة. لم يتصل بأي سفير في أي بلد مر به ولا

بأي من دبلوماسيي كوبا ولم ينزل بفنادق أو بمنازل أي من معارفه، بل في شقق مستأجرة مسبقاً. لم يكن برفقته سوى شخص واحد أسمر اللون وطويل القامة، هو في الوقت نفسه مساعده العسكري والمسؤول عن أمنه. كان رجلاً يلفت الأنظار أينما حلّ، ما حدا بتشي أن يطلب منه أن يلوّن وجهه بلون أفتح حتى لا يثير ريبة الناس عندما يمرّ بهم.

الرجل الثاني

كانت مهمة تشي هي تكوين فرق من المحاربين لخدمة المجلس الوطني الكونغولي الذي كان يناضل ضد موسى تشومبيه.

أجاد، كعادته، في تشكيلها على أحسن وجه وأبدع بأن شارك بنفسه في عدة معارك ضد مرتزقة المحتل البلجيكي، ممن كانت تحركهم شركات التعدين الدولية. يقال إن البعض قد عرف حقيقة شخصيته، غير أنهم حفظوا السر بدافع رد الجميل، فمن غير المعقول ألا يتعرّف إليه ما يزيد عن مئتي كوبي اجتمعوا به في إفريقيا، وظلّوا على تواصل معه طوال الثمانية أشهر التي أدى فيها مهمته.

أياً كان الوضع، فقد عُرف تشي هناك باسم: تاتو، بمعنى الرقم 2 في اللغة السواحيلية. كانت الفكرة وراء ذلك تعنيمية بحتة، فليس أفضل من وضعه في مرتبة التابع للتغطية على مكانته العليا. في الواقع، كان ترتيبه الثالث في المعارك حيث كان غاستون سومايلو هو الرئيس الفعلي للحركة، في حين كان لوران كابيلا هو مدير العمليات.

لم يكن استخدام الاسم الحركي «الرقم 2» بجديد على أسطورة تشي. فقد كان هناك قائد «ثانٍ» قضى نحبه في العام السابق في جبال الأرجنتين. إنه خورخي ريكاردو ماسيتي، مؤسس الصحافة اللاتينية وصديق تشي غيثارا الصدوق، الذي قد يكون تلقى وعداً منه بمساعدته على تحرير بلاده. كان اسم «الثاني»- بالأسبانية سيغوندو- المستعار بمثابة كناية مباشرة عن القائد الأول الهمام. مع كل ذلك، من المؤكد أن كلاً من ماسيتي في الأرجنتين وتشي في الكونغو، قد استخدموا ذلك الاسم المستعار تكريماً لبطل قومي كانا يتشاركان في أفكاره: سيغوندو سومبرا.

هناك سر آخر، يجدر تسليط الضوء عليه ألا وهو سبب مغادرة تشي للكونغو، بطريقة بدت للكثيرين، مفاجئة.

الرواية الأقرب إلى الواقع هي أن روسيا ضغطت على كوبا لإخراجه من البلاد، فوجوده في تلك المنطقة الملتهبة من شأنه أن يحرّج روسيا، على أساس صلته بالثورة الكوبية. ومع ذلك فالتفسير الحاكم هنا هو أن قادة الثورة الكونغولية كانوا قد اتفقوا على رحيل تشي بمجرد إسقاط موسى تشومبيه، وأنه قد غادر بالطريقة الحذرة نفسها التي جاء بها.

قبل أن يرحل، كان قد أنهى ترتيبات ذهاب الفتى الإفريقي الذي كان يعلمه اللغة السواحيلية على مدى ستة أشهر، للدراسة في كوبا .

كانت إحدى حيله في التخفي أثناء السفر، هي بلوغه المطارات في اللحظات الأخيرة قبل الإقلاع، بالكاد قبل أن تُعطى الأوامر بسحب سلم الطائرة، حتى لا يتسنى للسلطات فحص أوراقه بروية. خائنه حساباته في مطار دار السلام عاصمة تنزانيا، إذ كانت الطائرة على ممر الإقلاع، عندما وصل إلى المطار مع رفيق رحلته. غير أن القدر تدخل وأفسح المجال لوقوع معجزة إلهية: حضر ضابط من جيش زنبار، أكثر تأخراً منهما وطلب إيقاف الطائرة حتى يتسنى له اللحاق بها. لم يكن فيها سوى ثلاثة أماكن شاغرة. جلس تشي في جوار النافذة وجلس رفيقه في جواره في المنتصف، وجلس ضابط جيش زنبار على المقعد الطرفي بجوار الممر. بعد عدّة دقائق وبعد أن اكتشف أن جاره في الرحلة كوبي الجنسية، بدأ حواراً لم ينته، حتى بلغت الطائرة مقصدها، ولم يخرج عن موضوع واحد: تشي غيفارا.

في الحقيقة، كان ضابط الجيش قد سافر عدّة مرّات إلى كوبا وهناك كان قد تعرّف عن قرب، إلى تشي وأصبح معجباً به إلى درجة لم تدعه يتوقف عن الحديث عنه طوال ساعات الرحلة الست.

انزوى تشي في جوار النافذة وتظاهر بانهماكه في القراءة أو بالنوم مغطياً وجهه بالكتاب. تحمّل بصعوبة بالغة عطشه وجوعه ورغبته في التبول، وهو يستمع إلى الحوار الدائر عنه في طائرة مزدحمة، حملته ليوصل على متن رحلات أخرى، سفره عبر نصف الكرة الأرضية، في طريق عودته إلى كوبا.

يقال: إن فيدل كاسترو كان في استقباله في المطار. يقال أيضاً: إنهما قد اختليا في حوار مطوّل دام ثلاثة أيام. لم يكن في الغرفة جهاز تسجيل ولم يكن هناك من يدوّن الملاحظات، لكن من المؤكد أن ذلك الحوار المطوّل، قد شهد ميلاد قرار نقل الكفاح المتوقف في إفريقيا إلى أميركا اللاتينية.

بـالفعل بعـد مـرور سـتة أشـهر، ظـهر تـشي فـي بـوليـفـيا.

«الثورة تكتب بحروف استهلاكية»³⁰

«حوار مع ريجيس ديبراي»

غابرييل غارسيا ماركيز: يعتقد الكثير من الناس أن موتك كان ليفيد الثورات في أميركا اللاتينية، أكثر من حياتك. ما قولك في ذلك؟

ريجيس ديبراي: أعتقد أن هذا صحيح، بلا أدنى شك، خصوصاً من وجهة النظر الدينية. فدماء الشهداء تكون بذرة لأبطال المستقبل. كما أنها تمثل التضحية في أسمى معانيها. وتأدية الواجب موتاً تخلق نوعاً مفيداً من أشباح الأرواح، خصوصاً عندما تقوم الثورة في بلد كاثوليكي. إنها أرواح مفيدة ومطلوبة بدرجة ما: طبيعة الإنسان تدفعه إلى تقليد الأمثلة والميت يعطي مثلاً أكثر تأثيراً من الحي. كما قال أحد، ممن لا أتذكرهم: الموتى لا يؤذون.

لا يمكن أن يفوتني أن أشير إلى أن تمكني من الحفاظ على حياتي هو عمل قد لا يكون أخلاقياً، بالدرجة الأولى، وإن لم تكن لي يد في ذلك. ففي كل مرة، كانت مجموعة من المصادفات، التي لم أتمكن من تفسيرها حتى يومنا هذا، تتدخل في الأمر. اعتقدت دائماً، أن من أنقذني في بوليفيا، هو أحد المصورين ممن يعملون بالأجر، إذ التقط لي صورة، في مايوباما، بعد نصف ساعة من اعتقاله. شاهدني في إحدى ردهات قسم الشرطة حيث كنت أحد المشتبه فيهم. لاحقاً، نشر الصورة وكان ذلك بعد أيام من إذاعة الجيش نبأ وفاتي في إحدى المعارك. عرفت أخيراً، أن نيجاتييف الصورة قد وصل إلى الصحيفة عن طريق مصادفة أخرى. فمن حمله، دون أن يدري أهميته، كان قد أوشك أن ينساه مع طرود أخرى على مقعد مجاور له بالحافلة التي استقلها.

في أثناء الثورة، كان تأثير الموتى يفوق تأثير الأحياء. لكن لا بد أن ننتظر لنرى ما إذا كان ذلك ينطبق على ثورات الغد. كل شيء يتوقف على ما أقدمه فيما تبقى من حياتي. فالثورة تواصل مسيرتها في حين يلزم الأموات أماكنهم. أعتقد أن موتي سيكون أكثر نفعاً لثورة المستقبل، عن ثورة الماضي. سيؤتي موتي ثماره على أرضي أفضل منه على أرض غريبة. أو من بوجود تناغم

ما، بين دم الإنسان وبين المكان الذي سيوارى فيه. أي فرنسا في حالتي. بمعنى أنه لا داعي لليأس. الصبر.. الصبر. لا يزال مقدراً لكم أن تتحملوني بعض الوقت.

غابرييل غارسيا ماركيز: متى تعتقد أنه بإمكانك أن تجزم، ولو بالتقريب، بأنك ستكون نافعاً للثورة المقبلة أيضاً في مماتك أكثر من حياتك؟

ريجيس ديبراي: ليس من السهل التنبؤ بمثل هذه الأمور. لابد أن تثق بالقدر، الذي لم تنقصه الحكمة قط. لا يوجد في العالم ما هو أصعب من الموت في الوقت غير المناسب. لا يمكننا أن نخطيء: لا يمكن أن يحل أجلنا مستقدياً أو مستأخراً. لا يمكن أن نترك الفرصة تمر ولا أن نستبقها. في النهاية لم يتطوع للموت سوى الفاشية. فالثوار الحقيقيون يؤمنون أكثر بالحياة ويؤكدون معناها من خلال الموت، على عكس الفاشيين، الذين لا يبحثون عن شيء في الحياة سوى التكرار الأجوف للموت. أنا الآن قانع بكوني لا أزال على قيد الحياة وأحاول أن أستعد جيداً لما هو آت.

غابرييل غارسيا ماركيز: وما هو الآتي؟

ريجيس ديبراي: غضب كبير على الإدارات السياسية لليساريين، فالانفجار على وشك الوقوع. أتحدث عن فرنسا، خلال شهر أيار/مايو المقبل. فهو ليس بالبعيد وسيشهد الحدث الجلل. أقله، سنسعى أن يكون كذلك.

غابرييل غارسيا ماركيز: فلنتحدث عن السياسة، على الرغم من أننا نراك اليوم كروائي كبير، حاصل على جائزة فيمينام عام 1977. ألا ترى أن هذه النقلة من المقال السياسي إلى الأدب هي بمثابة خيبة أمل سياسية؟

ريجيس ديبراي: لو كان الأمر كذلك، لما غاب عني الأمل طويلاً. دعني أخبرك أنني عدت إلى المقال السياسي، فقريباً سيصدر لي كتاب: رسالة إلى شيوعيي فرنسا، وهو سيؤكد لك أن تذكرك رحلتي إلى عالم الأدب كانت ذهاباً وإياباً.

غابرييل غارسيا ماركيز: في هذه الحالة، دعني أسألك لمجرد رغبتني في مقارنة شعورك بشعوري، كيف ترى رحلة الذهاب والإياب هذه؟

ريجيس ديبراي: لعل تلك المغادرة ثم هذه العودة هما بمثابة تواصل بين ما هو حالي وما هو ليس بحالي في عالم الفن. بين الكلمات التي تمر وتلك التي تظل باقية. بين ما هو نفعي وأناي

مثل السياسة، وما هو غير نفعي ولكنه ضروري مثل الرواية، التي أراها هامة للكثيرين مثل الهواء لعملية التنفس. لقد انتقلت من المقال إلى الرواية، بينما فعلت أنت عكس ذلك. لا أقصد بطبيعة الحال أنك قد غرقت في حماسة السياسة، بينما وقعت أنا في براثن الإحباط. فليس الأمر بهذه البساطة.

غابرييل غارسيا ماركيز: النقطة التي أقصد هي رغبتني في أن أتيقن من استمرار إيمانك بالثورة. فالكثير من أصدقائنا وأعدائنا يطرحون هذا التساؤل، خصوصاً في أميركا اللاتينية. لن يسامحوني على تقويت فرصة طرح هذا السؤال عليك.

ريجيس ديبراي: أو من بالثورة مثلما آمنت بها طوال عمري -خصوصاً ثورة كوبا- وأعتقد أن إيماني بها الآن أفضل مما سبق، لأنني الآن أعرف سبب إيماني بها. أو من بضرورة إسقاط الإمبراطوريات وبأهمية المزايا النفعية للكثير من المنظرين وبأفكار كارل ماركس. غير أنني أعتقد أنه في لحظة ما من عمر الثورة، يجب أن نجردها من تلك النظرة التعظيمية البغيضة التي ننظر إليها بها، لتستعيد عظمة المعاشة اليومية، ولمس الواقع والاقتراب من الأفراد من أمثالي أنا وأنت، بكل أشكالنا وأحلامنا ومشاعرنا. كلنا سئمنا كل تلك الشخصيات الاعتبارية الكثيرة مثل الوطن والثورة والحزب والتاريخ والإنسانية - ترقى جميعها إلى مستوى الإعلام وتكتب بحروف استهلاكية- التي أثبتت على أرض الواقع، كيف يمكن أن تتجرد وتتخلّى عن مبادئها الأخلاقية. من الضروري أن تقترب الثورة من نمط حياة عامة الناس وتتعرّف إلى أحلامهم وأن تتساءل عن كيفية الممارسة الجنسية لهؤلاء الأشخاص الذين يتخفون خلف تلك الكلمات المعظمة. يجب أن نتعرّف عن قرب إلى الثوار وإلى الرجال وإلى النساء وإلى تلك العناصر التي تصنع التاريخ دون أن تعي ذلك.

غابرييل غارسيا ماركيز: ألا ترى أنك تحاول أن تنزع عنها صفة الأسطورة التاريخية؟

ريجيس ديبراي: على الإطلاق. إنها أخلاق الثورة الحقيقية: استكشاف كل من العلة والكيفية والحديث عما هو كائن وليس عما يجب أن يكون. من أجل هذا، تم ابتداع الرواية. فالصياغة السياسية تصرّف جميع الأفعال في زمن المستقبل، في حين لا تهتم الرواية سوى بالزمن الحاضر، وهنا نجد الكثير مما يجب أن نعمل عليه. فبصفة عامة، أغلب الحديث عن الثورة لا ينصب على الواقع. أعتقد أن كاسترو هو من قال، ذات مرة، بضرورة أن تعمل النخب على الاهتمام بالمواطن الفرد وبالعامة من الناس. وهي مهمة الروائي نفسه. من ثم لا أرى مجالاً للإحباط. ينصب اهتمام الروائي على التفاصيل، حيث إن الحياة ما هي إلا تراكم لتفاصيل كثيرة ولألوان متنوعة وأشكال متعددة. بهذا المنطلق نفسه، لا يمكن للثوار أن يظلوا حبيسي العموميات.

غابرييل غارسيا ماركيز: ينتابني شعور سيئ بأنك تقصد، في الأساس، يسار أميركا اللاتينية. هلا توضح لي كيف تراه في هذه اللحظة؟.

ريجيس ديبراي: أرى أنه يمر بمرحلة عصبية، بلا شك. لكن، وجود كوبا - يمنع أن يتمكّن أحد من القضاء عليه-. لن ينزلق اليسار اللاتيني إلى هوة العجز. فهذا اليسار، مثل غيره في العالم، له ما له وعليه ما عليه، على مدى التاريخ. أكبر أخطائه هي حركات النضال التي نادت بمبدأ «السلاح دون الشعب» وحركة الإصلاحيين السلمية التي عملت بمبدأ «الشعب دون السلاح». لا بد من تحليل هذه السقطات، ليس فقط من حيث تأثيراتها وإنما أيضاً، من حيث أسبابها. فعدم تسليط الضوء على أسباب الهزيمة أصعب من تحمل معاناة خزيها. لست أنا بالشخص الناصح لغيري، لأنني لست معلماً، لكن تقلقني آفة النسيان والانصراف عن دراسة تاريخ الوطن. ناهيك عن هذا الخلط بين التغاضي عن أخطاء النفس والموسوعية حول ما يفعله الغير، مما أراه على بعض الزملاء. أعتقد أن يسار أميركا اللاتينية سيكون أكثر يسارية، إذا ما كان أقل عالمية.

غابرييل غارسيا ماركيز في هذا السياق، كيف ترى تشي غيثارا الآن، بعد عشر سنوات على رحيله؟.

ريجيس ديبراي: كثيراً ما أراه، حيث لا أتوقع. أراه أمامي كما لو كان ينتظرنا على قارعة الطريق، بابتسامة ساخرة وحذرة ومرحة. ولسان حاله يقول: «ماذا يعتقد هؤلاء الأوروبيون ببرلماناتهم وانتخاباتهم وأساليبهم السلمية؟» في رأيي، سيظل تشي رمزاً أبدياً لمأسوية الحروب والصراعات ولثمن الدّم والعرق ولأي تقدم اجتماعي يمكن أن يتحقق. أعتقد أن تشي هو الوحيد الذي يمنعني حتى يومنا هذا، ويمكن حتى آخر الدهر، من أن أتحوّل عن قناعة وثبات إلى «شيوعي أوروبي» مثلما قد يفعل من يقيم في أوروبا ثابت القدمين. هنا يظهر لنا تشي ليذكرنا بقيمة مبادئنا. لقد استكشف تشي طرقاً، سنصل إليها إن عاجلاً أو آجلاً. فقد كان أول من تنبأ بأن إفريقيا ستكون أرض الصراعات الاستراتيجية. لا ننس أنه أول من فتح الطريق إلى أنغولا. كما أن تشي هو الذي أكد لنا أن حفنة رجال أحرار، في أي بقعة من العالم، تكون قادرة على إحداث التغيير. إن نقد الطليعة- من حيث ادعاؤها الخطير التحدث باسم الشعب والتصرّف نيابة عنه - هو السائد في أوروبا على مدى آخر عشر سنوات، إلا أنها لن تجعلنا ننسى أن هذا الإنكار التام لدور الطليعة والضمير يصب شئنا أم أبينا في الانسحاب العام. هنا أيضاً نجد أن ضميرنا هو «تشي».

غابرييل غارسيا ماركيز: شهرة الفرنسيين بجهلهم بالجغرافيا تفوق شهرة خمورهم وأنواع الجبن لديهم، أسمح لي أن أسالك، كونك فرنسي الجنسية: هل تعرف شيئاً عن كولومبيا؟

ريجيس ديبراي: لا أتذكر عنها الكثير مما تعلمت في صغري. لدي صورة ذهنية ما وأطياف مبهمة. عندما أسمع حديثاً عن كولومبيا، أتخيل بارونة في عقدها الخامس.. عزباء.. وعذراء.. وريفية.. فيها نبل عريق.. ولا تملك الكثير من المال.. تتمسك بمبادئها وتذهب للاعتراف صبيحة كل أحد. في النهاية، هي سيّدة لا تعيش زمانها وهي متديّنة وقوية في الوقت نفسه. إنها جارة فنزويلا، التي أراها كصبيّة ذات بشرة بلون القشدة، وتنتمي إلى الطبقة الشعبية وهي خفيفة وحيوية وإن كانت مبتذلة.. نوعاً ما.

جمال سحر كولومبيا هو جمال روحاني أكثر منه مادياً، وهو وإن كان قليل الظهور، إلّا أنه أكثر ضماناً على المدى الطويل، كما يقول الأميركان. لعلّي أوضحت، بهذه الصورة البيانية الواضحة موقفى العميق الرافض للإهمال، ومارست حقى كاملاً، في تصوير هذا الشبح الغبي، الذي يسمى حقوق الإنسان، التي يدافع كل منا عنها، بطريقته.

غابرييل غارسيا ماركيز: وبعد؟

ريجيس ديبراي: بعد كل هذا، سأتوجه إلى كوبا في الأيام المقبلة. إنها أنجع علاج لي، على مدى سنوات طويلة، ضد البلاهة والأشباح ونفاق الرأسمالية.

ضربة الساندينيين وقائع اقتحام بيت الخنازير³¹

بدأت الخطة بسيطة بساطة الجنون نفسه.

فهي تقتضي الاستيلاء على قصر ماناغوا الوطني في وضح النهار، ثم احتجاز أعضاء الغرفة البرلمانية كرهائن، وبعد ذلك يتمّ التفاوض على مبادلتهم بمطلب إطلاق جميع السجناء السياسيين.

مقر القصر الوطني هو مسخ من مبنى قديم. يتكوّن من طابقين وله طابع أثري. تبلغ مساحته حوالي عشرة آلاف متر مربع وله نوافذ كثيرة تنتشر على جوانبه الأربع. تزيّن واجهة المبنى، التي تطلّ على ميدان لا ريبوبليكا المهجور، أعمدة قبيحة من طراز بارثينون. كما يضم المبنى، بالإضافة إلى مجلس النواب الذي كان يحتل الطابق الأول وغرفة البرلمانين في الطابق الثاني، مقار وزارة المالية ووزارة الحكومة والإدارة العامة للدخول.

كل هذا جعل منه أكثر مبنى حكومي في ماناغوا يرتاده المواطنون ويكتظ بهم طوال ساعات العمل.

يتولى أمنه فرد من قوّات الشرطة ذو تسليح كامل عند كل مدخل، بالإضافة إلى اثنين آخرين عند الدرج المؤدي إلى الدور الثاني والعديد من الحرس المسلّح الخاص بالوزراء والبرلمانيين. أثناء ساعات العمل، يجتمع في أرجاء هذا المبنى حوالي ثلاثة آلاف شخص في مكاتب وممرّات وطوابق سفلى.

على الرغم من كل هذا، لم تعتبر جبهة الساندينيين للتحرير الوطني أن اقتحام هذه السوق البيروقراطية سيكون من قبيل الجنون والسذاجة وإنما على العكس تماماً، سيكون فيه انتصار كبير يحسب لها.

في الحقيقة، كان السياسي المخضرم، إيدن باستورا هو صاحب وواضع الخطة منذ عام 1970. غير أنها لم تدخل مرحلة التنفيذ، إلّا في شهر آب/أغسطس ذاك، عندما ظهرت دلائل تشير

إلى أن الولايات المتحدة الأميركية قد قرّرت مساعدة سوموزا على الاحتفاظ بعرشه الدامي حتى عام 1981.

كان سوموزا قد صرّح، في غرور كعادته، عقب عودته من واشنطن أخيراً: «يخطيء من يراهن على صحتي، فأنا أفضل من آخرين». بعدئذ تم الإعلان عن ثلاثة قروض بأربعين وخمسين وستين مليون دولار على التوالي. وأخيراً، جاءت رسالة الرئيس كارتر الشخصية لتهنئة سوموزا بتحسّن أوضاع حقوق الإنسان في البلاد، لتفيض بها الكأس.

دفع تصاعد حدّة الاحتجاجات الشعبية، جبهة الساندينيين للتحرير الوطني إلى ضرورة تبني رد فعل حاسم، فكان أن قرّرت تنفيذ الخطة المجمّدة منذ ثمانية أعوام.

بما أنها كانت تقوم على اختطاف برلمانيي النظام، تقرّر أن يكون اسمها الحركي: عملية حظيرة الخنازير. بمعنى: اقتحام بيت الخنازير.

صفر- واحد- اثنان

وقعت مسؤولية العملية على كاهل ثلاثة من الأعضاء المشهود لهم بالكفاءة. أولهم كان الرجل صاحب الفكرة الذي كان لابد وأن يتولى قيادتها. كان اسمه الحقيقي يتفق مع اسم شاعر نيكاراغوا الكبير: روبين داريو. إنه إيدن باستورا. يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً منها عشرون عاماً مكرّسة بكثافة للنضال، كما كان ذا قدرة كبيرة على اتخاذ القرارات، حتى لو لم يساعده مزاجه المرح الرائع، على إخفائها. وُلد في بيت محافظ، وأنهى دراسته الثانوية في مدرسة للآباء اليسوعيين ودرس الطب ثلاث سنوات بجامعة غوادالاخارا بالمكسيك. أنهى دراسته في خمس سنوات بدلاً من ثلاث نظراً إلى اضطراره للعودة إلى بلده للانضمام إلى بعض المعارك، ليعود بعدها إلى مواصلة دراسة الطب. كل ما يتذكره من مرحلة صباه هو قتل والده على يد الحرس الوطني لأنستازيو سوموزا غارسيا وهو في السابعة من عمره.

بما أنه سيتولى القيادة، فإن لوائح جبهة الساندينيين للتحرير الوطني تقتضي أن تكون كنيته: صفر.

الرجل الثاني كان هوجو توريس خيمينيث، عضو مخضرم من أعضاء صفوف الثوار، في الثلاثين من عمره وذو تكوين سياسي وعسكري شديد الكفاءة. كان قد شارك في عملية اختطاف

أفراد من عائلة سوموزا خلال أحد الاحتفالات العائلية. تم الحكم عليه غيابياً بثلاثين عاماً من السجن وعاش بعدها تحت التخفي التام في ماناغوا.

كما تقتضي اللوائح، فقد تمت تسميته بالرقم واحد.

أما الرقم اثنان فقد كان من نصيب دورا ماريّا تيلليث، المرأة الوحيدة في الكوماندو. كانت شابة في الثانية والعشرين من العمر، على قدر كبير من الجمال والخجل وذات تفكير ثاقب وذكاء ورجاحة عقل تؤهلها لأية مهمة كبرى في الحياة. هي أيضاً درست الطب في ليون مدة ثلاث سنوات. تقول: «اعتزلت الطب بعد أن أصابني الإحباط، فمن الصعب علاج الأطفال الذين يعانون نقص التغذية بكل هذا المجهود المضني، ليعودوا إلى المستشفى بعد ثلاثة أشهر، وقد تدهورت حالتهم أكثر». جاءت من جبهة الشمال: «كارلوس فونسيكا أمادور». تعيش متخفية منذ كانون الثاني/يناير 1976.

بلا شعر ولا لحية

كانت فرقة الكوماندو تتكوّن من ثلاثة وعشرين آخرين، اختارتهم جبهة الساندينينيين للتحريض الوطني بعناية شديدة، من بين صفوف جميع اللجان الفرعية بنيكاراغوا، ممّن يتمتّعون بالإقدام والبرسالة القتالية وحداثة السن. وهو ما كان مفاجئاً. فباستثناء باستورا، كان متوسط الأعمار هو 20 عاماً. كما ضم الكوماندو ثلاثة أعضاء في الثامنة عشرة من العمر.

اجتمع أعضاء الكوماندو الثلاثة والعشرون للمرّة الأولى في منزل آمن بماناغوا، قبل ثلاثة أيام من التنفيذ. لم يكن أحد منهم يعرف الآخر، باستثناء الثلاثة الأوائل، ولا كانت لديهم فكرة عن طبيعة العملية. كل ما تم إبلاغهم به هو أنهم سيقدمون على عمل جريء ذي خطورة كبيرة على حياتهم، وقد وافقوا.

لم يكن أي منهم قد دخل القصر الوطني، عدا القائد صفر، إذ كانت والدته تصطحبه إلى هناك، في صغره، لتدفع الضرائب. بينما كانت معلومات دورا ماريّا، الرقم اثنان، عن الصالون الأزرق، حيث يجتمع رجال البرلمان، مأخوذة عن مشاهداتها التلفزيونية. أما بقية أعضاء الكوماندو، فلم يكونوا قد رأوا القصر ولو من الخارج ولا حتى خطت أقدامهم قبل ذلك في مدينة ماناغوا. على الرغم من ذلك، وضع القادة الثلاثة خطة شديدة الإحكام، مرسومة بدقة علمية، على

يد طبيب بجبهة الساندينينيين للتحريض الوطني. قبل تاريخ العملية بثلاثة أسابيع، كانوا قد حفظوا عن ظهر قلب جميع تفاصيل المبنى، كما لو كانوا قد عاشوا فيه نصف عمرهم.

وقع الاختيار على يوم الثلاثاء، 22 آب/أغسطس، حيث كان مقررًا مناقشة الميزانية العامة وهو ما كان ينبغي بحضور مكثف. في تمام الساعة التاسعة والنصف صباحاً وبعد أن أعلن الحجاب بداية اجتماع غرفة البرلمان، تم إطلاع الثلاثة وعشرين شاباً على تفاصيل الخطة وتم إسناد مهمة واحدة محدّدة إلى كل منهم. تم تقسيمهم ست فرق، يتكون كل منها من أربعة أعضاء بطريقة مركبة ولكنها فعّالة. فقد تم ترقيم كل منهم برقم يشير إلى مجموعته ومركزه فيها.

كانت عبقرية الخطة تقتضي بأن يقدموا أنفسهم على أنهم مجموعة تدريب من مدرسة التعليم الأساسي للمشاة التابعة للحرس الوطني. فجاء زيهم بلون أخضر زيتوني حاكته خيَّاطات سريّات على أقيسة مختلفة، وتم شراء أحذية عسكرية يوم السبت السابق من عدّة متاجر متفرّقة. تسلّم كل منهم حقيبة ظهر ومنديل جبهة الساندينينيين للتحريض الوطني، ذا اللونين الأحمر والأسود، بالإضافة إلى منديلي جيب لاستخدامهما في حالة الإصابة ومصباح إضاءة يدوي وقناع ونظّارة لمواجهة الغازات. هذا غير أكياس بلاستيكية لتخزين مياه الشرب عند الطوارئ وكيس بيكربونات صوديوم لاستخدامها في مواجهة الغازات المسيلة للدموع. حوت الحقيبة معدّات عامة أخرى: عشرة حبال من النايلون أطوالها متر ونصف المتر لتقييد الرهائن وثلاث سلاسل حديدية بأقفال لإغلاق أبواب القصر الوطني من الداخل.

لم يحملوا أيّة معدات طبية فقد كانوا يعرفون أن الصالون الأزرق يحوي خدمات طبية وأدوية الإسعافات الأولية الضرورية.

في النهاية تم توزيع الأسلحة عليهم وكانت تتطابق مع تلك التي يستخدمها الحرس الوطني، من غنائم معارك سابقة. كان التسليح عبارة عن بندقيتين نصف آليتين من طراز يوزي وأخرى من طراز جي3 وأخريين من طراز م3 وم2، بالإضافة إلى عشرين بندقية من طراز جاراند ومسدس من طراز براونينغ وخمسين قنبلة يدوية. كما تم تزويد كل عضو بثلاث مئة طلقة.

كانت أصعب لحظة هي ساعة أن طلب منهم حلق رؤوسهم ولحاهم التي أطالوها بعناية على جبهات القتال. إذ لم يكن مسموحاً لأحد من جنود الحرس الوطني بأن يربي لحيته أو أن يطيل شعره، بينما يُسمح بإطالة الشوارب لرتب الضباط فقط. لم يكن هناك بد من الحلق والتقصير، وبما أن جبهة الساندينينيين للتحريض الوطني لم تعثر على حلاق ذي ثقة، فقد تولى كل واحد منهم الحلاقة

لزميله. قامت إحدى الزميلات الجريئات بقص شعر دورا ماريا لإخفاء شعرها الأنثوي حتى لا يظهر تحت البيريه الأسود.

بعد التأخير المعهود من أعضاء غرفة البرلمان، بدأت جلستهم في الساعة الثانية عشرة إلا الثلث، في الصالون الأزرق. لم يكن في الجلسة سوى حزبين: الحزب الليبرالي، وهو حزب سوموزا الرسمي، وحزب المحافظين، الذي يقوم بلعب دور المعارضة المستأنسة. كان الباب الزجاجي للمدخل الرئيسي يظهر مدرّج مقاعد الليبراليين عن اليمين ومدرّج مقاعد المحافظين عن اليسار، في حين ترتفع في صدر القاعة، منصة الرئاسة الطويلة. خلف كل مدرّج كانت هناك حواجز الحزب ومنصة للصحافيين. غير أن شرفة مدرّج المحافظين كانت مغلقة منذ فترة طويلة، في حين كانت شرفة الليبراليين مفتوحة دائماً ومكتظة بمؤيديهم ممن يتقاضون رواتب شهرية.

في ذلك الثلاثاء، كان المكان أكثر ازدحاماً عن المعتاد، بحضور حوالى عشرين صحافياً جلسوا في المكان المخصص لهم. حضر تلك الجلسة ستة وستون برلمانياً وكان اثنان منهم يساويان وزنهما ذهباً بالنسبة إلى جبهة الساندينينيين للتحرير الوطني: لويس باليه دييالي، ابن شقيق أناستازيو سوموزا وخوسيه سوموزا أبريجو، نجل الجنرال خوسيه سوموزا، الأخ غير الشقيق للديكتاتور.

جاء الرئيس

كان النقاش حول الموازنة العامة، قد بدأ حوالى الساعة الثانية عشرة، عندما توقفت، أمام البوابتين الجانبيتين للقصر الوطني، سيارتا نقل عسكريتان من طراز فورد، بلونهما الأخضر الرسمي وبغطاء قماشى يغطي مقاعد خشبية في الخلف. كان معروفاً أن على كل بوابة، رجلي شرطة مسلّحان ببندقية، وكانا من الخبرة والفطنة بحيث لاحظا على الفور أن لون السيارتين الأخضر كان أكثر لمعاناً من اللون الذي يستخدمه الحرس الوطني. بسرعة ملحوظة، نزلت من السيارتين ثلاث مجموعات من الجنود في نظام عسكري.

في البداية، نزل القائد صفر أمام الباب الشرقي، تبعته ثلاث تشكيلات من الجنود. أما الأخيرة، فقد كان على رأسها القائد اثنان: ماريا دورا. بمجرد أن لمست قدمها الأرض صاح صفر بأعلى صوته:

- افسحوا الطريق، لقد وصل الرئيس.

فسح حرّاس الباب الطريق على الفور وترك صفر أحد رجاله على الحراسة معه. صعد صفر الدرج حتى الدور الثاني يتبعه رجاله، وهم يطلقون صيحات الحرس الوطني، عندما يقترب الرئيس سوموزا، ووصل إلى مكان وجود شرطيّين مسلّحين بمسدس وهراوة. سحب صفر سلاح الأوّل وجردت اثنان سلاح الثاني بالصيحة المربكة نفسها: الرئيس قادم!.

تركا اثنان من جنودهما يتمركزان عند هذه النقطة، وكان الموجودون بالممرات قد سمعوا الجلبة وشاهدوا الجنود المسلّحين وحاولوا الابتعاد. فقد كان رد فعل الشعب التلقائي في ماناغوا، هو الهروب عندما يحضر سوموزا.

كانت مهمة صفر المحددة هي دخول الصالون الأزرق والسيطرة على البرلمانين، علماً بأنه كان يعرف أن جميع الليبراليين وكثيراً من المحافظين، يحملون سلاحاً. كانت مهمة الرقم اثنان هي تغطية هذه العملية من أمام الباب الزجاجي الكبير، الذي يمكن من عنده السيطرة على المدخل الرئيسي للمبنى. كان من المنتظر أن يجدا شرطيّين مسلّحين، على الجانبين.

في الأسفل، حيث البوّابة ذات الأسوار الحديدية، كان هناك حارسان ببنادقهما وسلاحهما نصف الآلي. كان أحدهما نقيباً بالحرس الوطني.

اخترق صفر واثنان، تتبعهما تشكيلات جنودهما، صفوف الحضور المذعورة حتى وصلا إلى باب الصالون الأزرق وهناك فوجئاً بأن أحد الشرطيّين يحمل بندقية. صاح صفر مجدداً: الرئيس قادم!! وجردّه من سلاحه بينما سحبت اثنان سلاح الآخر، غير أن الشرطيّين كانا أول من فطن إلى عملية الخداع وفرّا مسرعين إلى خارج المبنى. عندئذ، أطلق حرّاس البوّابة النار على رجلي الرقم اثنان اللذين ردّا بطلقات صامتة. لقي نقيب الحرس الوطني حتفه على الفور في حين أصيب الآخر. تمت السيطرة حينئذ على المدخل الرئيسي، غير أن الرقم اثنان تركت بعض الرجال هناك لتأمينها.

لينبطح الجميع!

بمجرد سماع صوت طلقات الرصاص الأولى، أسرع الساندينيون، ممن كانوا على حراسة الأبواب الجانبية، إلى إخراج رجال الشرطة غير المسلّحين، كما كان مخططاً، وأغلقوا الأبواب

من الداخل بالجنازير والأقفال؛ وهرعوا لدعم زملائهم، وسط زحام شديد يهرول بلا هدف، بعد أن أصيب بالذعر.

في تلك الأثناء، كانت الرقم اثنان قد وصلت إلى نهاية الممر، بعد أن عبرت مدخل الصالون الأخضر، ووصلت إلى مقصف البرلمانين. دفعت الباب ببندقيتها من طراز إم2، وهي تستعد لإطلاق النار. لم تجد أمامها سوى مجموعة من الرجال المنبطحين على الأرض وقد غطّت أجسادهم سجادة المكان الزرقاء. كانوا مجموعة متنوعة من البرلمانين الذين لم يكادوا يسمعون صوت إطلاق النار حتى استلقوا على الأرض. أما حراسهم الشخصيون، فقد استسلموا بلا مقاومة، ظناً منهم أن الأمر يتعلّق بالحرس الوطني.

أما الرقم صفر، فقد دفع بقصبة بندقيته الجي3، الباب الزجاجي الكبير للصالون الأزرق فوجد أمامه غرفة البرلمان وقد وقف متمسراً: اثنان وستون رجلاً من السمر يحدقون ناحية الباب وقد علت وجوههم أمارات الذهول. خشي الرقم صفر أن يتعرّف إليه أحد، فقد كان بعضهم زملاء له في مدرسة الرهبان اليسوعيين، فأطلق بعض الطلقات في اتجاه السقف وهو يصيح:

- الحرس! لينبطح الجميع!.

خرّ الجميع مستلقين على الأرض خلف المقاعد، باستثناء باليه ديباييلي، الذي كان يتحدث عبر الهاتف، على منصدة الرئاسة، فقد تجمد مكانه بلا حراك. لاحقاً، ربما استطاع الجميع تفسير أسباب ذعرهم، فقد اعتقدوا أن الحرس قد انقلب على سوموزا وأنهم، إنما جاؤوا إليهم ليقتلوهم.

أما في الجناح الشرقي للمبنى، فقد سمع الرقم واحد صوت إطلاق النار، بعد أن كان رجاله قد جرّدوا شرطة الطابق الثاني من سلاحهم وكان هو في طريقه إلى نهاية الممر، حيث مقر وزارة الحكومة. على عكس قوّة الرقم صفر، كانت قوّة الرقم واحد قد دخلت بتشكيل عسكري وكانوا يتركون أحدهم عند كل مرحلة ليؤدي المهمة المنوطة به.

دفعت القوة الثالثة، تحت قيادة الرقم ثلاثة، باب الوزارة، في الوقت نفسه الذي كان الرقم صفر يطلق طلقاته على السقف. عند مدخل الردهة، وجدوا نقيباً وملازماً أوّل من الحرس الوطني وبعض حرس الوزير يستعدون للخروج، بعد أن سمعوا الطلقات. لم يسعف الوقت جنود القوّة الثالثة ليتمكّنوا من إطلاق النار. دفعوا الباب الذي أمامهم وهناك وجدوا أنفسهم داخل مكتب مبعثر وبارد، يجلس خلفه رجل في الثانية والخمسين من عمره، يكاد الصلع يغطي رأسه ويده مرفوعتان إلى الأعلى دون أن يطلب أحد منه ذلك. كان المهندس الزراعي، خوسيه أنطونيو

مورا، وزير الحكومة وخليفة سوموزا بقرار من مجلس النواب. استسلم دون أن يعرف لمن، على الرغم من أنه كان يحمل في حزامه، مسدس براونينغ وثلاثة مخازن معبأة في جيوبه.

في تلك الأثناء، كان الرقم واحد قد بلغ الباب الخلفي للصالون الأزرق، وهو يقفز فوق أجساد الرجال والنساء المستلقين على الأرض. قامت الرقم اثنان بالفعل نفسه، بمجرد أن ولجت من الباب الزجاجي وهي تدفع أمامها البرلمانين الذين وجدتهم في المقصف. استغرق منهما الأمر، بضع لحظات، حتى أدركوا أن القاعة تبدو خاوية نتيجة استلقاء البرلمانين جميعهم على الأرض، خلف المقاعد.

في هذه اللحظة سُمع بالخارج تبادل خفيف لإطلاق النار. خرج الرقم صفر من القاعة ووجد فرقة من الحرس الوطني يقودها نقيب، تطلق النار من عند الباب الرئيسي للمبنى، على الثوار الذين يحرسون مدخل الصالون الأزرق. ألقى عليهم الرقم صفر قنبلة، شتتتهم وأنهت الهجوم. ساد المبنى صمت مطبق، بعد أن أغلقت أبوابه بالجنازير الحديدية وراح أكثر من ألفين وخمس مئة شخص، مستلقين على الأرض يتساءلون عن مصيرهم.

لم تدم العملية، كما كان مخططاً لها، أكثر من ثلاث دقائق.

وساطة الأساقفة

وصل الخبر إلى أنستازيو سوموزا ديبايلي، رابع من قمع نيكاراغوا، من الأسيرة نفسها أكثر من أربعين عاماً، عندما كان يهم بالجلوس لتناول الغداء في القبو المكيف بقلعته الخاصة. كان رد فعله المباشر هو الأمر بإطلاق النار دون تمييز على القصر الوطني.

تم تنفيذ الأمر، غير أن قوات الحرس الوطني لم تتمكن من الاقتراب إذ تصدّت لها قوات الساندينينيين، بمدافعها الرشاشة المنطلقة من نوافذ القصر على جهاته الأربع. حامت مروحية فوق القصر مدة عشرين دقيقة وأطلقت وابلًا من طلقات المدافع الرشاشة على نوافذ القصر وتمكنت من إصابة أحد الثوار في ساقه: الرقم اثنان وستون.

بعد مرور عشرين دقيقة على إعطائه الأمر بضرب القصر الوطني، تلقى سوموزا أول اتصال من داخل القصر. جاءه صوت ابن عمه، بالييه ديبايلي، لينقل إليه رسالة جبهة الساندينينيين للتحرير الوطني: إما أن يوقف إطلاق النار وإما أن يبدأوا بقتل الرهائن. رهينة واحدة كل ساعتين حتى تتم الموافقة على مناقشة الشروط. أمر سوموزا بوقف إطلاق النار.

جاءه الاتصال الثاني، بعد دقائق معدودة من ابن عمه بالييه ديبايلي، ليبلغه رغبة جبهة الساندينينيين للتحرير الوطني في وساطة ثلاثة من أساقفة نيكاراغوا: نيافة الأسقف ميغيل أوباندو برافون، أسقف ماناغوا الذي سبق وأن تولى الوساطة في حادث الهجوم على احتفال سوموزا عام 1974. ونيافة الأسقف مانويل سالاثار إي إيسبينوسا، أسقف ليون. ونيافة الأسقف ليوفيلدو لوبيث فيتوريا، أسقف غرناطة.

تصادف أن كان ثلاثتهم في ماناغوا لحضور اجتماع خاص.

وافق سوموزا.

لاحقاً، ونزولاً عند رغبة الساندينينيين، انضم إلى لجنة الوساطة كل من سفير كوستاريكا وسفير بنما.

عهد الساندينينون، بمهمة التفاوض الثقيلة إلى إصرار وحكمة الرقم اثنين. أنهت مهمتها الأولى في الثالثة إلا ربعا مساء وكانت تتلخص في تسليم الأساقفة رسالة خطية بالشروط:

الإفراج الفوري عن السجناء السياسيين الذين ترد أسماءهم في القائمة التي كانت مرفقة.

إذاعة بيان الجبهة السياسي على كل وسائل الإعلام ونشر اعتراف سياسي مطول وسحب القوات إلى مسافة ثلاث مئة متر بعيداً عن القصر الوطني.

الموافقة الفورية على مطالب العاملين في قطاع الصحة المضربين، وعشرة ملايين دولار وضمانات بسلامة خروج الكوماندو والسجناء المفرج عنهم إلى بنما.

بدأت المفاوضات مساء ذلك الثلاثاء واستمرت طوال الليل وانتهت في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء التالي. في هذه الفترة كانت المفاوضات قد دارت خمس جولات داخل القصر الوطني، إحداها في الساعة الثالثة من فجر الأربعاء، وفي الحقيقة لم تكن الأربع وعشرون ساعة الأولى تبشر بنهاية سعيدة لذلك المخاض العسير.

كان من غير المقبول بالنسبة إلى سوموزا أن يوافق على طلب إذاعة جميع التقارير الحربية أو قراءة التقرير السياسي المطول الذي سبق وأن أعدته جبهة الساندينينين للتحريض الوطني. غير أنه كان من المستحيل بالنسبة إليه أن يطلق سجناء القائمة. ففي الحقيقة، كانت تلك القائمة تضم، عن قصد بطبيعة الحال، أسماء عشرين ساندينياً، يُعتقد أنهم قد لقوا حتفهم في السجن نتيجة التعذيب أو الإعدام القسري، وإن كانت الحكومة تنكر ذلك.

تداول سوموزا

أرسل سوموزا إلى القصر الوطني ثلاث رسائل مكتوبة بعناية فائقة على الآلة الكهربية. لم تحمل أيّ منها توقيعاً وكانت ذات أسلوب غير رسمي ولا تخلو من غموض. لم يعرض قط حلاً وسطاً، وإنما اكتفى بتنفيذ شروط الثوار. ظهر جلياً من أوّل رسالة أنه يحاول أن يكسب بعض الوقت، وهو على اقتناع تام بأن خمسة وعشرين مراهقاً، لا يمكن أن يصمدوا طويلاً وهم يأسرون أكثر من ألفي شخص وسط ظروف قلق وجوع ونعاس.

من ثم، جاء رده الأول في التاسعة من مساء الثلاثاء، في منتهى الصلافة ليطلب مهلة أربع وعشرين ساعة للتفكير.

غير أن رسالته الثانية، التي وصلت في الثامنة والنصف من صباح الأربعاء، جاءت لتضع الغرور محل الصلافة، وإن كانت توحى بقبول بعض الشروط. بدا السبب واضحاً: وصل المفوضون إلى القصر في الثالثة من فجر الأربعاء ليدركوا أن حسابات سوموزا خاطئة تماماً. كان الثوار قد بادروا إلى إخلاء سبيل بعض النساء ممن تبين حملهن وكذلك جميع الأطفال.

سَلَمُوا الصليب الأحمر، جثث الجنود المتوفين والمصابين وبدا الجو داخل القصر هادئاً ومنظماً. في الطابق الثاني، حيث مكاتب الموظفين الإداريين، غط الكثير منهم في نوم عميق على الأرائك أو المكاتب، بينما استغرق آخرون في التلهي ببعض ألعاب قتل الوقت. لم تكن هناك أية مظاهر عدائية البتة تجاه الشبان الأربعة الذين كانوا يجوبون المكان لتأمينه كل أربع ساعات. بل أكثر من ذلك، كان البعض قد أعد لهم القهوة، في بعض المكاتب العامة، وأعرب الكثير من الرهائن لهم عن تفهمهم لموقفهم وتأييدهم، وطلبوا أن يظلوا معهم طواعية حتى النهاية.

تم تجميع الرهائن الذهبية في الصالون الأخضر. كانت تعليمات الثوار لهم هي الالتزام والحرص والجدية، كما في الطابق الأول. لم يبد أي من النواب مقاومة تذكر. فقد جردوهم من أسلحتهم بمنتهى السلاسة، ومع مرور الوقت بدا عليهم التذمر من تباطؤ سوموزا في اتخاذ القرارات. أما الثوار فقد كانوا يعكسون الثقة والاحترام والجرأة. جاء ردهم حاسماً على غموض الرسالة الثانية: إن لم تصلنا إجابات محددة خلال أربع ساعات، ستبدأ عملية تصفية الرهائن.

يبدو أن سوموزا قد أدرك، عند هذه المرحلة، خطأ حساباته وبلغه خطورة انقلاب الرأي العام عليه مما قد بدأ يظهر في أكثر من بؤرة في البلاد.

في الواحدة والنصف من ظهر يوم الأربعاء، وفي رسالته الثالثة، وافق على أكثر الشروط مرارة: إذاعة رسالة جبهة الساندينينيين للتحريض الوطني السياسية، على جميع قنوات البلاد. في السادسة مساءً، بعد ساعتين ونصف الساعة، انتهت إذاعة البيان.

خمس وأربعون ساعة بلا نوم

على الرغم من عدم التوصل إلى أي اتفاق، ظهر أن سوموزا قد بدأ يستسلم مع ظهر يوم الأربعاء. في الواقع، في تلك الساعة، كان سجناء ماناغوا قد تلقوا أوامر بإعداد حقائبهم للسفر. أغلبهم كان على علم بالأحداث عن طريق حراسهم، الذين عبروا للكثيرين لهم سرّاً عن سعادتهم

من أجلهم. في بقية أنحاء البلاد، كان سجناء السياسة يرحّلون إلى ماناغوا، حتى قبل التوصل إلى اتفاق.

في تلك الساعة نفسها، كانت أجهزة الأمن، تبلغ الجنرال عمر تورّيخوس، بأن موظفاً نيكاراغوياً من الدرجة المتوسطة، يسأل عن إمكانية توفير طائرة للثوّار والسجناء الذين تم إطلاق سراحهم. وافق تورّيخوس قبل دقائق من تلقيه اتصال رئيس فنزويلا، كارلوس أندريس بيريث، الذي كان يتابع عن كثب المفاوضات وكان شديد القلق حيال مصير الساندينيين، ليعرض التعاون والتنسيق مع زميله البنمي، في عملية النقل. مساء ذلك اليوم، استأجرت حكومة بنما طائرة تجارية من شركة كوبا، في حين ساهمت فنزويلا بمروحية ضخمة. جثمت الطائرتان في مطار بنما على أهبة الاستعداد، في انتظار انتهاء المفاوضات.

انتهت المفاوضات في الرابعة من مساء الأربعاء، وقبل هذا الوقت بساعتين، حاول سوموزا أن يفرض على الثوّار مهلة ثلاث ساعات لمغادرة البلاد، غير أنهم رفضوا لسبب واضح: السفر ليلاً. تم تخفيض العشرة ملايين دولار إلى خمس مئة ألف، وقرّرت جبهة الساندينيين للتحرير الوطني، عدم مناقشة ذلك. لأن المال لم يكن مطلبهم الأساسي، هذا غير أعراض التعب والإرهاق التي بدأت تظهر على أعضاء الكوماندو، بعد يومين من اليقظة تحت هذه الضغوط القوية.

أول من لاحظ الأعراض الخطيرة على نفسه، كان الرقم صفر، عندما وجد صعوبة في تحديد موقع القصر الوطني على خريطة ماناغوا. بعد ذلك بقليل، اعترف الرقم واحد بأنه قد بدأ يسمع أصوات قطارات حقيقية، تعبر ميدان الجمهورية. بعدها لاحظ الرقم صفر، أن الرقم اثنين لم تعد تقوى على حمل رأسها وأن بندقيتها توشك أن تسقط من يدها. أدرك بعدها ضرورة الإسراع في الانتهاء من فصول تلك الدراما التي كانت تمر دقيقة بدقيقة على مدى خمس وأربعين ساعة.

وداع وحبور

في التاسعة والنصف من صباح الخميس، خرج من القصر الوطني، ستة وعشرون ساندينياً وخمسة مفوضين وأربع رهائن، في طريقهم إلى المطار. كان الرهائن هم من أهم الشخصيات: لويس باليه ديبايلى وخوسيه سوموزا وخوسيه أنطونيو مورا والنائب إدواردو شامورو. في الوقت نفسه كان ستون سجيناً سياسياً من مختلف أنحاء البلاد قد صعدوا على متن

الطائرتين اللتين ستتوجهان إلى بنما، حيث سيطلبون اللجوء السياسي بمجرد وصولهم. بطبيعة الحال كان ينقصهم العشرون الذين لم يعد من الممكن إنقاذهم.

كان الساندينيون قد اشترطوا عدم ظهور أي جنود على مرمى بصرهم وأن يتم إخلاء شوارع طريقهم إلى المطار. لم يتم الالتزام بأي من هذين الشرطين، فقد نشرت الشرطة قوات الحرس الوطني لمنع أية مظاهر تأييد من الشعب. كانت محاولة فاشلة. فقد رافقت أعداد كبيرة من الناس الحافلة المدرسية في طريقها، وشهدت الشوارع خروج الكثيرين للاحتفال بالانتصار، كما رافق الحافلة حتى المطار عدد كبير من السيارات والدراجات البخارية. اندهش إدواردو شامورو من مظاهر الحبور الشعبي تلك. رد عليه الرقم واحد الذي كان يجلس إلى جانبه، بنبرة ارتياح:

- كما ترى، هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن شراؤه بالمال.

شعب كوبا في مواجهة الحصار³²

في أوّل ليلة من سريان تنفيذ المقاطعة الاقتصادية، كان لدى كوبا 482560 سيارة و343300 ثلاجة و549700 مذياع و303500 تلفاز و352900 مكواة و286400 مروحة و41800 غسالة أوتوماتيكية و351000 ساعة يد و63 قاطرة و12 سفينة تجارية. كل ذلك كان من صناعة أميركية، ما عدا ساعات اليد، إذ كانت سويسرية الصنع.

ربما لن يدرك أهل كوبا ما كانت تمثله تلك الأرقام المخيفة في حياتهم، قبل انقضاء ربح طويل من الزمان. ففيما يتعلّق بالإنتاج، صحت كوبا على حقيقة أنها ليست بلدًا مستقل الوجود، وإنما كانت مجرد شبه جزيرة تجارية تتبع الولايات المتحدة الأميركية.

ليس هذا كل شيء، إذ كانت صناعات السكر والتبغ مثلاً، تخضع للسيطرة التامة لعدد من التحالفات الاقتصادية التي تخص الشركات الأميركية. كما كان تصنيع السلع الاستهلاكية الخاصة بالجزيرة يتمّ بمعرفة الولايات المتحدة الأميركية، سواء في مصانع بأميركا أو على أرض كوبا. كانت «هاقانا» ومدينتان أو ثلاث مدن أخرى من المدن الكوبية، توحى ظاهرياً بالفخامة الرغيدة، غير أنها لم تكن تمتلك شيئاً من ذلك، بداية من معجون الأسنان وحتى الفنادق المؤلفة من عشرين طابقاً وذات الواجهات الزجاجية بمنطقة «ماليكون».

كانت كوبا تستورد من أميركا ثلاثة آلاف سلعة من ضروريات أو غير ضروريات الحياة اليومية. إلى درجة أن أهم عملاء سوق الأوهام تلك، لم يكونوا سوى السياح الأميركيين أنفسهم المقبلين بالعبارة من «وست بالم بيتش» أو بالقطار البحري من «نيو أورليانز»، إذ كانوا يفضلون أن يشتروا من تلك السوق الحرّة منتجات بلادهم معفاة من الضرائب. فلم يكن من الغريب أن نجد ثمار البابايا الأصلية التي اكتشفها «كريستوفر كولومبس» في رحلته الاستكشافية الأولى، تباع في المتاجر، مجمّدة وعليها العلامة الورقية الصفراء لمزارع «الباهاما». وليس من العجيب أن يختم بيض المفارخ المحلية، الذي كانت ربات البيوت ينفرن منه لصفاره الزفر وطعمه المنفر الممتزج بنكهة الأدوية، بخاتم مصانع مزارع كارولينا الشمالية، حتى وإن كان بعض التجّار، ممن تنبهوا

لسبب إعراض الزبائن عنه، يقومون بغسله بمساحيق الغسيل ثم يلطخونه ببراز الدجاج ليبدو طبيعياً ثم يبيعونه على أنه كذلك.

لم يسلم قطاع استهلاكي واحد من سيطرة الولايات المتحدة الأميركية. حتى أن المصانع القليلة التي أقيمت في كوبا للاستفادة من انخفاض تكلفة الأيدي العاملة في تصنيع بعض المنتجات الخفيفة، كانت تعتمد على آلات أميركية الصنع وسابقة الاستخدام وذات طرز بائدة. كان أمهر الفنيين يحملون الجنسية الأميركية، في حين استسلم معظم الفنيين الكوبيين لإغراء العروض البرّاقة التي تأتيهم من أرباب أعمالهم، وهاجروا إلى الولايات المتحدة الأميركية. لم يكن هناك، بطبيعة الحال، مخازن لقطع غيار آلات تلك المصانع، فقد كانت تلك الصناعات الوهمية قائمة على فكرة أن قطع الغيار متوافرة على بعد تسعين ميلاً ويمكن طلب إحضارها تليفونياً وأنها ستشحن على متن أوّل رحلة طيران، خالصة الضرائب وبلا أية تعقيدات جمركية.

على الرغم من الجذور العميقة لهذه التبعية الاقتصادية، إلا أن أحداً لم يحسب تبعاتها وواصل سگان المدن الكبرى الإنفاق ببذخ، حتى مع دخول المقاطعة الاقتصادية حيّز التنفيذ. فكان أكثر الكوبيين استعداداً لبذل روحه من أجل الثورة- والكثير منهم قدّمها بالفعل- لا يتوانى في إنفاق نقوده، في حبور طفولي. أضف إلى ذلك، أن الثورة كانت قد رفعت من القدرة الشرائية للكثيرين من أبناء الطبقة الفقيرة ممن لم تكن فكرتهم عن السعادة تخرج عن إنفاق المال. كانوا يشاهدون أحلامهم المؤجلة على مدى نصف حياة أو حتى على مدى حياة كاملة، تشق طريقها إلى الواقع في سهولة ويسر. غير أن السلع التي كانت تنفذ من الأسواق لم يكن في الإمكان توفيرها بسهولة ولا حتى بصعوبة، فغابت لسنوات عن الأسواق، وخلت رفوف المتاجر، بعد أن كانت عامرة بكل أنواع السلع، وغدت خاوية على عروشها.

كانت كوبا في تلك المرحلة الأولى، مملكة للارتجال والفوضى. ففي غياب معايير الأخلاقيات، - كان الأمر يتطلب مرور سنوات عدّة لكي تستقر في ضمائر الناس- تنامي الغرور الذكوري الخاص بمنطقة الكاريبي وصعد إلى مستويات عالية، وسط أجواء حالة الطوارئ تلك. فعصفت الرياح العاتية بالشعور الوطني بلا هوادة وألقت عليه موجات من التجديد والتحرّر، تزامنت مع الرهاب من ردة فعل الشعب المجروح. اكتسب كل من التيارين القوة والتغلغل الواقعي لكي يخلط الكثير من الناس بينهما، فكنا نجد أصواتاً تتعالى لتطالب بالحرب وحتى بإطلاق الرصاص للقضاء على شح الحليب مثلاً. كان انطباع العظمة الذي كانت تتركه كوبا في عيون زوارها من الأجانب، في تلك السنوات، ينبع من أساس الواقع الذي كان، وما تركه من تأثير في

تركيبية الشعب الكوبي، غير أن كل ذلك اتضح بعد ذلك، أنه مجرد نشوة طفولية تقف على شفا كارثة محققة.

عدت للمرة الثانية إلى «هافانا» مع مطلع عام 1961، بصفتي مراسلاً متنقلاً لبعض الصحف اللاتينية. وكان أول ما لفت نظري في البلاد هو عدم وجود تغيير يذكر في الشكل العام، مع زيادة تنامي الضغوط الاجتماعية، إلى حدود تثير القلق. ركبت الطائرة من «سانتياغو» إلى «هافانا» في أمسية رائعة من أمسيات شهر آذار/مارس ورحت أتأمل من نافذتي حقول الوطن الشاسعة وقد جفت أنهارها والقرى الصغيرة التي يعلوها الغبار والخلجان المستتررة وكذا آثار الحرب التي غطت أجزاء كبيرة من الطرق.

رُسمت على سطوح مباني المستشفيات دائرة بيضاء يتوسطها صليب أحمر، في محاولة لتجنيبها أي عمليات قصف مرتقبة. العلامة نفسها استخدمت أيضاً على سطوح المدارس والمعابد ودور المسنين. في مطاري «سانتياغو» و«كاماغوي» نصبت مدافع مضادة للطائرات تغطيها أقمشة كتلك التي تغطي عربات النقل، في حين كانت اللنشآت السريعة تجوب السواحل بعد أن تغيرت مهمتها من مراكز للهو في الماضي، إلى تولي مسؤولية منع الرسو على السواحل، في الحاضر.

كانت معظم الأماكن تشي بعمليات تخريب حديثة الأثر، فكانت حقول زراعات القصب محروقة من جرّاء إلقاء قنابل نارية عليها من طائرات آتية من «ميامي»، في حين تناثرت بقايا مصانع نسفتها المقاومة الداخلية، كما انتشرت مخيمات عسكرية عشوائية في بقاع يصعب الوصول إليها، لتستخدم فيها الجماعات الأولى المعادية للثورة، أحدث الأسلحة وتُسخر لها أفضل الإمكانيات اللوجستية.

أما في مطار «هافانا» فقد كان جلياً أن هناك محاولات لإخفاء آثار المعارك، إذ امتدت لافتة ضخمة بطول المبنى الرئيسي عليها عبارة: «كوبا أرض تحرّرت من السيطرة الأميركية». وبدلاً من الحرس القديم من ذوي اللحى، كان هناك مجندون من الشباب ومن بعض الشابات، يرتدون زياً أخضر بلون الزيتون ويحملون أسلحة تعود إلى ترسانة الديكتاتورية القديمة. حتى ذلك التاريخ، لم يكن متاحاً سواها، فأول سلاح حديث تمكنت الثورة من شرائه، رغم الحصار الأميركي، وصل من بلجيكا في الرابع من آذار/مارس الماضي على متن السفينة الفرنسية «Le Coubre» وهي السفينة التي تم تفجيرها، عمداً في ميناء «هافانا»، بحمولتها التي كانت تقارب السبع مئة طن من الأسلحة بالإضافة إلى كميات من مؤن المخازن. حصد الهجوم أرواح خمسة وسبعين شخصاً وأصيب فيه

مئتان آخرون من عمّال الميناء. لم تعلن أية جهة مسؤوليتها عن الحادث، في حين نسبته حكومة كوبا إلى المخابرات الأميركية.

شهدت مراسم دفن ضحايا هذا الهجوم، إطلاق الرئيس فيدل كاسترو مقولته الشهيرة: «الوطن أو الموت» التي تحوّلت بعد هذا اليوم إلى شعار كوبا الحديثة. رأيت هذا الشعار أوّل مرّة في شوارع «سانتياغو»، ثم رأيتّه ينتشر مرسوماً بخطوط غليظة ليغطي لافتات إعلانات شركات الطيران ومعاجين الأسنان الأميركية، على طريق مطار «كاماغوي». ولم يمضِ وقت طويل، حتى أصبحت أراه باستمرار مكتوباً بخطوط يدوية على لافتات وكراتين داخل قاترينات محال السيّاح بمطار «هافانا»، وفي الممرّات وعلى طاولات العرض. بعدها، أخذ ينتشر مكتوباً بالجير الأبيض على مداخل محال تصفيف الشعر وبأقلام أحمر الشفاه على زجاج سيّارات الأجرة. تعمّق هذا الشعار داخل المجتمع لدرجة أنه لم يبق هناك أي مكان ولا حتى لحظة زمنية، لا تقرأ فيها هذا التعبير عن الغضب، ابتداء من جفان المعاصر حتى هوامش المستندات الحكومية. كما راحت الصحافة ومحطات الراديو والتلفزيون تكررّه بلا كلال ولا ملل، على مدى ساعات اليوم وأيام الشهور الطويلة، حتى تشربّه نسيج روح الحياة في كوبا.

كانت «هافانا» مسرحاً لأوج مراحل العرض. وقفت النساء الجميلات يغنين على الشرفات وانتشرت العصافير ذات الألوان الزاهية على طول السواحل، تصاحبها الموسيقى الراقصة في كل مكان. ولكن وسط كل ذلك، كان هناك شعور خفي بالمأزق الناتج من أسلوب حياة عفا عليه الزمان، ويستमित في التمسك بوجوده، في مواجهة أسلوب حياة مختلف لا يزال بريئاً، وإن كان نابعاً من القلب ومختلفاً عمّا قبله.

كانت المدينة لا تزال هيكلًا للملذات وتنتشر على نواصيتها وحتى في صيدلياتها، ماكينات القمار وتخرقها سيارات فارهة لا تسعها الشوارع، غير أن سلوكيات الناس فقط هي التي كانت تتحوّل بطريقة فظة. كانت كل رواسب باطن الأرض قد طفت على السطح وانطلقت لتغرق شوارع المدينة بموجات من الحمم البشرية ذات طبيعة متشدّدة وحادة، راحت بدورها تنشر أعراض المس الشعبي حتى في أصغر الشقوق.

أكثر ما كان يلفت النظر هو تلك البساطة التي جلس بها الفقراء على مقاعد الأغنياء في الأماكن العامة. فقد زحفوا إلى أبهاء الفنادق الفخمة واستخدموا أيديهم في الأكل على شرفات «الفيدادو» واحترقوا بنار الشمس في حمّامات سباحة نوادي النخبة في «سيبوناي». قام فندق

«هيلتون هافانا» - الذي تغيّر اسمه إلى «هافانا ليبري»³³ - باستبدال كلب الحراسة الأشقر بحرّاس ودودين، راحوا يقضون يومهم وهم يحاولون إقناع القرويين بأن بمقدورهم الولوج إلى الداخل، دون أن يخشوا شيئاً. كما كانوا يشرحون لهم كيف أن هناك ناحية من باب الدخول الدوّار مخصّصة للدخول وأخرى للخروج وأنهم لن يصابوا بالسل إذا ما دخلوا وهم متعرّقون إلى البهو المكيف الهواء.

حاول أحد سگان «لويانو» الأصليين، ببشرته السمراء وقامته الهيفاء وقميصه ذي الفراشات المرسومة وحذائه اللّماع ذي الكعب الذي يشبه كعوب راقصي الأندلس، أن يدخل فندق ريفيرا من اتجاه الباب الدوّار المخصص للخروج في الوقت نفسه الذي كانت تخرج منه زوجة دبلوماسي أوروبي، في كامل زينتها وفي منتهى الأبهة. ارتبكت وحاول زوجها الذي كان يتبعها أن يدفع الباب في اتجاه الخروج، في حين كان الحرّاس يحاولون سحب الباب في الاتجاه المعاكس، مما نتج منه حشر الرجل الأسمر مع السيدة البيضاء داخل المساحة المخصصة لعبور شخص واحد، لوضع ثوان في تلك المصيدة الزجاجة، إلى أن دار الباب مجدداً وخرجت السيّدة محمّرة الوجه ومرتبكة، ودون أن تنتظر زوجها، أسرع في الارتقاء داخل السيّارة الليموزين، التي كانت تنتظرها وهي مفتوحة الأبواب، ثم ما لبثت أن انطلقت مسرعة في الحال. أما الرجل الأسمر، فلم يع تماماً ما الذي حدث، وإن كان قد ذهل لوهلة، تنهّد بعدها قائلاً:

- اللعنة.. رائحتها كعبير الورد.

أصبحت تلك التشاحنات متكرّرة ومفهومة، حيث إن القدرة الشرائية لسكان الريف والحضر كانت قد ارتفعت بنسبة ملحوظة خلال عام واحد. انخفضت أسعار الكهرباء والاتصالات والنقل والخدمات العامة إلى مستويات آدمية. كما هوت أسعار الفنادق والمطاعم والنقل وأصبح تنظيم رحلات من الريف إلى المدن ومن المدن إلى الريف يكاد يكون مجّاناً.

من ناحية أخرى، انخفضت معدلات البطالة وارتفعت حدود المرتبات وحلّ الإصلاح المدني مشكلة غلاء الإيجارات الشهرية وأصبح التعليم والخريجون المؤهلون في متناول اليد. أما عن العشرين فرسخاً من شواطئ الرمال العاجية بمنطقة «قاراديرو»، التي كانت مملوكة لشخص واحد ويقتصر التمتع بها على فئة واحدة من أغنى الأغنياء، فقد أصبحت مفتوحة بلا قيود لكل الناس بمن فيهم الأغنياء. كان الكوبيون، مثل بقية شعوب الكاريبي، يعتقدون أن وظيفة النقود هي إنفاقها، ولأوّل مرّة في تاريخهم استطاعوا أن يختبروا ذلك عملياً.

كنت ضمن قلة من الناس أدركت الإيقاع الخفي الذي تسلّل به الاحتياج إلى حياتنا. فحتى بعد أن تم إنزال الجنود بشاطئ «خيرون»، ظلّت كازينوهات القمار مفتوحة وكانت الغواني، بعد أن افتقدن السيّاح، يجبن الجوار بحثاً عن محظوظ الروليت الذي سيتكفل بليلتهم. كان من الواضح، أنه مع تغيّر الظروف، أصبحت تلك الطيور السمراء أكثر سُمرّة وأقلّ سعراً. وفي جميع الأحوال، كانت ليالي «هاقانا» و«غوانتانامو» طويلة وساهرة وموسيقى البيوت تمتد حتى مطلع الفجر. كانت هذه المشاهد من الحياة السابقة لا تزال طبيعية ووفيرة ولم تتأثر بالانفجارات الليلية ولا بالشائعات المتكرّرة عن الاعتداءات الوحشية ولا باستمرار المعارك التي أصبحت في خبر كان.

كان يتعذر على المطاعم أحياناً توفير اللحوم بعد منتصف الليل، ولكننا لم نكن لنهتم، إذ كانت توفر لنا الدجاج. وعندما لا يجدون الموز، كانوا يقدمون لنا البطاطا الحلوة. لم نكن ندرك نحن ولا عازفو الموسيقى في النوادي ولا متسكعو الليل من البوازل الذين لا يفارقون كؤوس الجعة في انتظار ما سيأتي به الليل، حجم التدهور الذي راح يطبع أسلوب الحياة اليومية في البلاد.

بدأت تظهر في محال السوبر ماركت الطوابير الأولى وتشكلت سوق سوداء بدائية وإن كانت ناشطة، تهدف إلى السيطرة على السلع الصناعية. لم يع أحد جدياً أن ظهورها يعني عدم توافر سلع معينة، ولكن بالعكس، نظروا إليها على أنها نتيجة طبيعية لتوافر الأموال في يد الجميع. في هذه الفترة، احتاج أحدنا إلى قرص أسبيرين بعد الخروج من السينما، فلم نجده في ثلاث صيدليات. وجدناه في الرابعة وأخبرنا الصيدلي في هدوء أن الأسبيرين كان شحيحاً منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر. في الواقع، لم يشح الأسبيرين فقط، وإنما مواد أساسية أخرى سبق وأن فقدت من الأسواق، ولكن يبدو أن أحداً لم يصدق أنها ستختفي تماماً. بعد مضي عام على إعلان الولايات المتحدة الأميركية الحصار الاقتصادي والتجاري على كوبا، ظلّت الحياة تسير بلا تغييرات جذرية في روح الناس وإن لم تكن كذلك في الواقع.

أدركتُ شخصياً معنى المقاطعة بطريقة قاسية وإن كانت مسلية، مثلما أدركت معاني أخرى في عموم حياتي. فقد حدث أن قضيت ليلة طويلة في العمل بمكتب الصحافة اللاتينية، خرجت بعدها وحيداً خائر القوى أبحث عما يسد جوعي. كان الفجر قد بدأ يشقشق وكان البحر هادئ المزاج يفصله عن السماء خط برتقالي في الأفق. مشيت في منتصف الشارع المقفر مواجهاً النّيار المالح بشارع «ماليكون» بحثاً عن مطعم مفتوح تحت البواكي؟ المتهالكة والمنتشرة في المدينة القديمة. بعد لأي، عثرت على مطعم متواضع ستائر المعنوية مسدلة وإن كانت غير موصدة بالأقفال. حاولت أن أرفعها، إذ لمحت ضوءاً خافتاً يتسلل من تحتها ويكشف عن رجل في

الداخل ينظف الأكواب خلف البار. بمجرد أن هممت بالدخول إذ بي أسمع صوت زناد لم أكن لأخطئه، يخترق أذني وصوتاً أنثوياً عذباً وقوياً يقول:

- مكانك يا صاحبي. إرفع يديك.

كان ذاك ظهوراً مفاجئاً عبر ضباب الفجر. كانت جميلة الطلعة تجمع شعرها خلف عنقها على هيئة ذيل الحصان وكان قميصها العسكري متشرباً برطوبة رياح البحر. مع ذلك، كانت قسماتها تشي بشيء من التوتر، ولكن كانت تقف في ثبات وهي تباعد بين ساقيهما وتمسك بسلاحها كجندي محنّك.

- أشعر بالجوع. رددت.

يبدو أن شعور الجوع الذي كان يقرصني قد أضفى على صوتي صدقية جعلتها تفهم أنني لم أكن أحاول اقتحام المكان وهنا تحول اتهامها إلى إشفاق على حالتي.

- إن الوقت متأخر.

- بالعكس، أجببت. المشكلة أن الوقت مبكر. أريد أن أتناول فطوراً.

عندئذ، أشارت إلى الرجل من خلف الزجاج وأفنته أن يقدم لي فطوراً حتى لو تبقى ساعتان على موعد فتح المطعم. طلبت بيضاً مقلياً وشرائح جامبون³⁴ وقهوة باللبن وخبزاً بالزبدة وعصير أي فاكهة طازجة متوافراً. أجنبي الرجل في حسم غريب، بأن البيض والجامبون قد نفدا منذ ما يزيد عن أسبوع وأن اللبن لم يأت من ثلاثة أيام، وأن ما يستطيع أن يقدمه لي هو فنجان قهوة بلا حليب وخبز بلا زبدة وقد يتمكن من تسخين طبق معكرونة كان متبقياً لديه من اليوم السابق. اندهشت وسألته عن مشكلة المواد الغذائية في براءة أدهشته، فرد قائلاً:

- لا شيء إطلاقاً. مجرد أن البلاد قد ذهبت بلا عودة.

لم يكن عدواً للثورة كما تصورته في البداية. على العكس، كان آخر فرد من أسرة فرّت عن بكرة أبيها إلى ميامي وفضلّ هو البقاء. قرر أن يبقى إلى الأبد وكانت مهنته تتيح له أن يستشرف المستقبل بتفاصيل أكثر واقعية من تفاصيل صحفي ممن يسهرون الليالي. كان يرى أنه سيغلق المطعم خلال ثلاثة أشهر نظراً إلى نقص المؤن، غير أن ذلك لم يكن يعنيه كثيراً، فقد كانت لديه خطط بديلة لمستقبله الشخصي.

جاء توقعه في محله، ففي الثاني عشر من آذار/مارس 1962، وبعد مرور ثلاث مئة واثنين وعشرين يوماً على بداية المقاطعة قامت الحكومة بتقنين دراماتيكي لحصص الأفراد من المواد الغذائية. تقرّر أن يحصل كل فرد على مقدار شهري من ثلاثة أرطال من اللحم ورطل من السمك وآخر من الدجاج وستة من الأرز ورطلين من السمن ورطل ونصف الرطل من الفاصوليا وأربع أوقيات من الزبدة وخمس بيضات. تم احتساب هذه الحصص على أساس أن يستهلك كل فرد عدداً محدداً من السعرات الحرارية. كانت هناك حصص خاصة بالأطفال حسب فئاتهم العمرية وكان يحق لمن هم أقل من أربعة عشر عاماً صرف لتر من اللبن في اليوم. لم تمض فترة طويلة حتى نفذت المسامير ومساحيق الغسيل والمصابيح وسلع هامة أخرى مما تستهلكه المنازل وكانت المشكلة التي تواجه الحكومة، ليس توزيعها وإنما توفيرها.

ما كان يثير الإعجاب هو كيف راح ذلك العقاب الذي فرضه العدو يبيث القوة في روح الشعب. ففي السنة نفسها التي اعتُمد فيها نظام الحصص الغذائية، وقعت أزمة تشرين أول/أكتوبر التي وصفها المؤرخ البريطاني هاج توماس (Hugh Thomas) بأنها من أخطر ما تعرّضت له الإنسانية في تاريخها. بقي شعب كوبا في حالة ترقب على مدى ثلاثين يوماً يربط في مواقعه، حتى انحسر الخطر وأيقن أنه لن يواجه القنبلة النووية بالبندقية. في وسط ذلك الزخم من الأحداث الذي كان كفيلاً بأن يدك أسس أقوى الاقتصادات استقراراً، بلغ الإنتاج الصناعي أرقاماً غير مسبوقة وتوقفت الهجرة من المصانع كما تم تجاوز عقبات كانت ستكون أكثر كارثية في ظروف أقل من ذلك قسوة. ذكرت عاملة تليفون لإحدى الزميلات الكوبيات الموجودة بالولايات المتحدة الأميركية والتي كانت قلقة حيال ما يمكن أن يحدث:

- نحن هنا في كوبا لسنا قلقين، ففي النهاية القنبلة النووية لا تؤلم.

كان إنتاج البلاد من الأحذية وقتذاك يكفي لأن يحصل الفرد على زوج منها في العام وكان التوزيع يتم من خلال المدارس ومقار العمل. ولم تغلق المحال سوى في شهر آب/أغسطس من عام 1963 بعد أن نفذت كل البضائع ولم يعد هناك ما يمكن بيعه، عندئذ تقرر تخصيص حصص من الملابس وتوزيعها. بدأت الحكومة بتحديد تسعة أنواع من قطع الملابس كان من بينها البنطال الرجالي والملابس الداخلية الخاصة بكلا الجنسين وبعض أصناف المنسوجات، ولكن خلال العام تعيّن أن ترتفع من تسعة إلى خمسة عشر نوعاً.

في ذلك العام، حل أول عيد ميلاد على الثورة، وجاء الاحتفال بلا لحم خنزير ولا حلويات الميلاد. وتم فيه تحديد حصص الألعاب، ومع ذلك يعود لنظام تقسيم الحصص الفضل في حصول كل طفل، بلا استثناء واحد، أقله على لعبة واحدة، في سابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ كوبا.

على الرغم من المساعدة القليلة التي كان يقدمها الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية، والتي لم تكن أقل كرمًا، وعلى الرغم من المساعدة الكثيرة من جانب خبراء الاشتراكية من أميركا اللاتينية، كانت المقاطعة حينئذ واقعا ملموسا وكان لا بد من رأب كل الصدوع مهما صغر شأنها في الحياة اليومية وكان لا بد من تثبيت الوجهة التاريخية للبلاد.

تضاءلت الاتصالات مع بقية العالم إلى أدنى حد ممكن. وكانت الرحلات الجوية اليومية الخمس إلى ميامي قد توقفت منذ أزمة شهر تشرين الأول/أكتوبر، وكذا الرحلتان الأسبوعيتان لطيران كوبانا إلى نيويورك. أما رحلات دول أميركا اللاتينية إلى كوبا فقد راحت تختفي الواحدة تلو الأخرى مع قطع تلك البلاد تباعاً علاقاتها الاقتصادية والدبلوماسية. لم يبقَ في النهاية سوى رحلة أسبوعية من المكسيك قامت بدور الحبل السري الذي ربط كوبا ببقية الدول اللاتينية وكذا عملت كعميل مزدوج تسربت عن طريقها خدمات التجسس ومحاولات قلب نظام الحكم الذي كانت تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية.

احتفظت شركة الطيران الكوبية برحلة أكروباتية واحدة عبر القطب الشمالي إلى «براغ»، بعد أن اقتصر أسطولها على طائرات «بريستول بريطانية» الوحيدة التي كان يمكن تأمين صيانتها بعقود خاصة مع مصانعها الإنكليزية. كانت الرسالة التي تخرج من «كراكاس» التي تبعد أقل من ألف كيلومتر من ساحل «هافانا» تقطع نصف العالم في محاولتها الوصول إلى «هافانا». وكانت الاتصالات الهاتفية تتم مع العالم عن طريق نيويورك وميامي تحت سيطرة المخابرات الأميركية، عن طريق كابل بحري متهاك لم يلبث أن انقطع ذات يوم، بعد أن مرّ فوقه مركب كوبي نسي أن يرفع مرساته وهو يغادر خليج «هافانا».

مصدر الطاقة الوحيد المتوافر هو خمسة ملايين طن من البترول، تنقلها الناقلات السوفياتية سنوياً من موانئ البلطيق على بعد اثني عشر ألف كيلومتر، أي بمعدل ناقلة واحدة كل ثلاث وخمسين ساعة. كانت سفينة أوكسفورد التابعة للمخابرات الأميركية والمجهزة بجميع أجهزة التنصت والتجسس، تجوب المياه الإقليمية الكوبية على مدى سنوات عديدة لتتأكد من عدم مخالفة أي دولة رأسمالية للإرادة الأميركية، حتى مع وجود بعض الاستثناءات القليلة لمن تجرأ منها. كان

ذلك استفزازاً تحت أنظار العالم. كان يمكن أن نرى من «ماليكون هافانا» ومن بعض الأحياء المرتفعة في «سانتياغو» هيئة مضيئة لذلك المركب في الظلام، وهو يرسو داخل المياه الإقليمية.

لم يكن كل الكوبيين يذكرون أنه على الجانب الآخر من الكاريبي، قبل ثلاثة قرون مضت، تعرض أهل «قرطاجنة دي إندياس» لدراما مماثلة. إذ حاصرت مئة وعشرون من أفضل مراكب إنكلترا، تحت قيادة الأميرالاي «فيرنون»، المدينة بقوة قوامها ثلاثون ألفاً من خيرة الجنود الذين تمّ تجنيدهم من المستعمرات الأميركية التي تحولت بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأميركية. كان شقيق جورج واشنطن، الذي سيحرّر تلك المستعمرات لاحقاً، ضمن قيادات أركان حرب قوّات الهجوم. عُرفت «قرطاجنة دي إندياس» في التاريخ بقلعها العسكرية الحصينة وبانتشار الفئران في مجاريها وقد قاومت الحصار بثبات لامثيل له، على الرغم من نفاد المواد الغذائية واضطرار السكان لأن يقتاتوا على أي شيء كانوا يجدونه، حتى لو كان قشور جذوع الأشجار أو جلود المقاعد. بعد مرور بضعة أشهر وبعد أن عجزوا أمام بسالة المحاصرين، وبعد أن أنهكتهم الحمى الصفراء والدوسنتاريا والحر، انسحب الإنكليز يجرون أذيل الهزيمة في حين لم يفقد سكان المدينة أي فرد منهم وإن كانوا قد أكلوا حتى آخر فأر من فئران المجاري.

يعرف الكثير من الكوبيين هذه المأساة بطبيعة الحال، غير أن غرابة معناها التاريخي لم يكن يوحى لهم بأنها قد تتكرر معهم. فلم يتصوّر أحد أنه مع حلول عام 1964، ستأتي سنوات عجاف كثيرة بسبب الحصار الحديدي واللاإنساني، وأنه سيتمادى في التضيق عليهم حتى يشمل مياه الشرب في البيوت وفي جميع المنشآت العامة.

من قلب فيتنام 35

أصبح أعلى دواء يمكن شراؤه في فيتنام، خلال شهر آب/أغسطس ذاك، هو أقراص معالجة دوار البحر. إذ اختفى من الصيدليات، منذ عدّة أشهر. كان ثمن العبوة ذات الاثني عشر قرصاً، لا يتعدى الدولار الواحد، ثم لم تلبث أن ظهرت سوق سوداء لتداولها بسعر 5 دولارات. غير أن هذا لم يكن هو المطلب الأوحّد أو الأعلى اللازم للهروب من فيتنام على متن قارب غير شرعي. ففي مدينة هوشي منه- سايجون سابقاً- كان في إمكان كل من يطلب ذلك أن يجده وقتما شاء، طالما امتلك الثمن الباهظ الذي يتعيّن دفعه وكان على استعداد أيضاً لتحمل مخاطر المغامرة.

أصعب مرحلة في الهروب هي التواصل مع المهربين. ففي الدهاليز الضيقة للسوق الشعبية لحي شولون الكبير المزدهم، حيث يتمّ تحويل أي شيء في العالم إلى بضاعة ذات سعر محدّد، كانت البضاعة الوحيدة المجانية هي المعلومات عن القوارب السرية. لا بد من الدفع المقدم، بالذهب الخالص وبأسعار تتفاوت حسب السن. للشريحة العمرية الواقعة بين السادسة والسادسة عشرة، كان السعر ثلاث أوقيات ونصف أوقية من الذهب، من أجل البدء بالإجراءات التي تكلف ألفاً وخمس مئة دولار، حسب سعر الصرف الرسمي. أما بالنسبة إلى الأعمار المتراوحة بين التاسعة عشرة والتاسعة والتسعين، فقد كان مطلوباً ست أوقيات من الذهب، أي حوالى عشرة أمثال مرتّب نائب وزير فيتنامي. هذا غير الرشوة التي يتعيّن دفعها للموظفين الذين سيصدرون تصاريح التنقل داخل البلاد: خمس أوقيات ذهب. أي إن التكلفة الإجمالية للشخص الواحد تراوح ما بين ألفين وثلاثة آلاف دولار. أمّا الأطفال، أقل من خمس سنوات، وكذا الفنيّون والعلماء، ممن لا يمكن الاستغناء عنهم، لنهضة بلد أنهكتهم الحرب على مدى ثلاثين عاماً، فقد كان تهريبهم مجاناً. الأدهى أن بعض وكلاء السفر، غير الشرعيين، كانوا يزورون الأطباء النابهين والمهندسين والمعلّمين والحرفيين المهرة، ليعرضوا عليهم مجاناً، على طبق من ذهب، فرصة الهروب من البلاد، لكي تظلّ بلا موارد بشرية.

لم يكن من الصعب إقناعهم، فقد كانت ظروف مدينة هوشي منه، شأنها شأن جنوب البلاد الذي أعيد تجميعه، ظرفاً كارثية بلا أي توقعات إيجابية في المستقبل القريب.

كان المواطنون من ذوي الأصول الصينية، البالغ عددهم أكثر من مليون شخص، على وشك الانهيار العصبي نتيجة تزايد احتمالات اندلاع حرب مع الصين. أما مؤيدو النظام السابق ممن لم يتمكنوا من الهروب في الوقت المناسب وكذا أبناء الطبقة البرجوازية، ممن خلعت عنهم امتيازاتهم السابقة، فقد كانوا على استعداد للهروب بأي ثمن. كانت الشوارع تعج بالشعب العاطل. وحدهم أولئك الذين لديهم ضمير سياسي لا يتزعزع، وهم قلة وسط مدينة تئن من جرّاء سنوات احتلال أميركي طويلة، كانوا على استعداد للبقاء. أما الباقي، وهم الأغلبية، فقد كانوا على استعداد لأن يرحلوا حتى دون أن يتحرّوا المصير الذي ينتظرهم.

عملية تهجير بهذا الحجم، لم يكن لها أن تتجح بدون تنسيق كبير مع شبكة العلاقات الخارجية، وبطبيعة الحال، بدون تواطؤ من موظفي الحكومة. لم يكن من الصعب أن يتحقق الشرطان في جنوب البلاد، حيث كان لا يزال في مقدور ذراع القوة الشعبية، أن تمنع تردي الأوضاع. فقد تمّت تصفية العقول ذات التكوين السياسي والعلمي، وفق خطة ممنهجة، على يد النظام السابق، فيما عُرف بعملية، فينيكس. ولم يكن الشمال بقادر على أن يملأ هذا الفراغ الإنساني.

تحوّل الأمر إلى عملية منتظمة، فقد كانت خمس شركات كبيرة، هي التي تتولى عمليات التهجير من موانئ الصيد في أقصى الجنوب، حيث يصعب فرض الرقابة الشرطية. كان الوسطاء، الذين يتولون مهمة الاتصالات الأولية، يقودون عملاءهم إلى مناطق الإبحار، بعد أن يمدوهم بتصاريح مزورة. لم يكن أكثرهم يحمل متاعاً أكثر من ملابسه وأقراص علاج دوار البحر، غير أن أغلبهم كان يحمل كل ما تمتلك عائلته في صورة سبائك ذهبية وأحجار كريمة. كانت الرحلة إلى هذه الموانئ السريّة، طويلة ومحفوفة بالمخاطر، خصوصاً بالنسبة إلى الأطفال، إذ لم تكن هناك أي ضمانات للنجاح، وسط مسارات تفتيش الدوريات العسكرية الصارمة وأخطار هجوم عصابات من قطاع الطرق.

كانت القوارب، في مجملها، عبارة عن مراكب صيد متهاكة، لا يزيد طولها عن خمسة وعشرين متراً، يقودها بعض المارقين ممن لا يملكون الخبرة اللازمة. لم تكن سعة القوارب تحتل أكثر من مئة شخص، غير أن القائمين عليها كانوا يحشرون الركاب كأسماك السردين ليحملوها بحوالى ثلاث مئة شخص. ذكرت الإحصائيات أن أغلب الراحلين، كانوا أطفالاً دون الثانية عشرة من العمر. تمكن الكثير منهم من تقادي الدوريات البحرية وتغلبوا على دوار البحر وعلى الأعاصير التي فاجأتهم، ولكن لم يستطع أي منهم الإفلات من أيدي قراصنة بحر الصين. كانوا قراصنة مالاويين

وتايلانديين، مثلما جاء في روايات إيميليو سالغاري. قيل أن كل مركب كان يتعرّض لمتوسط أربع هجمات قرصنة، قبل أن يصل إلى مرفئه الأخير. يستهدف الهجوم الأول الاستيلاء على الذهب والأغراض الثمينة، واغتصاب النساء الشابات وإلقاء من تقاوم منهن إلى عباب البحر. أما الهجمات التالية التي لم يكن قد تبقى لها ما تستولي عليه، فقد كانت تمارس ما يحلو لها من مختلف أشكال العنف. إلى درجة أنه في هونغ كونغ، ظهرت آراء ترجح انتماء تلك العصابات المتوحشة إلى حكومات ماليزيا وتايلاند، وأنها تنفذ مخططاً لتخويف هؤلاء اللاجئين. كانت مأساة حقيقية ومؤلمة تستحق أكثر بكثير من مجرد التعاطف الإنساني الذي حظيت به في العالم أجمع. بيد أن المنظور السياسي الذي تبنته الولايات المتحدة الأميركية، أدى إلى تشويه طبيعة المشكلة ولم يتمّ التوصل إلى علاج ناجع لها.

تحوّلت الهجرات الجماعية عبر جنوب شرقي آسيا إلى أسطورة. غير أن حالة فيتنام هي الوحيدة التي تم استغلالها في الدعاية السياسية. جاءت البداية عام 1954، عندما قام حوالى مليون كاثوليكي من الفرنسيين بالهجرة من الشمال حتى الجنوب، بعد أن أقرّت اتفاقية جنيف تقسيم البلاد. ظهر الحديث عن المطاردات الدينية وكانت فضيحة لم يضاهها سوى التحدث عنها الآن ووصفها بالاضطهاد العرقي. لم يتمكّن الفيتناميون، على الرغم من قدراتهم القتالية الأسطورية، من الرد المناسب في مواجهة الدعاية المضادة.

بدأ التهجير الحالي في آذار/مارس من عام 1975، عندما جلت القوّات الأميركية عن البلاد وتخلت عن أغلب أنصارها المحليين، على الرغم من وعودها بكفالة الحماية لأكثر من مئتين وأربعين ألف شخص. خرجت من البلاد، كيفما تسنى لها، أعداد غفيرة من موظفي الجيش وشرطة الجنوب والجواسيس وضباط التعذيب المعروفين والقتلة المأجورين ممن نفذوا عملية فينيكس.

بيد أن الإشكالية التي واجهت فيتنام بعد التحرّر، لم تكن مع مجرمي الحرب، وإنما مع برجوازية الجنوب من ذوي الأصول الصينية. فقد سهّلت هذه الازدواجية -البرجوازية والصينية- مهمة أعداء فيتنام في تشويه الحقيقة وتصويرها على أنها إشكالية طبقية وليست عرقية. فقد تمكن الكثير من هؤلاء التجار الأثرياء من الهروب بأموالهم مستغلين ارتباك البلاد في الفترة الأولى. غير أن الغالبية ظلّت في حيّها العتيق: شولون، وتضخمت ثرواتها من المضاربات في أسعار السلع الأساسية. كلمة شولون تعني «السوق الكبيرة»، باللغة الفيتنامية، وهي تسمية لم تأت اعتباراً. فقد كانت مقراً لعمليات احتكار تجارة الذهب والألماس والعملات الحرة. وهناك اختفت كل السلع المستوردة التي خلفها الأميركيون. كان عملاء هؤلاء التجار يخرجون من ذلك الحي

ليبتاعوا محاصيل أرز مزارع كاملة، أو يشترون بالدفع الفوري إنتاج محافظات كاملة من اللحوم، ويجمعون كل ما يجدونه في الأسواق من صنوف الخضروات والأسماك، ليعودوا ويعرضوها في السوق السوداء بأسعار خيالية تضاهي أسعار الألماس. أما معاناة بقية الشعب الفيتنامي فحدثت ولا حرج. فالحي الصيني يعرض، بأسعار تعادل ثلاثة أمثال نظيرتها في نيويورك، ضروباً من مستلزمات حياة الرفاهية التي اعتادها أفراد هذا الحي أثناء فترة جنة سايجون الصناعية. كانت بمثابة واحة رأسمالية تتوسط بلداً قاحلاً مجذباً، في حين كانت هي تستمتع بترفها في اللهو الليلي مما كان مقصوراً على ملاكها من الأثرياء. كانت كازينوهات اللعب والمقامرة تنتشر بين جنباتها وكان سكانها يدخلون الأفيون وكانت بيوت الدعارة المحظورة متاحة للجميع، هذا غير المطاعم التي كانت تقدم أفخر أنواع ما لذ وطاب من الأطعمة مثل أذان الدببة مع الأوركيد ومثانة سمكة القرش مع صلصة النعناع. شهد عام 1987 تمكن الحكومة من وضع نهاية لهذا الوضع بعد أن اختفت كل العملات الأجنبية ورؤوس الأموال في حي شولون المبارك. كانت عملية مثيرة للدهشة، ففي ليلة واحدة، اقتحمت قوات من الجيش والشرطة وكر المضاربات هذا وأحكمت الحكومة قبضتها على تجارة المواد الغذائية. لم يتم اتخاذ أي إجراء قانوني ضد المتورطين، بل صادرت الحكومة بضاعتهم ودفعت لهم ثمنها المحدد وأجبرتهم على استثمار أموالهم في صنوف التجارة المشروعة المختلفة. غير أن الكثيرين فضلوا مغادرة البلاد. حتى ذلك الوقت كان متوسط الهجرة غير الشرعية، خمسة آلاف شخص في الشهر ما بين فيتناميين وصينيين. بعد تأميم التجارة الخاصة، تصاعد متوسط الهجرة الشهري وضمت مراكب الفارين المزيد من الصينيين. مع نهاية عام 1978، كان حوالى عشرين ألف شخص قد فرّوا خارج البلاد. وفي النهاية جاءت الحرب مع الصين في شهر شباط/فبراير من عام 1979 لتضع نهاية لتطلعات مغادرة البلاد وحولتها إلى أهوال من الجحيم يفضل عدم الخوض فيها.

صورت الدعاية السلبية ضد فيتنام ما حدث على أنه اضطهاد لشعب الهووا «اسم الفيتناميين من أصل صيني». أما الواقع، فقد كان مختلفاً. كان حوالى مليون من المليون ونصف المليون من شعب الهووا في فيتنام قبل الحرب، ينعمون بهائى الحياة برحاب شولون، أما الباقي فقد كانوا يعملون بالصيد وفي زراعة الأرز وبالمناجم ويقطنون في القرى القريبة من الحدود الصينية. إن وجودهم هناك يرجع إلى موجات طويلة من الهجرة الجماعية بدأت منذ أكثر من ألفي عام ومرت بأنواع الكوارث كافة، وكان أبطالها من الهووا مواطنين يتمتعون بحقوقهم كافة ويؤدون واجباتهم. تم اختيار ثلاثة منهم لعضوية الجمعية الوطنية، وخمسة للمجالس البلدية

وثلاثين لعضوية مجالس إدارة الأحياء. في الشمال استمر حوالى ثلاثة آلاف يعملون موظفين لدى الحكومة، وكان مئة منهم في مراكز عليا.

ينتمي نجي دوان، عمدة شولون إلى الجيل الثالث من الهووا. بمنتهى الفصاحة وبابتسامة لا تفارقه، أكد لي نجي دوان أن دعاية الصين هي التي كانت تبث الرعب في قلوب بني عشيرته، فقد كانت دعاية تنتشر في صورة شائعات ومنشورات سرية، تروج إشكالية بلا حل: إما أن يتخذوا جانب الصين وفي هذه الحالة سيعرضون أنفسهم لاضطهاد الفيتناميين وإما أن ينحازوا إلى جانب الفيتناميين، وفي هذه الحالة سيصبحون عرضة لاضطهاد الصينيين، إذا ما كسبت الصين الحرب. لم يكن الأمر هيناً على ضمير شعب الهووا. فقد صرح كونفوشيوس أن كل من جرت الدماء الصينية في عروقه، سيظلّ صينياً، مهما اشتد به الترحال. غير أن كونفوشيوس لم يكن هو من سن قوانين فيتنام. فلم يكن من السهل على شعب الهووا أن يحدّد الجانب الذي يختار.

نشبت مشكلة كبيرة بين البلدين قرب الحدود، أكدت فيتنام أن مئة وستين ألفاً من السكان الصينيين بهذه المنطقة الحدودية قد نزحوا إلى الصين قبل الغزو، وأن الكثيرين منهم قد عادوا إلى فيتنام كعملاء لبلدكم الأم، اقتناعاً منهم أن كل فرد من شعب الهووا، لا يعدو كونه جاسوساً متمرساً، رحّلهم فيتنام إلى مناطق بعيدة عن الحدود. بعد انتهاء الصراع، تم تخييرهم بين التأقلم مع الجنسية الفيتنامية رسمياً والإقامة بعيداً عن المناطق الحدودية، أو مغادرة البلاد. في الوقت نفسه، توصلت فيتنام إلى اتفاق مع المبعوث الرسمي للأمم المتحدة، يقضي بتقنين عمليات مغادرة البلاد. على خلاف ما كان يشاع في الخارج، لم يكن رسم المغادرة يتجاوز الستة عشر دولاراً. ولكن في المقابل-حسبما قضى اتفاق الأمم المتحدة- كان لابد من الحصول المسبق على تصريح إقامة في بلد الوجهة. تحوّل هذا الحل البيروقراطي إلى مشكلة ملحة وعقبة كؤود أمام الراغبين: تراكمت الطلبات بلا أمل في أن يُبت فيها، ولم يعد هناك بد من التسلّل غير الشرعي.

غذى الرعب أعداد المتسللين. تحوّل الأمر إلى شراكة عشوائية بين شركات ملاحه عملاقة. من جانبهم لم يدع بخّارة المراكب التجارية فرصة الربح تمر من دون أن يستغلوها. في شهر حزيران/يونيو، ضبطت الشرطة 69 متسللاً يختبئون في مركب يوناني كان على وشك الإبحار من ميناء هو شي منه. كان 34 منهم يختبئون داخل حجرة المحركات في درجة حرارة تصل إلى 80 درجة. كما اختبأ شخص، دفع أكثر، تحت سرير الطاهي ووضعت سيده مولودها داخل قبو المؤن. أظهرت التحقيقات أن مسؤولي العملية هم كبير المهندسين، والبحار الذي أتم الاتصالات مع المهربين ومساعد المطبخ الذي كان مسؤولاً عن التغذية خلال الرحلة.

خلال تلك الفترة، قام ثلاثة مسافرين مسلحين ببنادق وقنابل باختطاف مركب فيتنامي يبحر بين مدينتي هو شي منه وفونجتان، حيث قيدوا البحارة وسيطروا على عجلة القيادة. اكتشفت دوريات الشرطة الفيتنامية التي قامت بتحريره أن جميع الركاب دفعوا الرسوم المقررة ليخرجوا من البلاد. أما الخاطفون- رتب عسكرية في النظام السابق- فقد كانوا جزءاً من عصابة تخصصت في تهريب الأفراد خارج البلاد لفترة تزيد عن العام، بانتحالهم صفة موظفين بوزارة الداخلية وتزويرهم بطاقات الهوية ومستندات رسمية أخرى. لم تكن الحكومة تحرز تقدماً كبيراً في تعقبها للمتسللين. قال لي أمين سر المحكمة الشعبية لمدينة هو شي منه: ليس في مقدورنا السيطرة. فسواء قبضنا عليهم أو تركناهم، فإن اتهامات انتهاك حقوق الإنسان ستطاردنا، لامحالة.

تصاعد المد التسليي ووصل إلى 15 ألفاً خلال شهر آذار/مارس و12 ألفاً في شهر نيسان/إبريل و65 ألفاً خلال شهر أيار/مايو و56 ألفاً خلال شهر حزيران/يونيو. نفذت أقراص مكافحة دوار البحر في شهر تموز/يوليو. مع قدوم ذلك الصيف، كان حوالى مئة وتسعين ألفاً قد حطّوا ببلدان الجوار، خصوصاً تايلاندا وهونغ كونغ.

أما عن أعداد من ضاعوا في عرض البحر لسبب أو لآخر، فتلك معلومة قد أسقطها التاريخ في غياهب بئر المجهول، ولن يستطيع أحد أن يتوصل إليها بدقة، حيث لم تحصر بشكل نهائي الأعداد التي خرجت.

كانت الحملة الإعلامية لتشويه فيتنام قد بلغت حد الفضيحة العالمية في تلك الفترة، وراحت تروج أن حكومة فيتنام تطرد أعداءها من أراضيها بإجبارهم على الهروب بمراكب الهجرة غير الشرعية المميتة تلك.

مرت بهونغ كونغ مع نهاية شهر حزيران/يونيو. وجدت بحر الصين قد تحول إلى قدر في حالة غليان. إذ أعلنت حكومة ماليزيا أنها ستطلق النار على أي مركب يقترب من سواحلها، كما تولّت البوارج الحربية حراسة سواحل سنغافورة. أما السيّاح من السذج الذين كانوا يجولون على متن عابرات محيطات ماكاو، ليتعرفوا إلى آخر اكتشافات البرتغال، فكانوا يشاهدون أثناء مرورهم بالخليج الهادئ، مراكب تقل أجساداً أعياءها الإرهاق وتجرها مراكب تتبع البحرية البريطانية إلى هونغ كونغ. أعلنت حكومة تايلاندا أن أعداد المتسللين، من مختلف الجنسيات، قد فاقت حدودها عند جميع منافذها.

تحوّلت بانكوك إلى مركز الأخبار. لم تعد طاقة الفنادق تستوعب كل هؤلاء الصحفيين القادمين من مختلف أنحاء العالم وهم يحملون كاميراتهم ومعداتهم التلفزيونية الثقيلة. تشير بيانات الأمم المتحدة إلى أن عدد النازحين بلغ مئة وأربعين ألفاً: مئة وخمسة عشر قدموا من لاوس وثلاثة وعشرون ألفاً من كمبوديا وألفان فقط من فيتنام. مع ذلك، فإن الصحافة التايلاندية، التي كانت تمتلك البيانات في عقر دارها، تؤكد أن جميعهم من فيتنام. تم الإعلان، دون أن يلتفت أحد إلى التناقض الحاد، أن حكومة فيتنام تتقاضى من النازحين رسوماً تصل إلى ثلاثة آلاف دولار عن تصريح الخروج.

مع نهاية شهر شباط/فبراير وبعد أن بلغ النزوح مداه، قيل إن المطاردات كانت تقتصر على الهووا على سبيل الاضطهاد، كردة فعل على غزو الصين. نشرت صور بدا فيها النازحون أقرب إلى لاجئين خرجوا تَوّاً من معسكر تعذيب. كانت صوراً حقيقية إذا ما نظرنا إليهم لأنهم قضوا أربعة أسابيع في عرض البحر يفتك بهم الجوع وتخبطهم الأنواء ويخدعهم القراصنة وتتكاتف كل الظروف لتحويلهم من هيئة مليونيرات شولون إلى هيئة أشبه ما تكون بفقراء الصين.

وصلت إلى فيتنام في أوج الفضيحة، ولا هدف لي سوى أن أتلصص عن قرب، حتى ولو كان على سبيل إراحة ضميري، الحقيقة الحقيقية من بين كل تلك الحقائق المتناقضة. وجدت أن دراما اللاجئين، التي كانت تطفو على السطح قد توارت إلى الخلف لتفسح المجال لأوضاع البلاد المتردية. أكثر ما لفت نظري بمجرد أن وطئت قدمي أرض البلاد، انتشار آثار الحرب الأميركية التي كانت قد وضعت أوزارها قبل أربعة أيام، في الشوارع. لم يتوافر للفيتناميين الوقت لكنس البيت أو تنظيفه. كانت المطارات المدنية تمتلئ بحطام الطائرات العسكرية وطوّافات المدافع التي كان الأميركيون يستخدمونها في نفس القرى العزلاء، وحطام مركبات عسكرية أخرى متراكمة عند أطراف المطارات. كان رماد القرى التي أبيدت بالنابالم، يظهر من على الطرق القاحلة، وكذا أراضي خلاء الغابات القديمة التي تم تبويرها بالمواد الكيميائية، في حين تناثرت فوارغ القنابل في كل مكان. قطعنا خلال رحلتنا بالسيارة، خمسين كيلومتراً في زمن يمكن أن يصل إلى أربع ساعات، ولم تخل من كونها مغامرة عسكرية. لم تكن قنوات الري التي تضيء على البلاد مظهر لوحة الشطرنج، من أعلى، تعمل بكامل طاقتها بعد. أما عن الأنهار الكبيرة الجميلة التي كان لا بد أن يتغير مظهرها مع حلول موسم أمطار شهر تموز/يوليو، فلم يكن في الإمكان قطعها سوى عن طريق جسور متحركة أو توصيلات مرتجلة، قد تكون مجرد جذوع أشجار. فقد تم تدمير جميع الجسور حتى تلك التي بناها المستعمر الفرنسي وخلفها وراءه. خرج كوبري لونغ بين الذي

صمّمه المهندس الفرنسي ألكساندر غوستاف إيقل -مصمم برج باريس الشهير- من المحنة سليماً وإن لم يكن في أحسن حال. فقد أصابته شظايا الكثير من القنابل وتم إصلاحه على عجل لكونه المدخل الوحيد إلى هانوي من جهة الشمال. كانت تركيبته من ألواح الحديد المتشابكة، قد جعلته يبدو كبرج باريس الشهير وقد انحنى ليعانق مياه النهر الأحمر التي يبدو أنها هي التي حولته إلى معجزة صمدت أمام عمليات الترميم والتحميل المتزايد من سكك حديدية وسيارات نقل مدني ودبابات حربية، كانت تشق طريقها بصعوبة بالغة بين أعداد غفيرة من البشر من راكبي الدراجات المتعجلين.

لم تكن الحرب، بمعناها المفهوم، قد انتهت بتناثر ثلاث مئة ألف طن من الألغام والمتفجرات التي لم تنفجر بين الحقول بحثاً عن ضحايا جدد من الأبرياء. فمن المتوقع أن ينفجر لغم رابض في مكمنه طوال أربع سنوات على مرأى ومسمع من النساء الغارقات في أحواض مزارع الأرز. أو أن تحصد قنبلة سقطت في باحة مدرسة أرواح أطفال كانوا يلهون في فسحتهم. أو أن يصطدم قطيع من الجواميس بجسم متفجر يرقد بين الحشائش فتندمر قرية كاملة. وفي محافظة واحدة مات قرابة أربعة آلاف شخص بهذه الطريقة بعد الحرب.

تقول الأرقام إن الولايات المتحدة قصفت فيتنام بكمية متفجرات تفوق بآلاف المرات ما استخدمته في الحرب العالمية الثانية: أربعة عشر مليون طن. كان ذلك أقصى عقاب عسكري تعرّض له شعب واحد على مدى تاريخ البشرية. يعجز الخيال عن تصور مأسوية تلك الأرقام. قام الطيران الأميركي برش خمسة ملايين هكتار من الغابات الإستوائية بالمبيدات والمواد الحارقة ما أدى إلى تبويرها، ربما إلى الأبد، لتمنع الثوار الفيتناميين من الاختباء فيها. إنها مساحة تعادل عشرة ملايين أمثال مستطيل ملعب كرة القدم. في تلك السنوات المدمرة للأرض، تم محو تسعة آلاف قرية من على وجه البسيطة وتخريب شبكة السكك الحديدية بالبلاد وتدمير مشروعات الري والصرف. قتل تسعة آلاف رأس من الماشية وأحرق مئة ألف كيلومتر مربع من الأراضي الزراعية بمساحة تعادل عشرين ضعفاً من مساحة مدينة نيويورك. لم تتج المدارس ولا المستشفيات من آلة التدمير تلك : تمّت إبادة ألفين وخمس مئة مريض بمستعمرة كينهالب للجذام بغارة جوية واحدة أسقطت عليهم وابلاً من الفوسفور الحي.

وما زاد الأمور سوءاً، تعرض فيتنام عقب الحرب لأنواع شديدة من البلى: موجة جفاف عام 1977 تسببت بخسارتها مليون طن من الأرز. كما تعرّضت لبعض الفيضانات ولأحد أعنف أعاصير القرن، ساهمت كلها في إبادة حوالى ثلاثة ملايين أخرى. بهذه الطريقة، أنهى الله

الهولوكست الذي رحل الأميركيون دون أن يكملوه والذي لم يكن له من عواقب سوى بلد متخلف وخمسين مليون نسمة يرزحون تحت نير البؤس.

على الرغم من قسوة كل هذه الظروف، إلا أن الخسارة المادية لم تكن بالقدر الذي يستعصي تداركه مثلما كان الوضع مع المأساة الإنسانية والدمار المعنوي. لعل هذا أحد أهم مظاهر الفروق التي يمكن أن تكون بين محافظات الشمال التي استعادت روحها الاجتماعية قبل عشرين عاماً ومحافظات الجنوب التي لم تتحرر سوى منذ أربعة أعوام، فأصبحت وكأنها تابعة لبلدين مختلفين إلى درجة النقيض في مختلف المظاهر.

لم تتغير العاصمة هانوي كثيراً منذ الاحتلال الفرنسي. فمع حر تموز/يوليو الشهير، احتفظت بكونها مدينة وديعة ذات طقس كطقس الرابعة عصراً. حتى الرطوبة العالية في الهواء ومع الحرارة الخانقة، لم يكن هناك شعور بأننا على خط الاستواء. كانت الحياة في هانوي تسير على المستوى الرسمي والقديم للعواصم الفرنسية، على الرغم من موقعها بين بحيرات حاملة تحيط بها أشجار باسقة لا تغرقها أمطار السيول الشديدة في تلك الفترة. ينتقل نصف سكانها البالغ عددهم مليونين على درّاجاتهم من مطلع الشمس حتى مغيبها في انتظام اشتهروا به، ولم يكن هناك من سبب يهدم هذا النظام سوى تداخل بعض السيارات الفارهة الخاصة بالدبلوماسيين. كانت السيّارات الرسمية قليلة العدد، إلى درجة أن بعض الوزراء كانوا يستخدمون الدراجات مثل العامة، في شعور بالتواضع والمساواة يصعب تفهمه في هذا العالم.

تغرق المدينة في هدوء ريفي مع حلول السادسة عصراً. تخلد الأسر بأكملها إلى النوم في مداخل البيوت المظلمة. بعضهم كان قد فر من الريف خوفاً من اندلاع حرب وشيكة مع الصين وأصبحوا بلا أي مأوى، بينما يهرب البعض الآخر من الحر غير المحتمل داخل المنازل. كان إرسال التلفاز يبدأ في السابعة مساءً: أربع ساعات من البث الرسمي، أفلام تسجيلية وطنية وأفلام من بلاد اشتراكية. بعض الأفلام الروسية كانت مترجمة باللغة العربية وكان الفيتناميون يفهمونها بالتتابع المنطقي للصور. كان في البلاد كلها مليوناً جهاز تلفزيون، بمعدّل جهاز واحد لكل عشرين مشاهداً تقريباً. لم يكن هناك سوى عرض واحد هو الذي يخلب لب الفيتناميين ويثير حماسة قلوبهم: كرة القدم. في الثامنة، كان الصمت التام يخيم على البلاد، فكان يمكن أن نسمع عن بعد عزف العود ذي الثمانية أوتار. لا يفتح بعدها سوى فنادق الأجانب البغيضة أو المقاهي الصغيرة النائية ذات الطاولات الأربع الفقيرة، التي يعد مالکها العجوز المحدود بنفسه قهوة غريبة بالملح وبيضاً مسلوقاً له طعم زهور الصباح.

كانت مدينة هو شي منه تقع على بعد ألف كيلومتر جنوب العاصمة، وكانت مدينة لا تنام وتسهو حتى الصباح في عرض مستمر. كانت مدينة كبيرة وصاخبة وخطيرة، يقطنها حوالي أربعة ملايين نسمة ينزلون إلى الشارع في كل ساعات اليوم تقريباً، كما لو لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه. كانت على عكس هانوي تماماً، ميناء جنوبياً دائماً الحركة. سائقو دراجات يسيرون في كل مكان حتى على رصيف المشاة، وأبواق الدراجات البخارية الصاخبة وفوضى الدراجات الهوائية التي يقودها الغلمان وأبواق السيارات التي تحاول أن تشق طريقها وسط الزحام. كل ذلك كان يجعل الحياة في حالة زخم مستمر.

بشغف جراهام جرين نفسه عندما تساءل أين الله في مدينة الجحيم تلك، رحت أتساءل أين الحكومة؟. كانت السوق السوداء مزدهرة في جميع المناحي. طاولات على مداخل البيوت لبيع السجائر الأميركية والشيكلات الإنكليزية والعطور الفرنسية. في حي شولون، آخر ما تبقى من حقبة الازدهار القديمة، كان التهريب يمارس علناً على قارعة الطريق.

مع غروب الشمس كانت مجموعات المراهقين المتأمركين - غالبية شباب سايجون - تتجمع لتناول المرطبات في الساحات وهم يرتدون ستراتهم الأميركية ويحلمون بالماضي التليد الذي ولى بلا عودة على أنغام موسيقى الروك. على عكس نساء الشمال، اللاتي اشتهرن، في العالم أجمع، بقسوتهن، كانت نساء الجنوب يمثلن أنوثة ويزدنهن بالاستعانة بمستحضرات التجميل الأوروبية ويستخدمن الألوان الراقية حتى في ملابسهن التقليدية، وكن قد تغلبن على الخوف من التحرش. تحت الاحتلال الأميركي، كانت المدينة قد فقدت طابعها الثقافي. كانت جنة اصطناعية بدعم عسكري ومدني أميركي يبلغ مليوني دولار، هذا غير ست مئة طن من المواد الغذائية التي تقدمها لها سنوياً.

اقتنع سكان المدينة أن هذه هي الحياة . فاجأتهم الحرب وهم يطفون على سطح هش من الوهم لم يتمكنوا من تجاوزه حتى بعد أن رحل آخر جندي أميركي منذ أربع سنوات.

كانت نتائج الحرب مرعبة: ثلاث مئة وستون مبتورو الأطراف ومليون أرملة وسبع مئة ألف بغي وخمسون ألف مدمن مخدرات، أغلبهم دون سن الرشد، وثمانية آلاف متسول ومليون مريض بالسل وتسعون ألفاً من عسكر النظام السابق، يصعب تأقلمهم تماماً مع المجتمع الجديد. كان ربع سكان مدينة هو شي منه يعاني الأمراض التناسلية الخطيرة عند انتهاء الحرب، كما كان يعيش في جنوب البلاد ما لا يقل عن أربعة ملايين أمي. فلم يكن من المستغرب أن تمتلئ الشوارع بعصابات الأطفال المجرمين الذين لم تكن الملاجئ لتستوعبهم. أطلقوا على أنفسهم تسمية لم يتمكن

أحد من فك طلاسماها: بولفو ديلا فيدا. بمعنى «غبار الحياة». لم يعرف أحد من الذي وشمهم على أذرعهم وصدورهم وكتب على أيديهم عبارات غامضة: «تعاني أمني الكثير من أجلي» «بابا.. عد إلى المنزل» «من يحبونني لا يجدونني». وسط زحام شعوب الشرق، في الشوارع والملاجئ لم يكن من الصعب تمييزهم: شعر أحمر سنجابي وعيون خضراء ونمش على الأنف أو بشرة سمراء كبشرة الغزاة الغربيين. كان عددهم في الملاجئ ستة وستين أميركياً بلا أب.

بدأت فيتنام محاولاتها تضמיד جروحها من جراء هذه الحرب في اليوم التالي لتحررها. سعت للشمش البلاد وبدأت على الفور عمليات إعادة الهيكلة الإدارية والسياسية والاجتماعية لمناطق الجنوب. تمت إعادة إصلاح وسائل المواصلات الأرضية، ووسائل الري والزراعة في حدود الإمكانيات المتاحة وتم إقرار عدد من المشروعات العملاقة ذات أهداف إنسانية تسعى لاستعادة الشخصية الأصلية لسكان الجنوب. تم محو الأمية بجدارة استحققت إشادة هيئة اليونسكو وتكريمها. تم إقرار نظام تعليمي لمواجهة الأزمة قدم خدماته ذلك العام لخمس عشرة مليون طفل. تم وضع نظام للعلاج الوقائي شمل إعادة تأهيل البغايا واليتامى والمدمنين. تمت محاكمة مجرمي الحرب وإعدامهم كما هو الحال في جميع الحروب. كما تم إيداع الكثيرين منهم السجناء القليلة في البلاد، تلك التي بناها الفرنسيون، أو في مراكز إعادة التأهيل التي كانت ظروفها كأحسن ما يمكن أن تنتجها بلاد مدمرة. على الرغم من كل ذلك لم تسلم بحور الدم التي تنبأ بها الأميركان. على العكس، عملت البلاد على إعادة إدماج الجنود القدامى في المجتمع والبرجوازيين ممن لا عمل لهم. كما تم خلق فرص عمل في محاولة لاستيعاب أكثر من ثلاثة ملايين عاطل. غير أن حجم المشكلة كان أكبر بكثير وأعمق من الإرادة الشديدة والصبر اللامحدود وروح التضحية عند الفيتناميين. فالبلاد كانت تفتقر إلى كل أنواع الموارد الضرورية لإصلاح آثار مأساة بهذا القدر. كانت عملية فينيكس قد خصصت للجنوب أعداداً كبيرة من الموظفين المكلفين كشف فساد الموظفين -الذين لم يكن في الإمكان صرفهم- التابعين للنظام القديم. من ناحية أخرى كانت الولايات المتحدة الأميركية قد تعهدت بموجب اتفاقيات باريس عام 1973 أن تدفع لفيتنام تعويضاً عن خسائر الحرب يزيد عن ثلاثة ملايين دولار خلال خمس سنوات. غير أن الرئيس جيرالد فورد لم يعترف بهذه الاتفاقية. ونكاية في الأمر جاءت حكومة كارتر لتستغل قضية اللاجئين لتحرم فيتنام من دعم دول أخرى، هذا غير ممارستها أنواع الضغوط كافة لعزل فيتنام التام عن العالم.

كان هذا هو الواقع اليومي الذي كانت تواجهه البلاد في شهر آب/أغسطس من عام 1979. بينما كانت الصحافة العالمية تندب مصير اللاجئين. في النهاية، كان الانطباع الذي خرجت به في

نهاية رحلتي المتعمقة إلى داخل فيتنام، على مدى شهر تقريباً، أن ما يؤرق الفيتناميين حقاً هو شبح الدخول في حرب مع الصين، أكثر من أرقهم بخصوص مشكلة بلادهم الاقتصادية العويصة. كان رهاباً اجتماعياً طغى على كل مناحي الحياة حتى تفاصيل الحياة اليومية. ففي مطار هانوي، كانت الطائرات تتأخر ساعات حيث كانت تدريبات القوات الجوية تحتل السماوات. في الطرق المجاورة كان على الدراجات والماشية أن تتنحى جانباً لتفسح الطريق لعبور الدبابات. في حدائق الأحاد، وسط الأطفال والعصافير الزرقاء وعبير الزهور التي تحمل عبق الجنة، يجري تدريب مجموعات المراهقين العسكرية. لم يكن مزارعو دلتا ميكونج ينامون إلا وأسلحتهم في متناول أيديهم.

كانت حتمية الحرب الجديدة مع الصين قد توغلت بمنتهى العمق في الضمير الاجتماعي إلى درجة تدفع إلى التفكير أن سنوات المقاومة الطويلة تلك قد أكسبت فيتنام ثقافة حربية كبيرة. كان ذلك جلياً في أوجه الحياة اليومية كافة، حتى في الفنون وفي الحب. ففي ملاجئ الجنوب، كان الأطفال يحيون الزوار بتحية عسكرية ويغنون الأغاني الوطنية ويؤدون أعمالاً مسرحية تتحدث عن البطولات العسكرية الماضية. أما في المتاحف، فقد كانت أكثر الأعمال جذباً للزوار تلك التي تتناول موضوعات الحرب وتعلي من قيم الشجاعة والتضحية. وكذا في الحفلات الثقافية، نجد العازفات الجميلات اللاتي يعزفن على العود ذي الستة عشر وترأ، يغنين في شجن أغاني تتأسى على شهداء المعارك. كما قدمت الرواية والشعر التي يقبل عليها الفيتناميون في حماسة مقدسة، على مدى عدة سنوات موضوعات التجارب الشخصية خلال الحرب. غير أن أكثر ما أدهشني في الفيتناميين هو ابتعادهم التام عن الدراما. فقد احتفظوا ببشاشة دائمة وبإقبال على الحياة وتميزوا بقدر كبير من حس الفكاهة. قال لي أحد كبار المسؤولين: «نحن لاتينيو آسيا». ذات مرة كان أحد المترجمين الفوريين ينقل لي موقفاً مأسوياً على لسان رجل تعلق وجهه ابتسامة غامرة، فاعترضت المترجم وقلت له: «لا يمكن أن يكون هذا الرجل يحكي كل هذه الفظائع بهذا الوجه البشوش». هكذا كان الفيتنامي دائماً وأبداً. لم تكن حتى مشكلات العلاقات مع الصين لتمس تلك الطمأنينة المميزة لشعب فيتنام، على الرغم من أنها كانت شغلهم الشاغل.

قال رئيس الوزراء بان فان دونج إن ذلك التوتر الاجتماعي له مبرر تاريخي. استقبلني ذلك المسؤول في قصر الحكومة أنا وأسرتي في ساعة لم يكن أحد من رؤساء الدول ليستيقظ فيها وهو على هيئة حسنة من اللياقة الجسدية وانتقاد الذهن، فيما لا يعكس سنوات عمره الست والستين. كان حواراً طويلاً ذا طابع متواضع واحتفالي مثلما هي عادة الفيتناميين. وكلما ابتعدنا بعيدنا الحوار إلى النقطة نفسها: الحرب المحتملة مع الصين. سألت رئيس الوزراء سؤالاً صريحاً: هل

حالة القلق تلك هي نتاج سياسة حكومته للحفاظ على مستوى الروح الوطنية في أعلى مستوياتها؟ أم أنها مبنية على أساس واقعي من احتمال عودة الغزو الصيني؟ أجبني بان قان دونج: «إنه خطر دائم الوجود منذ آلاف السنين، وأضاف بلغته الفرنسية الرصينة:

إنه حلم مجنون. «C'est un Rêve fou».

أفاض زوان زوي رئيس لجنة العلاقات الخارجية للحزب الشيوعي الفيتنامي في الشروح التاريخية. جمعنا جلسة طويلة في منزله بهانوي التي كان قد ضربها أخيراً أول أعاصير الموسم، وأكد لي خلالها أن مطاعم الصين في بلاده قد بدأت منذ قرون طويلة غير أنها توارت في حقبة الستينيات. حيث ارتكب خروتشوف العديد من الأخطاء على المستويين الداخلي والخارجي للحزب الشيوعي مما حدا بالحزب الشيوعي الفيتنامي إلى لفت نظره بانتقادات جادة: كان هدفنا من ذلك الحفاظ على وحدة الصف الشيوعي. في حين سعت الصين لانتهاز تلك الفرصة لشقه واقتربت على فيتنام الاجتماع مع أحزاب شيوعية أخرى تسعى إلى تكوين كتل آخر في مواجهة الاتحاد السوفياتي. يرى زوان أن أرض فيتنام هي أول العوامل التي ساهمت في توتير العلاقات مع الصين وعملت بعدها على تشكيل جماعات الماييين في العالم بأسره.

سألت زوان عن تفسيره لدعم الصين لفيتنام في حربها ضد الولايات المتحدة الأمريكية، فأجاب «وقفت الصين معنا لأنها بذلك تحمي مصالحها الحدودية التي لم تكن بعيدة عن المطاعم الأمريكية بدورها». لذا فقد تغيرت مواقف الصين كلية بعد أن عقدت اتفاقها مع الولايات المتحدة: بعد زيارة نيكسون للصين عام 1972 تم قصف هانوي بلا رحمة وبلا هدنة على مدى اثني عشر يوماً. كان زوان مقتنعاً أن هذه كانت أولى نتائج الاتفاق بين أميركا والصين. حتى أن عملية فيتنام العسكرية في كمبوديا التي أثارت الكثير من التحفظات، كان تبريرها كحلقة جديدة من مسلسل التصفية العرقية. كان زوان مقتنعاً أن القوات الصينية تستعد لأن تحتل بعض المقاطعات في كمبوديا بموافقة بول بوت حتى يتسنى لها مهاجمة فيتنام من أضعف نقاطها. «لن يهدأوا حتى يتخلصوا منا، إذا لم تصدقني فلتذهب إلى الحدود لترى إن كان يمكنهم ذلك» وأضاف مؤكداً.

كنت قد ذهبت في اليوم السابق إلى لانج سونج، تلك المدينة المهمة التي تقع على بعد أربعة عشر كيلو متراً من الحدود مع الصين. كانت المدينة قد أبيدت، ليس بفعل الحرب وإنما بفعل الديناميت. دخلها الصينيون مدة يوم واحد ودمروها في عمليات منظمة. نهبوا مقر الحزب والمكتبة العامة وحضانة الأطفال والمراكز الصناعية. أصبحت السوق العامة حيث تتمركز التجارة، مجرد ساحة مقفرة.

كل من تحدثت إليه في فيتنام كان على اقتناع تام بأن ذلك الاعتداء لا بد وأن يتكرر. مع أن أحداً لم يصوّر الموضوع على أنه فاجعة: «نحن في انتظارهم» قال بان فان دونج. «سيجدوننا هذه المرة أفضل استعداداً» قال نجوجن زاك سكرتير الدولة للشؤون الخارجية. تنبأ زوان بأنهم سيهاجمون مرتين، على طريقة العرافين: «ليس قبل أن نهزمهم ثلاث مرات». وأضاف، بابتسامته المعهودة: «لن يعترفوا بتفوقنا عليهم قبل أن نهزمهم ثلاث مرات، عندئذ فقط قد يفكرون في عقد معاهدة سلام أو هدنة».

كانت زيارتي لفيتنام تنتهي مساء ذلك اليوم، على الرغم من استمرار ذلك الإعصار المبكر الذي ترك آثاره المميتة والمدمرة في هونغ كونغ مدة ثلاثة أيام أخرى. كنت أشعر أنني داخل ماكينة قهوة عملاقة تمتلئ بالبخار. كانت الأمطار تكاد تسقط أفقياً على بحيرة إيسبادا ريكوبيرادا في حين كانت الرياح العاتية قد اقتلعت الأشجار ودمرت الحديقة الكائنة أمام منزل الحاكم الفرنسي. غير أن الاختلاف الوحيد الذي ظهر في الشارع هو المعاطف البلاستيكية التي كان راكبو الدراجات يرتدونها فوق قبعاتهم التقليدية ليبدو كأشباح منطلقة في الشوارع. قال لي صديقي الكاتب الذي كان يرافقني: إن هذا الشعب يتصرف مع الإعصار مثلما كان يفعل مع القصف: «إلى درجة كانت تستلزم إجبارهم على دخول المخابئ».

احتل أعضاء لجنة من مجلس الشيوخ الأميركي فندقنا بعد أن تمكنت طائراتهم من الهبوط بمطار هانوي قبل الإعصار مباشرة. جاؤوا في مهمة للتوصل بأي شكل من الأشكال إلى حل مع الحكومة، فيما يتعلق بمشكلة النازحين وقد استقبلوا بصفة رسمية. جاؤوا بمهمات تشي باستعدادهم للقيام برحلة بلا عودة إلى القرون الوسطى. كانوا يحملون براميل بلاستيكية من مياه الشرب والمرطبات والجة على اختلاف أنواعها والأغذية المعلبة والفواكه والخضروات المجمدة. هذا بالإضافة إلى مقصف متحرك ومستشفى متنقل مع قسم خاص لعلاج لدغات الثعابين. حملوا معهم جميع أنواع المبيدات الحشرية والمطهرات وعدة إطفاء حرائق كاملة. كل ذلك معبأ في صناديق معدنية مختومة بشعار الولايات المتحدة الأميركية احتلت مدخل الفندق بأكمله إلى جانب معدات السينما والتلفزيون. بين كتب المطالعة التي تركها أحدهم في جوار المتاع كان هناك كتاب يتحدث عن الحياة في الغابات.

فوجئ أحد أعضاء البعثة، بالسخف الأميركي نفسه الذي يميزهم في سفرهم حول العالم، بوجود كاتب غربي في تلك البقعة من الأرض خلال تلك الأيام. قال معلقاً: «أصبح الكل الآن معارضاً». في الواقع وقف الكثير من المثقفين والفنانين إلى جانب فيتنام وفي أصعب المواقف

وأيدوا حملات النازحين. ففي رحم الملهاة قيل ونشر أن بيمه الجميلة التي كانت نجمة مفاوضات باريس للسلام عام 1973 قد تعرضت للحبس في مركز تعذيب. في الحقيقة كانت بيمه في ذلك الحين ولا تزال حتى يومنا هذا وزيرة ثقافة فيتنام.

انطباعي الشخصي- على الرغم من أنه خاص بضميري- المحكوم عليه بالإبحار عكس التيار، أن فيتنام ضحية أخرى لمؤامرة عالمية. لم تطرد حكومتها أحداً وإن كانت قد غضت الطرف في لحظة ما عن عملية النزوح الناتج من صعوبة التعايش. غير أنها كانت واعية إلى أنه في خضم النزوح قد خرج العديد من الخبراء والفنيين الذين كانت البلاد في حاجة ملحة إليهم في عمليات إعادة الإعمار.

ارتكبت الحكومة خطأين لا يغتفران: إنها لم تتوقع أو تحسن حساب الحملة العالمية ضد النزوح وإنها قد وثقت بدعم وتفهم الرأي العام الدولي الذي لم يسبق له وأن خذلها حتى ذلك الحين، غير أنه في هذه المرة، قد ابتلع طعم التشويه الذي ألقى إليه. بعد عدة عقود من الحرب، لم يعد هناك حلول.. خسرت فيتنام معركة كبيرة في حرب لم تخبرها من قبل وإن خبرت دمويتها: حرب الإعلام.

باتمان : لغز بلا نهاية³⁶

ها هي الطائرة ذات المحرك الواحد، من طراز بايبر PA28-، والتي تحمل لوحة أرقام كولومبية: HK2139P تغادر مطار سانتا مارتا. جلس أمام عجلة القيادة السياسي المحافظ انطونيو إسكوبار براقو وأقنع في تمام الساعة الثامنة إلا الربع من يوم 28 نيسان/أبريل متجهاً إلى مطار بايتيا المدني بمدينة بنما. بعد سبع دقائق، هبط على بعد كيلومترات قليلة من بلدة ثياناجاس، على مهبط تجاري قديم ومهجور، حيث كان في انتظاره عشرة أشخاص. صعد ثلاثة منهم على متن الطائرة: رجلان وامرأة. أطولهم كان نحيلاً وذا عظام بارزة يرتدي قميصاً بألوان زرقاء متداخلة وقبعة قبطان. إنه خيامي باتمان كايون، أكثر رجال كولومبيا المطلوبين خلال آخر خمسة أعوام. إنه القائد الأعلى لحركة 19 نيسان/أبريل (M-19).

لم يكن أحد غير هؤلاء، بالإضافة لعدد محدود آخر من أعضاء التنظيم، يعلمون أن الطائرة ستهبط مرة ثانية، خفية في مطار مهجور بالقرب من مونيتيريا، حيث كان سيعقد اجتماع مع ممثلين عن الجيش الشعبي للتحرير من أجل بحث مشكلات برنامج التحركات المشتركة. بعدها لا بد أن تتابع خط سيرها إلى بنما، حيث يفترض أن يصل مبعوث شخصي عن الرئيس بيليساريو بيتانكورت لإجراء محادثات تصالح. أجرت الطائرة اتصالاً أخيراً مع برج المراقبة الجوية بعد ساعتين وسبع عشرة دقيقة من إقلاعها من سانتا مارتا، وهي على بعد خمسين ميلاً بحرياً من مطار بايتيا، غير أنها لم تهبط هناك قط. هذه هي المعلومات المعروفة والمؤكدّة والمتوافرة لدينا، بعد أربعة أشهر كاملة من اختفاء خيامي باتمان وبعد بحث مضنٍ على الأرض وفي الجو وتحت الماء. كل ما عدا ذلك فهو مجرد تخمينات.

الفرضية التي صمدت أمام كل دليل هي أنه قد مات. كل طرف أتى بتفسير خاص به أو بأمل مختلف لتتواصل الخدعة، مثلما حدث مع إيميليانو ثاباتا في المكسيك، أو كما حدث في كل العالم على مدى سنوات عدّة، مع أدولف هيتلر ومع كثيرين غيره ممن ابتلعتهم الأساطير. وحدهم بعض من أصدقاء طفولة باتمان، ممن كانوا آخر من التقى في سانتا مارتا، قبيل اختفائه بأيام قليلة، هم من صدّقوا أنه قد لقي حتفه بلا شك. غير أن ثقتهم لم تبين على تحليل عقلي، وإنما على العكس تماماً: على أساس اعتقادهم الأصيل بالقدرة الخارقة لبعض الأشخاص على العودة إلى الأماكن

التي يحبون ومحاكاة أفضل ذكرياتهم في أواخر أيام حياتهم. إنها ظاهرة يطلقون عليها «لملمة الخطوات». كانت تصرفات باتمان في تلك الفترة تؤكد ذلك.

وصل إلى ساحل الكاريبي في 19 نيسان/إبريل ليعقد مؤتمره الصحفي قبل الأخير، في مكان ما بالقرب من قرطاجنة دي إيندياس، بمناسبة العيد الثالث عشر لحركته. كان حريصاً على أن يعطي بعداً تاريخياً لذلك التاريخ على الرغم من أنه لم يكن يهتم بعيد مولده - خمسة أيام لاحقاً - وكثيراً ما كان يتناساه. غير أن يوم 24 نيسان/إبريل من هذا العام سيكون مختلفاً. فعلى الرغم من الأخطار التي كانت تحفه في مكان تعرف كل أجهزة الأمن أنه سيتواجد فيه، أصر على الاحتفال بعيد مولده في مسقط رأسه-سانتا مارتا- التي لم يذهب إليها لدواعي الحرص الأمني منذ أكثر من سبعة أعوام. هناك كانت ذكريات شبابه المحببة: سماء وأماكن ما فتئت تدغدغ حنينه. كانت علاقته بوالده عادية نوعاً ما، في حين كانت علاقته بإخوته جيدة. أما علاقته بوالدته- العظيمة كليمنثيا كايون- فقد كانت أشبه بعلاقة تشي غيثارا بوالده من حيث قوة العاطفة إلى درجة تبدو ظاهرياً كرباط حبل سرّي، وإن كانت متداخلة ولا تخلو من المشاكسة. حكى بعض أصدقائه، أنه في كثير من ليالي التخفي الخطيرة، وسط التوتر أو الوحدة في الغابات، كان يصرخ من أعماق أعماقه: «آه يا كليمنثيا كايون!! ماذا يكون من أمرك؟».

كانا كثيراً ما يلتقيان في أماكن متباعدة وسريّة، حيث إن بيتها كان دائماً قيد المراقبة المستمرة. غير أنها مراقبة فيها الكثير من الإنسانية بالنسبة إلي من يقوم بها، خصوصاً أن المدينة التي كانت تقيم فيها تعد من أكثر مدن البلاد استئناساً. اعتادت كليمنثيا كايون- غير مؤكدة إذا كان بدافع المكر أو الرأفة- أن تعرض على فرد المراقبة الواقف تحت حرارة شمس الظهيرة كرسيّاً ليجلس عليه وترسل إليه عصير فاكهة السورسوب أو طبقاً من الحساء أو سيجارة، فيتعين تغييره بعد فترة وجيزة، حيث يفقد موضوعيته ويصبح فرداً من الأسرة. لاشك أن الاحتفال بعيد الميلاد في سانتا مارتا كان محفوفاً بالمخاطر، غير أن قرار باتمان قد صدر صارماً وبلا بادرة تراجع، إلى درجة أن طاقم حراسته المتشدّد حيال مثل هذه التصرفات، لم يجد بداً من الرضوخ لرغبته.

انتقل الفريق الذي حضر المؤتمر الصحفي بقرطاجنة بأكمله إلى سانتا مارتا، فجر يوم 20 نيسان/أبريل برأ. كان ساحل الكاريبي في حالة جفاف وكان عبق فاكهة الجوافة يملأ الجو الحار. تحوّل باتمان إلى مرشد حنيني، خصوصاً لرفيقه من القيادة العليا -القارو فيّاد وكارلوس توليدو بلاتا-الذين كانا معه في السيارة نفسها وهما من عوالم أخرى ذات تكوين مختلف. بعد عبور الكوبري الضيق الذي يفصل بين البحر وثياناجا الكبرى- بالقرب من حيث كانت ستهبط طائرة

النهاية الحزينة- طلب التوقف لتناول فطور المرجان المقلي وشرائح الموز في أحد نزل الطريق. بعد ذلك لم يعد قادراً على كبح جماح رغبته في العودة إلى مسقط رأسه مثلما اعتاد أن يفعل في شبابه: فقد سيارته حتى سانتا مارتا، وتوقف مرة أخرى عند حانة روداجيرو لتناول جعته الصباحية. قبل ذلك بأيام، كان باتمان قد شاهد الفيلم الأسباني: «عود على بدء» (a volver Empezar)، الذي حصل في ذلك العام على جائزة أوسكار لأحسن فيلم أجنبي تناول قصة رجل يعود إلى مسقط رأسه أوفيدو بعد أن كبر ونضج وأصبح مشهوراً. في اليوم التالي، تكونت رؤيته وأخبر بها أصحابه : أن يقوم ببطولة قصة حقيقية مثل ذلك الفيلم.

لا في هذه اللحظة ولا في أي من الأيام التالية، قام باتمان بأي تصرف ليخفي شخصيته. عندما وصل إلى سانتا مارتا، زار كل الأماكن التي تركت أثراً في ذاكرته، ولعل الشيء الوحيد الذي لم يفعله كما اعتاد أن يفعل في شبابه، هو لعبه كرة قدم الجورب على الشاطئ. ظهر غير مرّة مع أمه، بطبيعة الحال، ولكن ليس في منزلها، وتحدث معها عن أخبار أصدقائه القدامى وحبيباته المنسيات. كان يذكر بصفة خاصة زملاءه بثانوية ثيليدون التي لم يستطع أن يتخرج فيها بسبب سلوكه المتمرد. جميعهم، بقدر ما أمكن، تسلّم دعوة لحضور عيد ميلاده الرابع والأربعين.

كيف لم يكتشف أمره في بلدة يعرف أهلها بعضهم بعضاً وفي جميع أنحائها مخبرو الجيش والشرطة وقيادات إدارة الأمن؟، كم يشق على العقل تصور ذلك!. السبب بلا شك، هو شعبية باتمان بين بني موطنه وصعوبة أن يكون هناك من قد يشي به، حتى لو كان على خلاف معه. غير أن هناك سبباً آخر حقيقياً وظريفاً. كان لباتمان أخ واحد يشبهه كثيراً كتوأمه، من بين كل إخوته، وكان مثله تماماً، لديه قدرة كبيرة على التخفي والإفلات. منذ أن ظهرت في الصحف صور القائد السري، راح الأخ يجري وراء كل التفاصيل ليزيد الشبه بينهما: شعر مجعد على الطريقة الإفريقية وشارب مربع خفيف وقميص أزرق وحذاء ذو رقبة طويلة. ظلّ فترة طويلة يخدع الشرطة الصديقة وزرع الشك في كل الأماكن العامة بسانتا مارتا. خرج وتنزه وتسلى قدر ما شاء حتى اعتاد الجميع الشكل والحضور. فعندما ظهر خايمي باتمان الحقيقي، اعتقد الكثيرون ممن شاهدوه في الأماكن العامة، أنه لا يمكن أن يكون هو، ولا بد أن يكون الآخر الذي واصل تخفيه بقبعة قبطان بحري. على كل حال، لم يكن في إمكان أكثر رجال التحري حنكة أن يتصور أن يظهر باتمان الحقيقي علناً على الملأ.

لا يمكن أن نتصور حفلة عيد ميلاد أكثر غرابة . إذ قام باتمان باستئجار أحد تلك المنازل المطلّة على شاطئ سانتا مارتا التي لا يمكن الوصول إليها بالسيارة إلا بصعوبة. كان نيسان/

إبريل شهر أوان طرح المانجو وهي فاكهته المفضلة. ابتاع عدة صناديق له ولأصدقائه كما أهدى له أصدقائه الكثير منها. كان مشروب الحفل هو روم الشعير وكذلك الويسكي لمن يرغب، غير أن المشروب الرسمي للحفل كان هو المفضل لدى باتمان، منذ زمن طويل، حتى قبل أن يروج كموضة: بينيا كولاذا.

أضافت الإجراءات الأمنية الكثير من الغرابة على طابع الحفل. أقله كان هناك مئة مدعو طوال النهار، لكن لم يجتمع أكثر من عشرة في الوقت نفسه. في الحقيقة لم تكن هناك من وسيلة للوصول سوى استئجار مركب من الضفة المقابلة للخليج، ولم تكن تلك المراكب تسع أكثر من 8 أفراد في المرة الواحدة. تم تخصيص مركب لإحضار المدعوين، وآخر لعودتهم، تجنباً للتزاحم في الاحتفال. بالقرب من المنزل كانت هناك لانشات سريعة وسيارتان وفرقة كاملة من رجال الأمن على أهبة الاستعداد لأن يتصدوا لأي اعتداء أو هجوم مفاجئ.

كان باتمان رجل حفلات ولكن على طريقته الخاصة. كان يجيد رقص السالسا والقايبيتانو الشعبي وكان يحب أن يرقص، غير أنه لم يكن يحب أن يكثر من الشراب. مثل بقية سكان الكاريبي، كان خجولاً وحزيناً، غير أنه كان يخفي هاتين الصفتين تحت غطاء لطفه الطبيعي المتدفق. جاءت تصرفاته خلال الحفلة، أبعد ما تكون عن التقليدية التي يمكن أن نتصورها. استقبل زواره بلباس السباحة وشاركهم الأنخاب وامتلاً حديثه بالقهقهات العالية ورقص قليلاً بعض خطوات القايبيتانو وأكل الكثير من المانجو. قفز إلى الماء على حين غرة غير مرة وسبح فترة طويلة، بينما يستمتع مدعووه بالحفلة. لعل تلك اللحظات هي من أسعد لحظات حياته. منذ صغره كان سباحاً ماهراً وسريعاً. وصلت كليمنثيا كايون عند الظهر، تحمل المزيد من كميات البينيا كولاذا. ألهب حضورها حماسة الحفل. صاح أحدهم في إحدى استراحات القايبيتانو: «كليمنثيا كايون: يا لبطنك الذهبية». حرصت قوات الأمن دائماً، على ألا تمتد الأيدي كثيراً إلى البينيا كولاذا.

حتى تلك اللحظة لم يكن باتمان يفكر في السفر إلى بنما. فُكر في أن يقطع عرض البلاد براً، ليلقى القائد الثاني لحركة M-19 إيفان مارينو أوسبينا الذي كان يقود المتمردين في لاكاكيتا. من ناحيته، سافر ألقارو فيّاد إلى بوغوتا، بينما توجه توليدو بلاتا إلى كالي. كان الاتفاق يقضي بأن يعود ثلاثتهم للتجمع بعد ثلاثة أشهر في غابات بوتو خلال شهر أيار/مايو من أجل الاجتماع العام للقيادة العليا. تغيّرت تلك الخطة عندما تلقى باتمان رسالة غير منتظرة من بنما، مفادها أن مبعوثاً شخصياً من الرئيس بيتانكورت يرغب في لقائه. يبدو أن الرسالة لم تكن واضحة بما فيه

الكفاية، فقد تحدثت عن مسؤول على أعلى مستوى وكان باتمان ينتظر فرصة كهذه، منذ أن فشلت مساعيه في لقاء رئيس كولومبيا في نيودلهي، أثناء مؤتمر دول عدم الانحياز. من ثم تغيرت كل خطته خلال 24 ساعة، وقرّر أن يذهب في تلك الرحلة التي قادته إلى حتفه.

كان هوس باتمان بلقاء الرئيس من أجل بحث سبل اتفاق تصالح محتمل، قد أصبح جلياً. غير أنه كان على اقتناع تام في تلك الفترة، قياساً على جملة من المؤشرات، بأن الحكومة لا ترغب في الحوار معه. جاء آخر تلك المؤشرات يوم 3 نيسان/إبريل، حيث بدت أكيدة إلى درجة كبيرة. ففي طريق عودته بعد لقائه رؤساء مجموعة لاكونتادورا، توقف بيتانكورت فترة قصيرة في بنما. انتظره باتمان هناك على أمل أن يلتقيه، وظلّ طوال اليوم في حالة انتظار على مقربة من مقر مباحثات بيتانكورت مع العقيد -وقتذاك- مانويل أنطونيو نوريجيا، رئيس المخابرات والحرس الوطني لبنما وقائدها الحالي. كان بيتانكورت ونوريجيا قد بحثا من قبل موضوعات كثيرة من ضمنها نشاط جماعة 19-M في بنما، ولكن لم يتطرق الأمر إلى لقاء باتمان. تكرر إحباطه ثانية فكتب للرئيس رسالة يؤكد فيها ضرورة الهدنة وإجراء مباحثات صلح. تم تسليم الرسالة إلى رئيس بنما. قرأها ريكاردو دي لا إسبيريا هاتفياً على الرئيس بيتانكورت يوم 21 نيسان/أبريل عندما كان باتمان في سانتا مارتا. لعلّ هذا ما حدا بباتمان لأن يعتقد أن المبعوث الرئاسي جاء نتيجة رسالته تلك، لذا اتخذ تدابير السفر في تلك السرعة. غير أن السلطات الكولومبية لم تستطع أن تؤكد أنه كان هناك اتجاه لدى الرئاسة، لإرسال ممثل عنها إلى بنما في تلك الفترة. كل ما هنالك هو استقصاء للرأي طلبه الرئيس من لجنة التصالح. قبل أن يستقيل أوتو موراليس بينيتيث، أكد أن الأمر لم يكن سوى إجراء مبدئي لم يكن يستتبع سفر باتمان بهذه السرعة.

خلال أسبوع إقامته في سانتا مارتا، التقى باتمان صديقه القديم، أنطونيو إسكوبار براقو، ذلك السياسي المحافظ. كانت صداقتهما تمتد إلى سنوات عمرهما الأولى وقد تواصلوا من جديد عن طريق توليدو بلاتا عندما جمع بينهما مجلس النواب. لم يكن الكثيرون يعرفون، في تلك الفترة، عن أنطونيو أنه كان طياراً خبيراً وقادراً على التحليق فوق أي نقطة من البلاد في طائرته أحادية المحرك. أنهى تدريبه بنادي أيروكلوب أتلانتيكو في بارانكييا، حيث حصل على رخصة طيار خاص رقم 767 بقرار رقم 3550 صادر عن إدارة الطيران المدني عام 1976. تخول له رخصته قيادة طائرة بحمولة قصوى 5670 كيلو غراماً، ولم يكن وزن طائرته يزيد عن 1156 كيلو غراماً. يقول كتاب طيرانه إن أدائه خلال فترة التدريب كان جيداً بالإضافة إلى أنه كان متحمساً ودؤوباً. جاءت مراجعة طيرانه في 15 شباط/فبراير 1985 - قبل الحدث بشهرين - مرضية، كما اجتاز

الكشف الطبي لللياقة الطيران بنجاح. مع ذلك، من المنظور المهني الصرف، لا يمكن اعتباره طياراً خبيراً، إذ كان ذلك يتطلب ثلاثة إلى أربعة آلاف ساعة من الطيران، ولم يكن لدى إسكوبار سوى ثمان مئة، بما فيها ساعات فترة التدريب.

كانت طائرته مجهزة بنظام اتصال أثيري ثنائي من طراز في إتش إف، وبنظام ملاحه ثنائي يتيح التقاط إحداثيات طائرته من على الأرض. كما كانت مزودة بنظام مساعدة عن طريق الراديو من طراز إيه دي إف، وكذا بنظام آي إل إس، للهبوط الآلي. مع ذلك، لم يكن مستوى خبرته، يسمح له باستخدام هذه الخاصية الأخيرة. غير أن أهم ما كان ينقص هذه الطائرة هو جهاز رادار، كان سيساعد بالتأكد على تجنب حادث بنما. لكن لم يكن شائعاً في طراز طائرة إسكوبار أن تكون مزودة برادار، إلا في أضيق الحدود، كما أن تزويدها لاحق بهذا الجهاز يأتي بتكلفة باهظة. على كل حال، كان باتمان يثق به. كل ذلك أدى إلى أنه عندما ظهرت ضرورة السفر إلى بنما من سانتا مارتا، اتصل به باتمان في الشاطئ الذي كان موجوداً فيه، واتفقا على أن يسافرا في اليوم التالي.

انتظرهما عشرة أشخاص في مطار مهجور بالقرب من ثياناجا كانوا، هم: توليدو بلاتا ونيللي فيفاس وكونرادو مارين مع عضوين من الإدارة الوطنية وأربعة من قوات أمن الحركة. وصلوا في أكثر من سيارة قرب الفجر وانتظروا الطائرة في ركن بعيد. هبطت الطائرة في السابعة واثنين وخمسين دقيقة، وهو الموعد المحدد تقريباً. الثلاثة الذين صعدوا على متنها على الفور كانوا خايمي باتمان ونيللي فيفاس وكونرادو مارين في طريقهم إلى جبهة لاكاكيثا عن طريق بنما. كانت نيللي فيفاس أستاذة بيولوجيا من كالي، درست التخصص في باريس على مدى 8 أعوام وعملت بالتدريس في كلية سانتياغو بكالي. انضمت إلى M-19 منذ ستة أعوام وأصبحت عضواً بالقيادة العليا. أوكلت إليها مهمة إجراء الاتصالات الأولية مع الرئيس كارلوس بيراس ريستريبو، عندما كان على رأس لجنة المصالحة في حكومة تورباي آيالا. أما كونرادو مارين فقد كان مزارعاً من فلورينثيا، حصل على أعلى درجات المقاتلين وهو أحد من استفادوا من عفو الرئيس بيتانكور، مثل كثيرين. تعرّض أربعة من زملائه في العفو للاغتيال على يد مجهولين في شوارع فلورينثيا، في الشهور القليلة التالية. انضم مارين إلى M-19 خوفاً من أن يلقي المصير نفسه، بعد لقاء في سانتا مارتا. أما فياد فلم يكن في المطار، إذ كان قد غادر براً إلى بوغوتا في الليلة السابقة.

تستغرق الطائرة ما بين إقلاعها وهبوطها وقتاً بالكاد يصل إلى ثلاث دقائق، إلا أن الإقلاع تأخر هذه المرة، عندما عاد باتمان ليقف عند باب الطائرة يطلب علبة تبغ ممن بقوا على الأرض.

بالتأكيد كان يلبي الرغبة في لحظة أخيرة لأحد مرافقيه أو للطيار، فقد ألق هو عن التدخين منذ ثمانية أعوام. دام التأخير حوالى أربع دقائق.

جلس باتمان في كرسيه المعتاد: مقعد مساعد الطيار. سافر على هذا المقعد عدة مرّات في السابق، لدرجة تسمح له بتنفيذ هبوط اضطراري، من مجرد مشاهداته السابقة. كان يسافر وهو مرتاح البال، معتدل المزاج كعادته، وقد صرّح قبل ذلك في أكثر من مناسبة، أنه قد يقدم على أي شيء ما عدا النزول بمظلة. اعتاد أن يحمل معه عند سفره بالسيارة، على أقل تقدير، مسدس براونينغ مثبتاً على حزامه تحت القميص، ومدفعاً رشاشاً وقنبلة يدوية في متناول يده. لكنه ترك الرشاش لألفارو فيّاد قبل تلك الرحلة، واكتفى هو بالمسدس وقنبلتين يدويتين.

كان متاعه في تلك الرحلة عبارة عن حقيبة يد بها القليل من الملابس وألفا دولار نقداً وشريط ممغنط يحوي أغاني ثيلينا وراوتيليو ونسخة أسبانية من رواية «الدونا فلور وزوجاها» من تأليف البرازيلي جورجى أمادو، رغب في قراءتها بعد أن شاهد الفيلم. كان يحمل أيضاً جهازاً لاسلكياً من طراز في إتش إف، ذا مدى يبلغ 18 كيلومتراً، يستخدمه في التواصل من الجو مع بعض القيادات في حركة M-19، مثلما اعتاد أن يفعل قبل هبوطه، حتى يتيقّن بأنه لن تقابله أية مفاجآت في المطار السري. كان يحمل جواز سفر كولومبياً عليه صورة حقيقية واسم مختلق. أغرب ما كان يحمل كان رشاش إشارات ضوئية، قادراً على إطلاق شرارات ضوئية حمراء وزرقاء إلى ارتفاعات كبيرة. في الحقيقة هو وسيلة مساعدة في حالات الفقد في عرض البحر أو وسط الغابات الكثيفة. اشتراه باتمان خلال رحلته الأخيرة إلى بنما. لم يكن ذلك مستغرباً، فكثيراً ما مازحه أصحابه بسبب ولعه بالألعاب الإلكترونية.

قد يفسر أصدقاؤه الكاريبيون حمله ذلك الرشاش على أنه تصرف تنبؤي. خلال عمليات البحث المضنية عنه في الأدغال، كانت معرفتهم بأنه يحمل تلك الأداة مدعاة لانتظار الخير من نتيجة البحث، على حسب ما رأت اللجنة المعنية. عندما أفلعت الطائرة من مطار ثياناجا القديم، لم يخطر ببال أحد أن يحدث المكروه. كانت السماء صافية بلا غيمة واحدة وكانت الأحوال تنبئ برحلة طيبة بلا مشكلات. مع ذلك رصد القمر الصناعي للأحوال الجوية في الولايات المتحدة الأميركية، كيف كانت الغيوم تتسارع للتجمع فوق المنطقة الشاسعة بين أورابا ونيكاراغوا، مما لم يكن ينذر بأي خير.

وصل ألفارو فيّاد مساء ذلك اليوم إلى بوغوتا براً وهو يعتقد أن باتمان يأخذ قسطاً من الراحة إذ ذاك بينما. حمد الله على أنه لم يكن برفقته في رحلته الطويلة بالسيارة، حيث تم توقيفه للكشف عن الهويات، ست مرّات من قبل دوريات الجيش ومكافحة تهريب المخدرات. سلّطوا الضوء على وجوههم ليطابقوها بصور تحقيق الشخصية، كما تم تفتيشهم ذاتياً غير مرة. ربما لم يكن باتمان ليفلت من عمليات التفتيش العديدة، ليس لمظهره المعروف نتيجة ظهوره أكثر من مرّة على شاشات التلفاز فقط وإنما لعلامة تميزه من غيره أكثر من بصمات يده: ساقه اليمنى. فعندما كان في التاسعة من عمره صدمته سيارة نقل وهو يلعب كرة القدم بكرة الجورب بسانتا مارتا. جُبرت القدم على الجرح دون أن تستقيم العظام، ما أدى إلى تعرض ساقه لغرغرينا لم يشف من آثارها قط. لم تجد معه عشرات العلاجات ولا تقويمات العظام. كانت ساقه الطرية التي بالكاد تغطيها طبقة من الجلد الرقيق سرعان ما ينكأ جرحها جراء أقل زلل. كانت ساعات سيره الطويلة في الأدغال تضحيات صحية كبيرة، قد تدفعه في مواقف كثيرة للانسحاب من الكفاح طلباً للعلاج. كانت تلك علامة لا تخيب قد سجلتها له جميع أجهزة الأمن، حتى أنهم كانوا يكشفون عن سيقان المشتبه فيهم برفع طرف البنطال والكشف عن حالة الساق. في المرّة الوحيدة التي حدثت له، رفع العسكري طرف بنطال ساقه اليسرى وتركه يمر.

خلد فيّاد إلى النوم في تلك الليلة دون أن تأتيه أخبار من باتمان. في اليوم التالي، أخبره بعض أعضاء فريق الاتصال، في الصباح الباكر، أن طائرة إسكوبار لم تصل إلى وجهتها. غلب على ظنه أنه قد حدث تأجيل للرحلة. لكن سرعان ما أكدوا له أنها قد أقلعت في موعدها من سانتا مارتا دون أن تتوقف في مونتيرييا ولا وصلت إلى بنما. اتصل بتوليديو بلاتا الذي كان في سانتا مارتا وأكد له الحقيقة: تم إعلان حالة الطوارئ منذ اليوم السابق في الساعة الثانية عشرة وثمان وعشرين دقيقة ظهراً وأن البحث الجوي قد بدأ على الفور. حتى تلك اللحظة وبعد مرور أربع وعشرين ساعة لم يعثر لها على أثر. لم يتفوّه فيّاد بعد أن أغلق الخط سوى بكلمة واحدة: «مصيبة».

بعد هذا اليوم، وصف لأصدقائه هول وقوع الخبر على مسامعه، قائلاً: انطفأ النور في عيني.

نشرت جريدة تيمبو بتاريخ 30 نيسان/إبريل، صورة لإسكوبار بجوار خبر يشير إلى اختفائه بطائرته الخاصة فوق الأراضي البنمية. لم يكن أحد يعرف بالحادث سوى عشرين شخصاً، قبل أن يتمّ نشر هذا الخبر وما تلاه من أخبار أخرى أكثر كارثية. من المفترض ألا

يعرف بالأمر سوى قياد وتوليدو، بطبيعة الحال، وأعضاء فريق الأمن ممن كانوا في مطار سانتا مارتا وعضوي فريق الاتصال اللذين تعاملوا مع الخبر في بوغوتا. هذا بالإضافة إلى ستة آخرين من أعضاء فريق الأمن وعضوي الإدارة الوطنية الذين كانوا يرافقون توليدو بلاتا، ممثل الحركة في بنما ومسؤول أمن باتمان في هذا البلد، وهم الذين ظلوا ينتظرون في المطار. وأخيراً الستة الذين ظلوا في مونتيرييا. على الرغم من أن سانتا مارتا ليست بالمكان الذي يمكن فيه أن يختفي سر بهذا الحجم، إلا أن هذا ما كان ولمدة واحد وعشرين يوماً، حتى اكتشف الأمر أنخيل روميرو رئيس تحرير جريدة يونيفرسال بقرطاجنة، بمحض الصدفة التي قد لا يصدقها عقل. قبيل ذلك، كانت قاعدة هوارد الخاصة بقناة بنما، التي طلبت منها سلطات الطيران المدني الكولومبية المساعدة في البحث عن طائرة إسكوبار، قد ردت بشفرة توشي بمعرفتها بمن كان على متن الطائرة: «لم تكن المركبة تحمل مخدرات، وإنما شحنة مهربة أخرى».

ما حدث في الحقيقة، منذ أن أفلعت الطائرة من مطار ثياناجا، لا يمكن معرفته إلا من خلال تسجيلات إسكوبار مع برج مراقبة بنما. بفضل سلطات الطيران المدني الكولومبية وفنييها ذوي الخبرة الفنية العالية، الذين ساعدونا على فك شفرتها، نجد أن أول اتصال تم في الساعة التاسعة واثنين وخمسين دقيقة. بعد أن عرّف بنفسه، سئل عن ساعة إقلاعه من سانتا مارتا فكان رده: في الساعة وإحدى وخمسين دقيقة. المعلومة غير دقيقة: في الحقيقة، كان الإقلاع قد سبق ذلك بست دقائق، غير أن قائد المركبة ضم إليها الدقائق التي استغرقها اكتمال ركابه في المطار المهجور، بحيث يخفي معالم ذلك الهبوط السري. كان دقيقاً في كل بياناته، ما عدا هذا. لم يقل إنه كان يسافر بمفرده. كما نشر بعد ذلك. على الرغم من أنه لم يكن ليخفي ذلك لو سئل، حتى لا يتناقض مع بيانات خط سير رحلته من سانتا مارتا. أما فيما يتعلق بوقفة مونتيرييا، فقد ظلت طي الكتمان، إذا كانت قد تمت، إذ إن صور القمر الصناعي أشارت إلى أن الأحوال الجوية لم تكن لتسمح بالهبوط برؤية جيدة.

في اتصاله الأول أشار إلى أنه يطير على ارتفاع 6 آلاف قدم. وهو الارتفاع المسموح فوق سطح البحر. ليصل إلى 9 آلاف قدم. كان الارتفاع طبيعياً، حيث لا بد وأن تظهر أمامه سلسلة جبال داريين وهي الأعلى في بنما. كانت وجهته صحيحة وقد تمكن من بلوغ مطار بايتييا في تمام التاسعة وسبع وخمسين دقيقة. بعد أن بلغ ارتفاع 9 آلاف قدم، عاود الاتصال للإبلاغ عن مطب جوي أمامه. أشار عليه ضابط برج المراقبة بالارتفاع إلى 10 آلاف قدم، حيث يتحسن الطقس وأن يظل على ذلك الارتفاع حتى يعاود استشارة ضابط الرادار حول أفضل طريق تسمح به الأحوال.

أشار ضابط الرادار عن طريق ضابط البرج إلى أفضل طريق. المشكلة التي ظهرت ساعتئذ هي أن طائرة إسكوبار قد اختفت من مجال الرادار لأنها لم تكن مزودة بالجهاز الذي يتيح لها تعريف نفسها. لكن كان من الممكن رؤيتها عبر محرك الاتجاهات (دي إف) عن طريق إشارة راديو ترسلها الطائرة.

عاود إسكوبار الاتصال من جديد في الساعة العاشرة وأربع دقائق للإبلاغ بأنه يطير على ارتفاع عشرة آلاف قدم وأن الجو يسوء أمامه، لكنه يستطيع أن يرى انفراجات بين السحب بوسعه أن يمر من خلالها. كان صوته مستقراً وحساباته وإحداثياته تصدر عن طيار ماهر. هنا طلب منه برج المراقبة أن يضغط على زر الـ (دي إف) حتى يتمكن من تحديد موقعه وهو ما قام به إسكوبار للحظة قبل أن تختفي إشارته إلى الأبد. في هذه اللحظة، كان يطير على بعد خمسة وخمسين ميلاً شمال غربي أنكون على حدود مدينة بنما مع منطقة القناة. هذا يعني أن وقودها كان يكفي للطيران فترة إضافية تصل إلى ساعتين وأربعين دقيقة. غير أنه كان لا يزال يطير فوق الأطلسي على بعد ثلاثين ميلاً من جبال داريين. لو كان المكروه قد وقع في لحظة انقطاع إشارة الراديو، فلا يمكن إلا أن يكون قد سقط في البحر.

لا يوجد دليل واحد على ذلك. كان يمكن أن تطير كل المسافة المتبقية فوق البحر دون أن تعاود الاتصال. قد لا يكون ذلك مهماً. ثم تفاجأ بمطب هوائي وهي تطير فوق اليابسة على جبال داريين. في هذه الحالة، ليس من المحتمل أن يكون قد حاول الاتصال مرة أخرى، فطائرة من هذا الطراز عندما تجتاز مطباً هوائياً، يكون ذلك بمثابة دخولها خلّاط كبير: يتعين على أمهر الطيارين فيه أن يستحضر حواسه الخمس ليحافظ على استقرار المركبة، ولن يكون لديه يد ولا روح ليشغل نفسه بالراديو. فأي هزة عنيفة قد تكون كفيلاً بأن تخلع له أقوى جناحيه. ولو أنها دخلت ضمن نطاق عاصفة رعدية، فستتحطم وتتناثر أجزاؤها في دائرة قد يصل قطرها إلى عدة أميال.

قامت هيئة الطيران المدني بإجراء المسح الروتيني على مدى ثمانية أيام. أصرّ فيّاد على أن تزيد المدة إلى عدة أسابيع بعد أن حصل على مساعدات رسمية وخاصة. فتشت دوريات حركة 19 نيسان/إبريل مساحة تصل إلى خمسين ألف كيلومتر مربع على مدى سبعة أيام ومشتطتها شبراً شبراً، بما فيها الفضاء المهجور من أدغال أورابا، ما بين مونتيرييا حتى منطقة داريين على الحدود مع كولومبيا، من الجهة الأخرى، على الحدود مع التشوكو حتى عاصمة بنما. في هذه المنطقة فقط، -حسب إفادة لجان الإنقاذ- سقطت ما بين عشرين إلى ثلاثين طائرة منذ الحرب

العالمية الثانية، ولم يتم العثور سوى على أربع منها. وجدت إحدى الدوريات التي كانت تبحث عن طائرة إسكوبار، حطام طائرة يعود إلى عام 1963، كانت مختفية بين الأشجار على بعد حوالي عشرين متراً من أحد الطرق المزدحمة. بينما عثرت أخرى على أجهزة اتصال تعود إلى قوات دفاع أميركية، فقدت منذ زمن لا يذكره أحد وسط غابة كثيفة من الأشجار والمستنقعات، بالكاد تسمح لأشعة الشمس باختراقها ولا تلبث أن تنغلق بمجرد أن تعبر إحدى الطائرات إلى داخلها لتختفي بين أحشائها.

الطريقة الوحيدة لتحديد الاتجاه، في حالة عدم وجود بوصلة هي ملاحظة اتجاه أوراق الأشجار، إذ تميل دائماً نحو الشرق. ليس من المحتمل أن يتمكن إسكوبار من الخروج وحده، لكن باتمان ومارين كانا يستطيعان. فهذا الأخير مزارع من كوكيتا وخبرته تعود إلى نعومة أظفاره. أما باتمان فقد اكتسب خبرته وأثبت حسن تعلمه عندما ظلّ مع ستة من رجاله في أدغال كوكيتا في العام المنصرم. لم يكن من الغريب أن لا يبلغ حركة M-19 نبأ اختفائهم حتى لحظة خروجهم سالمين بعد شهر ونصف الشهر.

لا بد أن نعرف أن هناك اختلافاً في أسلوب تحديد الاتجاهات بين مقاتلي الحضر ومقاتلي الريف. فالحضر يشعرون بالخطر لمجرد عدم وجود بوصلة، أما أبناء الريف فتساعدهم غرائزهم على تحديد مواقعهم ويعتقدون أن البوصلة قد تخطئ لأسباب عديدة. أشارت حسابات M-19، منذ البداية إلى أنه إذا كان مارين وباتمان قد خرجا سالمين من الحادث، فإنهما قادران على الخروج بطريقتهم خلال خمسة عشر يوماً، هي أقصى مدة قد يستغرقها عبور أدغال بنما من أدناها إلى أقصاها. أما لو ظلّا على قيد الحياة مع إصابة ما قد تكون لحقت بهما وتعيقهما عن التحرك، ففي إمكانهما أن ينشئا مخيماً يقيمان فيه حتى ستة أسابيع. بعد هذه المدة، لا يمكن لرجل في قوة باتمان الجسدية والنفسية، أن يظلّ حياً.

ساعد كون إسكوبار رجل سياسة معروفاً، المهمة على M-19 في تحريك المسؤولين عن البحث. رسموا خطّتين، تتعلّق الأولى بالاستكشاف الجوي والثانية بالبرّي. استأجروا مروحيّتين وعدّة طائرات خاصة بأسعار خيالية، من أجل تنفيذ الخطة الأولى، وراحت جميعها تطوف في الأدغال على مدى خمسة وعشرين يوماً كاملة. أحد الطيارين الكولومبيين ممن شاركوا في هذه العملية الفريدة، أفاد بأنه من الصعب تنفيذ استطلاع أكثر تقنية ودقّة في ظروف معاكسة لهذه الدرجة. أما البحث البرّي الذي بدأ بعد عشرة أيام من الحادث، فقد قام على تجهيز مجموعات من خمسة عشر رجلاً بقيادة قائد واحد. كان هو الوحيد الذي يعرف هوية الشخص الذي يجري البحث

عنه، ليس لتجنب أية احباطات فقط، وإنما أيضاً للحفاظ على سرية الخبر. جرت عملية البحث بسرية تامة وعلى طريقة المقاتلين، كانت المجموعات تترك علامات لا يفهمها سواهم وكان أعضاؤها يطرقون جذور الأشجار الطويلة أثناء تحركهم. إذ كانت تلك وسيلة تواصل فعالة أكثر من إطلاق طلقة في الهواء ومن الأضواء الزرقاء والحمراء لجهاز باتمان التي لم تظهر قط. على مسافات متساوية، كانوا يتركون علامات متعارف عليها حتى يتعرف الضالون طريقهم وكانوا يجهزون مخيمات فيها أجهزة اتصال وحطب جاف وطعام يكفي ثلاثة أيام وصناديق إسعافات أولية. حتى بعد شهر، كان البحث يجري بحماسة اليوم الأول نفسه.

في هذه الفترة-20 أيار/مايو- كان رئيس تحرير يونيفرسال قرطاجنة، أنخيل روميرو، قد رفع سماعة تليفون مكتبه الزجاجي ليجري مكالمة روتينية في السابعة مساءً وحدث مصادفة أن تداخل خطه مع مكالمة لامرأة ورجل. كانا يتحدثان بلا مواربة عن قلقهما حيال اختفاء باتمان الذي يعتقدان أنه كان ضحية لحادث جوي في بنما. طار روميرو إلى بوغوتا في اليوم التالي وحاول أن يتواصل مع أحد أعضاء M-19 ولكنه لم يتوصل إلى أي خبر. غير أن أحد مصادره العسكرية أفاده بأن باتمان قد قتل وأن حادث الطائرة كان ستاراً تتخذه M-19 لإخفاء الحقيقة. يبدو أن المخابرات العسكرية كانت تعتقد حينذاك أن باتمان قد مات أثناء قتال في قرية باخول بكوكيتا في التاسع من أيار/مايو وأن الحركة قد اختلقت حادث الطائرة حتى لا تعترف بقتله في المعركة. قد يكون هذا هو السبب الذي جعل القوّات المسلحة حتى يومنا هذا تنظر إلى الحادث بتحفظ قد يوحي بعدم التصديق. مع ذلك، فضل أنخيل روميرو أن يصدّق مصادفة تداخل خطوط الهاتف، ونشر لأول مرة خبر وفاة باتمان في الصفحة الأولى من جريدته بتاريخ 30 أيار/مايو. على الرغم من اللامبالاة التي لقيها الخبر من قبل وسائل الإعلام الأخرى في البلاد - خصوصاً الشهيرة منها - فقد كان الخبر أهم سبق صحفي جرى تداوله في ذلك العام. لم يصدقه أحد وحتى الصحف التي رفضته على أساس أنه مجرد تخمين، وقعت بعد ذلك في فخ نشر خبر بلا مصدر يقول بهروب باتمان خارج البلاد حاملاً أموال الحركة معه.

بعد أن شاع الخبر بفترة طويلة، دب خلاف داخل الحركة حول كيفية إعلان الخبر. أيد أنصار مجازاة أخبار التخمين أن يكون ذلك بعد أسبوع من انتهاء عمليات البحث. غير أن الاتجاه الذي ساد كان هو إبقاء الخبر طي الكتمان الشديد حتى لا تظهر مع دوريات البحث في الأدغال دوريات الجيش. وهو ما أدى إلى أن عمليات البحث امتدت إلى أبعد من أي أمل وبدأ السحر يغزو رمال اليقين المتحركة.

لا يوجد ما يدعو للاستغراب، فأخر الآمال قد بنيت على رؤيتين لساحرين. أولهما كان من بنما ولم يهتم أحد بنبوءته التلقائية. لكن عندما جاء ساحر آخر من كولومبيا - لم تكن له أية صلة بالأول - وأعلن النبوءة نفسها، لعب الشك بقناعات الثوار، حتى أعماهم. كانت الرؤيتان تتحدثان عن ثلاثة أشخاص في قلب الأدغال، اثنان منهم أصابهما الوهن الشديد والثالثة كانت قوية جداً، غير أنها لا تقوى على التقدم خشية الانكشاف. أعادت تلك المصادفة التي لا يمكن للعقل الغربي أن يتفهمها، الأمل إلى القلوب التي جفّت واستمرت عمليات البحث بلا كلال ولا ملل حتى لم يجد أكثرهم تردداً أمامهم سوى مواجهة الحقيقة المرة.

حينئذ، وبعد تسعة أسابيع فقط من الحادث، أجمعوا على ضرورة الإعلان الرسمي عن وفاة باتمان. كل ما كان ينقصهم هو رأي خليفته، إيثان مارينو أوسبينا، الذي كان ضمن أواخر من عرفوا بخبر غابة كاكيتا.

جاء رأيه في اللحظة الأخيرة على ورقة بخط يده مبللة بعرقه، حملها أحدهم إلى بوغوتا وهو يخبئها داخل حذائه. وافق مارينو على نشر الخبر وأصدر أول أوامره: تمسكوا بالحوار.

من مذكراتي: زيارة البابا 37

لو أمعنا التفكير قليلاً، سنجد أن بدايات الفكرة تعود إلى ثماني سنوات مضت، عندما كنت في فندق سيزار بالاس بمدينة ساوباولو بالبرازيل.

يومذاك انتبهت من نومي على صوت انزلاق صحيفة الصباح المحلية من تحت عقب باب غرفتي، وسرعان ما وقع نظري على العنوان الرئيسي الذي جاء بالبنط العريض على ثمانية أعمدة: «البابا في ذمة الله». اندهشت وأسهرت إلى الهاتف أطلب رئيس الياور في سخط:

- كيف لفندق من فئة الخمسة نجوم أن يرسل إليّ صحيفة الشهر الماضي؟.

رد بصوت رصين اعتاد مواجهة مثل هذه المواقف وبنبرة برتغالية:

- فلتعذرني يا سيدي، لقد مات البابا الجديد.

كان الرئيس على حق، فقد توفي البابا يوحنا بولس الأول، ذلك الأشهب ذو الوجه المبتسم في الليلة السابقة، بعد انتخابه بأربعة وثلاثين يوماً وهو على فراشه. أمثالنا ممن ولدوا متأخرين عن عام 1910 ولم يتسنّ لهم رؤية المذنب هالي ولا نضمن أن نعيش حتى عام 1986 لنراه مجدداً، تعزينا بأننا شهدنا أقصر فترة بابوية في التاريخ.

ما لم أتخيله يومئذ هو أن القدر كان يهيئ لي فرصة وشيكة لإجراء مقابلة حصرية مع خليفته بعد قرابة ثلاثة أشهر، وأن أنحبس معه بمفردي، في مكتبه بالفاتيكان.

كنت قد سافرت إلى ساوباولو في ذلك الربيع الاستوائي لطلب مساعدة الكاردينال باولو إيفاريستو أرنز في شأن يتعلق بالمفقودين الأرجنتينيين. كادت وفاة يوحنا بولس الأول تلغي موعدنا، حيث كان يتعين على الكاردينال أرنز أن يسافر إلى روما بأية وسيلة للمشاركة في الانتخابات الجديدة، غير أنه خلال لقائنا الخاطف خطرت على باله إحدى أفكاره المميزة:

- «تعال معي إلى روما واطرح الموضوع على البابا».

- «لا يوجد بابا». أردفت.

- «سيكون هناك الأسبوع المقبل، وأياً كان الذي سيأتي، فلا بد وأن يكون متعاطفاً مع وجع أميركا اللاتينية». أجاب.

لم أذهب حينذاك، وإنما بعد مرور شهرين. ذهبت أطلب المساعدة من البابا يوحنا بولس الثاني، حيث كان الكاردينال أرنز قد طلب لي موعداً خاصاً معه. غير أن الأمر لم يكن باليسر الذي تصوّرت. أفادت سكرتيرة الدولة بأنها لم تتسلم رسالة دون باولو إيثاريستو وانتهى الأمر عند هذه النقطة. غير أن صديقي فولفيو زانيتي، مدير الجريدة الأسبوعية الرومانية «ليسبريسو» أخبرني، على طريقة أهل روما، أن نسيب صديق صديقه يعرف مدرّس فلسفة على علاقة بشخص ما، في مقدوره ترتيب أمر الموعد. في هذا اليوم نفسه توجهت إلى باريس ظناً مني أن إجراء أصدقاء زانيتي سيستغرق بعض الوقت. غير أنني لم ألبث أن تلقيت رسالة منه مساء يوم وصولي تفيد بأن مواعيدي مع البابا سيكون في اليوم التالي في تمام الواحدة ظهراً.

استقبلني قالريو ريفّا، وهو ناشري في فلترانيللي ورئيس تحرير «ليسبريسو» حينئذ، في مطار روما الصاخب قبل الموعد بساعة ونصف الساعة فقط. كنت قد استعددت لأزمة الوقت تلك وابتعت لأول مرة منذ عشرين عاماً، ربطة عنق من مطار باريس، خشية ألا يسمحوا لي بالدخول بدونها، فكان بالإمكان أن نتوجه مباشرة إلى الفاتيكان.

لكن لا. لم يكن في مقدورنا. فقد كانت التعليمات العليا لدى قالريو ريفّا تقضي بأن نتوجه إلى إحدى البنايات الكائنة بحي باريولي وأن ندق الجرس الثاني من اليمين من أعلى إلى أسفل وأن نطلب الكونتيسة. ليس إلّا: الكونتيسة. غير أن من نزلت بمجرد أن قرعنا الجرس كانت شابة ذات قسّات رومانية وتتمتع بقدر كبير من الجمال والطف. استقبلتنا وهي تحمل حقيبة تسوق كبيرة مملوءة بنسخ ترجمات إيطالية لكتبي وطلبت مني أن أوقعها. قادتنا بعدها إلى معهد للدراسات اللاهوتية على بعد مئتي متر من ميدان القديس بطرس، حيث كان في انتظارنا قس يوغسلافي يتحدث الأسبانية بطلاقة ويعرف الكثير جداً عن الله وعن أميركا اللاتينية. قادني هو إلى داخل الفاتيكان، ليس من الباب الرئيسي، وإنما من باب جانبي صغير يطل على شارع ضيّق بدا لي بلا حراسة. لاحقاً، قيل لي إن هذا الباب ليس مدخل التحقير كما اعتقدت، وإنما كان هو المستخدم منذ انتخاب يوحنا بولس الثاني، وإنه معروف بين الزوّار الرومان باسم الباب البولندي.

بدا لي الفاتيكان من الداخل كما لو كان مهجوراً. صالونات ضخمة خالية تزينها لوحات جوبلان متفرقة وممرات لا تنتهي قادني عبرها القس اليوغسلافي وأنا أكاد أركض خلفه. لم يكن

الشتاء في روما قارساً، وجاء ذلك العام معتدلاً كأفضل ما يمكن. بدا نور السماء مختلفاً عن المعتاد في روما، أقله هكذا رأيته من خلف نوافذ الزجاج الضخمة.

بدلاً من الحرس السويسري من ذوي البنية القوية والطباع الحاسمة، كان أمن المكان يقوم على أكتاف شباب من أهل روما يرتدون بزات رسمية. لم أشعر بوجود الله مع الهواء الراكد في المكان، كما كنت أتوقع، وإن كنت قد لمست قدرة وزرائه.

في الواحدة إلا ثلاث دقائق، ودعني دليلي على وعد بلقائي بعد انتهاء المقابلة وتركني جالساً في صالون صغير تزيينه تماثيل وأطر ذهبية وأقمشة من القطيفة العتيقة. كان الصالون ينتهي بباب مغلق في نهاية رواق على جانبيه خزائن زجاجية لامعة: مدخل المكاتب البابوية.

خيم الصمت المطبق على المكان، على الرغم من أنه على بعد عدة بنايات كانت توجد شوارع منطقة تيبير بحركة مرورها الكثيفة.

لم يأت أحد ليسري عني طوال خمس دقائق كاملة. لم ألبث بعدها أن سمعت صريراً هادئاً، لم يخف عليّ أنه صوت الذهب الذي يلبسه رجل عليه هالة من أنوار الميلاد الأخاذة، وتحفه عباءة مهيبية ويميزه ثبات طاع وهو يضع يده على مقبض الباب ويفتحه. هببت واقفاً وتجمدت في مكاني. هش لي وابتسم وأشار إليّ بيده أن أقترّب في حركة مألوفة، دون أن يترك مقبض الباب. إنه يوحنا بولس الثاني.

أكثر ما أدهشني فيه، حتى يومنا هذا، هو الشبه الشديد بينه وبين الكاتب التشيكي ميلان كونديرا، ليس في الملامح فقط وإنما أيضاً في الحركات وحتى في نبرة الصوت. ثاني ما لفت نظري هو القوة التي كانت في يده وهو يضعها على كتفي ليقودني إلى المكتب.

- «أية لغة تتحدث؟» سألني.

كان قد نُمي إلى علمي أن البابا يستعد لرحلته في الشهر التالي إلى المكسيك بمراجعة لغته الأسبانية وتحسينها، فاقترحت عليه أن نتحدث بها قائلاً: «لن تكون فكرة سيئة أن أكتب في مذكراتي أنني قد أعطيت البابا درساً في اللغة الأسبانية».

وافق بالابتسامة شبه الماكرة نفسها التي حياني بها. لم يدعني للجلوس إلى الجانب الآخر من مكتبه وإنما على طرف الجانب نفسه الذي كان يجلس هو عليه، بطريقة سمحت له أن يربط على ذراعي بين الفينة والأخرى لتأكيد معنى أو كلمة ما. في البداية، أخبرني أنه درس الأسبانية

في المدرسة الثانوية لأنه كان يحضر بحثاً عن الراهبة خوانا دي لا كروث وأراد أن يقرأ أعمالها الأصلية. أخطأت بأن ظلت أسأله في موضوع اعتقدت أنه هام، وعندما انتبهت لنفسي كنت قد استهلكت خمس دقائق من العشر المخصصة للمقابلة كلها.

من أول لحظة وجدت أن البابا يتحدث الأسبانية بطلاقة، غير أنه كان يحرص على تحسينها مما كان يكلفه المزيد من الجهد في محاولته البحث عن الكلمة الدقيقة ويستغرق منه وقتاً قد نحتاج إليه لموضوعنا الأساسي. انتهزت أول فرصة في الحوار ووجهته إلى الإيطالية أو الفرنسية اللتين كان يتحدثهما بلا جهد.

لم يكن الأمر صعباً. فالكاردينال أرنز قد زودني برسالة مدوّنة فيها سبب طلبي للقاء ورجوت البابا أن يقرأها لا ليتعرف على إنجازاتي وإنما لأنها كانت تحوي عرضاً جامعاً مدعوماً بالحجج والبراهين بخصوص حوالى عشرة آلاف مفقود أرجنتيني.

كانت مكتوبة بالفرنسية، فوافق على الفور أن يقرأها وهو يقول: آه..وي- آه..وي. على الرغم من مأسوية الموضوع، إلا أنه احتفظ بابتسامته وأعاد إلي الرسالة في النهاية كما لو كان عائداً من رحلة كان يعرفها مسبقاً وهو يعلق بفرنسية طليقة:

- «يذكرني الأمر بأوروبا الشرقية».

تمسكت بالفرصة حتى لا نعاود الحديث بالأسبانية وهو ما قد كان، ربما دون أن ينتبه. غير أن الحوار لم يتسنّ له أن ينطلق، ففي تلك اللحظة شعرت بأني أسقطت زراً معدنياً من سترتي، لم نلبث أن رأيناه معاً ينطلق متدحرجاً على الأرضية. عاد بظهره إلى الخلف ليعطيني فرصة التقاطه من تحت المكتب حيث رآه هو قبلي بالقرب من صندل الصياد الذي كان ينتعله. أسرعت لالتقاطه خشية أن يسبقني هو إلى ذلك.

في هذه اللحظة دق الجرس الذهبي وانتهى وقت المقابلة دون أن يتسنى لي الرد.

كان يمكن لمهمتي أن تنتهي نهاية أكثر سعادة لو كانت المقابلة قد امتدت خمس دقائق أخرى. في نهاية الأمر، وكما جاء في رسالة الكاردينال أرنز، كل ما كنا نطلب من البابا هو مباركته للحملة. غير أن قواعد القاتيكان لا يمكن خرقها والمقابلة انتهت دون أن أحصل على رد.

مع ذلك كلما تعمق اللقاء في ذاكرتي أدركه كهزيمة بلا معركة وأراه ذكرى من ذكريات الطفولة التي لا بد أن تحكى. خصوصاً في النهاية، عندما لم يتمكن البابا من فتح باب المكتب من

الداخل ولا حتى عن طريق المفتاح، فما كان من أحد مساعديه إلا أن أسرع إليه ليفتح الباب من الخارج.

لم أتعجب من الموقف، فجميعنا قد نتعرض لمثل هذه الأمور في البيوت الجديدة التي ننتقل إليها حديثاً، وهو لم يكن قد مضى عليه هناك أكثر من شهرين.

ساعتئذ فقط أدركت أين أنا وأمعنت النظر في الخزائن الزجاجية ذات الخشب الطبيعي، وفي الصفوف الطويلة من الكتب المتساوية، وفي أصص الزهور العتيقة التي لم تكن تحوي زهرة واحدة، وفي ذلك الرجل الذي راح يدير المفتاح يمناً ويسرة دون أن يتمكن من فتحه، وهو يتمتم بعبارات بولندية، قد تكون صلاة للملاك المنوط به فتح الأبواب الموصدة.

ماذا ستقول أُمي عندما تعرف أنني قد انحسرت مع البابا داخل مكتبه؟. بدا لي الأمر غير معقول إلى درجة أنني قد قرّرت، في هذا اليوم نفسه ألا أكتب عنه، خشية أن لا يصدقه أحد.

من مذكراتي: ويليام كانو³⁸

خلال إحدى المراحل الحاسمة من الحرب العالمية الثانية، أعلن إدواردو ثالاميا، في لندن بجرأة مثالية، أن صحيفة الإسيكتادور التي تصدر في بوغوتا هي أفضل صحيفة في العالم.

لم يكن إدلاء السيد ثالاميا بهذا التصريح عبر وسائل بث هيئة الإذاعة البريطانية ليسمعه العالم أجمع، أخطر ما في الأمر، وإنما كان اقتناعه التام به على أرض الواقع، هو وكل من عمل بتلك الصحيفة في تلك الفترة، وكذلك الغالبية العظمى من قرائها.

كان هذا رأي الجميع بالفعل.

في ذلك الوقت، كانت الإسيكتادور تصدر منذ ما يزيد عن نصف قرن من منزل مستأجر وتطبع على آلات قديمة تفيض عن حاجة صحيفة أخرى شهيرة ومرموقة.

كان إصدارها مسائياً فيما لا يزيد عن ثماني صفحات جيّدة الصياغة وجزلة المحتوى. لا يلبث باعة الجرائد أن يتخطفوا أعدادها الخمسة آلاف من على أبواب المطبعة تقريباً، لتُقرأ خلال نصف ساعة في المقاهي المتجمدة الحزينة لتلك المدينة العتيقة.

غير أن هذه الجرعة المركّزة التي تصدر في الخامسة مساءً، كانت بمثابة دفعة حيوية لقرائها، فتقدم لهم الخبر وتزيد من وعيهم ومتابعتهم، تماماً مثل قراء أكبر الصحف في كبريات مدن العالم.

الآن وبعد مرور السنين، وأنا أنظر إلى الأمر من المنظور التجميلي لشعور الحنين، لا أجدني أختلف عمّا قاله إدواردو ثالاميا من قبيل المبالغة.

بعد هذا التصريح بأربعة أعوام فقط تولى إدارة أفضل صحيفة أصغر مدير في العالم : إدواردو كانو، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً والذي يعد نموذجاً بارزاً للجيل الثالث من الصحفيين المتميزين.

لم تأت ترقيته الاستثنائية نتيجة مبكرة لكفاءته الشخصية وإنما جاءت أقرب لكونها قدراً مسطراً ومكتوباً على جبينه، حتى من قبل أن يولد.

في ذلك الزمن، لم تكن الصحافة تدرّس في الجامعات وإنما كانت خبرة تكتسب على أرض الواقع عبر استنشاق حبر المطابع. كانت أحسن مدرسة في البلاد هي صالة تحرير الإسيكتادور بلا منازع، بما تضم من خيرة الكتّاب وكبار الأسماء من ذوي القلوب النقية والأيدي القوية.

بدأ ويليام كانو هناك بتغطية أخبار مصارعة الثيران، منذ نعومة أظفاره فتخرج للقراء شديدة الدقة وجميلة الصياغة وتقترب من حرفية المصارع أكثر من حرفية الصحفي. لذا أعتقد أن أكثر تجاربه صعوبة هي الانقلاب الذي حدث بترقيته، فبين ليلة وضحاها وجد نفسه بين مصاف العالمين بيوطن الأمور، بعد أن تم اختصار مراحل التعليم الوسطى وانمحت من أمامه خطوات مسيرة التعلم.

ليست هذه بمبالغة، فصالة التحرير بالصحيفة كفيّلة بإرباك أكثر المديرين خبرة. في المقام الأول كان هناك والده، دون غبريال، الذي فضّل أن يتقاعد في تلك الفترة وسط دهشة الجميع بحجة أنه يريد أن يشيخ بمفرده دون أن يزعج أحداً، بعد أن أصبح أشهر ناقد بالجريدة. اعتاد أن يقرأها حرفاً حرفاً، حتى الإعلانات المبوبة والوفيات، ويحدّد بقلمه الملون بلون الدم الأخطاء الإملائية والعفوية والحقائق اليومية، ثم يعرضها على لوحة لم تلبث أن أصبحت اسماً على مسمّى: حائط العار.

ثاني الموجودين كان إدواردو ثالاميا، المعروف باسم «أوليسيس الخالد»، ذلك البحار المغامر في محيطات المعرفة المجهولة. ثم هناك خوسيه سالجار، ذلك الشاب الذي صعد درجات السلم الحلزوني للإصرار اليومي، فارتقى من المطبعة حتى رئاسة التحرير، وكان مكرساً بالفعل لأن يصبح أفضل صحفي في البلاد، على الرغم من أن وجهه لم يكن يظهر كثيراً.

كما كان هناك داريو باوتيسا الذي ما إن تبدأ الديكة صياحها، بعد أن تهجر مهجعها وتنال قوتها في بوغوتا، حتى يهب هو لعمله في استجواب وزراء المالية بموضوعاته التي كانت تنذر عن حق المستقبل المظلم.

ولا أنسى جونثالو جونثاليث، قريبي الذي ظلّت ساقه في الجبس عامين كاملين نتيجة حركة خاطئة في مباراة لكرة القدم، والذي كان يتولى أكثر أبواب الجريدة جدية وتسلية، ألا وهو باب

أسئلة القراء. كان يجتهد في البحث حتى يتمكن من الرد بكفاءة فأنتهى به الأمر بأن أصبح خبيراً في كل شيء.

وحتى لا تطول مني هذه القائمة، سأقفز إلى أصغر الموجودين وأكثرهم خجلاً وأقلهم خبرة: المدير الجديد.

قادتني ضربة من القدر لأن أرسو على ذلك الشاطئ الوعر عام 1953.

حتى ذلك الحين كان إدواردو ثالاميا ينشر رواياتي في الملحق الأدبي للجريدة، ولم أكن أعرفه ولا أعرف أي أحد من أعضاء تحرير الجريدة. كان رهابي الأزلي من سوء الحظ يدفعني لأن أسلم أعمالي على بوابة الصحيفة الخارجية عندما كنت أدرس في الجامعة الوطنية أو أن أرسلها بالبريد من قرطاجنة وبارانكيلا، حيث استقر بي المقام بعد أن احترقت حقيقتي الوحيدة وبها أول آتاتي الكاتبة في سكني الطلابي في 9 نيسان/إبريل 1948.

لم أرجع إلى بوغوتا سوى بعد مرور خمس سنوات تلبية لدعوة الشاعر ألفارو موتيس، الذي كان يعمل أيضاً رئيساً للعلاقات العامة بإحدى شركات الطيران التي لم تلبث أن اختفت بعد أن التهمت النيران أسطول طائراتها.

كانت الدعوة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ولكنها كانت أطول نهاية أسبوع عرفتها، فقد امتدت إلى يومنا هذا. بعد فترة طويلة، اكتشفت أن تلك الدعوة كانت تحركها حيل اليد الخفية لويليام كانو ليدفعني إلى التحرير في صحيفته، تقريباً بالقوة، على الرغم من رفضي التام العودة إلى بوغوتا بعد تجربة 9 نيسان/إبريل السوداء.

ابتلعت الطعم، لحسن حظي، وعملت ضمن فريق التحرير مدة ثلاث سنوات وأصبحت صديقاً مقرباً بلا رسميات وداعماً بلا قيد أو شرط في مواجهة عواصف هذا العالم والعالم الآخر، حتى يومنا هذا.

أول ما فوجئت به عند دخولي صالة التحرير المضيئة بمبنى الإسيكتادور، هو رؤيتي لويليام وهو يمارس عمله كمدير ذي سلطات وقرارات، حيث إنني وكثيرين كنا نعتقد، قبل أن أخبر الواقع، أنه لم يكن سوى الابن المطيع، على الطريقة التقليدية.

أكثر ما لفت نظري منذ اليوم الأول، هو سرعته في التعرف إلى الخبر. أحياناً كان يتصادم مع الجميع، وكثيراً بلا أسانيد تذكر، ولكنه كان يتمكن من إقناعهم في النهاية.

في إحدى الأمسيات وقبل أن تدخل الصحيفة إلى المطبعة بدقائق معدودة، نزلت على المدينة سيول من الأمطار لم أذكر لها مثيلاً. أصبنا جميعاً بالإحباط، خصوصاً من كنا قد وضعنا خبز يومنا في الفرن.

لم يكن هناك من شيء يمكن أن نفعله سوى تأمل سقوط المطر من النافذة، حتى جاءنا ويليام ليقول لنا:

- هذه السيول هي الخبر.

بدأ يعطي الأوامر ويرسل المصورين إلى الشارع ويوجه كل محرر لبحث موضوع يتعلق بتخصصه.

في النهاية جلس هو إلى الآلة وكتب في ربع ساعة وصفاً دقيقاً لكارثة طبيعية دامت ثلاث ساعات.

بعد أن أشرقت الشمس في السادسة مساءً، كان قد انتهى من عدد السيول الذي حل محل عدد اليوم، وخرجت الجريدة للقراء المبليين الذين لم يتمكنوا من العودة إلى بيوتهم، في المدينة التي غرقت تحت سيول العاصفة.

هناك أيضاً موقفه ذلك المساء الذي ظهر فيه البحار لويس أليخاندر و فيلاسكو في صالة التحرير ليعرض بيع مذكراته. لا أذكر أنني قد انحنيت احتراماً لحاسة ويليام الصحفية مثل ذلك اليوم. كان ذلك البحار قد عقد العديد من اللقاءات وحكى قصته أكثر من مرة وأعلن أنه لا يهتم بالصحف وخصوصاً بصحيفتنا، وغلف كل ذلك بسحر وحمى الحصول على السبق.

اتفقنا جميعاً على أن الموضوع: «وجبة سمك باردة». لكن ويليام رأى وأصر على ضرورة إجراء الريبورتاج. كانت تلك المرة الوحيدة التي أجبرني فيها على تنفيذ أمر ما.

لا أذكر أنني قد بدأت موضوعاً بلا حماسة مثل ذلك. كنت متيقناً أن لا أحد سيقراه، وأعتقد أنني كنت أنوي إفشال الموضوع حتى أثبت أنني على حق.

لم يكن أحد ممن يعرفه عن قرب بقادر على أن يستشف الشخصية القوية التي تقبع خلف أسلوبه اللين وطباعه التسويقية نوعاً ما.

كان هو من ابتدع باب النقد السينمائي رغم معارضة المنتجين وحتى بعد تهديدهم بقطع الإعلانات. أقنع والده وإخوته المدراء جميعهم وحصل على الضوء الأخضر لظهور النقد السينمائي، لأول مرة، في جريدة كبيرة.

اعترف المنتجون بعد ذلك، بفضل ويليام كانو: لم يقلل النقد الذي لم يكن في مصلحتهم، من جماهيرهم عندما لم تكن الأفلام على المستوى الجيد، وحمل الجماهير على متابعة الأفلام الجيدة التي كان من الصعب ترويجها في السابق.

بهذه الحماسة نفسها دخل في معارك أكبر وأخطر دون أن يلتفت إلى أن الموت يحيط دائماً بأنبل القضايا.

لم أعرف أحداً أكثر عزوفاً عن الحياة العامة وأكثر ترفعاً عن التكريمات الشخصية وأكثر تجنباً لمغازلة السلطة منه. كان رجلاً قليل الأصدقاء، غير أن هذه القلة كانت شديدة الإخلاص، وقد جعلوني أشعر أنني واحد منهم منذ اليوم الأول. ربما ساعد على ذلك، وجود الشباب مع الكبار في مكان التحرير نفسه، وهو ما خلق جواً من المشاركة يصعب ألا يكون له تأثيره الإيجابي.

أهم ما كان يميز هذه الصداقة هو قدرتها على التعامل مع اختلافاتنا أو حتى تناقضاتنا. كانت اختلافاتنا السياسية عميقة وكانت تزداد عمقاً بمرور الزمن ومع تنامي انقسامات العالم، لكننا كنا نتمكن دائماً من الوقوف على مساحة مشتركة لمواصلة الكفاح من أجل القضايا التي كنا نراها عادلة.

على مدى أربعين عاماً وفي أي ساعة ومن أي مكان في العالم، كلما سمعت عن حدث في كولومبيا كان رد فعلي التلقائي هو مهاتفة ويليام كانو ليأتيني بالخبر اليقين. دائماً وبلا استثناء واحد، كان صوته المرحّب يردّ: «أهلاً يا غابو، ما الذي يجري؟».

في أحد أيام كانون الأول/ديسمبر الحزينة، أبلغتني ماريّا خيمينّا دوثنان على لسانه، طلباً لكتابة كلمة في الذكرى السنوية للصحيفة.

في هذا اليوم نفسه، كنت مع الرئيس فيدل كاسترو وهو يروي قصة مثيرة وسط حفلة مع الأصدقاء، عندما جاءني اتصال أسمعني همساً صوت ميرثيدس المتحشرج: «لقد قتلوا ويليام كانو». «حدث ذلك منذ خمس عشرة دقيقة وقد أبلغنا أحدهم عبر الهاتف دون أية تفاصيل».

لم أتمالك نفسي واغرورقت عيناى بالدموع وبالكاد، انتظرت حتى ينتهى كاسترو من
عبارته.

غير أنى لم أدر ماذا أنا بفاعل، بعد أن سيطر على تفكيرى رد الفعل التلقائى الذى اعتدته:
مهاتفة ويليام كانو ليعطينى الخبر اليقين بتفاصيله وخلفياته، ولأشاركه فى الغضب والألم اللذين
سببتهما لى وفاته.

ما الذي يجري في كولومبيا³⁹

في شهر تشرين الأول/أكتوبر الماضي، كشفت الصحافة النقاب عن أحد أهم أسرار الحكومة التي حرصت على كتمانها: مباحثات دامت قرابة العام بين ممثلين عن الحكومة وآخرين عن تجار المخدرات. في البداية، أنكر المتحدث الرسمي للحكومة الأمر، بينما أكدته ممثل التجار وفي النهاية، اعترفت الحكومة بدون تقديم أية تفسيرات.

انتهى الأمر كعادة مثل هذه الحروب السريّة دون أن تكون هناك حقيقة واحدة. غير أن الكشف الصحفي أوضح إلى أي درجة، يميل تاريخ هذه الحرب إلى تكرار نفسه بلا هوادة منذ لحظة اندلاعها، ودون أن تصل إلى وجهة معينة. مجرد أنها تعود وتتجدّد بحماسة متزايدة ومظاهر مأسوية بمرور الزمن.

جاءت محاولة الحوار الأولى التي وصلت إلى العامة في شهر أيار/مايو من عام 1984، عندما التقى بابلو إسكوبار جافيريا، رئيس معسكر ميديلين، ألفونسو لوبيث ميشيلسن في أحد فنادق بنما ليعرض عليه اقتراحاً يقدمه للرئيس بيليزاريو بيتانكورت، باسم جميع تجار المخدرات في كولومبيا. كانوا يتعهدون في اقتراحهم بأن يوقفوا تجارتهم وأن يكشفوا عن أساليب إنتاج وتوزيع الكوكايين وأن يعيدوا رؤوس أموالهم الضخمة إلى البلاد وأن يستثمروا في مجال الصناعة والتجارة الوطنية، حسب ما تقرّه القوانين، وأن يشاركوا مع الحكومة في سداد الدين الخارجي الضخم. كل ذلك ليس مقابل العفو، وإنما مقابل أن تتم محاكمتهم في كولومبيا، وأن لا تطبق عليهم معاهدة تسليم المجرمين التي تم توقيعها مع الولايات المتحدة الأميركية منذ سنوات مضت، وعادت لتطبق أخيراً.

كان العفو هو التيار الرائج حينذاك في كولومبيا، فقد كان هو غصن الزيتون الذي لوّح به الرئيس بيتانكورت، منذ أول يوم لتولّي السلطة، للجماعات والحركات المسلّحة التي ظلّ الكثير منها يهيم على وجهه في الجبال أكثر من ثلاثين عاماً. لم يكن من المستغرب أن يرغب تجار المخدرات ومهربوها في الاحتماء بتلك المظلة من العفو والنسيان. في لحظة زمنية كان من

المعروف فيها استحالة أن تتم إدانتهم بتهم خطيرة، وفي بلد يندر فيه أصحاب الثروات الكبيرة ممن هم على استعداد للكشف عن خطاياهم الأولى.

تسلّم الرئيس بيتانكورت تلك الرسالة بتهديد ارتياح ولم يحد عن سياسته في الحوار بشأنها. عاد كارلوس خيمينيث جوميث النائب العام الذي ظلّ على مدى عام في مفاوضات مباشرة وسريّة مع مهربي المخدرات، للقائهم في بنما. لم يتمّ التأكيد أنه، في تلك المرّة كان مفوضاً من الرئيس أم لا، ولكنني أعتقد أنه كان كذلك ولم يكن هناك ما يسيء في ذلك. غير أنه لم يتمكّن من التقدم خطوة إلى الأمام. فسرعان ما أدانت صحيفة التيمبو تلك المفاوضات في شهر تموز/يوليو من ذلك العام، وأثارت الرأي العام ضد الاتفاق واضطر الرئيس إلى التراجع وحتى إلى أن ينفي على الملأ أن تكون له أيّ صلة بالموضوع. الأسوأ من ذلك أن الحكومة بعدها وأثناءها وقبلها لم تقدم أي بدائل للحوار، ولا أي تحرك قانوني مدروس ولا حملة متابعة ولا سياسة معروفة من أجل مواجهة تجارة المخدرات وتهريبها. الآن وبعد مرور ستة أعوام، يظهر لنا جلياً أن البلاد قد أضاعت فرصة عظيمة لأن تتخلص من جزء هام من المشكلات التي لاتزال تعانيها.

يدفعنا العديد من الأسباب حالياً، للاعتقاد بأن ابتزاز التحاور ذاك كان بإيعاز من الولايات المتحدة الأميركية، ليس من أجل محاربة المخدرات بقدر ما كان من أجل محاربة الشيوعية من قبل الرئيس ريغان. كان الرجل المسؤول عن ذلك هو السفير لويس تومب، نجم مجموعة سانتافي والمنتمي إلى اليمين المؤيد للرئيس ريغان. وقتذاك، حلّ السفير تومب ببوغوتا وسط صخب إعلامي ترافقه كلمة جديدة صيغت خصيصاً للبلاد: مرتزقة المخدرات.

بدا جلياً من كل شهاداته ودراساته العلمية، أنه ليس من مؤيدي السلام الناتج من التحاور وهو ما كان نواة لسياسة الرئيس بيتانكورت. على العكس، كان مهووساً بتفعيل الاتفاقية التي وقّعها النظام السابق والتي تحوي البند المهين الخاص بتسليم المجرمين المحليين. انطلق السفير بانفصاله الشديد عن الواقع، من فرضية أن الولايات المتحدة الأميركية تستطيع أن تثبت في ضوء الاتفاقية، أن تجار المخدرات ومرتزقة المخدرات ما هما إلّا وجهان لعملة واحدة. كانت البقية تقضي بإدخال قوآت أميركية إلى كولومبيا بحجة الضغط على أحد الطرفين وهي في الحقيقة، تحارب الآخر. مع مرور الوقت، إن عاجلاً أو آجلاً صار كل مواطن كولومبي معرّضاً لأن يتمّ تسليمه إلى السلطات الأميركية، بتهمة أو بأخرى.

خالجني هذا الانطباع بعد تناول الغداء مع السفير تومب في بدايات إقامته ببوغوتا، وقد أثبت الزمن صحة هذا الانطباع. فبالفعل بعد انتقاله إلى سفارة بلاده في كوستاريكا، كان أحد أبطال

فضيحة إيران-غيت، كما ساعد الكولونيل أوليفر نورث على بناء مطار سرّي لدعم حركة الكونترا في نيكاراغوا، وليس هذا فحسب وإنما كان ذلك بأموال تهريب المخدرات.

لا نزال نتساءل نحن الكولومبيين عن سبب طلب تجّار المخدرات تسليم أسلحتهم وما إذا كانوا صادقين في نيّتهم تلك. أنا شخصياً أعتقد أنهم كانوا كذلك. جاءت عبارتهم الشهيرة وقتئذ في صياغة جميلة لتعبر عن ذلك: «نفضل أن نُدفن في قبر بكولومبيا على أن نحيا في زناينة في أميركا». بالتأكيد كانوا يخشون اتفاقية الترحيل. غير أن ذلك لم يكن كل شيء. أعتقد أن السبب الحقيقي كان له علاقة بتكوينهم الوجداني مما لا يلتفت إليه عادة: إذ لم يكن المهزّبون في أصولهم وفي تكوينهم، مستعدين للحياة خارج كولومبيا. لم تكن أموال علي بابا خاصتهم بنافعة لهم في أي مكان آخر في العالم، ولا يمكن أن يشعروا بالأمان ولا أن يتمتّعوا بثروتهم في غير بلدهم. لم تكن لديهم رغبة في الموت وبالتأكيد ليس في السجن، ليس وهم يملكون هذا القدر من المال الذي سعوا إلى جمعه لكي يتمتّعوا به مع ذويهم ممن شاطروهم حياة الفقر والجوع، وحتى يستمتعوا معهم بالطعام المنزلي. من ثم فإن أقصى مطالبهم هو ما كان ينقصهم بالفعل: مكان وسط المجتمع. من ناحية أخرى، لم يكن من المقبول أن يلجأوا إلى أساليبهم العنيفة والملتوية التي حاولوا أن يطلبوا بها ذلك بعد أن فشل التفاوض.

دفعهم الرفض إلى إيجاد الوسيلة والوقت للبحث عن بدائل للتعايش، بينما تهاوت اتفاقية تسليم المجرمين في بئر النسيان. لم يدخروا خيالاً ولا موارد للوصول إلى هدفهم، كما اتبعوا الكثير من الأساليب التي كانت رائجة من قبل. فعلياً، كانوا يتمتّعون بالعفو التام وحتى بالتقدير الاجتماعي لما كانوا يقدمون من أعمال خيرية في الأحياء الفقيرة التي نشأوا فيها. لو كان هناك رغبة في القبض عليهم لطُلب ذلك من شرطة الحي. غير أن قطاعاً كبيراً من المجتمع الكولومبي كان ينظر إليهم بإعجاب واهتمام يكاد يقترب من الدعم. كان الصحفيون ورجال الشرطة والصناعة والتجارة وحتى العامة من المطلعين، يحضرون الحفلات الدائمة بمزرعة نابواس بالقرب من ميدلين، حيث أقام بابلو إسكوبار حديقة حيوانات حقيقية لتسلية زوّاره فيها زرافات وعدد من حيوان وحيد القرن، أتى بها خصيصاً من إفريقيا. كان يزين بابها الخارجي -كما لو كان أثراً وطنياً- بأول طائرة حملت إلى أميركا أول شحنة كوكايين.

بعد أن شجّعهم المجتمع وغضّت العدالة بصرها عنهم وبعد أن شبعوا من جمع المال، تطلّعوا إلى السلطة. تم انتخاب إسكوبار عضواً في مجلس النواب وأصبح يرعى ندوات حول حقوق الإنسان.

أما كارلوس ليهدر، الذي كان يدير نوادي ديسكو شبابية دون أن يلتفت إلى حسابات خسارتها، والذي أقام تمثالاً لجون لينون بمدينة أرمينيا تخليداً لذكراه، فقد كان يرأس إحدى الحركات السياسية ويصدر جريدة تنتمي إلى اليمين المتطرف يطبعها بالحبر الأخضر، تكريماً لعشبة التدخين. كما كان يسير بمرافقيه من المسلّحين ويدخل حفلات المجلس وهو يضحك بصوت عالٍ ويسند قدميه إلى سور المبنى.

أما عن خورخي لويس أوتشوا من معسكر ميديلين وجيلبرتو رودريجيث أوريخويلا من معسكر كالي- ألد الأعداء الآن- فقد كانا يتحركان بحرية تامة عبر نصف العالم ليشتريا أحسن سلاطات الخيول ويبحثان عن شركاء أوروبيين لأعمالهما القانونية. ألقى القبض عليهما في أسبانيا وجرى ترحيلهما إلى كولومبيا حيث تم إطلاقهما.

وسط هذه الظروف المتسامحة، لم يحذرهما أي من أصدقائهما السياسيين من أن التصفية الجسدية، ليست مجرد جريمة فظيعة فقط وإنما أيضاً غباوة سياسية، ستقودهما حتماً إلى الخسران.

بدأت السلسلة الطويلة باغتيال وزير العدل رودريجو لارا بونيبيا، في نيسان/إبريل من عام 1984. للأسف لم يكن الرئيس بيتانكورت حكيماً في ردة فعله إزاء هذا الموقف الحزين. فبعد أن انهالت عليه اتهامات الرأي العام بالمداهنة، وربما مدفوعاً بتأثره الشخصي لجأ، للمرة الأولى إلى تنفيذ اتفاقية الترحيل، على الرغم من رفضه لها، وربما كان لا يزال يرفضها في قرارة نفسه. أقدم على ذلك بلا شك، في ظل غياب أية آلية رادعة أخرى. وبمجرد أن فعل ذلك تحوّل تطبيق المعاهدة من مسألة مبدأ إلى عصا انتقام.

لم تلبث دائرة النار أن اتسعت. بعد أن قُبض على كارلوس ليهدر في حركة خيانة داخلية، حُكم عليه في أميركا بالسجن المؤبد في عقوبة تصل إلى مئة وخمسة وثلاثين عاماً. مع نهاية تشرين الأول/أكتوبر، كانت السلطات قد رحلت عشرين كولومبياً وثلاثة أجانب مقيمين.

من ناحيتهم، لم ينف مهربو المخدرات ضلوعهم في قتل عدد من الشخصيات في عمليات يصعب تحديدها، باستثناء عملية الوزير لارا بونيبيا، التي وضعتهم على خط المواجهة مع الرأي العام. تعرّض حوالى ثمان مئة من أعضاء الاتحاد الوطني بمن فيهم، مرشحهم للرئاسة خايمي باردو لايال لعمليات تصفية منها مثلاً، اغتيال الخالد ويليام كانو، رئيس جريدة الإسبكتادور. بالنسبة إليّ هي مأساة شخصية يصعب استيعابها. لم تكن حربهم بأقل دموية على جريدته بعد أن تخلصوا منه، وهي الجريدة التي عملت سنوات مراسلاً لها وأدين لها بالكثير من الفضل.

وجد الكثير من القضاة ووكلاء النيابة ممن كانوا يتقاضون مرتبات متواضعة، بالكاد تكفيهم إطعام أبنائهم وليس تعليمهم، أنفسهم أمام اختياريين: إما أن يبيعوا ضميرهم وإما أن يُقضى عليهم. المثير للإعجاب والمدهش هو أن الكثير منهم قد فضل الموت، وكان هذا اختيار الكثير من الصحافيين والموظفين.

لم يكن من المستغرب مواصلة المهربين البحث عن سبل للحوار، حتى مع ازدياد المجازر. من الصعب الآن حصر المحاولات المعلنة والسريّة. لكن ما عرفته هو أنه في العام 1985 أُجريت مقابلة في المكسيك مع مبعوث بابلو إسكوبار الذي كان يريد أن يكرّر على الحكومة اقتراح بنما مع تعديل هام: إرجاء الحديث عن المعاهدة إلى ما بعد توقيع الاتفاق، في محاولة لتجنب سبب فشل المحاولات السابقة. باءت المحاولة بالفشل مثل سابقتها. في النهاية، أعلنت المحكمة العليا عدم دستورية المعاهدة، بعد ذلك بشهور ما أدى إلى انحسار موجة المجازر.

ليس من الشطط القول بأن هذا التناحر كانت وراءه أسباب خطيرة لم يرق أي من أطراف الموضوع بالكشف عنها.

أعتقد أنه لم تؤخذ في الاعتبار حقيقة أن الوضع السياسي والاجتماعي هو المعين الذي نضجت فيه أحوال تهريب المخدرات في كولومبيا عظيمة وبائسة، عانت قروناً طويلة الإقطاع فضلاً عن ثلاثين عاماً من حروب العصابات التي لم ينتصر فيها أحد ومن تاريخ طويل من حكومات بلا شعب.

في عام 1979، عندما زار الجنرال عمر تورّيخوس مزارع ماشية سيمو في كاريبي كولومبيا، اندهش من ارتفاع عدد المدنيين المسلّحين الذين كانوا يحرسون قطعان الماشية. قال إن هذه كانت بداية السلفادور عندما كان هو برتبة مقدّم. وصل التعليق إلى الرئيس خوليو ثيسار تورباي، فرد عليه برسالة على لسان وزير الدفاع بقوله: «يوجد في كولومبيا سلام اجتماعي». بطبيعة الحال كان الحق مع تورّيخوس.

على مسافة ليست بالبعيدة عن المزارع التي زارها- عند أواسط نهر ماجدالينا الأسطوري- كانت هناك عملية تحلّل اجتماعي مركّب انتهت بعد عدة سنوات بظهور دولة داخل الدولة يحكمها مهربو المخدرات.

وقد بدأت عملية التحلل تلك منذ الستينيات عندما قامت القوات المسلحة الكوبية -التي كانت بمثابة الذراع الأساسية للحزب الشيوعي- بنشر قوات من المرتزقة عند أواسط نهر ماجدالينا وذلك

بحجة حماية كبار الملاك من طمع الفلاحين العزل. ولكي تستمر في تمويل هؤلاء المرتزقة، انتهى بها الأمر للجوء إلى الخطف والابتزاز وتسميم المواشي.

بعد أن استثير هؤلاء وتهدد وجودهم قاموا بتكوين فرق وجماعات أعطتها الحكومة نوعاً من الشرعية مثل عمليات الدفاع عن النفس. كتب أحد الصحفيين الذي زار المنطقة منذ ست سنوات: «في البداية جاءت للقضاء على أعوان الشيوعية ثم حوّلت أهدافها نحو لصوص المواشي في الريف ولصوص المنازل بالقرى ثم المتسولين وأخيراً الشواذ جنسياً».

انتهى الأمر بأصحاب المزارع إلى الإفلاس بعد أن باتوا مهتدين من قبل العصابات المسلحة التي كوّنها هم أنفسهم.

سعى هؤلاء المزارعون المفلسون إلى التعاون مع مهربي المخدرات الذين كانوا يبحثون عن قضايا وأساليب جديدة يضحون فيها كنوزهم المكتنزة. نتج من هذا التعاون ما يعرف اليوم باسم ماجدالينا الأوسط، إمبراطورية شاسعة تقع على مساحة خمسين ألف كيلومتر مربع، أي ضعف مساحة السلفادور وتحتوي كمية أسلحة أكثر بكثير مما رأى الجنرال تورّيخوس في شبابه. حدث كل ذلك على مدى سنوات طويلة، على بعد أقل من ثلاث مئة كيلومتر من قصر الرئاسة، وعلى مرمى حجر من الوحدة العسكرية المحليّة ولم يخرج إلى العلن سوى منذ عدة شهور، عندما روى أحد المرتدين القصة كاملة.

ساهم مهربو المخدرات بالمال وبالخبرة التقنية وبموهبتهم في إدارة الأعمال. تحوّل العنف الاصطناعي إلى علم، وأصبح له مبشّرون وموالون ومدارس لتخريج المأجورين يديرها مرتزقة تم شراؤهم بغالي الأثمان من لندن وتل أبيب. أحدهم كان يقوم بعملياته تحت نظر سفارته ببوغوتا. إنه الإسرائيلي ياي كلاين، الذي ذاع صيته عام 1973 عندما حرّر طائرة مخطوفة بمطار لود في أقل من ثانيتين. تخرّج في هذه المدرسة المجرمون المراهقون الذين تم تجنيدهم في الأحياء الفقيرة لينشروا الرعب والموت في البلاد.

وبهذا تحوّلت الدعابة اللغوية التي بدأتها القوّات المسلحة عندما استخدمت لفظ ثورية لكي تكون هي الثورة، لكونها كذلك في النهاية ولكن بالعكس: عالم منفصل لا يعتمد على فرق خاصة للأمن، وإنما فرق قانونية تحت تصرف العمد ورؤساء المجالس ممن انتخبهم الشعب. تحوّلت خطط تحسين السكن والصحة والتعليم إلى تحدّي لحكومة العاصمة. بل وصل الأمر إلى أن بعض

القادة ممن ضلعوا في المضممار أنشأوا حزباً يمينياً متطرفاً كان يسعى إلى إشهار تسجيله برمز هو منظار البندقية التليسكوبي.

عندما انتبه شعب كولومبيا لهذه الحقيقة الموجهة، كان الوقت قد تأخر. فلم تعد الدولة التي باتت داخل الدولة قادرة على الاكتفاء بسهولة وسط ماجدالينا الشاسعة وأمسياته الشاجنة، فسعت إلى التوسع والتسرّب داخل كل ركن خفي من الوطن.

صرّح أحد المراقبين الماكربين لأحوال بلادنا بأن جميع الشعب الكولومبي أصبح تحت تأثير المخدرات. ليس بسبب إدمان الكوكايين- بالمناسبة المعدّل ليس كبيراً- وإنما بإدمان مخدر آخر أكثر إيذاء: جني المال السهل. فكل مؤسسات التجارة والصناعة والمصارف والسياسة والصحافة والرياضة والعلوم والفنون، وحتى الدولة نفسها، والمنظمات الخاصة والعامة كافة، بطريقة أو بأخرى- قد يوجد بعض الاستثناءات ربما عن جهل أو عن نية صافية-، لا بد أن تجدها وسط شبكة من المصالح المختلفة لا يمكن لأحد أن يفصم عراها.

لا يمكن للعقل أن يصدق: ألف وست مئة ضابط جيش وشرطة تمت محاكمتهم وصدرت ضدهم أحكام وتم استبدالهم بآخرين خلال ثلاثة أعوام لتورطهم في قضايا تهريب مخدرات. خمسة وعشرون من رجالات السياسة ظهرت أسماؤهم في لائحة المستفيدين من أموال المخدرات، حسب ما نشرت الولايات المتحدة الأميركية.

وُجدت في حقبة أحد المهربين، نسخ من محاضر اجتماعات مجلس الأمن السريّة، كما كُشفت عمليات تجسس غير قانونية على هواتف كبار موظفي العموم.

خلال عمليات مدهامات لمساكن خاصة وجدت أدلة تورط مواطنين شرفاء في أعمال منافية. إنها طفيليات زاحفة يصعب إيقافها ولا تمكن رؤيتها في مكان ما، في حين أنها موجودة في كل الأماكن ولا عمل لها سوى تلويث ما تقابل وإصابته بالعدوى، أينما كان، حتى لو خارج الحدود.

قد تجهل الحكومة إلى أي حد ساهمت هذه المداخل الطفيلية في امتصاص الغضب المجتمعي.

أقل المبالغين قدروا هذه الاستثمارات الخفية بمئة مليون دولار في العام الواحد. غير أن الرقم قد يكون خمسة أضعاف هذا.

تتحدث الصحافة عن ثروة تقدر بثلاثة آلاف مليون دولار يمتلكها أشهر كابو ب كولومبيا، وقد لا يقل عنه كثيراً الاثنان اللذان يليانه. لم يكن من المعقول أن تكتفي هذه القدرات الشرائية الهائلة بالمنتجات المادية البسيطة، فبحثت وتحولت نحو غياهب الضمير والإرادة الإنسانية.

لكن يبدو أن الهوس الإقطاعي لدى هؤلاء المهربين أصبح يدور حول تملك الأراضي ثم الأراضي ثم الأراضي، وأخيراً المزيد من الأراضي. احتفلوا منذ فترة قريبة، في حفلة صاخبة باقتناء الهكتار ذي الرقم ثمانين ألفاً. لعلهم ييغون امتلاك الخريطة بأكملها بطيورها وأنهارها وصفرة ذهبها وزرقة بحورها، حتى لا يتمكن أحد من اقتلاعهم من حيث يريدون هم أن يزرعوا أنفسهم.

وسط هذا الواقع المأسوي ظهر أمل بعيد في صوت مرشح الرئاسة لويس كارلوس غالان وهو ينادي من جديد بالمصالحة التي لم يعد يؤمن بها أحد. جاء اغتياله المتوقع في الساحة العامة وسط ثمانية عشر من الحرس المدجج بالسلاح ليضع الحكومة أمام شبح المواجهة مع مسؤوليتها التاريخية الجسيمة. جاء رد الرئيس فيرخيليو باركو قاطعاً على الرغم من كونه متأخراً وغير مدروس.

أول إجراءاته كانت، مثل سابقه بيتانكورت تعديل الاتفاقية غير الدستورية بإقرار حالة الطوارئ. يبدو أن الإجراء قد فاجأ المهربين لدرجة أنهم لم يصدقوا الرجل ورزاقته. مصادرة فورية لمقارهم ومزارعهم ومعاملهم الوهمية وطائراتهم الشبحية ويخوت الشحن ومخازنهم العلنية. كانت ضربة قوية لم يتسنّ لهم الإفاقة منها بسهولة وأثرت بلا شك في معدلات الإنتاج وحركة التهريب. غير أن ألد أعدائه لم يكن سوى إجراءاته نفسها التي أدت إلى انقلاب الأمة بأسرها ضده.

لعل أغرب ما يميّز شعب كولومبيا هو قدرته على اعتياد كل شيء بسرعة كبيرة، سواء كان صالحاً أو طالحاً، مع موهبة في استعادة التوازن تصنّف بأنها فوق العادية.

البعض، ممن أوتي الحكمة، قد لا يستوعب أنه يعيش في واحد من أخطر بلدان العالم. فمن المعروف أن الحياة تتواصل حتى وسط الفوضى ولعل جمالها يزداد عندما يضطر الإنسان إلى معاشة الصعاب بصفة يومية.

في يوم الأحد نفسه الذي دفن فيه لويس كارلوس غالان، الذي أصابت وفاته قلب الأمة بحزن عميق، خرجت الجماهير الغفيرة إلى الشوارع تحتفل بانتصار منتخب كولومبيا لكرة القدم

على منتخب دولة الإكوادور.

غير أن الإرهاب المتحضر لا يعدو كونه أحد المقادير النادرة في الثقافة المؤية للعنف الكولومبي. فالقنابل العشوائية التي تقتل الأبرياء وتهديدات المجهولين عبر الهاتف، التي قد تفوق أي خطر آخر في الحياة اليومية تنتهي بتوحيد الكل في واحد. الأصدقاء مع الأعداء في مواجهة المصير المجهول. حتى أسوأ أنواع الموت لها نوع من الأخلاقيات التي لا يمتلكها الإرهاب. يمكن أن نعتاد التعايش مع الخوف من الماضي ولكن لا يمكن أن نتعايش مع الخوف مما قد يحدث مستقبلاً: إذا ما أودت قنبلة بحياة أطفال في مدرسة ما أو أن يُقتل أحدهم رمياً بالرصاص الطائش عند خروجه من السينما أو أن تُنسف سوق للخضر والفاكهة أو أن تنفجر طائرة في الجو أو أن تتسم أسرة كاملة من ماء الشرب. لا.

على طول كل القائمة الطويلة من تصرفات البشر المجنونة، لم يكسب الإرهاب ولن يكسب أية معركة.

من ناحيته، لا بد للرئيس فيرخيليو باركو، أن يعرف قدرته المتواضعة على الإبحار بمفرده وأن الحرب المتوقعة ستكون هي العمل الصعب الذي سيستغرق سنوات حكمه. من جهة، لأن الخصم المتعدد قد استعد بمعلومات جيدة يستمدّها من داخل السلطة، عن طريق شبكة عملاء لهم أذان تسمع كل شيء وعيون ترصد كل التفاصيل. ومن جهة أخرى، لأن الموارد المتواضعة التي تمتلكها الحكومة لا تتناسب مع قدرة العدو.

اتهمت الولايات المتحدة كولومبيا بالتراخي في حربها ضد تهريب المخدرات، في حين كانت شوارعها تتيح الحصول على مخدرات أكثر من شوارعنا وكانت تخفي من قوائم المهربين أسماء مواطنيها. لا بد أنهم كثر في بلد استهلك العام الماضي مئتين وستين طناً من الكوكايين. مع ذلك، إحقاقاً للحق، فالمساعدة التي تحصل عليها كولومبيا لمواجهة التهريب لا تتناسب مع ما حصلت عليه الكونترا في نيكاراغوا، ما بين رسمي وخلفه، خلال ثمانية أعوام: مليوناً دولار. من المحتمل ألا يزيد دعم كولومبيا عن ذلك، طالما الرئيس باركو يصر - ولعله يتمسك بموقفه هذا - على رفض دخول القوّات الأميركية، حتى ولو كان لمجرّد القضاء على التهريب.

كل هذا يدفعنا للاعتقاد أن الحرب ستكون طويلة ومرهقة مادياً ويصعب التنبؤ بنتائجها. والأسوأ من كل ذلك أن لا بديل عنها. هذا إن لم يجد جديد على البانوراما ويحول مسارها إلى

وجهة سعيدة مثل إحدى تلك المعجزات الخارقة التي طالما أنقذت أميركا اللاتينية من الانهيار التام.

لو لم يكن الحوار، فيمكن أن يكون أي وسيلة أخرى شرط أن لا تكلف أحداً حياته.

لا نريد أن نجد أنفسنا قبل نهاية الحرب اللانهائية في وطن قد انتهى.

للأسف هذا هو التوقع الوحيد المتفائل الذي خطر على ذهني حتى لا أنهي هذه اليوميات باستنتاج كارثي.

ما هي أولويات الإنسانية في العشرية المقبلة؟⁴⁰

في خضم سعيها لإنقاذ البشرية، خلال القرن الواحد والعشرين، لا يوجد ما هو أحدث ولا أجدر بالتجربة من أن تتولى النساء قيادة العالم.

لا أوّمن بتفوق جنس على آخر أو بدونية أحدهما. أميل أكثر إلى الاعتقاد باختلافهما، مع القبول بوجود فروق بيولوجية، غير قابلة للجدال. لكن لا بد من الاعتراف بأن السيطرة الذكورية على مجريات الأمور قد أهدرت، على البشرية عشرات الآلاف من الأعوام.

هناك رأي يقول: «لو أصبح بإمكان الرجل أن يحمل وينجب، لارتقى الإجهاض إلى مرتبة القداسة». تكشف هذه الكلمات الذهبية العبقرية عن حكمة بالغة يتعيّن علينا أن نستثمرها. فلأول مرّة في التاريخ، سيختبر الجنس البشري عملية تحوّل جذري في الأدوار.

تحوّل سيضع على المحك، بلا شك، مسلمات الفكر الذكورية، التي طالما قالت بغلبة مشاعر المرأة على عقلها وما انفكت تؤدي دور المشجب، الذي يعلّق عليه الرجل مُجمل إيديولوجياته الحمقاء المقيّنة.

خلال القرن الواحد والعشرين، ستواجه الحياة على سطح الأرض خطر الانقراض، نظراً إلى تدهور أحوال البيئة. كشف الزمن عن عجز القدرات الذكورية عن منع تلك الكارثة، وعن تمسكها بالانسياق وراء مصالحها المادية. على العكس من ذلك، تجلّت طبائع النساء التي جبلت على الحرص على الحفاظ على البيئة وسجّلت حضوراً قوياً.

هذا مجرد مثال، وحتى لو كان هو الوحيد، فقد أصبح استثمار القدرات النسائية مسألة حياة أو موت.

ملاحظات على حوار جديد

يتعلق بالمخدرات⁴¹

أعتقد أن الخطوة الأولى، على طريق حل مشكلة المخدرات، هي الاعتراف بفشل جميع الأساليب التي اتبعت، حتى يومنا هذا. فقد أثبتت، هذه الأساليب نفسها، أكثر من المخدرات عينها، أنها العامل المتسبب، أو المساعد على تفاقم الأضرار الكبرى التي تعانيها البلدان، سواء المنتجة أو المستهلكة.

كشف مرور الزمن عن هذه الحقيقة وجلاها. بداية هذه الأساليب، جاء من وضع الرئيس الأميركي رونالد ريغان، عام 1982. إذ رأى أن الكوكايين هو أخطر الشياطين التي يتعين على أجهزة شرطته أن تكافحه وقرّر أن يعلن الحرب عليه. لم يكن أمام الرئيس الأميركي التالي، جورج بوش، مفرّاً من مواصلة السياسة نفسها، والتطرف بها إلى محاولات توريث بلد مثل كوبا في عمليات التهريب والتدخل في بلد آخر مثل بنما، لخطف الجنرال مانويل أنطونيو نورييغا.

الآن، وبعد مرور أحد عشر عاماً، لا نعدم أسباباً للاعتقاد بأن كلا الرئيسين لم يسعيا إلا وراء مصالح حكومتيهما. وأن حربهما على المخدرات لم تكن سوى واجهة تخوّل لهما التدخل في شؤون أميركا اللاتينية، شأنها في ذلك شأن بعض المعونات الاقتصادية والإنسانية، أو الدفاع عن حقوق الإنسان.

في حالة كولومبيا، تمت إعادة إحياء اتفاقية لتسليم المتهمين، كانت قد وُقعت منذ سنوات بين البلدين، بغية محاربة زراعة الماريغوانا والاتجار بها، بعد سنوات ظلّت فيها حبيسة الأدراج ولم تكن تطبق حتى ذلك الحين.

في الوقت نفسه الذي قامت السفارة الأميركية ببوغوتا بتشويه اللغة الأسبانية باستحداثها لمصطلح *anarcoguerrill* بمعنى مرتزقة المخدرات. ثم كان أن اعتمدت على التوجيه الإعلامي وعلى أصداء تلك الاتفاقية لتكرّس معنىً واحداً جديداً هو أن تجار المخدرات ورجال المقاومة ليسوا سوى وجهين لعملة واحدة. وهو التمهيد الذي سيمكنها من إرسال قوّاتها لمحاربة

أحدهما ومداهمة الآخر. ونتيجة لكل ذلك أضحى المواطن الكولومبي العادي معرّضاً لأن يقبض عليه ويسلم كمتهم إلى السلطات الأميركية.

لم تلبث تلك الحرب على المخدرات، أن أظهرت تناقضها مع سياسة السلام التي كان الرئيس السابق، بيليساريو بيتانكورت، يسعى إلى تحقيقها حينئذ والتي من أجلها شكل حكومته الجديدة تحت شعار الصفح والتصالح مع التجار. ذلك الشعار الذي جاء كتنهيدة ارتياح بثت أشواق السلام، التي كانت تعتمل في صدر أمة عوقبت بحرب داخلية لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً.

سارع مهربو الكوكايين، الذين لم تكن ضدهم تهم كبيرة، إلى طلب الصلح، حتى قبل استدعائهم. عرضوا على الحكومة الجديدة أن يتوقفوا عن عملهم وأن يكشفوا خطط أعمالهم وتجاراتهم للكوكايين، وأن يعيدوا رؤوس أموالهم المتضخمة إلى البلاد ليستثمروها وفقاً للقانون. لم يكونوا ليتطلعوا إلى العفو العام الذي وعدت به الحكومة التجار. كل ما كانوا يصبون إليه، هو أن يحاكموا في كولومبيا وألا يسلموا كمتهمين إلى أميركا. رأى الرئيس بيتانكورت أن مطلبهم هذا مقبول وتمكن دراسته، في سياق سياسته المسالمة.

فشلت جميع محاولات التوافق في مهدها، نتيجة عمليات ابتزاز ظاهرة جرّدت الفكرة من نبها وقدمتها للرأي العام بصيغة تحذيرية. لم يكن أحد ليشك بأن المصالح الأميركية هي التي كانت وراء ذلك الفشل الذريع. إزاء الوضع المتأزم، اضطرت حكومة كولومبيا إلى عدم اعترافها بالتوقيع على أية اتفاقيات مع الولايات المتحدة الأميركية.

لم يعد هناك من بديل، لمكافحة تهريب المخدرات، سوى الحرب المقدّسة التي شنها الرئيس رونالد ريغان. حاولت الحكومات التالية أن تمنع دخول القوّات الأميركية إلى البلاد لمحاربة التهريب والمرتزقة غير أن التعنت كان سيد الموقف.

بعد مرور أحد عشر عاماً مريرة، لم تكن هناك من نتائج سوى انتشار الجريمة على نطاق أوسع وظهور الإرهاب الأعمى وصناعة الاختطاف وتفشي الفساد العام. كل هذا مغلف بطابع عنيف لم يسبق له مثيل.

من ناحية أخرى، دخل مخدر جديد، أصعب من كل ما سبق إلى ثقافة البلاد: الشراء السريع الذي سخر له مبدأ أن القانون هو العقبة أمام السعادة. وأن لا جدوى من تعلّم القراءة والكتابة. وأن القاتل المستأجر يحيا حياة أفضل وأكثر أمناً من حياة القاضي. باختصار كل ما قد يميّز مجتمعاً في حالة حرب. عانت البلدان المستهلكة، بالتبعية، الآثار الوخيمة لهذه الحرب، فقد زاد المنع من

جاذبية تجارة المخدرات وزاد الإقبال عليها، وبالطبع ارتفع معدل الفساد والجريمة على جميع المستويات.

مع ذلك، تعاملت الولايات المتحدة الأميركية مع الوضع، كما لو لم تكن تعيه. فقد قدّمت كولومبيا بمواردها الضئيلة وبأرواح الآلاف من أبنائها العديد من العصابات وامتألت سجونها بمهربي المخدرات. أقله، تم القبض على أكبر أربعة رؤوس وهرب كبيرها مطارداً. أما في الولايات المتحدة الأميركية، فقد كان أكثر من عشرين مليون مدمن، يحصلون على جرعتهم اليومية بلا أدنى صعوبة، ما يشي بوجود شبكة من الموزعين شديدة الاتساع والكفاءة. على الرغم من كل ذلك، لم يعتقل شرطي أميركي واحد بتهمة الاتجار بالمخدرات، ولا موظف جمارك، ولا حتى بائع جوال. وبالطبع، لم يتمّ التوصل إلى شخصية أي رأس كبير من تجار المخدرات هناك.

بعد أن رتبنا الأفكار بهذه الطريقة، لا يجب أن نتحصر أمامنا إشكالية المخدرات بين الحرب والحرية، وإنما يجب الإمساك مباشرة بقرون الثور والتركيز على التوصل إلى أفضل الصيغ التشريعية. بمعنى أن نضع حداً لتلك الحرب المهلكة بلا أية جدوى، وأن ننظر لها على أنها مصالح فرضتها علينا البلدان المستهلكة. تجب مواجهة مشكلة المخدرات في العالم كأولوية أساسية ذات طبيعة أخلاقية وطابع سياسي لا يقبل سوى توقيع العالم أجمع عليه، وفي مقدمته الولايات المتحدة الأميركية.

بطبيعة الحال، لا بد أن تكون هناك تعهدات متماثلة على مستوى البلدان المستهلكة وتلك المنتجة. فمن غير العدل، حتى لو لم يكن محتملاً، أن لا يتمتع من دفعوا ثمن الحرب بثمار السلام. أقصد: أن لا يكون مصيرنا مثل مصير نيكاراغوا التي احتلت المركز الأول في أولوية العالم أثناء الحرب، ثم تبوأ المركز الأخير، عندما عم السلام.

من أجل وطن في متناول أيدي الأطفال⁴²

سلب غناء الطيور لب الأسبان الأوائل ممن وطئوا أراضي العالم الجديد، وهامت أرواحهم في دنيا فريدة من الروائح الزكية. غير أنهم قضوا، في غضون سنوات قليلة، على سلالة فريدة من الكلاب الصامتة، كان السكان الأصليون يربونها من أجل لحومها الغنية. لم يكن الكثير منهم وممن تلاهم، سوى مجرمين ينعمون بالحرية المشروطة، بلا أدنى هدف يرمى من بقائهم هناك. من ناحيتهم، لم يجد السكان الأصليون سبباً لأن يرغبوا في بقائهم.

اكتشف كريستوف كولومبس تلك الجنة عن طريق خطأ جغرافي في خريطته، وهو في طريقه إلى الصين، مزوداً بكتاب من ملوك أسبانيا، فتغير بعدها مجرى تاريخ البشرية. ليلة بلوغه تلك الأرض، وحتى قبل أن يسمع حفيف جناحي طائر في ظلام المحيط، كانت الرياح المضمخة برحيق أزهار الأرض قد أوحى له بأنه على مشارف أجمل بقاع الكرة الأرضية. كتب في مذكراته البحرية، بأن سكان تلك الأرض استقبلوه كما ولدتهم أمهاتهم، وأنهم كانوا يتمتعون بجمال جذاب ورقي أخذ . كانوا على فطرتهم البريئة وقد راحوا يقايضون ممتلكاتهم بقلادات ملونة وصنوج نحاسية.

فقد الأسبان عقولهم، عندما وجدوا السكان الأصليين يستخدمون الذهب في صناعة حلّيّ أنوفهم وكذا أساورهم وقلائدهم وأقراطهم وخلائيمهم. وكذا عندما رأوهم يلهون بأجراس ذهبية وشاهدوا كيف يغطي بعضهم عوراته بقوالب ذهبية. أصدرت تلك الزينة البرّاقة، وليس القيم البشرية، قرار إبادة جماعية في حقهم، بدأ مع ذلك اليوم. فقد الكثير حياتهم دون أن يعرفوا حتى من أين أتى هؤلاء الغزاة أو إلى أين أخذوهم. حتى بعد مرور خمسة قرون، ما زلنا نجهل، نحن ورثة الطرفين، هويتنا.

كان عالماً مفتوحاً بدرجة أكبر مما عُرف في حينه. كان لشعب الإنكا- حوالي عشرة ملايين نسمة- دولة أسطورية تقوم على مؤسسات ومدن كبيرة بنوها على قمم جبال الإنديز لتلامس الإله الشمس. كانت لديهم أساليب حساب دقيقة ومنطقية ومخازن وسجلات عامة أدهشت علماء الرياضيات في أوروبا. كما كان لديهم موروث كبير من الفنون تجلّت عظمتها في حديقة

قصر الإمبراطور بأشجارها وحيواناتها الذهبية والفضية، ذات الحجم الطبيعي. من ناحيتهما، كان شعبا الأزتيك والمايا قد سجّلا معارفهما على جدران أهرامات مقدسة تجاور براكين باهرة. كما كان لهما أباطرة ذوو رؤى ولديهما عمّال مهرة، وهما وإن لم يكونا قد عرفا الاستخدام الصناعي للعجلة، إلا أنهما كانا يستخدمانها في صناعة لعب الأطفال.

على طرف المحيطين الكبيرين، كان هناك أربعون ألف فرسخ مربع، لم يستكشفها كولومبس، سوى في رحلته الرابعة، وهي تحمل اليوم اسمه: كولومبيا. كان يقطنها، منذ أكثر من 12 ألف عام، سكان ذوو أصول مختلفة ولغات متنوعة وثقافات متباينة ولهم شخصياتهم الخاصة المميّزة. لم تكن فكرة الدولة تجمع بينهم، وليس بينهم أي وحدة سياسية، غير أنهم كانوا قد اكتشفوا عظمة أن يحيوا سواسية مع اختلافهم. كانت لهم نظريات علمية وتربوية قديمة وتعايش غني مرتبط بأعمالهم العبقريّة في المعادن والفخار الفريد. كان إبداعهم الناضج قد فرض نفسه على حياتهم اليومية - قد يكون ذلك هو أسمى غايات الفنون- ومارسوه بحرفية لافتة سواء في الأدوات المنزلية أو في معاملاتهم المختلفة. لم يكن للذهب ولا للأحجار الكريمة أية قيمة بيعية. وإنما قدرات كونية وفنية، غير أن الأسباب نقلوا إليهم نظرة الغرب: الكثير من الذهب والأحجار الكريمة كافية للقضاء على بطالة الكيميائيين ودافعة إلى عنان سماء الغنى قفزاً في خطوات واسعة. كان هذا هو سبب الغزو وهدف الاستعمار والأصل الحقيقي لما أصبحنا عليه.

لم يرق الأسباب بإنشاء دولة الاحتلال قبل مرور قرن من الزمان. تحت اسم واحد ولغة واحدة وإله واحد. كانت حدودها وتقسيماتها السياسية لا تنتمي عشرة مقاطعات تشبه الأنظمة المعاصرة. وهو ما قدم لأول مرة نموذج الدولة المركزية والبيروقراطية ووضع أساس وهم الوحدة القومية تحت غطاء الاستعمار. مجرد وهم لمجتمع كان نموذجاً للانغلاق والتفرقة العنصرية والعنف الممنهج تحت عباءة العمل المقدس. تضاعف عدد الهنود الذين استقبلوا الأسباب من ثلاثة أو أربعة ملايين إلى مليون واحد، من جراء مساوئ المستعمر والأمراض المجهولة التي جلبها معه. غير أن اختلاط الأجناس كان قد فاق حدود السيطرة. فقد أضافت أعداد العبيد الأفارقة الذين تم استجلابهم بالقوة، من أجل أعمال المناجم الشاقة، طعماً جديداً إلى مرق البشر ذاك، بعاداتهم وخيالاتهم وحنينهم وآلهتهم البعيدة. مع ذلك، وضعت قوانين الهنود نماذج ملليمترية للتفرقة، على حسب قدر الدماء البيضاء في كل عرق: مجتسون من أعراق مختلفة وعبيد سود وأحرار سود ومخلّطون بدرجات مختلفة. عرف حينذاك حوالي ثمانية عشر عرقاً مختلطاً، وبطبيعة الحال كان الأسباب البيض يعزلون أبناءهم كبيض مهاجرين.

لم يكن الخلاسيون مؤهلين لشغل مناصب بعينها في القيادة أو الحكومة أو بعض الوظائف العامة أو لدخول المدارس والندوات. أما السود فقد حُرِّموا من كل شيء، حتى من أرواحهم: فلم يكن من حقهم ولوج السماء ولا حتى الاستقرار في النار أو في الجنة. فقد كانت دماؤهم تصنف على أنها ملوثة ما لم تطهرها أربعة أجيال من الدماء البيضاء. لم يكن من اليسير تطبيق مثل هذه القوانين لصعوبة تحديد فروق الأعراق وللطباع الديناميكية للخلاسة. لكن المؤكد أن حدة التوتر والعنف العرقي كانت مرتفعة.

حتى سنوات قريبة، لم يكن أبناء الزواج غير الرسمي ليقبلوا في مدارس كولومبيا. كما لا يزال السود يعانون العديد من المظالم القانونية، هذا إذا نحينا جانباً الفقر الذي يدهسهم بلا رادع.

لم يحسن جيل الاستقلال استغلال الفرصة للقضاء على هذا الإرث البغيض، فقد سعى هؤلاء الشباب الحالمون الواقعون تحت تأثير الثورة الفرنسية إلى إقامة دولة حديثة ذات توجهات مقبولة، غير أنها لم تستطع أن تمحو آثار الاستعمار. لم يتجرّدوا هم أنفسهم من أحقادهم الداخلية فقد أصدر سيمون بوليفار، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، أمر إعدام بحق 18 سجيناً أسبانياً، منهم من كان يخضع للعلاج بالمستشفيات. أما فرانثسيكو دي باولا سانتاندير، وقد كان في الثامنة والعشرين من عمره، فقد أمر بإطلاق الرصاص على أسرى معركة بوكايا، ولم يستثن حتى قائدهم.

امتصت بعض مزايا الجمهورية الجديدة توتر العلاقة بين الأغنياء والفقراء والعمال والحرفيين وبعض الجماعات المهمّشة.

لم تكن قسوة الحروب الأهلية التي شهدتها القرن الواحد والعشرون ببعيدة عن تأثرها بهذا الموروث، كما لم تسلم منه الاضطرابات السياسية والمدنية التي تركت آثارها الدموية في التاريخ.

ساعدنا على تخطي هذه البلايا هبتان من الطبيعة حبّتنا إياهما وأعانتانا على إزالة الغبار عن كينونتنا الثقافية والاجتماعية، وعلى تلمس وسط ظلام الجهل معالم هويتنا. أولاهما هي هبة الابتكار، تلك الموهبة التي تفوق الذكاء البشري وثانيتها هي الإصرار الذي لا يحيد لبلوغ الرقي الإنساني. كلتاهما بمساعدة دهاء يفوق الطبيعة، قد يفيد في الخير مثل إفادته في الشر. كلّها أدوات استخدمها السكّان الأصليون ضد الأسبان منذ اليوم الأول الذي خطوا فيه على أرضهم. فبغية التخلص منهم كانوا يرسلون كولومبس من جزيرة إلى أخرى باحثاً عن إله بزي ذهبي لم يكن له وجود. دغدغوا ميول المستعمرين لروايات الفروسية بأوصاف تخلب الأبواب عن مدن عجيبة

مبنية من الذهب الخالص. كما أن أسطورة الدورادو لم تدع أحداً دون أن تأسره بأفكار خروجه مرّة في العام، من بحيرته وجسده يلمع ويتغلف ببريق الذهب. ثلاثة أعمال خارقة لملمحة وطنية استخدمها السكّان الأصليون ليتمسّكوا بوجودهم. قد تكون مواهبنا الطبيعية السابقة على ظهور كولومبس، هي التي منحتنا مرونة فائقة في التأقلم مع أيّ بيئة نعيش فيها وأن نتعلم بلا ألم، ما لا يمكن تعلمه من الأعمال: متعبدون في الهند ومسافرون في الصحارى ومعلمو لغة انكليزية في نيويورك.

لعلنا ورثنا من الجانب الأسباني عرق الهجرة المتأصل وما يصاحبه من روح المغامرة التي لا تهاب المخاطر. بل على العكس: نسعى إليها. من بين الخمسة ملايين كولومبي الذين يعيشون في الخارج، هاجر أغلبهم يطلبون رزقهم دون أيّ موارد، اللهم الرغبة في المجازفة. تجدهم الآن ينتشرون في مختلف بقاع الأرض، لأسباب طيّبة أو سيئة، يقومون بأفضل أو أسوأ الأعمال، ولكن لا يمكن أن لا نلاحظ وجودهم.

عرف العالم عنهم صفة ثابتة ألا وهي أن الكولومبي لا يمكن أن يموت جوعاً. كما أن أكثر فضيلة عرفوا بها هي فضيلة التمسك بهويتهم الكولومبية التي تتناسب طرذاً، مع مقدار مسافة ابتعادهم عن الأوطان. هكذا هم. تشبعوا بعبادات ولغات غيرهم كما لو كانت تخصهم، إلا أنهم لم ينفصوا عن قلوبهم غبار الحنين، ولم يفوتوا فرصة للتعبير عنه بالأساليب الوطنية كافة التي تتيح لهم البوح بما يكونون من اشتياق إلى الأرض البعيدة، بكل ما قد يعترئها من مساوئ.

دون أن تتوقع، يمكنك أن تجد في أبعد بقعة على سطح الأرض، تجسداً لمدينة كولومبية: البيوت ذات الألوان البرّاقة والنزل الذي يحمل الاسم القديم للبلدة وروائح المطبخ المحلي ومدرسة 20 تموز/يوليو في جوار مطعم 7 آب/أغسطس والموسيقى الشجية تصدح منه، وكذا ميدان الأشجار التي يعلوها الغبار والزينة الورقية المتبقية من آخر احتفال بالجمعة الصاخبة.

تتواصل أيام حياتنا وسط هذا الجو الريفي وتجمعنا معاً أينما كنا، وسط العالم الخارجي الذي يواصل صخبه.

الإشكالية هنا هي أن هؤلاء المستعمرين الهائمين، مثل أسلافهم السابقين، قد ولدوا على أرض ذات أبواب موصدة. من ناحيتهم، حاول المحرّرون أن يفتحوا بلادنا على رياح التحديث المقبلة من إنكلترا وفرنسا ونظريات بنتهام القانونية والأخلاقية، وأساليب لانكستر التربوية في تعلّم اللغات وتعميم العلوم والفنون. كل ذلك من أجل محو آثار أسبانيا التي كانت أكثر ملكية من

الملك وتخضع لاستغلال اليهود المالي وللاحتلال الإسلامي الذي دام 800 عام. كما حاول بعض متطرفي القرن التاسع عشر ومن بعدهم جيل المؤوية إعادة طرح هذا الطريق تبني سياسات هجرة جماعية لإنعاش ثقافة التعددية العرقية، إلا أن كليهما فشل نتيجة خوف، يكاد يكون ثيولوجياً من شياطين الخارج. حتى يومنا هذا، لم ندرك عن حق، كم يحركنا ذلك العالم الواسع الذي نجهل.

نحن ندرك كنه ضرورنا، بيد أننا قد استنزفنا قدراتنا على محاربة الأعراض وتركنا الأمراض تتوغل. كتبوا لنا ورسموا تاريخاً لا يكشف بقدر ما يخفي، تتفاعل فيه آثام أصيلة وينتصر على صفحاته في معارك تم ابتداعها ويستحوذون فيه على أمجاد لا تستحق لهم. فنقتنع بأن التاريخ لا يشبه كولومبيا التي فيها نحياء، وإنما كولومبيا هي التي تشبه التاريخ.

جميع هذه الأسباب أدت إلى أن أساس التعليم النموذجي الروتيني في بلادنا قد تم وضعه حتى يشب الأطفال على وطن تم تحديد معالمه لهم، بدلاً من أن نعرّفهم إلى بلدهم ونترك لهم مهمة تشكيله وإعلاء شأنه. هذا التعتيم على الأهداف سيؤدي إلى كبت الإبداع والغرائز العقلية وسيعوق الخيال وسيطمس البصيرة النافذة ونور القلوب، فيجد الأطفال أنفسهم وقد نسوا ما تعلموه مع ميلادهم: أن الحقيقة أبعد ممّا تقول به النصوص، وأن تعاطيهم مع العالم سيكون وفق ما تقرّه الطبيعة وليس وفق ما رسمه لهم معلموهم، وأن الحياة ستزداد طويلاً وجمالاً، إذا ما عمل كل امرئ فيما يحلو له من مجال ولا يخرج عنه.

تسبب هذا التقابل في المفاهيم بظهور وطن متوتر ومتشابك، فيه تقاس الحقيقة على كل ما هو غير حقيقي. فمنهاجنا هو اللاتحديد. في كل مناحي حياتنا، بحلولها ومرّها، وفي الحب والكراهية وفي سعادة الانتصار وفي مرارة الفشل. نهدم الزعماء بالشغف نفسه الذي نصنعهم به. نعتمد على فطرتنا، ونعلم أنفسنا بسجيتنا اللاهثة ونعمل بلا هوادة وتخلب ألبابنا فكرة المكسب اليسير. نحمل في قلوبنا قدراً متساوياً من الأحقاد السياسية والنسيان التاريخي. يمكن لأي نجاح مدوّ أو خسارة رياضية أن يكلفنا أرواحاً بشرية بما قد تسببه لنا أية كارثة جوية. لهذه الأسباب نفسها نحن مجتمع مشاعر تتفوق فيه الحركة على التفكير والاندفاع على التعقل والتواصل الإنساني على فقدان الثقة. نعشق الحياة بمنتهى الاندفاع وقد نقتل بعضنا بعضاً من أجل رغبتنا في الحياة. فمن يرتكب أعتى الجرائم قد يضيعه ضعفه العاطفي. بمعنى : لا يُضيّع الكولومبي متحجر الشعور، سوى قلبه.

نكاد نكون وطنين يتمازجان: أحدهما على الورق والآخر على أرض الواقع. على الرغم من كوننا من رواد العلوم في أميركا، إلا أننا لا نزال ننظر إلى العلماء نظرتنا إليهم في العصور

الوسطى كما لو كانوا سحرة الأساطير. حتى بعد عدم وجود منحى في الحياة لم يقدم فيه العلم معجزاته. داخل كل منا يتعايش حب العدل مع حب التنصل من العقاب بطريقة متناغمة. نتمسك بالخبراء الفنيين ونحتفظ بخفة يد مهووسة تلهو بكل القوانين دون إسقاطها أو من أجل التلاعب بها من دون عقاب. نعشق الكلاب ونفرش الورود للعالم ونفدي حبنا للوطن بأرواحنا، ولكننا نتجاهل انقراض ست فصائل حيوانية كل ساعة في النهار أو الليل من أجل تجريف الغابات الاستوائية، كما لم نقاوم عوامل تدمير أحد أكبر أنهار كوكب الأرض. نستاء من الصورة القاتمة التي يرانا بها العالم ولا نجرؤ على أن نعترف بأن الواقع أبشع بكثير. نندم على أنبل التصرفات وعلى أفقرها ونقدم أروع القصائد الشعرية إلى جانب أبشع الجرائم الإنسانية ونحتفل بالمآثم ونقتل جوقة الليل الموسيقية. ليس لأن البعض طيب والآخر شرير، وإنما لأننا نتشارك في الأضداد. حينما تحين اللحظة الحاسمة - أبارك الله- فكلنا نقدم على فعل أي شيء.

لعل تعقلاً عميقاً من شأنه أن يساعدنا على إدراك أن هذه الخصال قد اكتسبناها من كوننا لا نزال ذلك المجتمع الراض والمنطوي على نفسه في مواجهة المستعمر. لعل تفكيراً حقيقياً آخر قد يقودنا إلى اكتشاف أن عنفنا التاريخي هو الديناميكية التي اكتسبناها نتيجة حربنا ضد الآخر. قد نكون رهن منظومة تدفعنا لأن نعيش كالأغنياء، في حين أن 40% من السكان يعيشون في بؤس، وتنتثر علينا ذرات من السعادة الغامرة تجعلنا نرغب في المزيد من كل ما نملك، أكثر وأكثر من المستحيل نفسه، وأكثر مما يسمح به القانون، ونشعر أن علينا أن نحصل عليه بأية وسيلة: حتى لو خالفنا القانون. بما أننا نعلم أنه لا توجد حكومة ستتمكن من إرضاء هذه الرغبات فينا، فقد انتهى بنا الأمر بأن أصبحنا شكاكين وممتنعين وغير قابلين للحكومة ونميل إلى الانفرادية التي توحى لكل فرد أنه لا يعيش إلا مع نفسه. لا نعدم أسباباً تدفعنا إلى مواصلة سؤال أنفسنا عمن نكون وعن الوجه الذي نبغي أن نعرفنا به العالم في الألفية الثالثة.

إن مهمة العلوم والتربية والتطوير لم تتحدد لها إجابة، بيد أنها أرادت أن ترسم خريطة طريق قد تساعد على الاهتداء إليها. نعتقد أن الظروف مواتية كأفضل ما يكون، من أجل التغيير المجتمعي وأن التعليم سيكون أدواته الأساسية. تعليم من المهد إلى اللحد. تعليم غير نمطي يعتمد على أعمال العقل ليقدم لنا طرائق جديدة في التفكير ويساعدنا أكثر على الاقتراب من هويتنا، في هذا المجتمع الذي يتمتع بحب الذات. لابد أن يستفيد أيضاً، بأقصى ما يمكن من إبداعاتنا التي لا تنضب ويضع أخلاقيات -لما لا نقول جماليات- لسعيها المستمر إلى التميز والتفوق الشخصي. وأن يعمل على تكامل العلوم والفنون داخل نطاق الأسرة الواحدة، كما قال أحد نوابغنا في الشعر بأن لا نحب

كلاً منهما على حدة كأختين متعاديتين. وأن يقود، إلى نهر الحياة، تلك الطاقة المبدعة التي تجمعت على مدى قرون في عروقنا ورحنا نخرجها في ابتداع أساليب الاختلاس وممارسة العنف، لتفتح لنا أبواب الفرصة الثانية على ظهر الأرض التي لم تحتضن سلالة الجنرال أوريليو بوينديا⁴³ النجسة.

كل ذلك من أجل وطن مزدهر وعادل نحلم به: عالم في متناول الأطفال.

نيسان/إبريل مرير على فيليببي 44

أيقظني رنين الهاتف فجأة بلا رحمة ولا مقدمات.

بالكاد، تمكنت من قراءة قصاصة الورق التي كتبتها مساء الليلة السابقة، ووضعتها على الكومودينو: «أنا في مدريد». كانت تلك عادة اكتسبتها، نتيجة سفراتي الطويلة ذات المحطات المتعددة، لتساعدني على سرعة إدراك المدينة التي أصحو فيها.

هذه المرة، عرفت أين أنا دون الحاجة إلى مراجعة قصاصة الورق، بمجرد أن بلغ أسماعي ذلك الصوت الدافئ وهو يبلغني: «فيلببي ينتظرك لتناول العشاء في تمام الساعة الثامنة». عندئذ أدركت أن محدثي هي بيلار نافارو، السكرتيرة الشهيرة لفيلببي غونزاليس، رئيس وزراء أسبانيا منذ قرابة اثني عشر عاماً والذي كان بصدد إعلان استقالته في يوم الجمعة ذاك.

كنا قد وصلنا إلى مدريد مساء الليلة السابقة، ولم يكن من موضوع يسيطر على مجريات أي حوار هناك سوى استقالة فيلببي على خلفية عمليات فساد كبيرة شملت عدداً من كبار موظفي حكومته. تدهورت الحالة المعنوية العامة كثيراً على نحو لم أعده من قبل. كنت أنظر إلى مدريد على أنها مدينة روائية، قادرة على أن تحوّل أعتى الأخبار الدراماتيكية إلى جلسات صالونات كوميدية. غير أن ما رأيت هذه المرة، كان حالة من الاستياء الممزوج بالمرارة. بطبيعة الحال، لم يكن أحد ليشتك في مسؤولية المتهمين وهو ما كان مفهوماً. أما ما أدهشني حقاً، فقد كان مبلغ الإجماع على نزاهة فيلببي نفسه. حتى أن أكبر معارضيهِ لم يكن ليأخذ عليه أكثر من جهله بالأمر. كما لم يكن صحافيو الصفوف الأولى يخفون حرصهم وشغفهم بالحديث إليه. وأيهم كان ليدفع عمره مقابل دقائق ينفرد به خلالها.

نصحتني بعض الأصدقاء المشتركين، ممن يدركون اهتمامي بالحالات الميؤوس منها، بالتواصل معه: «لم يره أحد منذ فترة طويلة. إنه مجروح ووحيد» .

لم أجد في دعوته لي أنا وميرثيس لهذا العشاء العائلي وبهذه الطريقة التلقائية في يوم مثل ذاك، ينتظر أن يكون أمر يوم في حياته، أية معالم لتوقعات إيجابية.

أعياني القلق طوال نهار ذلك اليوم الربيعي المتقلب الذي تشهده مدريد عادة في مثل ذلك الشهر من العام. صبيحة مشمسة تعصف بها رياح قطبية، جعلت حديقة الريتيرو المدريدية تمتلئ بالرياضيين وتخلو من المحبين.

عند مدخل متحف الملكة صوفيا، اعترضني شخص متحمس وصاح بي: ألسنت أنت ذلك الكاتب؟ «نعم. للأسف». رددت عليه دون أن أتوقف. لم أكن متيقناً أنني الشخص الذي كان يقصد.

استمتعت على مدى ساعة كاملة بمعرض أعمال لوثيان فرويد الأخاذة. على الرغم من أن فكري كان مشغولاً أيضاً بخشية وخجل اقتصار اهتمامي به لمجرد كونه حفيد ذلك الجد. رافقنا الصحفي أنطونيو كاباييرو ذلك الصباح، من أجل إجراء حوار معي حول روايتي الجديدة. أدليت له بما أراد أثناء تناول فواكه البحر على الغداء وبعد أن أجلت قيلولتي قليلاً. لم يتخل هذه المرة عن حماسه المعهودة والحادة في استخدام موسى الحلاقة، وهو يتغلغل فيما بين صدوع الكتاب: تقالبات الشخص وابتداعات كتابية لم تؤت النتائج المرجوة منها وكذلك خطآن نحويان. أشكره من كل أعماقي، فقد سهّل لي ذلك إعطائه الحق دون عناء وعن طيب خاطر.

في الحقيقة، لم يكن ذهني ليعي أي شيء، طوال ذلك اليوم فقد كان مشغولاً بموعد الثامنة مساءً دون سواه.

استقبلنا ياور منزل مونكلوا الخاص، المقر الرسمي لرئيس الوزراء.

لم يلبث فيليبي أن أقبل علينا من حيث لم ننتظر، وهو يرتدي بنطالاً منزلياً وينتعل حذاءً خفيفاً ويلبس سترة جلدية عليها علامات استخدام ظاهرة. كانت روحه المنطلقة تتنافى مع كونه شخصاً على وشك الرحيل، وتتوافق أكثر مع شخص مقبل يهتم بالحضور.

آخر مرة التقيناه كانت في ألمانيا، قبل عام مضى، عندما نال جائزة كارل العظيم، عن جهوده من أجل الاتحاد الأوروبي. اكتسب الاحتفال الذي أقيم بكاتدرائية آجيسجران بجلال التأبين وبأصوات آلات أرغن الجناز التي طالما كلّلت ووارت، في ذلك المكان نفسه، العديد من الملوك السابقين. لم يكن في تلك الكاتدرائية العتيقة من أثر معاصر سوى فيليبي نفسه، غير أنه تمكن من فرض وجوده بشموخ قرطبي جلي.

لم يختلف كثيراً تلك الليلة، أثناء تناول المقبلات بالصالون العائلي ذي الكراسي الدمشقية المبهجة والنقوش التاريخية التي تزين الجدران.

سألنا عن أحوال أميركا اللاتينية التي يتابعها ويهتم بها عن قرب مثلنا تماماً. لم يكن قد خسر شيئاً من وزنه، على عكس ما كنا نتوقع، وغاية ما لاحظنا عليه من اضطرابه الداخلي كان هوسه بإشعال سيجاره، عند كل وقفة ثم معاودة إطفائه مع الجملة التالية.

أسعدنا بأخبار شجيرة البق التي كنا قد أهديناها له منذ أعوام من رحلة إلى اليابان، إذ كان يحرص على طمأننتنا إلى إيناعها كلما التقينا، كما لو كانت أحد أفراد الأسرة. تكلمنا عن الكتب، كعادتنا، فقد كانت القراءة خير ملجأ له من سراب السلطة. لعلّ هذا هو السبب وراء إعجابه بالروايات المكثفة ذات الفصول الطويلة مثل تلك التي كان يقرأ حينذاك: شبح هارلوت، لنورمان مايلر.

حتى تلك اللحظة لم تظهر لنا أية إشارة تتم عن اعتزاله. غير أن هذا لم يكن ليغني شيئاً: فلدى الرؤساء حكمة واضحة يستمدونها من السلطة ومن سوابق خبراتهم، تمكنهم من خوض غمار أسوأ الأوقات بوجه بشوش. بل إن بعضهم يكبر ويعظم في مواجهتها، مثل فيدل كاسترو. مثل هذا الوضع هو ما يبين عن حق ما تبقى من إنسانيتهم تحت نير السلطة.

حانت الفرصة قبيل العشاء، عندما بدا لي أننا، وكذا الرئيس، أصبحنا ندور حول الموضوع الرئيسي، دون أن نلمسه. قرّرت أن أبادر: سبق أن قلت لي إنك ستعتزل السياسة عندما تبلغ الخمسين وها قد بلغت الثانية والخمسين. صحيح - رد بلكنة أهل الأندلس- كنت أعتقد أن عمر الخمسين سن مناسبة للاعتزال، غير أنني اكتشفت أنني لا أملك الأمر كليّة في يدي.

بعد أن تم كسر جدار الجليد، رحت لأبعد من ذلك. تحدثت عن غضب الشارع وتوحش الصحافة والاقتناع العام الذي أصبح عند الأصدقاء والأعداء بأن حكومته قد بلغت، بلا أدنى شك، حافة الانهيار. رد بشرح دقيق ومفصل للأحداث التي أدت إلى وقوع الكارثة دون أن تبدو عليه أية أمارة لغضب أو مرارة أو فجيرة، وإنما ربما شعور بالخجل من أخطاء لم يرتكبها هو وإن كان يتحمل مسؤوليتها في النهاية. بدا لي كما لو كان الأسباني الوحيد الذي أعرفه ولم تخطر بباله فكرة أن على فيليبي غونزاليس أن يقدم استقالته. علّق قائلاً: ما يهم الآن هو أن نعبر بأسبانيا الأزمة وقد بدأت تلوح في الأفق تباشير الانفراج.

بعد الساعة التاسعة، حضرت كارمن روميرو زوجته الجميلة الرشيقة محمّلة بأكياس مشتريات، ربما لم تحصل عليها في مشوارها. اشترتها ذلك المساء للمنزل الذي كانا قد اقتنياه ولم ينتهيا بعد من تأنيثه، تحسباً للانتقال المفاجئ. كان أشهر منازل مدريد ويعرف الكل الكثير عنه:

ممن تم شراء الأرض وبكم وبأية شروط وكم من الوقت والمال استغرقت عملية البناء وكيف اضطررا إلى طلب قرض من البنك لينتهيا منها. كانت عجلة الساعات الأخيرة تؤكد وجود استقالة مرتقبة. مع ذلك، كان هناك من يرى أن ذلك مجرد تمويه سياسي.

جاء العشاء بسيطاً وهادئاً بوجود بابلو، الابن الأكبر وماريّا، الابنة الوحيدة ذات الخمسة عشر ربيعاً. ساد جو شديد الحميمية وزانه سمك البقلة الشهي في تقديم راقٍ مما أبعد أي مجال للحديث عن السياسة. عندما حان وقت التحلية، ظهرت كعكة تحمل شمعة واحدة بدا أنها ضلّت طريقها من مناسبة أخرى، فقد كان بابلو قد بلغ الثانية والعشرين. بالكاد أكلت ماريّا، فقد كانت قلقة بخصوص عرض لا يقل عن خمسين دقيقة، يتعيّن عليها أن تقدّمه في المدرسة، في اليوم التالي، عن الرواية في أميركا الجنوبية. في النهاية كنت أنا أكثرهم توتراً، حيث عجزت عن الرد على أسئلتها بخصوص توثيق عرضها. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، وكانت رياح غواداراما تحمل بعض نغمات الموسيقى وعبق زهور ماغنوليا الشوارع وصوت انطلاقات في الهواء. ربما كان آخر أثر لـ 29 نيسان/إبريل يستعد لرحيل بلا عودة، لينفصل تماماً عن التاريخ اللاحق.

قبيل أن ينتصف الليل رافقانا إلى السيارة، كان مرح الربيع قد انتصر على قتامة الحاضر فتلاّت النجوم في السماء الصافية. «ها قد مرّت العاصفة» قالها فيليب وهو ينظر إلى السماء «غداً سيكون يوماً رائعاً». جاء تعليقاً بريئاً ولم ينتبه لازدواجية المعنى التي يحملها. ومع ذلك لم يكن بريئاً عندما ودعني بعبارة خاصة به، أصبحت مشهورة في كولومبيا: «إن لم تجدني يوماً، فابحث عني في قرطاجنة دي إندياس»⁴⁵.

تفاؤل فيديريكو الذي لا ينضب⁴⁶

لو لم يوجد فيديريكو مايور، لابتدعناه ليكون مديراً عاماً لمنظمة اليونسكو.

هذا ما اعتقدته منذ أن رأيته لأول مرة في منزل أحد الأصدقاء بمدينة المكسيك، حيث دعانا إلى الغداء مع كوكبة من الكتاب والفنانين. دخل بإطلالته البسيطة وحيًا الجميع بتحية دائرية عند الباب، وقبل أن يشد على يد أيّ منا، كان قد بدأ الحديث عن مشروع ثقافي، خطر بباله في المصعد، وهو في طريقه إلينا.

وبمجرد أن اتخذ مجلسه، كان قد أثار جدلاً واسعاً حول هذا المشروع وغيره من المشاريع القديمة والحديثة، ما شغل وقت الغداء كله. لم يتسنّ لي الكثير من الفرص لأن أشهد عن قرب، هذا القدر من الطاقة النفسية الإيجابية ومن التفاؤل الخلاق.

تولى فيديريكو منصبه في وقت لم يكن أحد يراهن فيه، بفلس واحد، على استمرار منظمة اليونسكو. إذ كانت الولايات المتحدة قد انسحبت منها بعد أن فشلت في فرض سياساتها على أغلبية الأعضاء، وهو ما كان يعني عجزاً سنوياً في التمويل يقدر بخمسين مليون دولار، أي حوالي 25% من الميزانية العامة لهذه المنظمة التي لم يغادرها شبح الإفلاس، حتى في أزهى عصورها. انسحبت بريطانيا أيضاً بعد ذلك. غير أن فيديريكو أيار/مايور لم يعر للعجز المادي أي اهتمام وراح يخطط للمستقبل، كما لو كان رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز.

ربما دفعه تفاؤله المفرط إلى التفكير في مساعدة متوقعة «ممن يسمى» بالعالم الاشتراكي الذي بدا أنه في ذلك الوقت على وشك أن يحتل الكرة الأرضية. غير أن الاتحاد السوفياتي- الذي التقط صوراً للجانب المظلم من القمر- لم يكن قادراً على ترتيب بيته من الداخل. عرفت الولايات المتحدة الأميركية ذلك وكانت على يقين أن اليونسكو ستموت بدونها.

كان الوضع سيكون هكذا فعلاً، لو لم يكن فيديريكو مايور كما هو: سيف قاطع في عالم الثقافة. فبدلاً من أن يقنع بالميزانية التي يساهم فيها العالم بحصص متساوية، حدّد بعين الخبير، كبار الممولين واستكشفهم في تأنٍ وصوب بدقة على هدفه، ثم ضغط على الزناد. وتمكن بأسلوب

الصياد الخبير هذا، وفي أحلك الظروف، من تدبير ثلاثة أضعاف ما كانت الولايات المتحدة تدفع للمنظمة.

وقعت هذه الأحداث في زمن مضى، ليس كزماننا هذا: منذ سبعة أعوام. كان حائط برلين لا يزال يقف على أسسه الراسخة ولم تكن الثقافة بمنأى عن تداعيات الحرب الباردة. وسرعان ما اعتمدت اليونسكو على الكتلة الاشتراكية كأحد أهم الممولين.

وسط هذه الأنواء العاتية، لم يتردد فيديريكو، في واقعة تفاؤل أخرى في الترشح لفترة رئاسة ثانية. أي أنه قد عاود شراء تذكرة جديدة لمصارعة النمر، وللمرة الثانية فاز في الانتخابات.

لعلّه اكتسب هذا الطبع من كونه عالماً وشاعراً في الوقت نفسه. وظيفتان قال عنهما جون بول بيرس في خطابه الجميل، عندما فاز بجائزة نوبل، بأنه يعتبرهما شغفين يرشfan من المعين نفسه ويتبعان النهج نفسه.

ولعلّه قد جسّد معنى الزمن لديه في عنوان كتابه: غداً سيكون الوقت قد تأخر. ولعلّه يعكس في شخصه، هذا المفهوم من حيث طريقة مشيته وكلامه السريع، كما لو كان يرغب في الانتهاء من كل المهام بلا تأخير.

كل من عرفه يعلم أنه في الحقيقة، يقرّر على الفور ولكنه يفكر بروية. يعرف كيف يرتب خياله وينسق أفكاره مثل القوالب الصينية، ويسعى إلى تحقيقها كلها مهما بدت مستحيلة.

هو نفسه قد تحدّث ببساطة عن ترامي أطراف أحلامه. بناء السلام وحماية البيئة والقضاء على الفقر. ليس إلّا. قد يكون هذا منبع نظرته إلى الثقافة على أنها ملكية عامة ومفهوم عادل وربما ما هو أبعد من ذلك: لا يوجد وقت ولا مال يمنع ذلك. وهو، شأنه شأن المبشرين الحالمين في القرون الوسطى، لا يتراجع مهما حدث. قال: «أهم ما في الأمر هو العمل، بعد ذلك سنتدبر أمر المال».

من يمكنه الوقوف في وجه هذا التفاؤل الطاغي؟. لا شيء، أو الأخرى لا أحد.

لو لم توجد اليونسكو، لكان فيديريكو مايور قد اختلقها.

Notes

[1←]

Anibal Gonzalez. Journalism and The Development of Spanish American Narrative.
.Cambridge University Press, 1993

[2←]

.Carmen Sigüenza. «Vargas Llosa, medio siglo de periodismo» La República, 19/9/2012

[3←]

<http://www.fnpi.org>

[4←]

Jacques Gilard. La obra periodística de García Márquez, 1954-1956. Revista de Crítica
.Literaria Latinoamericana, Año 2, No. 4 (1976): 151-76

[5←]

Ascensión Rivas Hernández. «Ficción o realidad? El valor sociológico de Relato de un
.náufrago de Gabriel García Márquez.» Acta literaria, n. 42 (2011): 45-59

[6←]

Robert L. Sims. «Periodismo, ficción, espacio carnavalesco y oposiciones binarias. La
creación de la infraestructura novelística de Gabriel García Márquez.» Hispania, Vol.
.71, No. 1 (1988): 50-60

[7←]

Stephen M. Hart. Gabriel García Márquez, Crónica de una muerte anunciada. London:
.Grant & Cutler, 1994

[8←]

Ángel Esteban et al. Fidel & Gabo: A Portrait of the Legendary Friendship Between Fidel
Castro and Gabriel Garcia Marquez. Trans. by Diane Stockwell. NY: Pegasus Books,
.2009

[9←]

José Miguel Oviedo. «García Márquez y Cuba. Cincuenta años de soledad.» Letras Libres, 2010. <http://www.letraslibres.com/revista/letrillas/garcia-marquez-y-cuba-cincuenta-anos-de-soledad>

[10←]

نشر على جزئين: أولهما بعنوان «تشيلي: الانقلاب والأميركان» في Alternativa العدد 1 بمدينة بوغوتا في آذار/مارس 1974، والثاني بعنوان «طيارون أميركيون يقصفون قصر لا مونيدا» في Alternativa العدد رقم 2 الصادر في أيلول/سبتمبر 1974 بمدينة بوغوتا.

[11←]

نشر هذا المقال في Excelsior بالمكسيك في 19 كانون الأول/ديسمبر 1974.

[12←]

عملة تشيلي ما بين عامي 1960 و1975.

[13←]

نشر في العدد 28 من Alternativa بمدينة بوغوتا في نيسان/أبريل 1975.

[14←]

نشر هذا المقال في Alternativa على ثلاثة أجزاء: «البرتغال أرض أوروبا الحرة» و«اللجنة - ماذا يريد الشعب؟» و«الاشتراكية في متناول العسكريين»، وذلك على التوالي في الأعداد 40، 41، 42 لشهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو 1975.

[15←]

نشر في Alternativa على ثلاثة أجزاء في الأعداد 51 و52 و53 لعام 1975 بعنوان «ليلة الحظر الليلاء» و«الحاجة أم الاختراع» و«إن كنتم لا تصدقوني، فلنتحققوا بأنفسكم» على التوالي.

[16←]

الإشارة هنا إلى أحداث خليج الخنازير.

[17←]

نشر في العدد 50 من Alternativa بمدينة بوغوتا في 8 أيلول/سبتمبر 1975.

[18←]

نشر في العدد 65 من Alternativa لشهر كانون الأول/ديسمبر 1975، في مدينة بوغوتا.

[19←]

نشر في Alternativa في العدد 66 لشهر كانون الثاني/يناير 1976، بمدينة بوغوتا.

[20←]

نشر في Revista Casa de las Américas العدد 100 في مدينة هافانا في كانون الثاني/يناير 1977.

[21←]

اسم المركب الذي أقل الثوريين الذين تزعمهم كاسترو لإطاحة الديكتاتور فلورنثيو باتيستا في كوبا.

[22←]

نشر في جريدة El espectador في سلسلة من ثلاث مقالات عناوينها كالاتي: «كيف تمكنت كوبا من اختراق إفريقيا»، «الملحمة الجسور»، و«من الهزيمة إلى النصر» في الأعداد الصادرة على التوالي بتاريخ 9 و10 و11 كانون الثاني/يناير من عام 1977.

[23←]

اسم اليخت الذي ركبته كاسترو مع بقية الثوار عندما عادوا إلى كوبا لإطاحة الحكم الديكتاتوري وإعلان الثورة.

[24←]

أحد أهم الأدباء والمفكرين الكوبيين في أواخر القرن التاسع عشر.

[25←]

نشر في Alternativa عدد 117 بمدينة بوغوتا في أيار/مايو عام 1977.

[26←]

نشر في جريدة الـ The Washington Post بمدينة واشنطن في 30 أيار/مايو عام 1977.

[27←]

نشر في Alternativa العدد 124 بمدينة بوغوتا في شهري تموز/يوليو - آب/أغسطس من عام 1977.

[28←]

نشر في Alternativa العدد 126 بمدينة بوغوتا في آب/أغسطس عام 1977.

[29←]

تم نشرها في ألترناتيفا (Alternativa) عدد 134- بوغوتا - كولومبيا 1977.

[30←]

نشرت في ألترناتيفا (Alternativa)- العددان 146 و147 -بوغوتا- 26 كانون الأول/ديسمبر 1977 و20 كانون الثاني/يناير 1978.

[31←]

نشرت في ألترناتيفا (Alternativa)، عدد 178 أيلول/سبتمبر 1978.

[32←]

تم نشرها في ألترناتيفا (Alternativa) عدد 1190 بوغوتا- كولومبيا 1978.

[33←]

بمعنى هافانا الحرة.

[34←]

شرائح من فخذ الخنزير المملح.

[35←]

تم نشرها في لو نوفال أوبسرفاتور (Le Nouvel Observateur) عدد 1567- باريس. 17- 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1994.

[36←]

نشرت في سيمانا (Semana) عدد 70. بوغوتا 6-12 أيلول/سبتمبر 1983.

[37←]

نشرت في لا ريفيستا. (La Revista) عدد رقم 200. بوغوتا. كولومبيا -تشرين الثاني/نوفمبر 1986.

[38←]

نشرت في الإسبيكتادور (El Espectador) - بوغوتا. بتاريخ 22 آذار/مارس 1987.

[39←]

نشرت في الپايس (País El) بمدريد- 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1989.

[40←]

نُشرت رداً على استطلاع رأي مجلة «تايم» في إصدارها الخاص بمناسبة الألفية. لوس أنجليس. 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1992.

Magazine, Time«?accomplish in the coming decades what should humankind aim to»
Special Issue Millenium

[41←]

كلمة تم إرسالها (قبل وفاة إسكوبار) إلى حلقات «تحقيق العدالة: مشاكل وتحديات ورؤى» التي نظمت في المكسيك. نشرت في جريدة كامبيو 16 (Cambio16) في العاصمة بوغوتا بتاريخ 13 كانون الأول/ديسمبر 1993.

[42←]

نشرت عن طريق لجنة العلوم والتربية والتطوير التي شكلتها حكومة كولومبيا ببوغوتا عام 1994.

[43←]

الكولونيل أورليانو بوينديا الليبرالي، أحد شخصيات رواية مئة عام من العزلة. كان ابن مؤسس قرية ماكوندو، وقد قاد حروباً طويلة ضد المحافظين والأمطار، التي استمرت سنوات طويلة.

[44←]

نشرت في لو نوفال أوبسرفاتور (Le Nouvel Observateur) في باريس بتاريخ 17-23 تشرين الثاني/نوفمبر 1994. العدد 1567.

[45←]

قرطاجنة دي إندياس (بالأسبانية: Cartagena de Indias) مدينة وميناء بحري كولومبي يطل على الشواطئ الشمالية، وهي عاصمة إقليم بولفار. بناها سنة 1533 القائد الأسباني بدرو دي هيريديا وسميت نسبة إلى مدينة كارتاخينا الأسبانية. وضعت منظمة اليونسكو في سنة 1984 كلاً من المدينة المسورة القديمة والقلعة التي بنيت لتكون مركز الوجود الأسباني في أميركا على قائمة مواقع التراث العالمي (المصدر: موسوعة ويكيبيديا)

[46←]

نشرت في بروكسيل عام 1995 عن مؤسسة إميل بويلان: فيديريكو أيار/مايور أميكوروم ليبر.